

دكتور
منال مبطي هاشم السعدي
كلية الآداب - جامعة أم القرى

النَّاسِبُ فِي تَفْسِيرِ إِمَامِ الرَّازِيِّ دِرَاسَةٌ فِي أَسْرَارِ الْإِفْتِرَاقِ

رسالة دكتوراه

مكتبة وهيب

١٤ شارع الجمهورية - عابدين

القاهرة تليفون: ٢٣٩١٧٤٧٠

فاكس: ٢٣٩٠٢٧٤٦



دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

المسعودي، منال مبطل حامد

التناسب في تفسير الإمام الرازي

دراسة في أسرار الاقتران /

منال مبطل حامد المسعودي

رسالة دكتوراه

إشراف محمد محمد أبو موسى

القاهرة: مكتبة وهبة ٢٠١٠

٤٧٢ صفحة: ٢٤ سم

تدمك ٤ ٢٧٢ ٢٢٥ ٩٧٧ ٩٧٨

١ - المفسرون -

٢ - القرآن - تفسير -

٣ - الرازي، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر

... - بعد ١٣٦٨ -

أ - أبو موسى، محمد محمد (مشرف) -

ب - العنوان -

٩٢٢.٢٧

التناسب في تفسير الإمام الرازي

دراسة في أسرار الاقتران

دكتورة منال مبطل حامد المسعودي

الطبعة الأولى ١٤٣١ هـ - ٢٠١٠ م

مكتبة وهبة ١٤ شارع الجمهورية -

عابدين - القاهرة.

٤٧٢ صفحة ١٧ × ٢٤ سم

رقم الإيداع: ١١٧٨٧/٢٠١٠

الترقيم الدولي: I.S.B.N.

977-225-272-4

تحذير

جميع الحقوق محفوظة لمكتبة وهبة غير

مسموح بإعادة نشر أو إنتاج هذا الكتاب

أو أي جزء منه، أو تخزينه على

أجهزة استرجاع أو استرداد إلكترونية،

أو ميكانيكية، أو نقله بأي وسيلة أخرى،

أو تصويره، أو تسجيله على أي نحو،

بدون أخذ موافقة كتابية مسبقة من

الناشر.

All rights reserved to wabbah publisher.

No part of this publication may be repro-

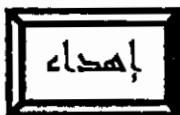
duced, stored in a retrieval system, or

transmitted, in any form or by any means,

electronic, mechanical, photocopying,

recording or otherwise, without the prior

written permission of the publisher.



إلى

روح والدي الذي كان شفوفاً علي من عنائي في الدراسة،

مع انتظاره المتواصل لراحتي.

إلى

أمي الحنون ﴿وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْنِي كَمَا رَّبَّنِي صَغِيرًا﴾

جزاء إحسانها ثمرة هذا البحث...

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله المجيد على ما من علينا به من خدمة كتابه المجيد، ونستعينه ونستغفره ونثوب إليه، ونعوذ بالله من فتنة القول، ونعوذ به أن نتكلف لما لا نحسن كما نعوذ به من العجب فيما نحسن، والصلاة والسلام على أشرف الخلق والأنبياء نبينا محمد ﷺ، وعلى آله وصحبه أجمعين... وبعد،

فقد سرت البلاغة في كيان جسد الفكر الإسلامي وخالطت علومه، وداخلت نسيجه فلا يكاد يخلو فرع من فروعه من توظيف لمعطياتها بما يتلاءم وتلك الحقول المنقولة إليها، فتغيرت بالنقل صورتها وتغيأت في كل فرع بهيئته وما يتلاءم مع طبيعته مما يؤكد خضوعها لتحويرات بالزيادة أو تغيير المنهاج، فتطورت كثير من تلك الأصول ونمت منها فروع متكاثرة غارت في حقول أخرى وغابت، وأصبح معه ردها إلى نبعها الذي تحدت منه مع ما حصل فيها من إضافات وتطويرات ضرورة لتحريك الدرس البلاغي وتوسيعه، والخروج به من دائرة القاعدة المجملة المقننة التي استقرت عند المتأخرين إلى التفصيل والتحليل الذي امتد به إجراؤها في نصوص التشريع حيث أصبحت أداة من أدوات الاستنباط، فتكاثرت في منأى عن أصلها أي أن البلاغة تكاملت وطرحت ثمارها في أودية أخرى، وأن الوقوف عند جانب الدرس المتخصص ممثلاً فيما أصله البلاغيون طي لمرحلة تاريخية حاسمة من مراحل نموها، لو أعطيت حقها من العناية لأغلقت باب اللجاجة وصدت الكثير عن تلمس فتات الحضارات الأخرى، حتى أصبح البيان العربي أشبه بفأر تجارب يجري فيه كل مصل دون احترام لخصوصيته وتكريمه من لدن سبع سماوات باختياره آية لإعجازه والتحدي به للكافة في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ [الرعد: ٣٧].

ثم تأمل الفارق بين القراءة الحديثة لبياننا في ضوء معطيات الآخر وقسها بصنيع حازم مع ما نقله شيخه ابن سينا عن أرسطو، وتقريره أن القدر الذي يصح الوقوف عنده في علم

الشعر اليوناني هو الأصول العامة التي يتفق عليها أو ما يسمى بعلم الشعر المطلق المتعارف عليه عند جميع الأمم، ثم نبه على الخصوصية بقوله: «ولو وجد هذا الحكيم أرسطو في شعر اليونانيين ما يوجد في شعر العرب من كثرة الحكم والأمثال، والاستدلالات واختلاف ضروب الإبداع في فنون الكلام لفظاً ومعنى، وتبحرهم في أصناف المعاني، وحسن تصرفهم في وضعها، ووضع الألفاظ بإزائها، وفي إحكام مبانيها واقتاراتها، ولطف التفاتاتهم وتمييزاتهم واستطراداتهم، وحسن مأخذهم ومنازعهم وتلاعبهم بالأقويل المخيلة كيف شاءوا- لزداد على ما وضع من القوانين الشعرية»^(١).

وقبله بالانفتاح اللامحدود لتدخل تلك العلوم والإصرار على غرسها في لحم الحضارة الإسلامية بتعديتها إلى مجال الدراسات القرآنية تحت مظلة التجديد، حيث بدأ الاتجاه الحديث بالالتفات إلى الدراسات التفسيرية للنص التي نشأت «في دائرة الدراسات اللاهوتية.. لفهم النص الديني الكتاب المقدس»^(٢) وقد ظهرت الكثير من المؤلفات التي تحمل مضامين متفقة وهي القراءة الحديثة المعاصرة للقرآن بمقارنته بالكتب الدينية الأخرى متناسية خصوصية النص القرآني باعتبار منزله وغاياته وملابساته ومتجاهلة خصوصية إعجازه ووحيه التشريعي.

ويصف أحدهم هذا التحوير يقول: «إن المفسرين الكلاسيكيين إذا نظروا إلى القرآن بوصفه خطاباً عربياً فهم قد استخدموا في تفاسيرهم مصطلحات كالعموم والخصوص والمحكم والمتشابه، والظاهر والباطن، والناسخ والمنسوخ، في حين نحن نستخدم المفاهيم الإجرائية التي تزودنا بها علومنا الحديثة التي تتداول بشكل خاص في الحقل المعرفي الغربي»^(٣).

أي أن الغاية من الدراسة هي التحول عن الخطاب العربي؛ لأن الكلاسيكيين نظروا إليه بوصفه خطاباً عربياً، ويتبع هذا تغييب الأدوات التي استعان بها القدماء في فهم النص، ومن ثم القضاء على خصوصية لغة الإعجاز البياني.

(١) "منهاج البلاء" حازم بن محمد القرطاجني ص ٦٩ .

(٢) "إشكاليات القراءة" دكتور نصر أبو زيد ص ١٣ .

(٣) "نقد النص" دكتور علي حرب ص ٧٨ .

فالأخذ هنا كيفما اتفق دون ضوابط تصحيح ذلك، وهذا بخلاف مناهج العرب القدامى حيث ذكر روزنتال أنه: «لم يسلم عالم أو فيلسوف إغريقي قديم من سهام الانتقاد من المسلمين حتى الفلاسفة والمتكلمين منهم الذين كانوا من أشد أنصار الإغريقية».

وقد صرح أحد المستشرقين «أرنالديز» بدقة مناهج المسلمين قال: «إن المفسرين في العصر الكلاسيكي للإسلام، أي ما يقابل العصور الوسطى عندنا كانوا قادرين على أن يستخرجوا من الآيات القرآنية كل ما هو مقال أو متضمن فيها تقريباً، ولهذا السبب أقول: إن المسلمين المحدثين الذين يستعيرون المناهج الغربية كان أخرى بهم أن يكتفوا بمناهج أسلافهم من القدماء فهي توصلهم بالدقة نفسها لأن يستخلصوا من الآيات القرآنية ما توصلهم إليه هذه المناهج التابعة للعلوم الإنسانية»^(١).

والنص يشير إلى حقيقة في غاية الأهمية وهي أن مناهج تفسير النص في التفسير الإسلامي بلغت غاية الدقة في ضبط الدلالة في العصور التي كانت فيها المناهج الغربية في ركود.

والتجديد لا يكون إلا بتحريك القلم تجاه الأصول المتفقة في الدراسات والعمل على تطويرها والامتداد بها من خلال إجرائها في النصوص حتى تتسع مع ملاحظة الأصول المتفقة ومتابعة انتقالها في المناهج المتقاربة ورصد ما طرأ عليها من أنواع الزيادة، ثم محاولة التأنيس بين فروع التراث الإسلامي ومجالاته المعرفية المتعددة مع عدم إغفال خصوصية كل علم، فالتفاعل بين العلوم هو الذي يحفظ للمناهج استمراريتها وتكاملها.

فالحاجة أصبحت ملحة إلى منهج آخر سوي يبحث الحاضر الشامخ على أرفف مكتباتنا والموجود بين ظهرانينا واستخراج دفائنه وكنوزه، وشأن البلاغة وتحليل النص خاصة لا يتأتى اكتماله بالرجوع إلى كتب البلاغة واللغة فحسب وإنما المنهج تتبعه في منظومة العلوم الإسلامية الفقه وأصول الحديث وشروحه وعلوم التفسير؛ لأنها جميعاً التفت حول أصل واحد ونشأت خدمة للتنزيل كتاباً وسنة وصاحبه وتفاعلت معه زمناً ممتداً وتطورت

(١) "الفكر الإسلامي" عماد أركون ص ٣٢٧.

عناصرها حينما تفرست في الشروح وحقل الاستنباط والتحليل فوصلت الغاية، وحينما لا نجد تنظيمًا مكتملاً لتحليل النصوص في الدرس البلاغي فليس ذلك قصورًا فيه بل لأن الأنظار لم تتجاوز المنطقة الضيقة وهي البحث عنها في حقل واحد بينما امتدت الأدوات وتكاثرت وسد كل علم ثغرة من ثغرات العلم الآخر فالتفسير وشروح الحديث غدت علوم الأدب بأدواتها المتنوعة ثم نمت هذه الأدوات وتشعبت منها فروع داخلت النص في شعبه المختلفة وانعظفت معه في منعطفاته الصعبة وعالجتها. وهذا النوع من الاستمداد يتطلب إقبالًا واعيًا بخصوصية كل مجال والغايات والوسائل المستخدمة فيه، ثم الإحاطة بالعناصر العامة ومحاولة مجاذبة أصولها وفروعها وإعمالها في حقل آخر يقترب منه في مضمونه وهذا الشأن له أثر كبير في هذه المعلومات، وهذه المعارف وخصوصًا إذا كانت تتلاءم مع الحقل الجديد^(١).

ومن هذه الكنوز المطمورة في غير تربتها علم المناسبات الذي هو فرع امتد واتسع في الدراسات القرآنية حتى كاد أن يستقل وتنسى نسبه إلى جذوره الضاربة في أعماق نظرية النظم المتعلقة بوجوه الإبانة في تصريف الترتيب داخل الجملة الواحدة باعتبار من علم النحو، وعلم المناسبات عمم الأصل وهو وجوه الترتيب وضروب التعليق ونزعه عن ملاحظة النحو وجعل مناطه اعتبار الوجوه العقلية التي يحسن معها اقتران الكلام وتجاوره في البناء الواحد. إذن هذا العلم صفحة من صفحات الدرس البلاغي؛ لأنه قائم في أصوله وخصائصه على معطيات البلاغة وغذي بلبانها، إلا أن درسه وتصنيفه استقر في علوم القرآن وأصبح بمنأى عن وطنه، وكان طول مكثه في تلك الأبواب قطعت أواصر نسبه إلى البلاغة، والذي هو الحق أن أول انتقاله لهذا الباب إلى التفسير كانت على يدي إمام بلاغي وهو الرازي الذي أصل قانون باب المناسبات وأجراه في الكشف عن البلاغة التي تمتد وتطول وتبتعد عن الكلمة والجملة والجمليتين إلى آفاق أرحب وأوسع تشمل النص بجهاته المتنوعة بل وتشمل العلاقات بين النصوص المتعددة.

(١) "البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري" دكتور محمد أبو موسى ص ٨.

وقد تكشف لي من خلال قراءة تفسيره وتبج عمل الإمام أنه كان في محاولة دءوب وإصرار مستمر على الزيادة على علمي الشيخ عبد القاهر والزخشي فلم يقف عند الاستعارة والمجاز والكناية وعلم المعاني بعناية مثل غيره من المفسرين وإنما يحاول مرمى آخر لم يصل إليه قلم الزخشي في صفحات علم الشيخ عبد القاهر وكأن أبواب البلاغة التطبيقية تبدأ بما في «الكشاف» وتنتهي بما أضافه الرازي، والغريب أننا لا نعد تفسير «الكشاف» في أبواب الدراسة القرآنية وإنما يصنف تحت علوم البيان والحال يجب أن يكون كذلك مع تفسير الرازي؛ لأن تفسيره بمثابة تكملة على «الكشاف»، ولكن لما كان اكتمال هذا الفن الذي ابتدأه الإمام على عين علوم القرآن وفي غيبة الدرس البلاغي، غاب وابتعد عن أنظار المصنفين المتأخرين.

وقد بعثت الدراسات البيانية الحديثة جانباً مشرقاً لأقوال المفسرين في هذا الباب نحو كتاب «التناسب البياني» لأحمد أبو زيد، و«التناسب في تفسير نظم الدرر» للدكتور محمود سعد. وله أيضاً «الإمام البقاعي جهاده ومنهاج تأويله بلاغة القرآن الكريم»، وكذلك «التناسب القرآني عند الإمام البقاعي دراسة بلاغية» لمشهور موسى مشاهرة. ولم أجد عناية باستخراج هذا العلم من «تفسير الإمام الرازي» رغم ما تناقلته كتب علوم القرآن حول أنه قد أكثر من هذا الباب، ومرد الانصراف ما يتجشمه الباحث من عسر وعناء في استخراج النصوص لاختلاطها وتداخلها مع علوم ومعارف شتى أكثر الإمام من إيرادها حتى أصبح «تفسيره» منظومة علمية شاملة لجميع معارف الفكر الإسلامي في ذلك العصر مع غموض كثير من النصوص شأنه في ذلك شأن المعرفة وليدة النشأة؛ لذلك لم يغفل البحث رؤية نمو هذه الفكرة في تفسير الإمام وتطورها حتى قارب بها الكمال، حيث كانت قبله أقوالاً تجود بها قرائح بعض الأئمة في بعض الآي دون جميعها، فجمعها واستنبط منها قانوناً كلياً ضبط به وجوه الترتيب والانتظام بين آي القرآن وفصوله وسوره وطرائقه في تصريف الترتيب وما وراء الاقتران من لطائف وخصوصيات تماسك الكلام وتجعل له هيئة متفقة.

وقد جاء تقسيم البحث في تمهيد وبايين، تناولت في التمهيد مبحثين هما:

المبحث الأول: الإمام الرازي حياته وتفسيره.

والثاني: النظم والتناسب بين الجملة والنص.

وخصصنا الباب الأول بدراسة التناسب في بناء السورة وجاء في ثلاثة فصول:

الفصل الأول: التناسب في الفواتيح والخواتيم.

الفصل الثاني: التناسب بين الآيات.

الفصل الثالث: التناسب بين الأغراض داخل السورة.

وأما الباب الثاني تناول التناسب بين السور وترتب في ثلاثة فصول أيضًا هي:

الفصل الأول: التناسب في ترتيب السور.

الفصل الثاني: التناسب بين السور المتشابهة المطالع.

الفصل الثالث: التناسب على مستوى السياق العام للقرآن.

وقبل طي عملي في البحث يتبقى امتنان وعرفان للشيخ الدكتور/ محمد أبو موسى فقد كان من نعم الله التي لا يبلغها حمدي أن هيا لي صحبته وملازمته زمن دراستي العليا، فكشف لي وجوه الحقائق، وغرس في نفوسنا الإنصات للسان الصدق الممتد من غيب الماضي واستخراج دفائنه وما تحته من أصول يصلح معها الحاضر.

والله ولي التوفيق والسداد، فهو حسبي لا إله إلا هو عليه توكلت وإليه أنيب.

دكتورة

منال مبطي حامد المسعودي



التمهيد

المبحث الأول

الرازي حياته وتفسيره

المبحث الثاني

النظم والتناسب بين الجملة والنص

المبحث الأول

الرازي حياته وتفسيره

حفلت حياة الرازي بالعديد من المنعطقات والتحولات التي أسهمت في تكوين فكر الرازي، وتشكيل استقلاليته في كل علم خاض فيه، فعلم المناسبات الذي هو مجال البحث كان غرساً شمرًا بذره الإمام في تربة الدرس البلاغي، وسقاه بأصول علم المعقولات الذي صال فيه وجال وبدأ الأقران، فشقق فروعه من خلال النظم القرآني وانعطف مع منعطقاته فاستوعب بذلك تنوع البيان القرآني في تشابه أغراضه ومعانيه وتناسبها.

فكان الوقوف على حياة الرازي إضاءة تنير طريق القارئ، وتكشف عن أبرز المحطات التي كونت شخصيته، وغذت عقله وقلمه. وهناك كتب كثيرة اختصت بالتعريف بحياته^(١) فأغنت عن التفصيل وحدت القلم نحو الإجمال المستكشف لبعض الظواهر التي أحدثت نقلة في حياة الرازي وكان لها تأثير بالغ في تكوينه المعرفي دونما إغفال لبعض نواحي نشأته وحياته الشخصية.

فالرازي اسمه محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن بن علي البكري التيمي^(٢)، طبرستاني الأصل رازي المولد^(٣)، يكنى بأبي عبد الله وأبي المعالي، ويعرف بابن الخطيب نسبة لوالده ضياء الدين عمر. سلطان المتكلمين في زمانه، وفخر هذا الدين وبه كان لقبه، ذكره الصفدي بذلك في بعض مدائحه يقول:

علم الأصول بفخر الدين منتصر به يصول بإعجاب وإعجاز
أضحت به السنة الغراء واضحة قد استقامت لمختار ومجتازا^(٤)

وله العديد من الألقاب التي تنبئ عن أي سمالك بلغ، وأي شأو ارتقى، فشاع لقبه بالإمام، فكان إذا أطلق في عصره لم يقصد به سواه^(٥)، ويقول السبكي: «أما ما اشتهر به فابن

(١) ينظر: "الإمام فخر الدين" علي العمري، و"فخر الدين الرازي بلاغيًا" ماهر مهدي هلال.

(٢) "طبقات الشافعية" الدمشقي ٦٥/٢.

(٣) "وفيات الأعيان" ابن خلكان ٣٨١/٣.

(٤) "الروافى" الصفدي ٢٥٦/٤.

(٥) "طبقات الشافعية" ابن كثير ٢١٧/٢.

الخطيب والإمام»^(١). ولهج به المادحون، وسارت به الركبان شرقاً وغرباً، فتغنى ابن عنين في كثير من قصائده بمدح الإمام، يقول:

ريح الشمال عساك أن تتحملي خدمني إلى المولى الإمام الأفضلي
وقفي بوابه المقدس وانظري نور الهدى متألّقا لا يأتلي

أما في هرة فكان لقبه السائد «شيخ الإسلام»^(٢).

كانت ولادته بالري سنة أربع وأربعين^(٣) - وقيل: سنة ثلاث وأربعين - وخمسمائة من الهجرة النبوية^(٤) - على صاحبها أفضل الصلاة والسلام - والمختار أنه ولد سنة أربع وأربعين وخمسمائة. ويؤكد هذا ما ذكره الرازي عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا أَذْكُرْني عَنْدَ رَبِّكَ فَأَنسَنهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ، فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ يَضَعُ سِنِينَ﴾ [يوسف: ٤٢]. يقول: «وإذا توكل العبد على الله ولم يرجع إلى أحد من الخلق حصل ذلك المطلوب على أحسن الوجوه، فهذه التجربة قد استمرت لي من أول عمري إلى هذا الوقت الذي بلغت فيه إلى السابع والخمسين». ثم قال في ختام تفسير السورة «تمّ تفسير هذه السورة بحمد الله تعالى يوم الأربعاء السابع من شعبان... سنة إحدى وستمائة»^(٥). فإذا كان عمره في سنة إحدى وستمائة سبعا وخمسين ترجح أن سنة أربع وأربعين وخمسمائة هي السنة التي ولد فيها^(٦).

ونشأ في بيت علم وفقه فوالده ضياء الدين عمر من أئمة علم الأصول والكلام في زمانه، ومن أشد المنافحين عن مذهب أهل السنة، وله في ذلك كتاب «غاية المرام» أكثر كتب

(١) «طبقات الشافعية» السبكي ٣٦/٥.

(٢) السابق نفسه.

(٣) «وفيات الأعيان» ابن خلكان ٣٨٤/٣.

(٤) «البدية والنهاية» ابن كثير ٥٦/٣، «الكامل» ابن الأثير ٦٢٥/٩.

(٥) «التفسير الكبير» ٤٦٢/٦.

(٦) «فخر الدين» العمري ص ١٧.

السنة تحقيقًا وأنفسها بيانًا^(١). فتلقى الرازي رعايته وتعليمه مبكرًا على والده، وكان حفيًا به؛ لما رأى عليه من علامات النبوغ والذكاء.

فأخذ عن والده المذهب السني الأشعري الشافعي، وقد ذكر الرازي في كتابه «تحصيل الحق» السلسلة التي أخذ عنها المذهب نقله ابن خلكان، يقول: «اشتغل على والده، ووالده على أبي محمد الحسين البغوي، وهو على القاضي المروزي، وهو على القفال المروزي، وهو على أبي زيد المروزي، وهو على أبي إسحاق المروزي، وهو على أبي العباس بن سريج، وهو على أبي القاسم، وهو على أبي إبراهيم المزني، وهو على الإمام الشافعي رحمته الله»^(٢).

وبرع فيه وجاهد في تقريره، ونشر قواعده، فناظر المخالفين وأبطل مذاهبهم ورد عليهم أقوالهم.

وبرغم وضوح منهجه تحامل عليه بعض العلماء، وطعن في عقيدته، من ذلك قول الذهبي عنه: «وقد بدت منه في تواليفه بلايا وعظائم وسحر وانحرافات عن السنة، والله يعفو عنه فإنه توفي على طريقة حميدة، والله يتولى السرائر»^(٣).

ويقول ابن كثير: «وقد ذكرت وصيته عند موته، وأنه رجع عن مذهب الكلام فيها إلى طريقة السلف وتسليم ما ورد على وجه المراد اللائق بجلال الله سبحانه»^(٤).

وهذه المقولة ليست وليدة ما بعد عصر الرازي وإنما منحصرها عصره، وظلت كتبه تصطرخ في لظاها، لكنها أحكمت قبضتها واستمرت وأمرت زمنًا تطاول إلى ما بعد عصره مع وجود أصوات علت دفاعًا عنه وكان أول هذه الأصوات صوت الرازي فقد تعجب وعجب القارئ لكتاباته من مقولة تثبت له خلاف ما يقرأ فتسمه بالانحراف عن السنة وهو يجاهد فيها ويدفع ما عداها من المذاهب بل ويرد براهينهم إلى أقوالهم. يقول: «إن الأعداء والحساد لا يزالون يطعنون فينا وفي ديننا ويعتقدون أنني لست على مذهب أهل السنة

(١) "طبقات الشافعية" السبكي ٢٨٥/٤.

(٢) "الوفيات" ابن خلكان ٣٨٤/٣.

(٣) "سير أعلام النبلاء" ٥٠٠/٢١.

(٤) "البداية والنهاية" ٥٥/١٣.

والجماعة، وقد علم العالمون أنه ليس مذهبي ولا مذهب أسلافي إلا مذهب أهل السنة والجماعة^(١).

وكذلك ابن تيمية الذي كان كثيرًا ما يتبع آراء الرازي خاصة دون غيره من الفلاسفة، لمكانته من هذا العلم وبراعته فيه، نجده يقرر أن الرازي لم يستقر على ضلالة، ويبرر كثيرًا من مواقفه. يقول: «ومن الناس من يسيء به الظن، وهو أنه يعتمد الكلام الباطل، وليس كذلك، بل تكلم بحسب مبلغه من العلم والنظر والبحث في كل مقام بما يظهر له... ولو أنه قد جمع ما تبرهن له في العقل الصريح من كلام شتى الفرق لوجد أن كل ذلك يوافق ما جاء به، ووجد صريح المعقول مطابقًا لصحيح المنقول»^(٢).

ونشأ في أول أمره فقيرًا معدمًا تقلبت به صروف الدهر ألوانًا وسامته خسفًا، ويروي داود الطيبي التاجر «المدعو بالنجيب» وكان يشارك في أخبار الناس، قال: «رأيت ابن الخطيب ببخارى مريضًا في بعض المدارس المجهولة وشكا إليّ إقلاله، فاجتمعت بالتجار المستعربين وأخذت منهم شيئًا من زكاة أموالهم وأرفقته بذلك»^(٣).

فلما بعد صيته وتوقد شعاعه دنا منه الملوك والوزراء والأمراء وطلاب العلم من أقطار الأرض وقصدوا مجلسه، فقربه الملوك إليهم، وبالغوا في إكرامه وتنافسوا في ذلك وبنوا له الكثير من المدارس في بلدان شتى، فنمت ثروته «وملك من الذهب العين ثمانين ألف دينار، وغير ذلك من الأمتعة والمراكب والأثاث والملابس، وكان له خمسون مملوكًا من الترك»^(٤).

واتصل بالعديد من الملوك فعامل شهاب الدين الغوري صاحب غزنة في جملة من المال وحصل منه على مال طائل، ولازم سلطان خراسان محمد بن تكش ونال عنده أسنى المراتب، فنزل عنده منزلة لم يبلغها أحد غيره، وله مدائح لبعض السلاطين منها قصيدته في علاء الدين علي خوارزم شاه يقول فيها:

(١) نقلًا عن "فخر الدين" العماري ص ٧٥.

(٢) "شرح حديث النزول" ص ١٧٦.

(٣) "تاريخ الحكماء" القفطي ص ٢٩١.

(٤) "البداية والنهاية" ابن كثير ٥٥ / ١٣.

الدين ممدود الرواق موطد
بعد علاء الدين والملك الذي
شمس يشق جبينه حجب السما
هو في الجحافل أن أثير غبارها
فإذا تصدر للسماح فإنه
وإذا تمنطق للكفاح رأيته
بالجهد أدرك ما أراد من العلا
أبقت مساعي أنسزبن محمد
أعد نعامًا عليّ غزيرة
أجرى سوابقه على عاداتها

والكفر محلول النطاق مبدد
أدنى خصائصه العلا والسودد
والليل قاري الدجنة أسود
أسد ولكن في المحافل سيد
في ضمن راحته الخضم المزبد
في طي لأمته الهزبر الملبد
لا يدرك العليا من لا يجهد
سنًا تخيرها النبي محمد
والكفر لا يحصى فلست أعدد
خيل جياذ وهو منها أجود^(١)

وقيل في سبب ثرائه أنه لدى عودته من بلاد ما وراء النهر إلى الري صادف أن كان طبيب ذا ثروة طائلة وكان للطبيب ابتتان ولفخر الدين ابنان فمرض الطبيب وأيقن بالموت فزوج ابنته لولدي الرازي، ومات الطبيب فاستولى الرازي على جميع أمواله، فحصل له هذا الثراء وتلك النعمة^(٢).

ولم يسلم الكثير من المحققين بأن هذه القصة هي مصدر ثراء الرازي؛ لما تحمله لفظة استيلاء من غميرة، ولما تثيره شرعية تملك الرازي للمال أو عدمها من شكوك^(٣)، وأكثر العلماء على أن مصدر التحول ارتبط بتعامل الرازي مع السلاطين واتصاله بهم، والأبيات السابقة شاهد لما نحن فيه. على أن مكانته عند السلاطين كانت سببًا لانتفاص فضله وعلمه،

(١) "عيون الأنباء" ابن أبي صبيحة ٢/ ٢٩.

(٢) "الوفيات" ابن خلكان ٣/ ٣٨٢، "الوافي" الصفدي ٤/ ٢٤٩.

(٣) "مرآة الحنان" اليافعي ٤/ ٩، "الوافي" الصفدي ٤/ ٢٥٢.

فقامت عليه الكثير من الشناعات، لأنه «كان يصحب السلطان ويحب الدنيا، ويتسع فيها اتساعاً زائداً، وليس ذلك من صفة العلماء»^(١).

ويرد ما قيل في إقباله على الدنيا وحرصه على أعراضها الفانية ما ذكره ابن عنين الشاعر عن جود الرازي وبذله الخلع الكاملة والهبات المصطفاة يقول: «حصلت ببلاد العجم من جهة فخر الدين بجاهه نحواً من ثلاثين ألف دينار»^(٢).

ويرد الرازي مكانته وثرأه إلى خدمة علوم الدين وانقطاعه لها يقول: «وأنا قد نقلت أنواعاً من العلوم الثقيلة والعقلية، فلم يحصل لي بسبب شيء من العلوم من أنواع السعادات في الدين والدنيا مثل ما حصل بسبب خدمة هذا العلم»^(٣).

فقلب عليهم القضية وجعل من صفات العلماء المخلصين إسباغ الله عليهم منائحه ونعمه لسلامة بواطنهم وتطلعهم إلى ما عند الله، فتحصل لهم سعادة الدين والدنيا.

وذكرت كتب التراجم أن السلاطين كانوا يتقربون منه ويتنافسون في دعوته إليهم، وحضور مجالسه و«كان يتعاطم حتى على الملوك»^(٤)، بل وكان يغلظ عليهم القول في الوعظ، فقد وعظ يوماً بحضرة السلطان شهاب الدين الغوري فلحقه الوجد فاستغاث بملك الملوك وتضاغر عنده سلاطين الأرض فقال: «يا سلطان العالم لا سلطانك يبقى، ولا تلبس الرازي يبقى، وأن مردنا إلى الله»^(٥).

ومن كان كذلك لم يصح عنه حب الدنيا والتزلف لأصحاب السلاطين. ونقل ابن أبي أصيبعة صورة من مجلسه وما فيه من أبهة وحشم عظيم، تتخلله صنائع المعروف التي اشتهر بها، فحينما قصد هراة من بلد باميان «تلقاه السلطان بها وهو حسين بن خرمين وأكرمه إكراماً كثيراً، ونصب له بعد ذلك منبراً وسجادة في صدر الإيوان من الجامع بها؛ ليجلس في ذلك

(١) "البداية" ابن كثير ٥٥/١٣.

(٢) "عيون الأنباء" ابن أبي أصيبعة ٢٤/٢.

(٣) "التفسير" ٦٥/٥.

(٤) "عيون الأنباء" ابن أبي أصيبعة ٢٤/٢.

(٥) "طبقات الشافعية" السبكي ٣٦/٥.

الموضع ويكون له يوم مشهود يراه فيه الناس ويسمعون كلامه... والشيخ فخر الدين في صدر الإيوان وعن جانيه يمنة ويسرة صفان من مماليكه الترك متكئين على السيوف، وجاء إليه السلطان حسين بن خرمين صاحب هراة، وأمره الشيخ بالجلوس قريباً منه، وجاء إليه أيضاً السلطان محمود ابن أخت شهاب الدين الغوري.. فسلم وأشار إليه الشيخ أيضاً بالجلوس في موضع آخر قريباً من الناحية الأخرى... وبينما نحن عنده في ذلك الوقت إذ بحمامة في دائرة الجامع ووراءها صقر يكاد أن يقتنصها ومي تطير في جوانبه إلى أن أعيت فدخلت الإيوان الذي فيه الشيخ ومرت طائرة بين الصفيين إلى أن رمت بنفسها عنده ونجت، فذكر لي شرف الدين ابن عنين أنه عمل شعراً على البديهة ثم نهض لوقته، واستأذنه في أن يورد شيئاً قد قاله في المعنى فأمره الشيخ بذلك فقال:

جاءت سليمان الزمان بشجوها والموت يلعب من جناحي خاطف
من نبا الورقاء أن محلكم حرز، وأنتك ملجأ للخائف^(١)

فتأمل مكان السلاطين واستئذانهم لمجلسهم بين يدي الإمام، وحرصهم على حضور مجلسه، ثم توجيهه بأماكن جلوسهم ينبئك بخبر الرجل وأن له قدم صدق في عصره وعند ملوك عصره.

وتكشف القصة أيضاً جانباً من شخصية الإمام وما كان عليه من رقة القلب ولين الجانب، وقد عُرف الإمام بهذه السمة فكان كثيراً ما يلحقه الوجد في حال الوعظ فيكثر البكاء^(٢) والقارئ لتفسيره يقف على صحة ذلك، فغالباً ما يغالبه الوجد عند آيات التهديد والوعيد، فيستأنف كلاماً يكشف عن أحوال نفسه، فتخشع لغته ويهتف بالإجابة والخضوع لرب الملكوت، فيناجيه بأبلغ النعوت وأسمى الأسماء طالباً منه الرحمة، لائذا في حماه يستجيره من لظى عذابه، ورمضاء غضبه، فيقول عند خاتمة سورة غافر ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ * فَلَمْ يَكْ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سَنَتَ

(١) "عيون الأنباء" ابن أبي أصيبعة ٢/ ٢٤٠٢٣.

(٢) "عيون الأنباء" ٢/ ٢٥.

اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادَةٍ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴿١٨٥﴾ [إغافر: ١٨٥، ١٨٤]. يقول: «يا من لا يبلغ أدنى ما استأثرت به من جلالك وعزتك أقصى نعوت الناعتين، يا من تقاصرت عن الإحاطة بمبادئ أسرار كبريائه أفهام المتفكرين وأنظار المتأملين، لا تجعلنا بفضلك ورحمتك في زمرة الخاسرين المبطلين، ولا تجعلنا يوم القيامة من المحرومين، فإنك أكرم الأكرمين، وأرحم الراحمين»^(١).

وبلغ الإمام - سقته سحائب المغفرة والرضوان - مبلغاً عظيماً في حسن الخلق ورزانة الحلم والتغاضي عن هفوات الخلق وبذل المعروف لهم، ويصور ذلك ما جرى مع أخيه الأكبر «ركن الدين» الذي كان كثيراً ما يشنع على الرازي ويشدد في أذيته ويحقيق به المكر السيئ فيسفه علمه بين الناس حسداً ويعيب على المشتغلين بكتبه، وكلما بلغه ذلك شق على نفسه وأحسن إليه، فيزداد ركن الدين إساءة ويزداد الفخر إحساناً، حتى بلغ الأمر منتهاه فأنهى أمره إلى السلطان، والتمس منه تركه في بعض المواضع على أن يكون له ما يقوم بكفايته وسد كل ما يحتاج إليه، فأقطع له السلطان بعض القلاع وأجرى له ألف دينار في كل سنة^(٢).

ولازم الرازي الأسفار في بدء حياته طلباً للعلم، فرحل مع شيخه المجد الجيلي؛ للتدريس في مراغة^(٣). واشتغل في الفقه بمرند على والد القاضي محيي الدين قاضي مرند^(٤). فلما لمع نجمه وذاع صيته رحل إلى بلدان عديدة للوعظ والمناظرة، فدخل خوارزم وجرت بينه وبين المعتزلة مناظرات ثم رحل إلى ما وراء النهر، يصف الرازي امتداد رحلاته يقول: «لما دخلت بلاد ما وراء النهر، وصلت أولاً إلى بلدة بخارى ثم إلى سمرقند ثم انتقلت منها إلى خجند ثم إلى البلدة المسماة (بيناك) ثم إلى غزنة وبلاد الهند، واتفقت لي في كل واحدة من هذه البلاد مناظرات ومجادلات مع من كان فيها من الأفاضل والأعيان»^(٥).

(١) "التفسير" الرازي ٥٣٦/٩.

(٢) "عيون الأنباء" ابن أبي أصيبعة ٢٦٠٢٥/٢.

(٣) "وفيات الأعيان" ابن خلكان ٢٨٣/٣.

(٤) "عيون الأنباء" ابن أبي أصيبعة ٢٣/٢.

(٥) "مناظرات فخر الدين" ص ١٧.

وكثرة أسفاره كان لها عظيم الأثر في الإعلام عن مكانته وإذاعة صيته وصناعة شهرته، وأسهمت في نشر علمه وكتبه في الآفاق، وخلفت له تلاميذ في شتى البلدان، فمكنت من لم يستطع الرحلة من الاستماع إليه والتلمذة عليه.

واستقر به الأمر في هراة بعد أن أخرجته مناظراته مع الكرامية من غزنة، وأبعدته عن الري مربع صباه وحاضنة ثقافته.

والري تعد إحدى حواضر الإسلام التي ازدهرت فيها العلوم والثقافة، وكان هذا الشموخ العلمي والحضاري في عصر تعصف به الفتن والأحداث، ففي النصف الثاني من القرن السادس الهجري ضعف مركز الخلافة العباسية واختلفت الأمة الإسلامية، وتفرقت كلمتها فقاتل بعضهم البعض مما أطمع فيهم الأعداء، فكانت هدفًا لمختلف ضروب التوحش والهمجية التي جاء بها الغزاة الصليبيون «فسادت الفوضى، وعم الخوف، وزاد تفكك المسلمين»^(١).

ويقابل هذا التفكك السياسي تعائق العلوم المختلفة وتشاربها في الري، حيث كانت معرضًا واسعًا للعلوم المتنوعة من الفقه والنحو وعلم الكلام والبلاغة والفلسفة والطب وغيرها، غير أن العلوم الحكومية العقلية نالت النصيب الأوفر في تربة الري، وساعد على نضجها أن الري كانت مسرحًا لمختلف الآراء والمذاهب والأفكار، فهذه خصيصة تميزت بها وتفاخر بها علماءها، فهذا ابن فارس يقول عنها: «فإن الري أجمع البلاد للمقالات والاختلافات في المذاهب على تضادها وكثرتها»^(٢).

فتشكلت ثقافة الرازي في هذا الخضم الهائل من الثقافات المتباينة والمتنوعة، وأعانه أن يستوعب ذلك الاختلاف أمران:

أولاً: ما وهبه الله له من فطرة خصبة تنمي ما غرس فيها، وذكاء متقد مع ذاكرة ضابطة لكل ما حصلته، فتعينه على إيراد البراهين والأدلة في موضعها وعند الحاجة إليها، فكان جيد

(١) "التاريخ الإسلامي" محمود شاكر ٣٨/٢.

(٢) "بغية الرعاة" ص ١٥٣.

الفطرة، حاد الذهن، حسن العبارة، كثير البراعة، قوي النظر «وقيل: إنه يحفظ كتاب «الشامل» لإمام الحرمين»^(١).

ثانيًا: حرصه الشديد على القراءة والمطالعة فأفنى عمره في البحث والدرس حتى شهر عنه أنه «كان شديد الحرص جدًا في العلوم»^(٢)، ونقل عنه شمس الدين الخوي ما يفصل شدة الحرص المبهم في الكلام السابق يقول: «والله إني أتأسف في الفوات عن الاشتغال بالعلم في وقت الأكل، فإن الوقت والزمان عزيز»^(٣).

فقرأ علوم الأوائل، وأتقن الكثير منها، واختلف إلى علماء عصره، فنهل من ثقافتهم ف«كان علمه محتفظًا من تصانيف المتقدمين والمتأخرين»^(٤)، فاشتغل أولًا على والده ضياء الدين عمر في الفقه وعلم الخلاف والكلام، وكان حفيًا بعلم والده كثير النقل عنه والإشادة به في كتاباته، ويطلق عليه «الأستاذ الوالد» و«الشيخ الوالد»^(٥). وقد ذكر السبكي في فضائله أنه «كان أحد أئمة الإسلام مقدمًا في علم الكلام.... وكان فصيح اللسان، قوي الجنان، فقيها أصوليًا، متكلمًا صوفيًا، خطيبًا محدثًا، أديبًا، له نثر في غاية الحسن يكاد يحكي ألفاظ مقامات الحريري من حسنه وحلاوته، ورشاقة سجع»^(٦).

ونقل أيضًا عن أستاذة والده بإسناد الرواية إليه يقول: «وحكى الشيخ الإمام الوالد عن أبي القاسم الأنصاري عن إمام الحرمين رحمهم الله»^(٧).

ثم قصد الكمال السُّمْنَانِي بعد وفاة والده، واشتغل عليه في الفقه، واشتغل مدة طويلة لازم فيها المجد الجيلي - أحد تلامذة الغزالي - في الفقه وعلم الكلام وأتقن عليهما علومًا

(١) "عيون الأنباء" ابن أبي أصيبعة ٢٣/٢.

(٢) "وفيات الأعيان" ابن خلكان ٣٨٢/٣.

(٣) "عيون الأنباء" ابن أبي أصيبعة ٢٣/٢ و"طبقات الشافعية" السبكي ٣٥/٥.

(٤) "وفيات الأعيان" ابن خلكان ٣٨١/٣.

(٥) "التفسير الكبير" الرازي ٩/٥٠١، ١٠/٤٤٨.

(٦) "طبقات الشافعية" السبكي ٢٨٥/٤.

(٧) "التفسير" الرازي ١٥/٧.

كثيرة وبرز فيها، وسمع الحديث من الشيخ الإمام مظهر الدين أبي محمد محمود بن محمد بن العباس بن رسلان، ثم اشتغل على نفسه زمنًا بالعلوم الحكمية ففاق أهل زمانه^(١)، وكانت له تصانيف في فنون مختلفة، فدرس الطب وله شهرة فيه، فقد عده ابن أبي أصيبعة في طبقات الأطباء، ويظهر أثر هذه الثقافة في تفسيره لكثير من الآيات^(٢).

و«تفسيره» يبرهن على الثقافة المتنوعة التي كان يصدر عنها. وبرع في علوم الشريعة والحكمة، وفاق فيها وساد، فكان في «الشرعيات تفسيرًا وفقهاً وأصولاً وغيرها.. بحر لا يجارى، وبدراً إلا أن هداه يشرق نهاراً»^(٣). أما في الحكمة فقد «دخل في كل أبوابها»^(٤)، فكان سلطان المتكلمين «فريد عصره، ونسيج وحده، فاق أهل زمانه في علم الكلام والمعقولات وعلم الأوائل»^(٥).

فصرف حرصه وذمته لهذا العلم وأعطاه من الثمين من وقته، واشتغل فيه على نفسه بعد أن وقف على تصانيف أبي علي بن سينا والفارابي، فقدح منها علماً كثيراً لذلك «كانت شهرة هذا الرجل منطقية جدلية، وهذه أنسب العقلليات للنبوغ في علم الكلام؛ إذ كان هذا العلم يقوم أساساً على الجدل ومقارعة الحجة بالحجة»^(٦).

وقد أنضح عقليته المنطقية بيئة الخلاف التي عاش في أجوائها، حيث كانت بضاعة القوم، يقول ابن خلدون: «ويلغنا عن أهل المشرق أن بضائع هذه العلوم لم تنزل عندهم موفورة وخصوصاً في عراق العجم وما بعدها فيما وراء النهر، وأنهم على ثبج من العلوم العقلية؛ لتوفر عمرائهم واستحكام الحضارة فيهم»^(٧).

(١) «البداية» ابن كثير ١٧/٢، «وفيات الأعيان» ابن خلكان ٣/٣٨٢.

(٢) «التفسير» الرازي ٥/٧٣، ٧/٩٩-٢٣٩.

(٣) «طبقات الشافعية» السبكي ٥/٣٤٠.

(٤) السابق نفسه.

(٥) «وفيات الأعيان» ابن خلكان ٣/٣٨١.

(٦) «الإمام فخر الدين» علي العمري ص ٤٥.

(٧) «المقدمة» ص ٥٤٤.

فثقافة الاختلاف يتجاوز فيها العقل التحصيل إلى التمحيص والتدقيق والاختبار لذلك لم يكن الرازي محصلاً للثقافة بقدر ما كان محصناً لها، فأوغل السير في جميع المذاهب وعلوم الأوائل واختلافاتهم، ثم انتقى وانتقد وقرب وأبعد وقارع كل حجة بأقوى منها، فالاختلاف فتح للرازي باب الاجتهاد الذي أدمن قرعه وطال في حناده سراه.

وعلمه وإن كان محتفظاً من علم الأوائل كما ذكره القفطي^(١) إلا أنه أضاف الكثير على ما علمه منهجاً وأسلوباً، فاختط لنفسه سمّاً تفرد به عن أئمة علم الكلام ومشايخه.

ويذكر ابن خلدون صنيع الرازي في المنطق، وكيف أعاد هيكلته، فدرسه بصفته فناً برأسه لا من حيث إنه آلة للعلوم، وارتضى طريقته من جاء بعده، واتبعوه في ذلك يقول: «ثم جاء المتأخرون فغيروا اصطلاح المنطق وألحقوا بالنظر في الكليات الخمس ثمرته، وهي الكلام في الحدود والرسوم، نقلوها من كتاب «البرهان» وحذفوا كتاب «المقولات»؛ لأن نظر المنطقي فيه بالعرض لا بالذات، وألحقوا في كتاب «العبارة» الكلام في العكس؛ لأنه من توابع الكلام في القضايا ببعض الوجوه، ثم تكلموا في القياس من حيث إنتاجه للمطالب على العموم، لا بحسب المادة، وحذفوا النظر فيه بحسب المادة وهي الكتب الخمسة: البرهان والجدل والخطابة والشعر والسفسطة.

ربما لم يلم بعضهم باليسير منها إلماماً، وأغفلوها كأن لم تكن هي المعتمد في الفن، ثم تكلموا فيها وصفوه من ذلك كلاماً مستبحراً ونظروا فيه من حيث إنه فن برأسه، لا من حيث إنه آلة للعلوم، فطال الكلام فيه واتسع. وأول من فعل ذلك الإمام فخر الدين بن الخطيب^(٢).

(١) "تاريخ الحكماء" ص ٤٠٠.

(٢) المقدمة ص ٤٩٢، ٤٩١.

أما الأسلوب فقد أشرقت عبارات الفلاسفة في كتبه، وابتعد عن الالتباس والتقييد غير النافع «فليس فيها من الاختلاط في المسائل والالتباس في الموضوع ما في طريقة هؤلاء المتأخرين من بعدهم»^(١).

فاشتغل الناس بمصنفاته وأقبلوا عليها، وصرفتهم عن كتب الأوائل، فقد «اجتمع له خمسة أشياء ما جمعها الله لغيره- فيما علمته- من أمثاله وهي: سعة العبارة في القدرة على الكلام، وصحة الذهن، والاطلاع الذي ما عليه مزيد، والحافظة المستوعبة، والذاكرة التي تعينه على ما يريده في تقرير الأدلة»^(٢).

ولما اجتمعت له هذه المزايا فضله الكثير على ابن سينا، ولخص ابن عُنين ذلك ببيان أغناك عما أطنبنا سابقاً يقول:

غلط امرؤ بأبي علي قاسه	هيهات قصر عن مداه أبو علي
لو أن رسطا ليس يسمع لفظة	من لفظه لعرفته هزة أفكل
ولحار بطليموس لو لاقاه من	برهانه في كل شكل مشكل
فلو أنهم جمعوا لديه تيقنوا	أن الفضيلة لم تكن للأول ^(٣)

وبالغ في ذلك أبو يعقوب السكاكي، فقال:

اعلماء علماً يقيننا	أن رب العالمينا
لوقضى في عالميهم	خدمة للعالمينا
خدم الرازي فخراً	خدمة العبد ابن سينا ^(٤)

(١) "المقدمة" ابن خلدون، ص ٤٦٧.

(٢) "الرواي" الصفدي ٤/ ٢٤٨.

(٣) "طبقات الشافعية" السبكي ٥/ ٣٥.

(٤) "الرواي" الصفدي ٤/ ٢٥٨.

فإذا ما تركنا البيان جانباً وجئنا إلى أهل صناعة علم الكلام وجدنا أحد أنمتها وهو القطب المصري يقول في تفضيله للرازي: «فهذا مما تتخل من كلام الإمامين العظيمين الإمام المتقدم، والإمام المتأخر عنه زماناً الراجح عليه علمًا وعملاً واعتقادًا ومذهباً»^(١).

وبراعته في علم المنطق والفلسفة طرحت ثمارها في مناظراته الكلامية في تصحيح العقائد وإبطال حجج الفرق الضالة والتصدي لهم بالبرهان والحجة، فلم يأل جهداً في تقرير البراهين وسبرها حتى لم يدع بها حيرة في صدر شاك إلا أخرجه من ظلمة الريب إلى نور اليقين، فجاءت الشريعة والفلسفة ممتزجتين في كتب الرازي لا غنى لإحدهما عن الأخرى، فالشريعة تثبت بالعقل كما تثبت بالنقل، والإسلام دين يدعو إلى النظر والتأمل حتى إن بعض علمائنا يُعَلِّم من شأن العقل ويجعله مقدماً على النقل إذا تعارض ظاهر النقل مع العقل «قال أحد علماء الملة: الشريعة طب المرضى، والفلسفة طب الأصحاء، والأطباء يطيبون المرضى حتى لا يتزايد مرضهم، وحتى يزول المرض بالعافية فقط، وأما الفلاسفة فإنهم يحفظون الصحة على أصحابها حتى لا يعترهم مرض أصلاً»^(٢).

وعلى هدى من ذلك جاءت فلسفة الرازي متوافقة مع الشريعة تسير على محجة بيضاء، فكان كثيراً ما يعدل في نظريات الفلاسفة بما يتوافق مع الشريعة، فهو - مثلاً - لا يجعل العلم بالصانع وصدق الرسول علمًا نظريًا، ويقول بأن العلم بالصانع قد يحصل بالاضطرار، فالعلم بكون الصانع قادرًا معلوم بالاضطرار، والعلم بصدق الرسول عند ظهور المعجزات التي تحدى الخلق بمعارضتها، وعجزوا عن ذلك - معلوم بالاضطرار. وأن السمعيات التي جاءت في إثبات الصانع وتصديق رسوله ليس فيها ما يناقض الأصول العقلية التي بها يعلم السمع بل الذي في السمع يوافق هذه الأصول^(٣).

(١) "عيون الأنباء" ابن أبي أصيبعة ٣٠ / ٢.

(٢) "الإسلام والحضارة العربية" محمد كرد علي ٤٥ / ٢.

(٣) "درء تعارض العقل والنقل" ابن تيمية ٩٤ - ٩١ / ١.

فصح كثيرًا من قواعد الفلاسفة، ونقض نظرياتهم بما يتوافق والشرعة، فهذا ابن دقيق العيد يقول: «فخر الدين وإن كان قد أكثر من إيراد شبه الفلاسفة وملأ بها كتبه فإنه قد زلزل قواعدهم»^(١).

فالرازي مفكر إسلامي اندس في بواطن المذاهب المختلفة ومحص براهينهم ودفع بهذه النظريات الكثير من البدع، فالتأمت به تفاريق الفرق، وأتى على أركانهم، وآواهم إلى ركن من الدين شديد، فواجه فرقًا متعددة كالمعتزلة والأشعرية المحافظة، والشيعة والغيلانية والواصلية والحشوية والخوارج والروافض، وطال صراعه مع الكرامية فناضلهم واستمر بهم، واستمروا به بالفتن التي لاحقته حتى أخرجه من كل بلد^(٢)، ويذكر ابن الأثير قصة تدل على شدة وطأة مقالات الرازي على الكرامية أنه لما عبر إلى ما وراء النهر بالغ سلطان الغور غياث الدين الغوري بإكرامه، وكان مذهب الكرامية قد تسلطن في الغور، فجرت مناظرة بين الرازي وشيخ الكرامية القاضي محمد الدين عبد المجيد المعروف بـ «ابن القدوة» فاشتد عليه الرازي، وذهب في حديثه كل مذهب، فرجع جمع غفير عن الكرامية، فثار الناس، وكادوا يقتتلون فأخرجه السلطان خشية الفتنة، وأعادته إلى هراة^(٣)، وعبارة ابن الأثير تجعل الخبر عيانًا يقول: «وثار الناس من كل جانب وامتلاً البلد فتنة، وكادون يقتتلوا ويجري ما يهلك فيه خلق كثير».

فالرازي كان في بحث دءوب عن الحقائق، واختبار دقيق للمذاهب الكلامية، ومداها الذي تنتهي إليه، فلم يسلم بأقوال القدماء، وإنها استقصى، وصحح وخطأ؛ ليصل إلى نتيجة اطمأن لها قلبه حيث وصلت به إلى المعلم الذي رسمه القرآن بداءة في تقرير حقائق الأشياء، ووضعها وضع الظواهر البينة حتى لا يدخل العقل في مضايق وتشعبات يحار في طرقها ثم لا يهتدي، واستدل بصور من المنهج العقلي للقرآن في عرض قضايا عظيمة شائكة بصورة الظاهر الذي لا مرية فيه ولا اختلاف، فلما تعمق فيها الإنسان ضل وأضل. يقول: «ورأيت

(١) "الوافي" الصفدي ٤/ ٢٥٢، ٢٥١.

(٢) "طبقات الشافعية" السبكي ٥/ ٣٤، ٣٣.

(٣) "الكامل" ٩/ ٥١٩.

أصح الطرق طريقة القرآن، واقرأ في التنزيه: ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾. وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾، و﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾. واقرأ في الإثبات: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾، و﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾، و﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾. واقرأ أن الكل من الله قوله: ﴿قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾^(١).

والإمام في دراسته للقرآن كان يبحث عن منهج القرآن العقلي؛ لذلك لم نجد في «تفسيره» عناية كبيرة بالبلاغة أو علوم العربية، وإنما هو تأمل في أسرار القرآن ومنهجه في عرض الآراء والبراهين والاستدلال ولم تأت هذه الدراسة جملة واحدة وإنما اختبرها أولاً على سورة «الفاتحة»، وبيّن ذلك قوله: «اعلم أنه مرّ على لساني في بعض الأوقات أن هذه السورة الكريمة يمكن أن يستنبط من فوائدها ونفائسها عشرة آلاف مسألة، فاستبعد هذا بعض الحساد، وقوم من أهل الجهل والغبي والعناد، وحملوا ذلك على ما ألفوه من التعليقات الفارغة عن المعاني، والكلمات الخالية عن تحقيق المعاهد والمباني»^(٢). وهذا يبين لنا طريقة استنباطه وأنها ليست تهويات للعقل لا تضبطها قرائن ولا تعقدها تحقيقات تحقق دلالتها وتنبه على خبثها. ثم أجرى ذلك على سورة «البقرة» وعنون لذلك بـ «تفسير البقرة» على الوجه العقلي لا النقل، فلما ثبت من صحة ما أراد استمر بتفسير القرآن على الوجه العقلي، وقد صدق ظني قول الصفدي: «وصيته تدل على حسن عقيدته.... ومقصده بتصانيفه»^(٣).

والمقصد الذي ذكره في تصانيفه هو: «ولقد اخترت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيت فيها فائدة تساوي الفائدة التي وجدتها في القرآن؛ لأنه يسعى في تسليم العظمة والجلال لله، ويمنع عن التعمق في إيراد المعارضات والمناقضات، وما ذاك إلا للعلم بأن العقول البشرية تتلاشى في تلك المضايق العميقة.. فلماذا أقول: كل ما ثبت بالدلائل الظاهرة من وجوب وجوده ووحدته وبرأئه عن الشركاء.. فذلك هو الذي أقول به، وألقى الله به،

(١) «شذرات الذهب» العماد ٥/ ٢٢٠، ٢١.

(٢) «التفسير» ٢١/ ١.

(٣) «الروافي» الصفدي ٤/ ٢٥٠.

وأما ما ينتهي الأمر فيه إلى الدقة والغموض فكل ما ورد في القرآن والأخبار الصحيحة المتفق عليها بين الأئمة المتبعين للمعنى الواحد فهو كما هو^(١).

وبعد ما أبعد التطواف في البحث عن الأدلة والبراهين يتبرأ الرازي من بيان كل برهان ومن تهويمات العقل، ويطلب إيماناً بالدين كإيمان العجائز تسليماً محضاً، يدخل من الأذن؛ ليقر متمكناً في القلب لا يزعه برهان ولا يشتهه جدل، يقول: «من لزم مذهب العجائز كان هو الفائز»^(٢).

وأما علوم العربية فلها أثر واضح في بعض تصنيفاته، فصنف في البلاغة والأدب والنحو، ففي النحو له كتاب «شرح مفصل الزمخشري»، ويظهر أثر هذا الجانب أيضاً في تفسيره في تصديده لبعض المسائل النحوية.

وكان من طالع سعد البلاغة أن هياً لها إماماً من أئمة المنطق كالرازي ليقعد أصولها، ويضبط قوانينها في منهج عقلي واضح دون أن يكدر عذوبتها وصفو معيها، ودون أن يحيف بين أصابعه نبعها، وإنما فتح الطريق لمن جاء بعد، فثمر عند السكاكي وشرح التلخيص. فكان حلقة الرصل بين البلاغة الأدبية عند عبد القاهر والبلاغة الاصطلاحية عند السكاكي^(٣)، وذلك في كتابه «نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز».

وجاءت عنايته بالدرس البلاغي لارتباطه بالعلوم التشريعية؛ لأن مدار التحدي بالإعجاز القرآني قائم في البلاغة، فصرف إليها بعضاً من حرصه، وظهر تأثير الدرس البلاغي في عقل الرازي من خلال تفسيره حيث امتد بنظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني، وانطلق من جزئية النظرية إلى كليتها، وأصل بها لعلم المناسبات فدرس صوراً لعلاقات النظم القرآني بدءاً من الجملة والجملة إلى عناصر السورة كلها فاتحة وآيات ومقاصد وأغراض ومقاطع. وانتهى إلى الامتداد الواسع للنظرية بدراسة عناصر انتظام القرآن جملة واحدة. وهذا الجهد هو مدار هذه الدراسة وعمودها.

(١) "عيون الأنباء" ابن أبي أصيبعة ٢٧/٢.

(٢) "وفيات الأعيان" ابن خلكان ٣/٣٨٢.

(٣) "البلاغة عند السكاكي" أحمد مطلوب ص ٢٥٠، و"الإمام فخر الدين" علي العمري ص ٥٧.

وعرف عنه أنه ذو بيان عال فكان خطيباً محدثاً وواعظاً مبلغاً مؤثراً، قصد مجلسه العامة والخاصة^(١)، وله شعر بالفارسية قيل إنه كان جيداً، وأما شعره بالعربية فـ «ليس في الطبقة العليا ولا السفلى»^(٢).

ويغلب على شعره الموضوعات التأملية والمعاني العقلية كما في قوله:

نهاية إقدام العقول عقل	وأكثر سعي العالمين ضلال
وأرواحنا في وحشة من جسوننا	وحاصل دنيانا أذى ووبال
ولم تستفد من بحثنا طول عمرنا	سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا
وكم قد رأينا من رجال ودولة	فبادوا جميعاً مسرعين وزالوا
وكم من جبال قد علت شرفاتها	رجال فزالوا والجبال جبال ^(٣)

وأظن أن سبب نزوع الرازي للشعر التأملية العقلية لطبيعة الجدل الذي خاضه في مدافعة العقائد الفاسدة، واتخذ من الشعر أداة يعالج بها بعض القضايا الشائكة كالوجود والتوحيد، وينظمها في بيان صافو بعيد عن تشعيبات الكلام، من ذلك قضية التوحيد التي كثر شعره فيها، فنظم قصيدة طويلة سماها «الهادية للتقليد المؤدية إلى التوحيد» يقول في مطلعها:

يا طالب التوحيد والإيمان	أبشر بكل كرامة وأمان
واعلم بأن أجل أبواب الهدى	تقرير دين الله بالبرهان ^(٤)

(١) "عيون الأنبياء" ابن أبي أصيبعة ٢٣/٢.

(٢) "الوافي" الصفدي ٢٤٩/٤.

(٣) "طبقات الشافعية" السبكي ٤٠/٥.

(٤) "البداية والنهاية" ابن كثير ٥٦/١٣.

وله قصيدة في تنزيه الله وأفعاله من العيب والعبث، ذكر مطلعها في «التفسير» يقول:

الحمد لله ذي الآلاء والسنعم والفضل والجود والإحسان والكرم
منزه الفعل عن عيب وعن عبث مقدس الملك عن عزل وعن عدم

وقال أيضًا:

تتمة أبواب السعادة للخلق بذكر جلال الواحد الأحد الحق
مدبر كل الممكنات بأسرها ومبدعها بالعدل والقصد والصدق
أجل جلال الله عن شبه خلقه وانصر هذا الدين في الغرب والشرق
إله عظيم الفضل والعدل والعلو هو المرشد المغوي هو المسعد المشقي^(١)

ويرتقي شعره إلى الطبقة العليا حينما يصطبغ بياضه في نفسه من خواطر وهواجس وأشجان، ويتعد عن تقرير الحقائق والبرهنة لها والتأمل فيها فتسامى لغته، وتتفأ معانيه صورًا بلاغية تكشف عن ملكة بيانية مفعمة بالعطاء والخصوبة، ولكن سيطرة العقل والتفكير على الرازي شغلته عن ترك نفسه على سجنها وإطلاق العنان لصوت الحس، ولكن حينما مات ابن له تفجر ألمه وفاضت نفسه حرقه وحزنًا، فجاءت كلماته مصبوغة بالأسى يقول فيها:

فلو كانت الأقدار منقادة لنا فدينك من حُماك بالروح والجسم
ولو كانت الأملاك تأخذ رشوة خضعنا لها بالرق في الحكم والاسم
ولكنه حكم إذا حان حينه سرى من مقر العرس في لجة اليم
سأبكي عليك العمر بالدم دائمًا ولم أنحرف عن ذاك في الكيف والكم
سلام على قبر دفنت بتربه وأتحفك الرحمن بالكرم الجسم
وما صدني عن جعل جفني مدفنًا لجسمك إلا أنه أبدًا يهمي

(١) «البداية والنهاية» ابن كثير ٥٦/١٣.

وأقسم إن مسوا رفاقي ورممتي أحسوا بنار الحزن في مكنم العظم
حياتي وموتي واحد بعد بعدكم بل الموت أولى من مداومة الغم
رضيت بها أمضى الإله بحكمه لعلمي بأنني لا يجاوزني حكمي^(١)

فتأمل «وما صديني عن جعلني جفني مدفنًا» فهي من النمط العالي، و «مسوا رفاقي ورممتي» في سياق القسم، ثم قف عند البيت الآخر وتأمل تجدد النفس استقرت بعد أن طارت شعاعًا وحسرة لتثبت بحقيقة «بأنني لا يجاوزني حكمي».

واصطبغ بعض شعره بروح تشاؤمية بعثها فيه واقع الرازي وما فيه من ألم ومحن، وسرت إليه هذه الروح - أيضًا - من أبي العلاء فقد كان حفيًا ببيانه يكثر الاستشهاد بشعره ويلقبه بحكيم الشعراء.

جاء ذلك في «تفسيره» يقول: «وقال حكيم الشعراء:

الروح عند إله العرش مبدؤه وتربة الأرض أصل الجسم والبدن
قد ألّف الملك الحنان بينهما ليصلحا لقبول الأمر والمحن
فالروح في غربة والجسم في وطن فاعرف ذمام الغريب النازح الوطن»^(٢)

وشرح شعره وردد كثيرًا من معانيه وتأملاته، ولا غرو في ذلك فالرازي صناعته الفلسفة والمنطق وأبو العلاء يشبع هذا النهم الفكري لديه.

ومن تأملاته في الحياة قوله:

أرى معالم هذا العالم الفاني ممزوجة بمخافات وأحزان
خيراته مثل أحلام مفزعة وشرة في البرايا دائم داني^(٣)

(١) التفسير الكبير "الرازي" ٥٢٣/٦.

(٢) "التفسير" ٤١١/٥.

(٣) السابق ٥٥/٧.

وقوله:

أرواحنا ليس ندري أين مذهبها وفي التراب توارى هذه الجثث
كون يرى فساد جاء يتبعه الله يعلم ما في خلقه عبث^(١)

وبعد هذه الحياة الحافلة بالعطاء مرض الشيخ فخر الدين في خوارزم، وأوصى تلاميذه بنقله إلى هراة، ودفن في الجبل المصائب لقرية مزداخان، وكان ذلك في عيد الفطر سنة ست وستائة للهجرة^(٢) ونفذت وصيته كما ذكر ابن خلكان «ودفن آخر النهار في الجبل المصائب لقرية مزداخان»^(٣).

وقيل في سبب مرضه إن الكرامية دسوا عليه من سقاه السم^(٤)، وقد كان بينهم وبينه عداوة شديدة؛ لشدة وطأة مقالة الرازي عليهم، فنالوا منه بالسب والتكفير.

أما ما عقبه من الأبناء فقد ذكر المؤرخون أن له من العقب ثلاثة: إبنان، وبنات واحدة، تزوجها علا الملك وزير السلطان، وأكبر أبنائه ضياء الدين اشتغل في العلوم زماناً ثم تجند لخدمة السلطان محمد بن تكش^(٥) والآخر لقبه شمس الدين، وقد توسم فيه الرازي سيما النبوغ فقد رزق «فطرة فائقة وذكاء خارقاً وكثيراً ما يصفه الإمام فخر الدين بالذكاء، ويقول: إن عاش ابني هذا فإنه يكون أعلم مني، وكانت النجابة تتبين فيه من الصغر»^(٦).

ويذكر الرازي في «تفسيره» أنه كان له ولد اسمه محمد توفي في الغربة في عنقوان شبابه، وكان كثيراً ما يدعو له عقب إتمامه لتفسير بعض السور، ويطلب ممن نظر في «تفسيره» أن يخصه ببعض الدعوات^(٧)، ورثاه بشعر كثير.

(١) "الوافي" الصفدي ٢٥٧/٤.

(٢) "طبقات الشافعية" السبكي ٣٩/٥، و"عيون الأنباء" ابن أبي أصيبعة ٢٧٠، ٢٦٢/٢.

(٣) "وفيات الأعيان" ٣٨٤/٣.

(٤) السابق ٣٨٢/٣.

(٥) "الوافي" الصفدي ٢٥٢/٤.

(٦) "عيون الأنباء" ابن أبي أصيبعة ٢٦٢/٢.

(٧) "التفسير" الرازي ٣١١/٦، ٥٥/٧.

تصانيف الرازي:

وللرازي مصنفات كثيرة اشتهرت وذاعت في الآفاق، وتفاوتت المصادر التي ترجمت له في العدّ والإحصاء، وبالعكس البعض، فانتهى بعددها إلى ما يزيد عن مائتي مصنف؛ لشهرة الرازي وتأليفه في فنون متنوعة، ولانتشار مصنفاته فقد قيل عنها: «انتشرت تصانيفه في الآفاق، ورزق فيها سعادة عظيمة، فإن الناس اشتغلوا فيها ورفضوا كتب المتقدمين»^(١).

وقد استعنت في ترتيب مصادره بدراسة الدكتور محمد صالح الزركان في رسالته «فخر الدين الرازي وآراؤه الكلامية والفلسفية»^(٢) التي تتبع فيها كتب الرازي في المصادر القديمة المطبوعة والمخطوطة والمراجع الحديثة، وخلصها إلى ثلاث مجموعات: الصحيح، والمشكوك في نسبه، والمنحول.

ووصل عدّ مصنفاته إلى مائة وثلاثة وتسعين كتابًا، صحح نسبه ثلاثة وتسعين منها، والمائة الباقية موزعة بين المشكوك في نسبه والمنحول. واقتصرت في اختياري على ما ثبت صحته أما المشكوك فيه فهي التي لم ترد عن القدماء وإنما ذكر د. الزركان أنه وجد أسماءها في فهارس بعض المكتبات التي تعذر وصوله إليها وليس لها سند من الكتب القديمة ولا في إحالات الرازي^(٣). فلما لم يصح سندها آثرت تركها، أما المنحولة فوجه إسقاطها ظاهر.

والكتب التي صحت نسبتها هي:

التفسير:

١ - أسرار التنزيل.

(١) "البداية والنهاية" ابن كثير ٥٥/٣.

(٢) عرض هذه الدراسة د. محمد هلال في كتابه "فخر الدين" ص ٧٧.

(٣) "فخر الدين" محمد هلال ص ٨٢.

- ٢- تفسير سورة الإخلاص.
- ٣- تفسير سورة البقرة على الوجه العقلي لا النقلي.
- ٤- تفسير سورة الفاتحة أو مفاتيح العلوم.
- ٥- التفسير الكبير مفاتيح الغيب.
- ٦- رسالة في التنبيه على بعض الأسرار المودعة في بعض آيات القرآن الكريم.^(١)

علم الكلام:

- ٧- أجوبة المسائل النجارية.
- ٨- كتاب الأربعين في أصول الدين.
- ٩- إرشاد النظار إلى لطائف الأسرار.
- ١٠- أساس التقديس.
- ١١- الإشارة في علم الكلام.
- ١٢- البيان والبرهان في الرد على أهل الزيغ والطغيان.
- ١٣- تحصيل الحق.
- ١٤- الجبر والقدر.
- ١٥- الجوهر الفرد.
- ١٦- حدوث العالم.
- ١٧- الخلق والبعث.
- ١٨- كتاب الخمسين في أصول الدين.
- ١٩- الزبدة في علم الكلام.

(١) وأيضاً طبع كتاب "عجائب القرآن" دار الكتب العلمية - بيروت - ضبطه جماعة من العلماء ١٤٠٤ هـ. وأشار إلى مضمونه الرازي في التفسير وسماه بـ "دلائل الإعجاز". ينظر: "التفسير الكبير" ٣٤٨/١.



٢٠- شرح أسماء الله الحسنى.

٢١- عصمة الأنبياء.

٢٢- الرسالة الكمالية في الحقائق الإلهية.

٢٣- المباحث العمادية في المطالب المعادية.

٢٤- المحصول في علم الكلام.

٢٥- رسالة المعاد.

٢٦- المعالم في أصول الدين.

٢٧- رسالة في النبوات.

٢٨- نهاية العقول في دراية الأصول.

٢٩- الأربعين في أصول الدين^(١).

المنطق والفلسفة والأخلاق:

٣٠- الآيات البينات في المنطق.

٣١- الآيات البينات في المنطق الكبير.

٣٢- أجوبة مسائل المسعودي.

٣٣- الأخلاق.

٣٤- أقسام اللذات.

٣٥- رسالة في زيارة القبور.

٣٦- تعجيز الفلاسفة أو تهجين تعجيز الفلاسفة.

(١) ذكره ابن أبي أصيبعة ورواينا إضافته هنا "عيون الأنبياء" ٣٠ / ٢، وذكره أيضًا الزركشي في "تشنيف المسامع" ونقل

عنه ١٥٨ / ١، وذكره الرازي في تفسيره، قال: "وفي استنباط الحجة من قوله: "وخلقهم" ما بينا في هذا الكتاب، وفي

كتاب الأربعين في أصول الدين" ٨٩ / ٥.

٣٧- شرح الإشارات والتنبيهات لابن سينا.

٣٨- شرح عيون الحكمة لابن سينا.

٣٩- لباب الإشارات.

٤٠- مباحث الحدود في المنطق.

٤١- المباحث المشرقية.

٤٢- مباحث الوجود والعدم.

٤٣- الملخص في الحكمة والمنطق.

٤٤- المنطق الكبير.

٤٥- في النفس والروح.

٤٦- الهدى في الفلسفة.

علم الكلام والفلسفة معاً:

٤٧- محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين من العلماء والحكماء والمتكلمين.

٤٨- المطالب العالية.

الجدل والخلافات:

٤٩- الجدل والكاشف عن أصول الدلائل وفصول العلل.

٥٠- الجدل.

٥١- شفاء العي والخلاف.

٥٢- الطريقة العلائية في الخلاف.

٥٣- الطريقة في الخلاف والجدل.

الفقه والأصول:

- ٥٤- إبطال القياس.
- ٥٥- إحكام الأحكام.
- ٥٦- البراهين البهائية.
- ٥٧- شرح الوجيز للغزالي.
- ٥٨- المحصول.
- ٥٩- المعالم في أصول الفقه.
- ٦٠- منتخب المحصول.
- ٦١- النهاية البهائية في المباحث القياسية.
- ٦٢- المحصل^(١).

أدب اللغة العربية وعلومها:

- ٦٣- شرح سقط الزند لأبي العلاء المعري.
- ٦٤- شرح نهج البلاغة.
- ٦٥- المحرر في حقائق أو «دقائق» النحو.
- ٦٦- نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز.

في التاريخ والسير:

- ٦٧- فضائل الأصحاب أو الصحابة الراشدين.
- ٦٨- مناقب الإمام الشافعي.

(١) ذكره ابن أبي أصيبعة ورأينا إضافته "عيون الأنباء" ٩٢/٢.

في الرياضيات والفلك:

٦٩- الهندسة.

٧٠- رسالة في علم الهيئة.

الطب والفراسة:

٧١- الأشربة.

٧٢- التشريح من الرأس إلى الحلق.

٧٣- شرح القانون لابن سينا.

٧٤- الطب الكبير أو الجامع الكبير.

٧٥- رسالة في علم الفراسة.

٧٦- مسائل في الطب.

٧٧- النبض.

السحر والرمل والتنجيم:^(١)

٧٨- الأحكام العلانية في الأعلام السماوية.

٧٩- كتاب في الرمل.

٨٠- السر المكتوم في مخاطبة الشمس والقمر والنجوم.

٨١- منتخب درج «تنكلوشا».

كتب عامة:

٨٢- اعتقادات فرق المسلمين والمشركين.

(١) وذكرنا سابقاً أن كثيراً من العلماء أبطل نسبة كتب السحر إليه وأجمع أكثرهم أن «السر المكتوم» ليس له. ينظر

مقدمة ابن خلدون ص ٤٠.

٨٣- جامع العلوم.

٨٤- حقائق الأنوار.

٨٥- الرياض المونقة في الملل والنحل.

٨٦- اللطائف الغيائية.

٨٧- مناظرات الفخر الرازي.

٨٨- الوصية.

كتب مجهولة الموضوع:

٨٩- تهذيب الدلائل وعيون المسائل.

٩٠- جواب الغيلاني.

٩١- الرعاية.

٩٢- رسالة في السؤال.

٩٣- الرسالة الصاحبية.

٩٤- الرسالة المجدية.

٩٥- نفثة مصدور.

وقبل طي الحديث عن مصنفات الرازي هناك قضية رأيت الوقوف عندها ببعض البسط لأمرين:

الأول: اتساع مساحة هذه القضية في كثير من الكتب التي ترجمت للرازي حتى أصبحت مسلمة لم أجد من يشكك في صحتها من العلماء إلا قلة، فكان من حق الإمام عليّ أن أراجع ما قيل وأحدث بما يمكن أن يقال في حل هذا الإشكال.

الثاني: وهو يتعلق بمنهجية البحث وتصحيح مساره حتى لا يدخل غير آراء الرازي في علم الرازي، وقد قيدت بحث التناسب بصورته عند الإمام فلو ثبت أن نصف التفسير

ليس له لكان عملاً في غير معمل، ولو غضضت الطرف عنه وكان للرازي لقضية بهذا الإغضاء على نمو دراسة التناسب عنده؛ لأن فكرة التناسب طرحت ثمار غرسها في النصف الأخير حيث اكتملت رؤيته للأنماط المتنوعة لعلم التناسب، فاستقام له ما كان يحاوله في بدء تأليفه وهو تفسير القرآن بالطريقة العقلية التأملية.

وأمام إلحاح هذه القضية تبعت ما قيل فيها فوجدت أكثر العلماء على أن الرازي لم يكمل التفسير وأن هناك من جاء بعده فأكماله والكثرة أجمعت على أنه وصل فيه إلى الأنبياء ثم أكمله نجم الدين القمولي، وهناك من قال إن شهاب الدين الخوي هو الذي أكمل التفسير إلى سورة «الأنبياء» ثم أتم نجم الدين التفسير، وبهذا القول لا يكون للرازي إلا ربع التفسير إن لم يكن أقله.

ومن خلال تتبع الزماني للمصادر التي شاع فيها هذا القول وجدت أقدم من قال به ابن خلكان [ت ٦٨١ هـ]^(١) ثم تبعه تاج الدين السبكي [ت ٧٧١ هـ]^(٢) ثم الدمشقي^(٣)، ثم ابن حجر العسقلاني [ت ٨٦٢ هـ]^(٤).

ولم أجد لهذا القول أدلة تسد بلغة الحقيقة فضلاً عن ترويتها، بينما نجد الحقيقة تجدد متونها البراهين ثم يجليها التأمل عند الذين قالوا بخلاف ذلك، فجعل الدين أبو الحسن القفطي [ت ٦٤٦ هـ] وهو أقرب من ترجم للرازي لعصره يذكر أن التفسير للإمام يقول: «كان في زماننا الأقرب.... من تصانيفه كتاب «تفسير القرآن الكبير» سماه «مفاتيح الغيب» - سوى تفسير الفاتحة وأفرد لها تصنيفاً - اثنا عشر مجلداً بخطه الدقيق»^(٥).

(١) «وفيات الأعيان» ٣/ ٣٨١.

(٢) «طبقات الشافعية الكبرى» ٢/ ١٧١.

(٣) «طبقات الشافعية» الدمشقي ٢/ ١٥.

(٤) «الدرر الكامنة» ٥/ ١٢٩.

(٥) «تاريخ الحكماء» ص ٢٩٣.

ويرجح كلامه قرب عهده من عصر الإمام، ورؤيته للتفسير بقوله: «بخطه الدقيق» برهان على رؤيته للنسخة التي بخط الرازي، ثم تزداد مصداقيته بتفصيله لأجزاء التفسير فالفاتحة والبقرة استقلتا في مجلد مجلد، وعرضت هذه المقولة على التفسير ووجدته يأنس بها فالفاتحة كتبت بطريقة مختلفة عن بقية التفسير، فهو يجعلها فصولاً، وفي تفسير البقرة يجعله مسائل ثم يفرع عنها فروعاً تستوفي ما في الآيات من معاني ومعارف وعلوم، وهي الطريقة العقلية التي بنى عليها تفسيره لسورة البقرة فلما استقامت معه الطريقة أجراها بعد ذلك على آل عمران حتى أتم القرآن على الوجه العقلي لا النقلي.

وهذا الصنفدي [ت ٧٦٤هـ] يؤكد أن الرازي «أكمل التفسير على المنبر إملاء»^(١). ويكتفي بعض المحققين بإثبات ذلك بقوله «وله التفسير الكبير»^(٢)، أو بالإعراض عن ذكر التردد في نسبة التفسير بينما يقف عند غيره من الكتب المنسوبة للرازي ويشكك في نسبتها، فهذا ابن كثير [ت ٧٧٤هـ] يقول: «وصنف في فنون كثيرة، فمن ذلك «تفسيره» المشهور، وله تفسير «الفاتحة» في مجلد مفرد». ويشكك في إتمامه لـ «الوجيز» يقول: «وقد شرح «الوجيز» أو أكثره» ويشكك في نسبة كتاب «السر المكتوم في مخاطبة الشمس والنجوم» يقول: «ومنهم من أنكر أن يكون من مصنفاته، والله أعلم»^(٣).

وفضلاً عن ذلك لم أجد السيوطي يجعل القمولي أو شهاب الدين في طبقات المفسرين فلو كانت تكملة «التفسير» لها لبوأتهما مكاناً مسبطاً في رواق علم التفسير.

وإذا تركنا التراجع جانباً وعدنا إلى «التفسير» وجدنا منظومة متكاملة لا يشذ فيها بيان عن بيان ولا نهج عن نهج يصدق بعضه بعضاً، تتعاقب فيه الآراء يحيل فيها هو بصدد تفسيره على المواضع السابقة المشابهة فيغرس الأفكار في لحمه اللاحقة فيصبح كلاماً متعاقباً يشي

(١) «الوافي» ٤ / ٢٥٤.

(٢) طبقات المفسرين «السيوطي» ١٥٠.

(٣) «طبقات الشافعية» ٧١٦ / ٢.

بعضه على بعض، ويرتد آخره مصدقاً لأوله، وهذه درجة عالية في إحكام المنهج، وغالباً ما تكون الإحالة بضمير المتكلم، مثل قوله في تفسير سورة «الزمر»: «واعلم أنا بالغنا في سورة «الأنعام» في تفسير قوله: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ (الأنعام: ١٢٥) في تفسير شرح الصدر وفي تفسير الهداية، ولا بأس بإعادة كلام قليل ههنا»^(١).

فـ«الزمر» داخلة في حيز المشكوك في نسبته للرازي، و«الأنعام» من السور التي قطع بنسبتها له فلما عانق بين سورة «الزمر» و«الأنعام» بضمير المتكلم الميث لحضور الرازي في تفسير هذه السورة تأكد لدي صحة النسبة، وقس على ذلك «الفتح» وغيرها.

و«التفسير» ليس فيه حضور لغير الرازي إلا ما نجده من إضافات للناسخ وهي على نوعين:

النوع الأول: إضافة عبارات الثناء أو الدعاء وغالباً ما تتكرر في ختام كثير من السور

التي أرخ فيها لانتهاه من تفسير السورة مثل «قال المصنف رحمه الله» و«قال المصنف رحمته» و«قال مولانا رحمته»^(٢).

وأحياناً تتخلل تلك العبارات كلام الإمام وتختلط به ويكون بعضها قطعاً من وضع الناسخ كما في قوله: «قال شيخنا ومولانا خاتمة المحققين والمجتهدين رحمته»^(٣) وفي موضع آخر: «قال المصنف الداعي إلى الله رحمته»^(٤).

والبعض الآخر من وضع الإمام نفسه كما في سورة «النساء» قال: «ويقول محمد الرازي مصنف هذا الكتاب ختم الله له بالحسن»^(٥). وفي «الأنعام»: «يقول مصنف هذا الكتاب

(١) «التفسير الكبير» ١٠/ ٣١، ٩/ ٦٨٣.

(٢) «التفسير الكبير» ١٠/ ٥٠٣.

(٣) «التفسير» ٩/ ٤٤٠.

(٤) السابق ٦/ ٣١.

(٥) السابق ٦/ ٨١.

محمد بن عمر الرازي»^(١). وكذلك وردت هذه الإضافات فيما شك في نسبته للرازي وذلك في سورة غافر «يقول مصنف هذا الكتاب رحمه الله»^(٢).

النوع الثاني: التدخل في أصل المتن وهذا النوع لم يوجد إلا في سورة الواقعة في موضعين:

الأول: في قوله: «وشيء من هذا رأيته في كلام الإمام فخر الدين رحمه الله بعد ما فرغت من كتابة هذا مما وافق خاطري خاطره على أني معترف بأني أصبت منه فوائد لا أحصيها»^(٣).

الثاني: في قوله: «المسألة الأولى أصولية ذكرها الإمام فخر الدين رحمه الله في مواضع كثيرة ونحن نذكر بعضها»^(٤).

وعلق عليها مصحح الكتاب: «هذه العبارة تشعر وتؤكد أن الكتاب أو هذه السور لمؤلف آخر غير فخر الدين الرازي، وإنما هذا لأحد تلاميذه أكملها بعد وفاته أو نقص بالأصل وكمله أحد العلماء المتأخرين، والله أعلم»^(٥).

واضطر هذان النصفان الدكتور العماري لاستثناء سورة "الواقعة" فقط ونسبتها إلى غير الرازي^(٦).

وأقول: إن مثل هذه الإضافة لا تقوم دليلاً على نسبة كل ما بعد «الأنبياء» لمضيف هذه العبارة، وإنما الحكم على الشيء باعتبار موقعه وما هو حادث فيه، والمتعارف عليه بين الباحثين أن إقحام بعض التعليقات والشروح وانتقالها من حواشي الكتاب وهوامشه إلى متنه

(١) "التفسير الكبير" ٥٦/٤.

(٢) السابق ٦٥/٥.

(٣) "التفسير" ٣٩٨/١٠.

(٤) السابق نفسه.

(٥) "التفسير" ٣٩٨/١٠.

(٦) الإمام فخر الدين ص ١٨٠، ١٧٩.

يكون بتدخل النسخ، وأن المنهج الصحيح هو تصفية المتن وردها إلى مكانها وليس نزع المتن ونسبته إلى غير مؤلفه، وأما إذا كانت الإضافة لإتمام نقص فيبقى عليها مع التنبيه على ذلك.

وهذه الإضافة وإن كانت تثير بعض الظنون إلا أنه يمكن قراءتها باعتبارها دليلاً مقوياً لنسبة الكتاب للرازي، لما تحمله في طياتها من مضامين تدل على أمانة جامع الكتاب أو الناسخ، وأنه لم يضيف شيئاً على كلام الرازي من خارج فكر الإمام، فهو يستعين على إتمام النقص بها ورد في كتبه، وهذا أشد توثيقاً؛ لأنه لا يعول على خاطره ولا يثبت إلا ما وافقه فيه الإمام وصادف مثله في كتبه. والثاني ظاهر في رجوعه إلى كتب الإمام أما الأول ففيه غموض؛ لأنه فصل مسائلها وأطبها، ومن عادة الإمام أنه إذا ذكرها من قبل أحال عليها وهنا أعاد تفسير قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] أثناء تحليله لقوله: ﴿كَأَمْثَلِ اللَّوْظِ الْمَكُونِ﴾ [الواقعة: ٢٣] فقد ذكر الإمام فيها إشكال دخول الكاف على المثل فظاهرها يوجب إثبات المثل وإن كان المقصود منها إيجاب نفي المثل عن الله تعالى بقوله: «وعندي فيه طريقة أخرى، وهي أن المقصود من ذكر الجمع بين حرفي التشبيه الدليل الدال على كونه منزهاً عن المثل، وتقديره أن يقال: لو كان له مثل لكان هو مثل نفسه، وهذا محال فإثبات المثل له محال، أما بيان أنه لو كان له مثل لكان هو مثل نفسه فالأمر فيه ظاهر، وأما بيان أن هذا محال فلائنه لو كان مثل مثل نفسه لكان مساوياً لمثله في تلك الماهية، ومبانياً له في نفسه، وما به المشاركة غير ما به المباينة، فتكون ذات كل واحد منهما مركباً وكل مركب ممكن، فثبت أنه لو حصل لوجب الوجود مثل لما كان هو في نفسه واجب الوجود، إذا عرفت هذا فقلوه: ليس مثله مثل شيء إشارة إلى أنه لو صدق عليه أنه مثل مثل نفسه لما كان هو شيئاً بناء على ما بينا أنه لو حصل لوجب الوجود مثل لما كان واجب الوجود فهذا يحتمله اللفظ»^(١).

وأعاد ذلك في سورة «الواقعة» وكان داعي ذلك بيان الفرق بين مستويين في الإبانة فيفيدها دخول الكاف على المثل ففي الواقعة أفاد الحقيقة وفي «الشورى» للمبالغة وذلك لأن

الشيء إذا كان له مثل فهو مثله، ويتضح من النص الثاني التفصيل لكلام الرازي، وتوضيح ما غمض في النص الأول حيث زاد عليه بيان موقع الكاف، وأن حمل الكاف على المبالغة دون الحقيقة يفيد الإيجاز، وتضمنت ردًا على المشرك والمعتل، وبين وجه كونها توحيدًا مع الدليل.

وهذا ظاهر في أنه زيادة على كلام الإمام ومبني على تلك المسألة التي ذكرها في «الشورى»، وقد بين ذلك في قوله: إن شيئًا ما ذكر هنا رآه في كلام الإمام أي أنه لم يخرج في إتمام النقص عن منهج الإمام في تناول المسألة، وليس في ذلك غضاضة؛ لأن الرازي كان يذكر بعض آراء تلاميذه في بعض المواقع وينسبها لهم، مثل قوله: «ثم قال تعالى: ﴿يَجْعَلُهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا﴾» (افصلت: ٢٩). قال مقاتل: يكونان أسفل منا في النار. ﴿لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ﴾» (افصلت: ٢٩). قال الزجاج: ليكونا في الدرك الأسفل من النار. وكان بعض تلاميذي ممن يميل إلى الحكمة يقول: المراد باللذين يضلان الشهوة والغضب، وإليهما الإشارة في قصة الملائكة بقوله: ﴿أَجْعَلْ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ (البقرة: ١٣٠). ثم قال: والمراد بقوله: ﴿يَجْعَلُهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا﴾» (افصلت: ٢٩) يعني يا رب أعنا حتى نجعل الشهوة والغضب تحت أقدام جوهر النفس القدسية، والمراد بكونها تحت أقدامها كونها مسخرين للنفس القدسية مطيعين لها، وألا يكونا مسئولين عليها قاهرين لها^(١).

ولا يسكن إلى الحقيقة إلا بالأدلة التي تقرر واقعًا ملموسًا يطمئن له قلب القارئ فتسكت عنه الظنون، ويجمع شعب أوديتها وليس أدل بالبرهان على ما كان من الحقائق سوى التأريخ، وهو الأداة التي استخدمها الرازي ليصدع بها الظنون فيبلغ حقيقة كتابته لـ «التفسير»، فأرخ لبدء «تفسيره» من أول سورة «آل عمران»، في عام ٥٩٥ هـ، واستمر في التأريخ لكثير من السور باليوم والشهر والسنة وفي أي ساعة من نهار أو ليل في بعض الأحيان حتى وصل إلى سورة الفتح التي ينقطع عندها التأريخ يقول الناسخ: «قال المصنف رحمه الله تعالى: تم تفسير هذه السورة يوم الخميس السابع عشر من ذي الحجة سنة ثلاث وستمائة من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام»^(٢).

(١) «التفسير» ٩/ ٥٥٨.

(٢) «التفسير» ١٠/ ٩٠.

أي قبل وفاته بستين وتسعة أشهر، علماً بأنه كان ما بين تفسيره للسورة والسورة التي تليها في الأجزاء الأخيرة ما يقارب يومين إلى خمسة أيام تقريباً.

وهذا قاطع على أن الرازي أتم «التفسير»، ولكن يظل هناك تساؤل يتعثر فيه اليقين وتلتبس فيه الحقيقة وهو كيف أطبق هذا الجمع الغفير على أنه لم يتمه؟

وفي ظني أن سبب ذلك أن الرازي كتب «تفسيره» وأملاه في أسفاره في أماكن متفرقة، ما بين غزنة وبغداد ثم أكمله في هراة.

وأثبت ذلك الإمام حيث قال في ختام سورة إبراهيم: «تم تفسير هذه السورة يوم الجمعة في أواخر شعبان سنة إحدى وستمائة ختم بالخير والغفران في صحراء بغداد»^(١).

وقال في سورة «المؤمن»: «تم تفسير هذه السورة يوم السبت الثاني من ذي الحجة من سنة ثلاث وستمائة من الهجرة من بلدة هراة»^(٢).

فكانت هناك نسختان، نسخة كتبها الرازي بخطه ويؤكد ذلك قوله: «وقال مصنف هذا الكتاب محمد بن عمر الرازي رحمه الله: في اليوم الذي كنت أكتب هذه الأوراق وهو اليوم الأول من محرم سنة اثنتين وستمائة حصلت زلزلة شديدة، وهذه عظيمة وقت الصبح»^(٣). ونسخة أملاها في هراة فلما وافاه الأجل جمع تلميذه نجم الدين القمولي أو شهاب الدين الخويي النسختين بالرجوع إلى ما أملاه الرازي على تلاميذه وإلى ما كتبه بخطه، ويؤكد ما ذهبت إليه قول جامع التفسير في ختام سورة هود: «تمت السورة بحمد الله وعونه وقد وجد بخط المصنف رحمته الله في النسخة المنتقلة منها»^(٤).

(١) «التفسير الكبير» ١١٥/٧، ٤٢٠/٧، ٥٠٤/٧.

(٢) «التفسير» ١١٥/٧.

(٣) السابق ٥٣٦/٩.

(٤) السابق ٢٢٣/٧.

أو قد تكون قاله سوء أشاعتها الكرامية وقذفت ألفاظاً فارغة جوفاء لم تعرض على تفسير الرازي؛ لينفي خبثها، وي طرح طلعتها، ويثد جينها، وكأنها قذفت من الغيب ليعلم ماكان يعالجه الإمام - رحمه الله - من عداء وفتن أحاطت به قبل موته فدافع منها ما دفع، فلما أسكته المنية بقيت الأحقاد تنفث سموها في فضل إنائه لتنتقص فضله، ولتصد ظمأ المعرفة عن مشاربه فنسب إليه علم السحر وهو منه براء، وقد صد هذا القول السبكي^(١) وابن خلدون^(٢). ونفيت عنه نسبة التفسير كاملاً إليه وهذه مفارقة عجيبة أن يثبت له كل علم الباطل ويضن عليه بنصف علم كتاب الله، وكأنهم يحاولون بالمناقلة في الإثبات والنفي - أي إثبات الشر له ونفي الخير عنه - يحاولون إزالته عن موضع الصدارة التي تسامق في علياء كمالها حتى قيل إن بلاد ما وراء النهر لم «نر لهم من بعد الإمام ابن الخطيب ونصير الدين الطوسي كلاماً يعول على نهايته في الإصابة»^(٣).

تفسير مفاتيح الغيب:

جاء هذا التفسير في خاتمة مصنفات الإمام وبعد حياة حافلة في ميادين متنوعة من العلوم والمعارف كان لها الأثر البالغ في أن جعلت له سمّاً خاصاً تميز به «وفاق به غيره من التفاسير»^(٤)، فكان أشبه بمدونة ضخمة لعلم الإمام في مختلف فروع المعرفة التي زاوها فتجد فيه اللغة والبلاغة وعلم الكلام والفقه وأصوله والجدل والمناظرة والطب وعلم الهيئة وغيرها. وكل ذلك ينسل من الآيات ويتداعى من نظمها وليس تزوداً أو جمعاً منتزعا من معارف شتى ليس بينها صلة، وإنما تنبعث من تحت نظم الآية وتنبع من لغتها وتراكيبها، فيخرج من فن إلى فن ومن فائدة إلى أخرى، تلتقي جميعها عند الآية وتصب فيها.

(١) "التفسير الكبير" ٦/ ٤١٥.

(٢) "طبقات الشافعية" ٣٦/ ٥، "المقدمة" ص ٥٤٤.

(٣) "المقدمة" ص ٤٤٥.

(٤) "وفيات الأعيان" ابن حلكان ٣/ ٣٨١.

وهذا منهج عام اتبعه الإمام في كتبه واستحسنه الناس وكان سبباً في إقبالهم على تأليفه واشتغالهم بها، يقول ابن خلكان: «انتشرت تصانيفه في البلاد واشتغلوا بها ورفضوا كتب المتقدمين وهو أول من اخترع هذا الترتيب في كتبه»^(١). و «أتى فيها بما لم يسبق إليه؛ لأنه يذكر المسألة ويفتح باب تقسيمها، وقسمة فروع ذلك التقسيم، ويستدل بأدلة السبر والتقسيم فلا يشذ منه عن تلك المسألة فرع لها بها علاقة، فانضبطت له القواعد وانحصرت له المسائل»^(٢).

بينما عده أبو حيان جامعاً لأشياء «كثيرة طويلة لا حاجة لها في علم التفسير؛ ولذلك قال بعض العلماء^(٣): «فيه كل شيء إلا التفسير»^(٤).

ورد ذلك أبو الحسن علي السبكي: «ما الأمر كذا إنها فيه مع التفسير كل شيء»^(٥).

فهذه الطريقة استطاع بها الإمام استيعاب كل ما في الآيات من دلائل من خلال مجاذبة باطنها بفرض الأسئلة في محاولة للإحاطة بجميع ما تحتويه من مسائل فكرية ولغوية مع عرض الآراء والاختلافات وتقريرها والاحتجاج لما صح عنده. وقد تميز الإمام بقدرة نافذة على استنباط المسائل، وبيان عالٍ في عرضها، ومنطق محكم في الاحتجاج لصحة ما يذهب إليه، وهو في توزيعه للمعارف المتنوعة يتعاهد النظم ويرعى حق المعنى واستقامته وهذا أصل في باب التفسير ذكره الزمخشري: «ومن حق التفسير أن يتعاهد بقاء النظم على حسنه والبلاغة على كمالها»^(٦).

(١) "وفيات الأعيان" ٣/ ٣٨٢.

(٢) "الروائي" الصفدي ٤/ ٢٤٩.

(٣) نسب الصفدي القول إلى ابن تيمية. ينظر: "الروائي" ٤/ ٢٥٤.

(٤) "البحر المحيط" ١/ ٢٢.

(٥) "الروائي" الصفدي ٤/ ٢٥٤.

(٦) "الكشاف" ٣/ ٦٣.

وبين رعاية الإمام للنظم القرآني وبلاغته إيراد بعض المباحث الكلامية للكشف عن الجانب الباهر في تأليفه وتنظيمه ولا يتسنى الوصول إليه إلا بهذه المباحث نحو تفسيره لقوله تعالى: ﴿ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [الشورى: ١٥].

يقول: «واعلم أن مخلوقات الله تعالى نوعان: عالم الجسمانيات وأعظمها السماوات، وعالم الروحانيات وأعظمها الملائكة، والله تعالى يقرر كمال عظمته لأجل نفاذ قدرته وهيته في الجسمانيات، ثم يردفه بنفاذ قدرته واستيلاء هيته على الروحانيات، والدليل عليه أنه تعالى قال في سورة: «عم يتساءلون» لما أراد تقرير العظمة والكبرياء بدأ بذكر الجسمانيات فقال: ﴿ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴾ [النبا: ١٣٧]. ثم انتقل إلى ذكر عالم الروحانيات، فقال: ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴾ [النبا: ١٣٨]. فكذا القول في هذه الآية بين كمال عظمته باستيلاء هيته على الجسمانيات، فقال: ﴿ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ ﴾. ثم انتقل إلى ذكر الروحانيات فقال: ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾. فهذا ترتيب شريف وبيان باهر.

واعلم أن الموجودات على ثلاثة أقسام: مؤثر لا يقبل الأثر، وهو الله سبحانه وتعالى وهو أشرف الأقسام، ومتأثر لا يؤثر، وهو القابل وهو الجسم وهو أخس الأقسام، وموجود يقبل الأثر من القسم الأول، ويؤثر في القسم الثاني وهو الجواهر الروحانية المقدسة، وهو المرتبة المتوسطة، إذا عرفت هذا فنقول: الجواهر الروحانية لها تعلقان: تعلق بعالم الجلال والكبرياء، وهو تعلق القبول فإن الجلايا القدسية والأضواء الصمدية إذا أشرقت على الجواهر الروحانية استضاءت جواهرها، وأشرقت ماهياتها، ثم إن الجواهر الروحانية إذا استفادت تلك القوى الروحانية، قويت بها على الاستيلاء على عوالم الجسمانيات، وإذا كان كذلك فلها وجهان: وجه إلى جانب الكبرياء وحضرة الجلال، ووجه إلى عالم الأجسام، والوجه الأول أشرف من الثاني إذا عرفت هذا فنقول: قوله تعالى: ﴿ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ إشارة إلى الوجه الذي لهم إلى عالم الجلال والكبرياء وقوله: ﴿ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ ﴾

﴿ فِي الْأَرْضِ ﴾ إشارة إلى الوجه الذي لهم عالم الأجسام، فما أحسن هذه اللطائف وما أشرفها وما أشد تأثيرها في جذب الأرواح من حضيض الخلق إلى أوج معرفة الحق. إذا عرفت هذا فنقول: أما الجهة الأولى وهي الجهة العلوية المقدسة، فقد اشتملت على أمرين: أحدهما: التسبيح، وثانيهما: التحميد؛ لأن قوله: ﴿وَالْمَلَكُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ يفيد هذين الأمرين، والتسبيح مقدم على التحميد، لأن التسبيح عبارة عن تنزيه الله تعالى عما لا ينبغي، والتحميد عبارة عن وصفه بكونه مفيضاً لكل الخيرات وكونه منزهاً في ذاته عما لا ينبغي، مقدم بالرتبة على كونه فياضاً للخيرات والسعادات؛ لأن وجود الشيء مقدم على إيجاد غيره، وحصوله في نفسه مقدم على تأثيره في حصول غيره، فلهذا السبب كان التسبيح مقدماً على التحميد، ولهذا قال: ﴿وَالْمَلَكُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾.

وأما الجهة الثانية: وهي الجهة التي لتلك الأرواح إلى عالم الجسمانيات، فالإشارة إليها بقوله: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ﴾ والمراد منه تأثيراتها في نظم أحوال هذا العالم وحصول الطريق الأصوب الأصلح فيها، فهذه ملامح من المباحث العالية الإلهية مدرجة في هذه الآيات المقدسة، ولنرجع إلى ما يليق بعلم التفسير، فإن قيل: كيف يصح أن يستغفروا لمن في الأرض وفيهم الكفار^(١).

فتأمل كيف داخلت تلك المباحث نظم الآية وفصلت مجملها ونسبت بعضها إلى بعض، ونبعت على حسن تجاور الجملتين وتلاءم عناصرها وألفت بين ما اختلف ظاهره.

وإذا وقفت على تدرج الإمام في عرض المباحث في قوله: «اعلم أن الموجودات..» وربطها بنظم الآية وردّ كل عنصر في الآية إلى نوعه في الأقسام الثلاثة في أصناف الموجودات - تأكد بذلك أن الترتيب جارٍ وفق سنن استوجبت تقديم: ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ على ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ﴾، ووجدت الإمام في كل ذلك لا يخرج عن محيط النظم وإنما يستخرج ما فيه من معاني مستودعة في خزائنه، وقد ذكر ذلك بقوله: «فهذه ملامح من المباحث العالية الإلهية مدرجة في هذه الآيات المقدسة».

وجرى الإمام في «تفسيره» على أصول التفسير ومصادره التي اعتاد العلماء إيرادها، فتناول الكثير من المباحث اللغوية والنحوية في حدود ما يتعلق بالمعنى دون تجاوزها إلى الخوض والاستطراد في قضايا خلافية لا طائل تحتها، فيبدأ بتحديد معنى اللفظة والاستشهاد على ذلك ببعض الشواهد الشعرية نحو قوله في كلمة الصيام: «اعلم أن الصيام مصدر صام كالقيام، وأصله في اللغة الإمساك عن الشيء والترك له، ومنه قيل: للصمت صوم؛ لأنه إمساك عن الكلام، قال الله تعالى: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا﴾ [مريم: ٢٦]. وصام النهار إذا اعتدل، وقام قائم الظهيرة، وقال امرؤ القيس:

فدعها وسلّ الهم عنك بجسرة
دَمَوِلْ إذا صام النهار وهجرا
وصامت الريح إذا ركدت، وصام الفرس إذا قام على غير اعتلاف.
وقال النابغة:

خيل صيام وخيل غير صائمة نحت العجاج وأخرى تملك اللججا^(١)
وكذلك كلمة الدابة في قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [هود: ٦].

قال فيها: «قال الزجاج: الدابة اسم لكل حيوان؛ لأن الدابة اسم مأخوذ من الديب، وبنيت هذه اللفظة على هاء التأنيث، وأطلق على كل حيوان ذي روح ذكراً كان أو أنثى، إلا أنه بحسب عرف العرب اختص بالفرس، والمراد بهذا اللفظ في هذه الآية الموضوع الأصلي اللغوي فيدخل فيه جميع الحيوانات، وهذا متفق عليه بين المفسرين»^(٢)

ويجعل الإمام الأصل في اللغة القرآن، فمجيء الكلمة وجريانها في نظم القرآن كاف في إثبات صحتها دون حاجة إلى التكلف والتأويل، وقد رد بعض أقوال النحاة لذلك، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥].

(١) "التفسير" ٢/ ٢٣٩.

(٢) "التفسير" ٦/ ٣١٨.

«قال أبو عبيدة والزجاج: «التهلكة» الهلاك، يقال: هلك يهلك هلاكًا، وهلكًا وتهلكة. قال الخارزنجي: لا أعلم في كلام العرب مصدرًا على تفعلة بضم العين إلا هدا، قال أبو علي: قد حكى سيبويه: التنصرة والتسترة، وقد جاء هذا المثال اسمًا غير مصدر. قال: ولا نعلمه جاء صفة. قال صاحب «الكشاف»: ويجوز أن يقال: أصله التهلكة كالتجربة والتبصرة على أنها مصدر هكذا فأبدلت الضمة بالكسرة، كما جاء الجوار في الجوار.

وأقول: إني لأتعجب كثيرًا من تكلفات هؤلاء النحويين في أمثال هذه المواضع، وذلك أنهم لو وجدوا شعرًا مجهولًا يشهد لما أرادوه فرحوا به، واتخذوه حجة قوية، فورود هذا اللفظ في كلام الله تعالى المشهود له من الموافق والمخالف بالفصاحة، أولى بأن يدل على صحة هذه اللفظة واستقامتها»^(١)

وفي هذا نقد لمنهج بعض المفسرين والنحاة واحتياهم على ألفاظ القرآن من أجل أن تستقيم مع ما ثبت عندهم بالسماع ولو كان أصلهم في ذلك شعر مجهول، وصرح بذلك في دفاعه عن قراءة حمزة بالجر لقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾ [النساء: ١].

يقول: «والعجيب من هؤلاء النحاة أنهم يستحسنون إثبات هذه اللغة بهذين البيتين المجهولين ولا يستحسنون إثباتها بقراءة حمزة ومجاهد، مع أنها كانا من أكابر علماء السلف في علم القرآن»^(٢)

فالإمام لا يأتى في «تفسيره» باتجاه فئة دون أخرى وإنما يفاتش كل رأي ويناقشه ولا يقرر إلا ما يتلاءم مع إعجاز القرآن ويحفظ له سمو نظمه كما في تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ﴾ [الأنفال: ٢٣].

«النحويون يقولون كلمة «لو» وضعت للدلالة على انتفاء الشيء لأجل انتفاء غيره فإذا قلت: لو جئتني لأكرمك، أفاد أنه ما حصل المجيء وما حصل الإكرام. ومن الفقهاء

(١) "التفسير" ٢/ ٢٩٤.

(٢) "التفسير" ٣/ ٤٨٠.

من قال: إنه لا يفيد إلا الاستلزام، فأما الانتفاء لأجل انتفاء الغير، فلا يفيد هذا اللفظ والدليل عليه الآية والخبر، أما الآية فهي هذه الآية، وتقريره: أن كلمة «لو» لو أفادت ما ذكره لكان قوله: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ﴾ [الأنفال: ٢٣]. يقتضي أنه تعالى ما علم فيهم خيراً وما أسمعهم، ثم قال: ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا﴾ [الأنفال: ٢٣]. فيكون، معناه: أنه ما أسمعهم وأنهم ما تولوا، لكن عدم التولي خير من الخيرات، فأول الكلام يقتضي نفي الخير، وآخره يقتضي حصول الخير، وذلك متناقض، فثبت أن القول بأن كلمة «لو» تفيد انتفاء الشيء لانتفاء غيره يوجب هذا التناقض، فوجب ألا يصار إليه.

وأما الخبر فقوله عليه السلام: «نعم الرجل صهيب لو لم يخف الله لم يعصه» فلو كانت لفظة «لو» تفيد ما ذكره لصار المعنى أنه خاف الله وعصاه، وذلك متناقض. فثبت أن كلمة «لو» لا تفيد انتفاء الشيء لانتفاء غيره، وإنما تفيد مجرد الاستلزام. واعلم أن هذا الدليل أحسن إلا أنه على خلاف قول جمهور الأدباء^(١).

وكذلك رده لكل تأويل بغير ما جاء به لفظ القرآن ويرى أن الأولى حمل كلام الله على أصله كما في تأويل قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ سُلُسْلُومٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلَيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ [الطور: ٣٨] ف«السلم لا يستمع فيه وإنما يستمع عليه، فما الجواب؟ نقول من وجهين: أحدهما: ما ذكره الزمخشري أن المراد: يستمعون صاعدين فيه، وثانيهما: ما ذكره الواحدي أن في معنى على، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَأُصْلَبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ [طه: ٧١] أي على جذوع النخل. وكلاهما ضعيف لما فيه من الإضمار والتغيير^(٢).

فالرازي يرى أنه لا حاجة للتغيير أو الإضمار؛ ليستقيم المعنى مع «في» وإنما تعليق الآية برأس الغرض الذي سبقت له يكشف عن المراد، فهي تتميم لقوله: ﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ

(١) «التفسير» ٣/ ٤٨٠.

(٢) «التفسير» ١٠/ ٢١٨.

رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيِّطُونَ ﴿٣٧﴾ [الطور: ٣٧]؛ «فإن من لا يكون بازنًا ولا كاتبًا قد يطلع على الأمر بالسماع من الخازن أو الكاتب، فقال: أنتم لستم بخزنة ولا كتبة، ولا اجتمعتم بهم؛ لأنهم ملائكة ولا صعود لكم إليهم»^(١).

فاختيار الظرف محض لحمل النفي على الصعود وليس للاستماع وجعله قرينة مرجحة لذلك.

ويظهر ذلك بجلاء في رده كلام ابن جني في اعتبار العرب بالمعاني وتحويلهم عليها واستدلاله على ذلك بأحوال بعض القراءات يقول: «قرأ أنس: "وَأَصُوبٌ قِيلًا" ف قيل له: يا أبا حمزة، إنما هي: ﴿وَأَقُومٌ قِيلًا﴾ [المزمل: ٦]. فقال أنس: إن أقوم وأصوب وأهياً واحد. قال ابن جني: وهذا يدل على أن القوم كانوا يعتبرون المعاني، فإذا وجدوها لم يلتفتوا إلى الألفاظ، ونظيره ما روي أن أبا سوار الغنوي كان يقرأ: ﴿فَجَاسُوا خَلَلٌ الدِّيَارِ﴾ [الإسراء: ٥] بالخاء غير المعجمة، ف قيل له: إنما هو جاسوا. فقال: حاسوا وجاسوا واحد. وأنا أقول: يجب أن نحمل ذلك على أنه إنما ذكر ذلك تفسيرًا للفظ القرآن لا على أنه جعله نفس القرآن، إذ لو ذهبنا إلى ما قاله ابن جني لارتفع الاعتماد عن ألفاظ القرآن ولجوزنا أن كل أحد عبر عن المعنى بلفظ رآه مطابقًا لذلك المعنى، ثم ربما أصاب في ذلك الاعتقاد وربما أخطأ، وهذا يجزى إلى الطعن في القرآن، فثبت أنه حمل ذلك على ما ذكرناه»^(٢).

فالأصل في دراسة القرآن ألفاظه ونظمه؛ لأنها مناط الإعجاز فتحت كل كلمة فوائد تقصر عنها همم البشر وتفوق مُتَنَّهُم، فكان هاجس الإمام التدقيق فيما تكتنزه الألفاظ من خصوصيات يستحيل معها التبديل والتغيير ولو دل غيرها على ظاهر المراد. يقول في قوله تعالى: ﴿وَفَكَهْمٌ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾ [الحج: ٢٠، ٢١]. «هل في تخصيص التخير بالفاكهة والاشتهاء باللحم بلاغة؟ قلت: وكيف لا، وفي كل حرف من حروف

(٣) "التفسير" ١٠/٢١٨.

(١) "التفسير" ١٠/٦٨٦.

القرآن بلاغة وفصاحة، وإن كان لا يحيط بها ذهني الكليل، ولا يصل إليها علمي القليل، والذي يظهر لي فيه أن اللحم والفاكهة إذا حضرا عند الجائع تميل نفسه إلى اللحم، وإذا حضرا عند الشبعان تميل نفسه إلى الفاكهة، والجائع مشتهٍ، والشبعان غير مشتهٍ، وإنما هو مختار إن أراد أكل، وإن لم يرد لا يأكل، ولا يقال في الجائع: إن أراد أكل؛ لأن «إن» لا تدخل إلا على المشكوك فيه، إذا علم هذا ثبت أن في الدنيا اللحم عند المشتهي مختار، والفاكهة عند غير المشتهي مختارة، وحكاية الجنة على ما يفهم في الدنيا فخص اللحم بالاشتواء والفاكهة بالاختيار. والتحقيق فيه من حيث اللفظ أن الاختيار هو أخذ الخير من أمرين، والأمران اللذان يقع فيهما الاختيار في الظاهر لا يكون للمختار أو لا ميل إلى أحدهما، ثم يتفكر ويتروى ويأخذ ما يغلبه النظر على الآخر، فالتفكه هو ما يكون عند عدم الحاجة، وأما إن اشتهى واحد فاكهة بعينها فاستحضرها وأكلها فهو ليس بمتفكه وإنما هو دافع حاجة، وأما فواكه الجنة تكون أولاً عند أصحاب الجنة من غير سبق ميل منهم إليها ثم يتفكهون بها على حسب اختيارهم، وأما اللحم فتميل أنفسهم إليه أدنى ميل فيحضر عندهم، وميل النفس إلى المأكول شهوة، ويدل على هذا قوله تعالى: ﴿قُطُوفُهَا دَانَةٌ * كُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ [الحاقة: ٢٣]. وقوله: ﴿وَجَنَّ الْجَنَّةِ دَانٍ﴾ [الرحمن: ٥٤] وقوله تعالى: ﴿وَفَكَهْمٌ كَثِيرٌ * لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ [الواقعة: ٣٢، ٣٣]. فهو دليل على أنها دائمة الحضور، وأما اللحم فالمروي أن الطائر يطير فتميل نفس المؤمن إلى لحمه فينزل مشوياً ومقلياً على حسب ما يشتهيه. فالحاصل أن الفاكهة تحضر عندهم فيتخير المؤمن بعد الحضور، واللحم يطلبه المؤمن وتميل نفسه إليه أدنى ميل، وذلك لأن الفاكهة تلذ الأعين بحضورها، واللحم لا تلذ الأعين بحضوره، ثم إن في اللفظ لطيفة، وهي أنه تعالى قال: ﴿مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٢٠]. ولم يقل: مما يختارون مع قرب أحدهما إلى الآخر في المعنى، وهو أن التخير من باب التكلف فكأنهم يأخذون ما يكون في نهاية الكمال، وهذا لا يوجد إلا لمن لا يكون له حاجة ولا اضطرار^(١).

فرد بلاغة الاختيار إلى مداخلة اللفظ للنفوس ونوازعها تجاه تلك الاحتياجات واستدل بها على حال المؤمن مع الطيبات في الآخرة، فالحضور الذي لا ينقطع للفاكهة ناسبه المبالغة في الاختيار والتكلف فيه، فكأنهم يأخذون ما بلغ نهاية الكمال واستلزم ذلك انتفاء الحاجة، أما اللحم فالؤمن يطلبه وتميل إليه نفسه فخصص بلفظ الاشتهاء، ونبه ذلك التخصيص على كمال الجنة؛ لأنه لما كانت الفاكهة مما يستلذ الإنسان بها ويأنس بمرآها ناسبها ديمومة الحضور، ولما كان اللحم بخلاف ذلك ناسبه الطلب.

فالإمام كلف بتحليل كل لفظ في القرآن والوقوف على أسراره وأحواله في الإبانة، لذلك تفرد «تفسيره» بلمحات بلاغية ولطائف هي من الفرائد التي اختص بها كتابه، فهناك ألفاظ لم يقف عندها المفسرون وتجاوزتها أنظارهم ظناً أنها من قبيل المفسر، فتناولها الرازي وفتح أسرارها وبعث نكاتها، ولو توافرت بعض أقلام الباحثين للعناية بتلك الألفاظ التي تركها المفسرون قبله وبين موقف الإمام منها وكيف استخرج ودائعها وفسر مضمورها لكان فيه خير كثير. ومن شواهد ذلك قوله: «فإن قيل: ما الفائدة في تقديم السماء على الفعل حيث قال: ﴿وَوَضَعَ أَلْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٧].» وتقديم الفعل على الميزان حيث قال: ﴿وَوَضَعَ أَلْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٧]. نقول: قد ذكرنا مراراً أن في كل كلمة من كلمات الله فوائد لا يحيط بها علم البشر إلا ما ظهر، والظاهر ههنا أنه تعالى لما عد النعم الثمانية كما بينا وكان بعضها أشد اختصاصاً بالإنسان من بعض فما كان شديد الاختصاص بالإنسان قدم فيه الفعل، كما بينا أن الإنسان يقول: أعطيتك الألف وحصلت لك العشرات، فلا يصرح في القليل بإسناد الفعل إلى نفسه، وكذلك يقول في النعم المختصة: أعطيتك كذا، وفي التشريك: وصل إليك مما اقتسمتم بينكم كذا، فيصرح بالإعطاء عند الاختصاص، ولا يسند الفعل إلى نفسه عند التشريك، فكذلك ههنا ذكر أموراً أربعة بتقديم الفعل، قال تعالى: ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ [الرحمن: ٢-٤]، و﴿وَوَضَعَ أَلْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٧]، وأمور أربعة بتقديم الاسم، قال تعالى: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ * وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ * وَالسَّمَاءُ رَفَعَهَا وَوَضَعَ أَلْمِيزَانَ * أَلَّا تَنْظُرُوا فِي أَلْمِيزَانِ * وَأَقِيمُوا الزُّلْزَالَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَحْسِرُوا أَلْمِيزَانَ * وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾ [الرحمن: ٥-١٠]. لما أن تعليم

القرآن نفعه إلى الإنسان أعود، وخلق الإنسان مختص به، وتعليمه البيان كذلك، ووضع الميزان كذلك؛ لأنهم هم المتفعلون به، لا الملائكة، ولا غير الإنسان من الحيوانات، وأما الشمس والقمر والنجم والشجر والسماء والأرض فيستفعل به كل حيوان على وجه الأرض وتحت السماء^(١).

وكذلك دلالة التنكير في قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ وَفِتَالٍ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٧]. قال فيها: «فإن قيل: لم نكر القتال في قوله تعالى: ﴿قُلْ قِتَالٌ﴾ [البقرة: ٢١٧] ومن حق النكرة إذا تكررت أن تحيى باللام حتى يكون المذكور الثاني هو الأول؟. لأنه لو لم يكن كذلك كان المذكور الثاني غير الأول كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٦].

قلنا: نعم ما ذكرتم أن اللفظ إذا تكرر وكان نكرتين كان المراد بالثاني إذن غير الأول والقوم أرادوا بقولهم: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ وَفِتَالٍ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٧] ذلك القتال المعين الذي أقدم عليه عبد الله بن جحش، فقال تعالى: ﴿قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ [البقرة: ٢١٧]. وفيه تنبيه على أن القتال الذي يكون كبيراً ليس هو هذا القتال الذي سألتهم عنه، بل هو قتال آخر؛ لأن هذا القتال كان الغرض به نصرته الإسلام وإذلال الكفر فكيف يكون هذا من الكبائر؟ إنها القتال الكبير هو الذي يكون الغرض فيه هدم الإسلام وتقوية الكفر، فكان اختيار التنكير في اللفظين لأجل هذه الدقيقة إلا أنه تعالى ما صرح بهذا الكلام؛ لئلا تضيق قلوبهم بل أبهم الكلام بحيث يكون ظاهره كالموهم لما أرادوه، وباطنه يكون موافقاً للحق، وهذا إنما حصل بأن ذكر هذين اللفظين على سبيل التنكير، ولو أنه وقع التعبير عنهما أو عن أحدهما بلفظ التعريف لبطلت هذه الفائدة الجليلة، فسبحان من له تحت كل كلمة من كلمات هذا الكتاب سر لطيف لا يهتدي إليه إلا أولو الأبواب^(٢).

(١) "التفسير" ١٠/٣٤٤.

(١) "التفسير" ٢/٣٨٨.

وأيضاً ما ذكره في قوله تعالى: ﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ * وَطَلْحٍ مَّنْضُودٍ﴾ [الواقعة: ٢٨-٢٩] وأنها تتضمن إشارة إلى جميع الأشجار؛ لأن «البليغ يذكر طرفي أمرين، يتضمن ذكرهما الإشارة إلى جميع ما بينهما، كما يقال: فلان ملك الشرق والغرب، ويفهم منه أنه ملكهما وملك ما بينهما...» فقوله تعالى: ﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ * وَطَلْحٍ مَّنْضُودٍ﴾ إشارة إلى ما يكون ورقه في غاية الصغر من الأشجار، وإلى ما يكون ورقه في غاية الكبر منها، ف وقعت الإشارة إلى الطرفين جامعة لجميع الأشجار نظرًا إلى أوراقتها.. وهذا جواب فائق وفقنا الله تعالى له^(١).

ووظف فروغاً معرفية أخرى تكشف بيانه وتطلع الناظر على غيبه فاقتفى بها الإمام آثار الإعجاز الكامن وراء لغة القرآن وكيف صهرت علومًا متنوعة ومعارف شتى في ألفاظ معدودة ويتأكد ذلك بما رواه: «أن عمر بن الحسام كان يقرأ كتاب المجسطي على عمر الأبهري، فقال بعض الفقهاء يومًا: ما الذي تقرأه. فقال: أفسر آية من القرآن، وهي قوله: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا﴾ [ق: ٦٠] فأنا أفسر بها كيفية بنائها. ولقد صدق الأبهري فيما قال فإن كل من كان أكثر توغلًا في بحار مخلوقات الله تعالى كان أكثر علمًا بجلال الله تعالى وعظمته»^(٢).

فعلوم الطبيعة آلات تتيح للمفسر التأمل والوصول إلى الغرض من عرض آيات الآفاق وإدراك ما انطوى فيها من دلائل الألوهية وتفصيلها بتلك العلوم، لذلك عنون لتفسيره بـ«مفاتيح الغيب»؛ «لأن المفاتيح يتوصل بها إلى ما في الخزائن المستوثق منها بالأغلال والأقفال، فالعالم بتلك المفاتيح وكيفية استعمالها في فتح تلك الأغلال يمكنه أن يتوصل بتلك المفاتيح إلى ما في تلك الخزائن»^(٣). فالقرآن خزائن تلك العلوم وفتحها لا يكون إلا بامتلاك

(١) "التفسير" ١٠/ ٤٠٤.

(٢) "التفسير" ٢/ ١٥٤.

(٣) السابق ٥/ ١٠.

تلك العلوم وتحصيلها ؛ لذلك أضاف الإمام إلى جهود السابقين صنفاً آخر من المعرفة؛ ليكتمل فهم القرآن وتصور مقاصده.

ولم يقتصر على ما شاع عند المفسرين من حصر أدواته في علوم العربية والقراءات والناسخ والمنسوخ وعلم أسباب النزول والمكي والمدني والفقه وأصوله، وقد نسب له الشاطبي ذلك المنهج وجعله مبتدعاً له يقول: «وأما غير ذلك»^(١) فقد يعده بعض الناس وسيلة أيضاً ولا يكون كذلك، كما تقدم في حكاية الرازي الذي جعل علم الهيئة وسيلة إلى فهم قوله: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَيْنَنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾^(٢).

وعاب عليه ذلك؛ لأنه فيما هو ظاهر في الموجودات وهذا مما تجنبه السلف الصالح من الصحابة والتابعين وعدوه من التكلف لظهوره ولأنه لا ينبني عليه عمل ولا يترتب عليه تكليف^(٣). وتبعه صاحب «المنازل» وعد تلك الإضافة «صارفاً آخر عن القرآن»^(٤).

ويرد ما ذهبوا إليه حاجة عصره الذي كثر فيه الجدل العقلي بين الملل والنحل المختلفة وأصحاب الفرق الضالة من الكرامية والجبرية والقدرية والمجسمة وغيرها فتصدى لمذاهبهم وقارعهم بآيات القرآن وبراهين العقل وفند شبهاتهم وزيف أقوالهم.

وقد ذكر ابن عاشور أن شيوع النزعة العقلية والجدلية في «تفسير الرازي» منشؤها حاجة علوم الدين لمعاوضة الفلسفة في عصر شاعت فيه الفلسفة العقلية وتقلدت زمام السيطرة كثير من الاتجاهات المعرفية المختلفة، مما حدا بالإمام إلى الاستعانة بها لخدمة علوم الدين، فهياً ذلك لأن تصل الحكمة على يده شأواً بعيداً^(٥).

(١) أي العلوم الأنفة الذكر.

(٢) «الموافقات» ١٩٨/٤.

(٣) ينظر: الموافقات ٥٥/١.

(٤) المنازل محمد رشيد رضا ٧/١.

(٥) ينظر: «التفسير ورجاله» ٧٦-٧١.

وفتح هذا الباب كلام بعض الأئمة حيث نبهوا إلى أن كل علم أصله في القرآن، ومنتزع من تحت نظمه، قال عبد الله بن مسعود: «من أراد العلم فليثور القرآن، فإن فيه علم الأولين والآخرين». رواه البيهقي في «المدخل»، وقال: أراد به أصول العلم^(١).

فكلمة ابن مسعود رضي الله عنه منحت العلوم المتنوعة الشرعية لدخول حقل التفسير، وردت زعم من جعل المنهج الحق فيه هو دراسته باعتباره نزل للوعظ والإرشاد وإن مقصده الهداية^(٢). فالهداية وإن كانت مداره إلا أن الأصل في الإنزال التحدي وإثبات العجز للناس كافة عن الإتيان بمثله، وذلك لا يأتي العلم به إلا بأمر زائد عن الظاهر؛ لأن أمر الإعجاز مستكن في باطنه. ونبه على ذلك بقوله: «فليثور القرآن» فلف في بنائها معاناة المفسر في استلال ما تحت بلاغته من علوم ومعارف.

فـ «التفسير الكبير» محاولة للبرهنة على صحة ما ذهب إليه العلماء والرجوع بالعلوم إلى أصولها ومنابعها في البيان القرآني والتأصيل له بذلك مع تصحيح مسارها بعرض براهينها وقواعدها وضبطها على ما استقر في القرآن، وهذا لا يتصادم مع الأصل الذي نزل له القرآن بل إن أعظم علومه العلم بأنه «نزل لدفع شبه الظالمين وإبطال عناد المعاندين، وإثبات البراهين العقلية الموافقة للأدلة الثقلية. وهذا الفن لا يدركه إلا العلماء المستبصرون الذين منَّ الله عليهم بإدراك مغازي كتابه»^(٣). وقد أكد ابن تيمية سلامة منهجه وأنه لم يستقر على ضلالة، ويتمنى لو أن الرازي «قد جمع ما تبرهن له في العقل الصريح من كلام شتى الفرق لوجد أن كل صريح المعقول مطابقاً لصحيح المنقول»^(٤).

(١) «البرهان» الزركشي ٢٨/١.

(٢) ينظر «المنار» محمد رشيد رضا ٧٠٦/١.

(٣) من درس للشيخ صالح المغامسي بعنوان: «من أعظم علوم القرآن». وينظر في ذلك أيضاً: «بلاغة القرآن» محمد الخضر حسين ص ٢٥.

(٤) «شرح حديث النزول» ص ١٧٥.

وقد كان منه ذلك حيث ذكر في وصيته إن تأليفه كانت اختبارًا للطرق الكلامية والخلوص منها إلى تأكيد مسلمة أثبتها بقوله: «ولقد اخترت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيت فيها فائدة تساوي الفائدة التي وجدت في القرآن»^(١).

وقد بنى ابن تيمية على تلك الفائدة كتابه «درء تعارض العقل مع النقل» فوضع علمًا للمنطق يستمد أصوله وقوانينه من براهين القرآن وطرائقه في الاحتجاج فأدخل وهج القرآن ونوره على ظلمات الفلسفة فاهتدت قوانينها وأسلمت أصولها وفروعها، ونال بفضل تأليفه خيرية رد علوم الدين إلى القرآن وجمعها عليه وتصفيته من كل أثر للثقافات الدخيلة حتى قيل عنه: «كان أول من أسلمت علوم الدين على يديه».

ويرد ما ذكره من ذكره لأشياء ظاهرة في الوجود؛ فلأن التنبيه على الظواهر ولفت الأنظار إليها زيادة تذكير وتعليم، فالأذهان قد تنصرف عنها ولا تجذب فيها مستمسكًا لإلفها فإذا ما صيغت صياغة علمية واتخذت أداة لتقرير معاني يكاد يكون أكثرها من المهفات كانت أفضل وسيلة؛ لأن النفس إذا أورد عليها ما تنكره بها تألفه زالت تلك الوحشة وهيات النفس لمكاشفتها وتأمليها؛ لأنها وجودها الذي يلابسها. فكان الإمام «يريد أن يفسر القرآن الكريم بالوجود كله بما فيه من علوم ومعارف وتأملات شخصية»^(٢).

واستحسن كثير من المفسرين ذلك المنهج فكان إمامًا لا تحيد عنه الأنظار في تفسير الآيات الكونية، فهذا البيضاوي إذا عرض للآيات الكونية لا يتركها بدون أن يخوض في مباحث الكون والطبيعة، قال عنه صاحب «كشف الظنون»: «وتفسيره هذا كتاب عظيم الشأن غني عن البيان، لخص فيه من «الكشاف» ما يتعلق بالإعراب والبيان، ومن «التفسير الكبير» ما يتعلق بالحكمة والكلام»^(٣).

(١) «طبقات الشافعية» ابن كثير ٢/ ٧٢٠.

(٢) «الرازي مفسرًا» محسن عبد الحميد ص ٦٧.

(٣) «كشف الظنون» ١/ ١٢٧.

المبحث الثاني

النظم والتناسب بين الجملة والنص

اتخذ القرآن مكان الصدارة في الدراسات البيانية باعتباره النمط الأعلى الذي قهر الأطماع في الوصول إلى مثله وسره والإحاطة ببلاغته وامتلاك غوره، وظلت الأقلام تجاذب نكاته وأسراره، وتستثير خباياه، وتستكشف مناطق الإعجاز فيه، فتظفر بها حيناً فتجليها، وتحار فيها أحياناً فتدل عليها وتومئ إليها، فحظي بدراسات متعددة لأسلوبه وطرائقه في تصنيف المعاني وتنوع أفانيه، مما كان عاملاً في نشأة الكثير من المباحث البلاغية والنقدية، ومن أبين ما استوقف العلماء حسن النسق في ترتيب معانيه وانتظام عناصرها، وتنوع رسوم التأليف بين مصادرها ومواردها، واطراد هذا النسق في جميع القرآن على تصرفه في المعاني، وانتقالاته في الفنون والأغراض، فيخلص من الاحتجاج إلى الوعيد، ومن الإعذار إلى الإنذار، ومن القصص إلى أدلة التوحيد وبراهينه، ثم نجد هذه المعاني المختلفة مؤتلفة ومتمكنة في موقعها أحسن تمكن حتى لا يصلح غيرها مما هو من جنسها في موقعها.

وقد عول الباقلاني كثيراً على جانب الضم والترتيب في القرآن وجعله مناط الإعجاز، فتأمل قوله: «انظر في آية آية، وكلمة كلمة: هل تجدها كما وصفنا: من عجيب النظم، وبديع الرصف، فكل كلمة لو أفردت كانت في الجمال غاية، وفي الدلالة آية، فكيف إذا قارنتها أخواتها، وضامت ذواتها مما تجري في الحسن مجراها وتأخذ في معناها؟... فأجل الرأي في سورة سورة، وآية آية، وفاصلة فاصلة، وتدبر الخواتم والفواتح، والبوادي والمقاطع، ومواضع الفصل والوصل، ومواضع التنقل والتحول ثم اقضي ما أنت قاضي»^(١).

وكلام الباقلاني نظر في ترتيب المعاني، وبناء بعضها على بعض، وتدبر في الفواتح والمقاطع والمعاهد.

وتزايد البلاغة وتبلغ شأواً تعجز الأنظار عن الإحاطة به حين يمتد هذا التناسق

(١) «إعجاز القرآن» ص ١٩٠ - ١٩٣.

العجيب؛ ليحيط بأودية مترامية من المعاني المختلفة والمتباينة فيصيرها عجيب النظم بيّناً متشابهاً متكاملًا متآلفًا لا اختلاف فيه، يقول في ذلك: «ارفع طرف قلبك، وانظر بعين عقلك، وراجع جلية بصيرتك، إذا تفكرت في كلمة كلمة مما نقلناه إليك، وعرضناه عليك، ثم فيما ينتظم من الكلمات، ثم إلى أن يتكامل فصلاً وقصة أو يتم حديثاً وسورة.

لا، بل فكر في جميع القرآن على هذا الترتيب وتدبره على نحو هذا التنزيل، فلم ندع ما ادعينا له لبعضه، ولم نصف ما وصفناه إلا في كله»^(١).

وهذا يعني أن الباقلاني يرى أننا لا نهتدي إلى ما يشير إليه إلا بشحذ العقل واستنفاره؛ لأن إعمال العقل بأقصى طاقاته هو الأداة التي بها تقام البحوث، وتمهد بها الطرق.

وقد دارت دراسات البلاغيين في نطاق الجملة وما تحدّثه خصوصيات الإسناد والانتظام من أسرار ومعاني من خلال نظرية النظم عند عبد القاهر التي هي ملاحظة مواقع الإسناد والعلاقات القائمة بين الألفاظ داخل النسق التركيبي، وما بينهما من الاتساق العجيب^(٢)، ثم الانتقال من التناسب في موضع الكلمة إلى موقع الجملة من الجملة من خلال باب الفصل والوصل والنظر في كيف تمهيء الجملة لما بعدها.

وبقي ضرب آخر من الإعجاز أبعد غورًا وألطف مسلكًا نهبت إليه أقلام العلماء ودلت عليه، ولكن لصعوبة مداخله ظل غائبًا في دراسات الإعجاز لم تقدحه أقلام البلاغيين حتى جاء الرازي فوقف على دراسة الإعجاز في الجملة، وامتد بأصول العلاقات بين الجملة والجملة إلى دراسة علاقات الترتيب وأسرار الانتظام في السورة وبناء ثانيها على أولها وثالثها على ثانيها في محاولة لضبط معاهد المعاني في السورة وإن لها بدءًا ووسطًا ونهاية، وملاحظة توزيع المعاني على هذه النسق، فوضع بذلك أصول «علم المناسبة» الذي انتقل فيما بعد إلى حقل الدراسات القرآنية أعني من حقل التفسير إلى حقل علوم القرآن.

(١) "إعجاز القرآن" ص ٢٠٢.

(٢) "دلائل الإعجاز" ص ٩٥.

وقد نبه الرازي إلى أن: «أكثر أسرار القرآن مودعه في الترتيب»^(١)، فعمل على تجلية غموض هذه الأسرار، وبعث خباياها من خلال إجرائها في القرآن، فتكاثر أمامه الفوائد وتنوعت حتى كونت بياناً مستقلاً جعله مناط الإعجاز، يقول في ذلك: «ومن تأمل في لطائف نظم هذه السورة، وفي بدائع ترتيبها، علم أن القرآن كما أنه معجز بحسب فصاحة ألفاظه وشرف معانيه، فهو أيضاً معجز بسبب ترتيبه ونظم آياته، ولعل الذين قالوا: إنه معجز بسبب أسلوبه أرادوا ذلك»^(٢). وهذا نص نفيس جداً يفتح أمام الباحث باباً من أبواب العلم، فهذا النص يشير إلى باين من أبواب الإعجاز:

- ١- إعجاز القرآن بحسب ما في الجملة من خصوصيات راجعة للتصرف في عناصر اللغة وتركيبها، وهو ما يسمى بالنظم.
- ٢- إعجاز بحسب ترتيب معاني الآيات وبيان مراتب الجمل باعتبار علاقتها بالمقاصد الكلية^(٣).

فالنظم ترتيب تعتبر فيها خصوصية محددة وهي التوخي لعلاقات النحو. وأما التناسب فليس له حد يحصره ويحيط بأنواعه، وإنما هو ملاحظة لمقتضيات ترتيب الكلام، وعلل تنزيل كل كلمة أو جملة أو مقطع مكانه، وموجبات أن قدم هذا وآخر غيره، واعتبار معاني النحو إن كان مطلباً أساسياً لتصور المعاني إلا أن هناك مواقع لاعتباره والأخذ به تختزل بعض تفريعات المعنى وجهاته وتضيق الدلالة، نحو ما ذكرها الإمام في حكاية قول لوط عليه السلام: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوَى إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [مرد: ٨٠]. يقول: «فإن قيل: ما الوجه ههنا في عطف الفعل على الاسم؟

قلنا: قال صاحب «الكشاف»: قرئ: (أو آوَى) بالنصب بإضمار «أن»، كأنه قيل: لو أن لي بكم قوة أو آوياً.

(١) "التفسير" ١ / ١٨.

(٢) "التفسير الكبير" ٣ / ١٠٦.

(٣) "دلالات التراكيب"، ينظر: ص ٨، ٩.

واعلم أن قوله: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوَى إِلَيَّ رُكْنٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ٨٠] لابد من حمل

كل واحد من هذين الكلامين على فائدة مستقلة، وفيه وجوه: الأول: المراد بقوله: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً﴾ كونه بنفسه قادرًا على الدفع، وكونه متمكنًا إما بنفسه وإما بمعاونة غيره على قهرهم وتأديبهم، والمراد بقوله: ﴿أَوْ آوَى إِلَيَّ رُكْنٌ شَدِيدٌ﴾ هو ألا يكون له قدرة على الدفع لكنه يقدر على التحصن بحصن؛ ليأمن من شرهم بواسطته. الثالث: أنه لما شهد سفاهة القوم وإقدامهم على سوء الأدب تمنى حصول قوة قوية على الدفع، ثم استدرك على نفسه وقال: بلى الأولى أن آوي إلى ركن شديد وهو الاعتصام بعناية الله تعالى، وعلى هذا التقدير فقلوه: ﴿أَوْ آوَى إِلَيَّ رُكْنٌ شَدِيدٌ﴾ كلام منفصل عما قبله ولا تعلق له به، وبهذا الطريق لا يلزم عطف الفعل على الاسم، ولذلك قال النبي ﷺ: «رحم الله أخِي لوطًا كان يأوي إلى ركن شديد»^(١).

وصرح في موضع آخر أن الروابط والعناصر اللفظية لا توجب ترتيبًا في كل موضع، وإنما هناك وجوه أخرى ومراتب معتبرة تنزل وفقها المعاني، فيحسن معها التوالي ووقوع بعضها في إثر بعض كما في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأنعام: ٨٤].

حيث ذكر: «أن حرف الواو لا يوجب الترتيب، وأحد الدلائل على صحة هذا المطلوب هذه الآية فإن حرف الواو حاصل ههنا مع أنه لا يفيد الترتيب ألبتة، لا بحسب الشرف ولا بحسب الزمان وأقول: عندي فيه وجه من وجوه الترتيب، وذلك لأنه تعالى خص كل طائفة من طوائف الأنبياء بنوع من الإكرام والفضل.

فمن المراتب المعتبرة عند جمهور الخلق: الملك والسلطان والقدرة، والله تعالى قد أعطى داود وسليمان من هذا الباب نصيبًا عظيمًا.

والمرتبة الثانية: البلاء الشديد والمحنة العظيمة، وقد خص الله أيوب بهذه المرتبة والخاصية.

المرتبة الثالثة: من كان مستجمعًا لهاتين الحالتين وهو يوسف عليه السلام، فإنه نال البلاء الشديد الكثير في أول الأمر، ثم وصل إلى الملك في آخر الأمر.

والمرتبة الرابعة: من فضائل الأنبياء -عليهم السلام- وخواصهم قوة المعجزات وكثرة البراهين والمهابة العظيمة والصولة الشديدة وتخصيص الله تعالى إياهم بالتقريب العظيم والتكريم التام، وذلك كان في حق موسى وهارون.

والمرتبة الخامسة: الزهد الشديد والإعراض عن الدنيا، وترك مخالطة الخلق، وذلك كما في حق زكريا ويحيى وعيسى وإلياس، ولهذا السبب وصفهم الله بأنهم من الصالحين.

والمرتبة السادسة: الأنبياء الذين لم يبق لهم فيما بين الخلق أتباع وأشياع، وهم إسماعيل، واليسع ويونس ولوط. فإذا اعتبرنا هذا الوجه الذي راعيناه ظهر أن الترتيب حاصل في ذكر هؤلاء الأنبياء، عليهم السلام، بحسب هذا الوجه الذي شرحناه^(١).

ويتجاوز تصحيح العلاقة ببيان علل تنظيم الألفاظ ومنازل بعضها من بعض إلى ما وراء ذلك من حسن الدلالة وقامها كما في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِشَيْءٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّكُمْ عَلِيمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [آل عمران: ٧٩].

يقول: «ثلاثة أشياء ذكرها على ترتيب في غاية الحسن، وذلك لأن الكتاب السماوي ينزل أولاً، ثم إنه يحصل في عقل النبي فهم ذلك الكتاب وإليه الإشارة بالحكم، فإن أهل اللغة والتفسير اتفقوا على أن هذا الحكم هو العلم، قال تعالى: ﴿وَأَيِّنُّهُ الْحُكْمَ صَبِيحًا﴾ [مريم: ١٢]. يعني العلم والفهم، ثم إذا حصل فهم الكتاب فحينئذ يبلغ ذلك إلى الخلق وهو النبوة فما أحسن هذا الترتيب»^(٢).

(١) "التفسير الرازي" ٥/ ٥٢، ٥٣.

(٢) "التفسير" ٣/ ٢٧١.

وتنسيق الصفات وتواليها فإذا زحزحت صفة عن مكانها اختل المعنى وانحل المقصد والغرض خلف ذلك التنظيم كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا نَقْمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ * الَّذِي لَهُ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [البروج: ٨، ٩].

فالآيتان توزعت فيهما الأوصاف «ثم إنه ذكر الأوصاف التي بها يستحق الإله أن يؤمن به ويعبد، فأولها: «العزیز» وهو القادر الذي لا يغلب، والقاهر الذي لا يدفع، وبالجملة فهو إشارة إلى القدرة التامة وثانيها: «الحميد» وهو الذي يستحق الحمد والثناء على ألسنة عباده المؤمنين، وإن كان بعض الأشياء لا يحمد به بلسانه فنفسه شاهدة على أن المحمود في الحقيقة هو هو، كما قال: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ٤٤]. وذلك إشارة إلى العلم، لأن من لا يكون عالمًا بعواقب الأشياء لا يمكنه أن يفعل الأفعال الحميدة، فالحميد يدل على العلم التام من هذا الوجه وثالثها: الذي له ملك السماوات والأرض وهو مالكها والقيم بها ولو شاء لأفناها، وهو إشارة إلى الملك التام وإنما أخر هذه الصفة عن الأوليين؛ لأن الملك التام لا يحصل إلا عند حصول الكمال في القدرة والعلم، فثبت أن من كان موصوفًا بهذه الصفات كان هو المستحق للإيمان به، وغيره لا يستحق ذلك ألبة، فكيف حكم أولئك الكفار الجهال أن يكون مثل هذا الإيمان ذنبًا^(١)، فتمكن الوصف «الذي له ملك السماوات والأرض» يعول فيه على الصفات السابقة له، فثبوت القدرة والعلم يهيئ لتقدير الملك التام، فيتعين استحقاقه للإيمان به ونفي ذلك عن غيره.

وهذه العلل معتبرة أيضًا في تنسيق الجمل داخل الآيات كما في قوله تعالى: ﴿وَرَوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ، وَعَلَّقَتْ الْأُتُوبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [يوسف: ٢٣].

يقول: «ذكر يوسف عليه السلام في الجواب عن كلامها ثلاثة أشياء: أحدها: قوله: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ﴾. والثاني: قوله تعالى عنه: ﴿إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾. والثالث: قوله:

(١) «التفسير» الرازي ١١ / ١١٢.

﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾. فما وجه تعلق بعض هذا الجواب ببعض؟ والجواب: هذا الترتيب في غاية الحسن، وذلك لأن الانقياد لأمر الله تعالى وتكليفه أهم الأشياء؛ لكثرة إنعامه والطفه في حق العبد فقوله: ﴿مَعَآذَ اللَّهِ﴾ إشارة إلى أن حق الله تعالى يمنع عن هذا العمل، وأيضاً حقوق الخلق واجبة الرعاية، فلما كان هذا الرجل قد أنعم في حقي يقبح مقابلة إنعامه وإحسانه بالإساءة، وأيضاً صون النفس عن الضرر واجب، وهذه اللذة قليلة يتبعها خزي في الدنيا، وعذاب شديد في الآخرة، واللذة القليلة إذا لزمها ضرر شديد، فالعقل يقتضي تركها والاحتراز عنها فقوله: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ إشارة إليه، فثبت أن هذه الجوابات الثلاثة مرتبة على أحسن وجوه الترتيب^(١).

وآية الكرسي يدير جملها على لفظتين هما: «الحي» و«القيوم» ويفرع ما بعدهما عليهما ويجعله داخل تحت لوازمهما يقول: «فإن الحي هو الدراك الفعال، فبقوله: «الحي» دل على كونه عالماً قادراً، وبقوله: «القيوم» دل على كونه قائماً بذاته ومقوماً لكل ما عداه، ومن هذين الأصلين تتشعب جميع المسائل المعتبرة في علم التوحيد.... ثم إنه تعالى لما بين أنه حي قيوم أكد ذلك بقوله: ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ والمعنى: أنه لا يغفل عن تدبير الخلق... كالتأكيد لبيان كونه تعالى قائماً، ثم إنه تعالى لما بين كونه قيوماً بمعنى كونه قائماً بذاته مقوماً لغيره رتب عليه حكماً وهو قوله: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾. لأنه لما كان كل ما سواه إنما تقومت ماهيته، وإنما يحصل وجوده بتقويمه وتكوينه وتحليقه لزم أن يكون كل ما سواه مملوكاً له ومملوكاً له وهو المراد من قوله: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾. ثم لما ثبت أنه هو الملك والمالك لكل ما سواه، ثبت أن حكمه في الكل جارٍ وليس لغيره من شيء من الأشياء حكم إلا بإذنه وأمره، وهو المراد بقوله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾. ثم لما بين أنه يلزم من كونه مالِكاً للكل ألا يكون لغيره في ملكه تصرف بوجه من الوجوه بين أيضاً أنه يلزم من كونه عالماً بالكل وكون غيره غير عالم بالكل، ألا يكون لغيره في ملكه تصرف بوجه من الوجوه إلا بإذنه وهو قوله: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ وهو

(١) "التفسير" الرازي ٦ / ٤٣٩.

إشارة إلى كونه سبحانه عالماً بالكل، ثم قال: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ﴾ وهو إشارة إلى كون غيره غير عالم بجميع المعلومات، ثم أنه لما بين كمال ملكه وحكمه في السماوات وفي الأرض بين أن ملكه فيها وراء السماوات والأرض أعظم وأجل، وأن ذلك مما لا تصل إليه أوهام المتوهمين... فقال: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ ثم بين أن نفاذ حكمه وملكه في الكل على نعت واحد وصورة واحدة، فقال: ﴿وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا﴾ ثم لما بين كونه قيوماً بمعنى كونه مقوماً للمحدثات والممكنات والمخلوقات، بين كونه قيوماً بمعنى قائماً بنفسه وذاته منزهاً عن الاحتياج إلى غيره في أمر من الأمور.... فقال: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ فالمراد منه العلو والعظمة، بمعنى أنه لا يحتاج إلى غيره في أمر من الأمور... إشارة إلى ما بدأ به في الآية من كونه قيوماً بمعنى كونه قائماً بذاته مقوماً لغيره^(١).

وكأني بالرازي يستدرك على الشيخ عبد القاهر تعليقه صحة انتظام الكلام وترتيبه بوجوه النحو حيث جعله خصوصية تحدث بسبب من علم النحو في قوله: «وكذلك السبيل في كل شيء له مدخل في صحة تعلق الكلم بعضها ببعض، لا ترى شيئاً من ذلك يعدو أن يكون حكماً من أحكام النحو ومعنى من معانيه، ثم إنا نرى هذه كلها موجودة في كلام العرب»^(٢).

فنبه على ضروب أخرى يقع بها التعليق بين الكلام وتوجب ترتيباً مما يؤكد أن وجوه الترتيب وصوره متكاثرة ليس مناطها علم النحو فحسب، بل هناك اعتبارات عقلية تنتظم بها العبارة ويحسن بناؤها ولا مجرى فيها لعلم النحو.

وصنيع الرازي وإضافته هداية إليها استقصاء التأمل لما أودعه عبد القاهر في كتابه فرأى أن من الديانة أن يوضح حقيقة أخرى غابت عن قلم شيخه فقرر علمه ثم أضاف إليه طريقاً آخر للوقوف على إعجاز القرآن وشق الحجب عن ضميره وهو الترتيب باعتبار التناسب ومواقع المعاني بعضها من بعض وبعضها في بعض، وهذا نظير النظم الذي يعول فيه على علم

(١) "التفسير" الرازي ٣ / ٦ - ٨.

(٢) "دلائل الإعجاز" عبد القاهر ص ٨.

النحو، فكان تلميذًا بارًّا بعلم شيخه حينما تتبع الحق في علم عبد القاهر وأخذ به ثم رأى مهيبًا واضحًا فأومأ إليه ودل عليه، فحفظ بذلك وصيته التي خطها في «الدلائل»: «فينبغي لكل ذي دين وعقل أن ينظر في الكتاب الذي وضعناه، ويستقصى التأمل لما أودعناه، فإن علم أنه الطريق إلى البيان والكشف عن الحجة والبرهان، تبع الحق وأخذ به، وإن رأى له طريقًا غيره أومأ لنا إليه وودلنا عليه، وهيئات ذلك»^(١).

فنظرية النظم لفت في ثناياها باب المناسبات وطوته في إحشائها فتداخل مع أصولها حتى ظن أنه منها فاختلط مع الضرب الذي يتحد في الوضع ويدق في الصنع الذي ذكره عبد القاهر في قوله: «واعلم أن مما هو أصل في أن يدق النظر، ويغمض المسلك، في توخي المعاني التي عرفت: أن تتحد أجزاء الكلام، ويدخل بعضه في بعض، ويشد ارتباط ثانٍ منها بأول، وأن تحتاج في الجملة إلى أن تضعها في النفس وضعًا واحدًا، وأن يكون حالك فيها حال الباني يضع يمينه ههنا في حال ما يضع يساره هناك»^(٢).

فالنص يبين إحساس الشيخ بقصور علم النحو عن استيعاب جميع ضروب التعليق وأبان عن هذا الهاجس قوله: «ويغمض المسلك في توخي المعاني التي عرفت».

أي أن معاني النحو تتبعها ورعايتها في هذا النوع من النظم تغمض وتدق وتتداخل مع تصارييف في الكلام يصعب معها أن يناط حكم انتظام الكلام وتناسقه بها دون غيرها، وذكر أنواعًا لذلك، فلما جاء الرازي في تلخيصه للدلائل صنف شواهد عبد القاهر في ثلاثة أنواع، وهي: التشبيه، والتقسيم، والمزاوجة، وزاد عليها حتى عدها ثلاثة وعشرين وجهًا. ثم ختمها بقوله: «وقد اقتصرنا على هذا القدر، من الأمور التي تربط الجمل بعضها ببعض، وإن كان ما بقي أكثر مما أوردناه»^(٣).

ولما أجرى الزنجشيري نظرية النظم في التطبيق على سور القرآن صادف وجوهاً أخرى

(١) «دلائل الإعجاز» عبد القاهر ص ٩.

(٢) السابق ص ٩٣.

(٣) «نهاية الإيجاز» الرازي ٢٨٥.

من التعليق، وتصرفات متنوعة لا سبيل فيها للنحو، ففتح بعضاً منها ونبه على أسرارها ونمط انتظامه، كما في قوله تعالى: ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءَ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ * وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ﴾ [الزخرف: ٢٩، ٣٠].

يقول الزمخشري: «فإن قلت: قد جعل مجيء الحق والرسول غاية التمتع ثم أردفه قوله: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ﴾ فما طريقة هذا النظم ومؤداه؟ قلت: المراد بالتمتع ما هو سبب له، وهو اشتغالهم بالاستمتاع عن التوحيد ومقتضياته، فقال: بل اشتغلوا عن التوحيد حتى جاءهم الحق ورسول مبين. فخليل بهذه الغاية أنهم تنبهوا عندها عن غفلتهم لاقتضائها التنبه، ثم ابتدأ قصتهم عند مجيء الحق فقال: ولما جاءهم الحق جاءوا بها هو شر من غفلتهم التي كانوا عليها»^(١).

فانسل من علم الشيخ قبسات استضاء بها الإمام فمشى بخطى ثابتة في أدغال هذا العلم وشعابه المتفرقة وقارب حدوده وألف مختلفه فزال نكرة النفوس ووحشتها تجاه هذا الفن الذي شكوا أكثر الأئمة قبله من قلة حملته وتضارب الآراء في الأخذ به، وقد وصف أبو بكر بن العربي [ت ٥٤٣هـ] قصة هذا العلم في قوله: «ارتباط أي القرآن بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة، متسقة المعاني، منتظمة المباني، علم عظيم، لم يتعرض له إلا عالم واحد عمل فيه سورة «البقرة»، ثم فتح الله عز وجل لنا فيه، فلما لم نجد له حملة، ورأينا الخلق بأوصاف البطلة، ختمنا عليه، وجعلناه بيننا وبين الله ورددناه إليه»^(٢).

فالمناسبات اتخذ صفته العلمية من تفسير الإمام فجعله علماً مستقلاً بذاته يشابه النظم ويلتقي معه في أن مدارهما على الترتيب والتنسيق لما ظاهره الاختلاف ف «لا يكون الإتيان بالأشياء بعضها في إثر بعض على التوالي نسقاً وترتيباً حتى تكون الأشياء مختلفة في نفسها، ثم يكون للذي يجيء بها مضمومًا بعضها إلى بعض غرض فيها ومقصود، لا يتم ذلك الغرض

(١) «الكشاف» ٤ / ٢٥١.

(٢) «البرهان» الزركشي ١ / ٦٢.

والمقصود إلا بأن يتخير لها مواضع، فيجعل هذا أولاً، وذاك ثانياً^(١). فهذا أصل عام معتبر في كل نسق ثم يتخذ مساراً آخر وينفرد بخصوصية شمولية التعليق وتنوع صورته فيحيط بالنص كله على تباعد جملة واختلاف أغراضه؛ لأنه تتبع للمعاني وجهات انتساب بعضها إلى بعض وأحوالها في بعض فتقارب وتتعانق على تباعدها.

بينما النظم هو التعليق بتوخي معاني النحو وهو صفة محدودة تحفظ التماسك وتحكم النسج بين الجملة والجملتين أو ما تقارب دون ما يختلف وتباعد.

والتناسب ضرب من فصاحة الخطاب العربي تجاهله يحل بمقاصد المتكلمين ويحول دون الوصول إلى أغراضهم في الإبانة صرح بذلك الحرالي: «ونمط من فصاحة الخطاب العربي؛ لأن العرب يردون الثالث إلى الأول لا إلى الثاني؛ ليتعلق بالأول في المعنى، ويتنظم بالثاني في اللفظ فيكون محرز المحل المفهوم راجعاً إلى الأول بالمعنى».

وقد أكد الرازي من قبل على أنه القسيم المكمل للنظم وأحد مداخل الإعجاز التي لا غنى عنها يقول: «ولكنه روح من أمر الله تفرق معجزاً فلما اجتمع اجتمع له إعجاز آخر»^(٢). وكأن أبواب البلاغة كلها كانت بحثاً في أحوال الإعجاز مفرقاً.

وقرر المتأخرون ذلك التصنيف وعدوه قسيماً مكمللاً للنظم ذكره البقاعي، قال: «هذا العلم يرسخ الإيمان في القلب، ويتمكن من اللب، وذلك أنه يكشف أن للإعجاز طريقين:

أحدهما: نظم كل جملة على حياها بحسب التركيب، والثاني: نظمها مع أختها بالنظر إلى الترتيب، والأول أقرب تناولاً وأسهل ذوقاً...

ثم إذا عبر الفطن من ذلك إلى تأمل ربط كل جملة بما تلتها وما تلاها خفي عليه وجه ذلك ورأى أن الجمل متباعدة الأغراض متناثية المقاصد»^(٣).

(١) "دلائل الإعجاز" عبد القاهر الجرجاني ص ٤٧٤.

(٢) "التفسير" ٢٠٨/١.

(٣) "نظم الدرر" ٧ / ١.

فدراسة التناسب في الترتيب وحسن مواقع الجمل في القرآن فيه من العجائب والإعجاز ما يحتاج إلى زيادة في التأمل وطول نظر، فهو عمل اجتهادي ضابطه الوعي بعناصر الكلام وطرائق الربط والاقتران؛ لذلك كان علم المناسبة أعم من علم المعاني فلا يستطيع الخوض فيه إلا من كان له حظ وافر من علم المعاني^(١)؛ لأن الأصل في علم المعاني دراسة الإسناد، وهذا الأصل جارٍ أيضًا على علم المناسبات مع اعتبار أمر آخر وهو ملاحظة الترتيب والربط الكلي وهو خصوصية زائدة على الإسناد؛ لأن انتساب المعاني بعضها إلى بعض يكون وفق مواقع تتصل بالإسناد الداخلي للدلالات بأن تقع منها على جهات تزيد بها الفائدة كالمقابلة أو التضاد أو المشابهة أو التتميمات أو المبالغات، وهذا يحتاج إلى صنعة حاذقة في توزيع وحدات الكلام ومقاطعته المختلفة من خلال توخي المعاني، ويؤكد ما ذكرناه قول حازم: «إن المعاني منها ما يتطالب بحسب الإسناد خاصة، ومنها ما يتطالب بحسب الإسناد وبحسب انتساب بعض المعاني إلى بعض في أنفسها، بكونها أمثالًا أو أشباهًا أو أصدادًا أو مقاربات من الأمثال والأصداد»^(٢).

فالترتيب لا يعني التوالي على نسق مطرد يتعلق فيه الثاني بالأول، وإنما هو تنظيم داخلي تشعب الجمل فيه؛ لتستقر في مواقعها بحسب مقاصد المتكلم ومقتضيات الأحوال، فتصبح «كالجداول المتشعبة»، أي أن كل جملة تلف في ثناياها قنوات خفية لمعاني وأغراض مختلفة، فنشق لها مجرى تشعب فيه عن الجملة الأم ثم تؤسس لمعنى آخر، فكأن علم المناسبة كشف منظم لحركة المعاني داخل النسق وكيفية تولدها ثم تحولاتها وانتقالاتها، وملاحظة الوشائج النازمة لهذه الانتقالات ثم المعاني المستقلة وبيان طريقة اثلافها مع المقاصد الكلية للسورة.

فالسورة نجد فيه تنوعًا وتنقلًا في الأغراض والمعاني، وأحيانًا يكون التنوع في الزمن أيضًا، فتجد الآية تجاور الآية في النظم وتمازجها في الدلالة على اختلاف أسباب النزول؛ لأن المناسبة لا يشترط فيها اتحاد الزمن وإنما المقصود منها وضع الآية في موضع ما يناسبها^(٣).

(١) "دلالات التراكيب" ص ١٠.

(٢) "منهاج البلغاء" ص ٤٤.

(٣) "الإيهام" السبكي ص ٢٠٥.

فمصدر التناسب مصدر إلهي وراء رقائق النظم تنسق فيه المقاصد وتأتلف فيه الدلالات بوشائج دقيقة تربط بها المعاني الجزئية بالمقاصد الكلية، فيحدث الترتيب تمازجاً دلاليّاً رغم اختلاف الأحداث والأزمنة، فالمناسبة سمة بلاغية تتفقت من قبضة الزمن؛ لتتصل بدائرة الإعجاز البياني للقرآن.

ولدقة هذا الباب وغموض مسلكه أطلق عليه علماء الإعجاز الأسلوب فقالوا: إنه معجز بأسلوبه. وقد بين الرازي أن معنى الأسلوب هو الروابط والوشائج وما تحدّثه من خصوصيات بلاغية، ومعاني ثانوية تتزايد بها فصاحة الكلام، ويكتسب بها الكلام غزارة وامتداداً مع إيجاز العبارة حتى لتجد سورة في حجم سورة «الكوثر» مشحونة بأسرار ونكات ليست من ولائد اللغة فحسب وإنما تولد من حسن الاقتران والترتيب، وهما أي الاقتران والترتيب من أهم عناصر الأسلوب عند الرازي.

فعلم المناسبة -إذن- هو المدخل الحقيقي للتحليل المتكامل للنص، فهو الجهة التي تكتمل عندها دراسة المعاني لأن «كمال المعنى في نفسه يكون باعتبار استيفاء أجزائه البسيطة أو استيفاء أجزائه المركبة»^(١).

فكأن كمال المعنى لا يكون بالوقوف عند جزء من بنائه كالوقوف عند الإسناد بين مكونات الجملة، أو المناسبة بين الجملة والجملتين كما هو في علم المعاني، وإنما باستيفاء جميع أجزائه وتنقلاته.

والنظر فيما تضيفه عناصر الاقتران من زيادات في أصول المعاني تثرى بها الدلالة، فتجد دلالات تتكاثر وتنمى نتيجة موقع المعنى من المعنى والسورة من السورة، وترتيب بعضها على بعض حتى يصير بعجيب التأليف منظومة متناغمة الأجزاء، وقد بنى الإمام تفسيره على تتبع ما تضيفه الاقترانات من فوائد يقول: «فهذه تنبيهات شريفة مستفادة من تناسق هذه الآيات، فكان العلم بهذه اللطائف أحسن العلوم»^(٢). نحو ما ذكره من المعاني المتولدة من

(١) "منهاج البلغاء" حازم ص ١٣١.

(٢) "التفسير" ٩ / ٥٦٦.

تغيرات الترتيب في قوله: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ [النحل: ١٠].

يقول الإمام: «فإن قيل: إنه تعالى بدأ في هذه الآية بذكر ما يكون مرعى للحيوانات وأتبعه بذكر ما يكون غذاء للإنسان، وفي آية أخرى عكس هذا الترتيب فبدأ بذكر مأكول الإنسان، ثم بما يرباه سائر الحيوانات فقال: ﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ﴾ [طه: ٥٤] فما الفائدة فيه؟

قلنا: أما الترتيب المذكور في هذه الآية فينبه على مكارم الأخلاق وهو أن يكون اهتمام الإنسان بمن يكون تحت يده أكمل من اهتمامه بحال نفسه، وأما الترتيب المذكور في الآية الأخرى، فالمقصود منه ما هو المذكور في قوله ﷺ: «ابدأ بنفسك ثم بمن تعول»^(١).

هذا، وتتمثل أهمية البحث في العودة إلى أصول علم المناسبات في أجواء الدرس البياني وكيف تعامل معه علماء البلاغة كأداة للكشف عن أسرار البيان القرآني من خلال إبراز جهد الرازي في تجلية مباحث هذا العلم، وما أضافه من لمحات شق بها مجرى لأفانين بلاغية أشار إليها السلف إشارات غامضة فاستثارها وبعث مدافن كلامهم، وعمل على الامتداد بها من خلال إجرائها ومتابعتها في جميع آيات القرآن وسوره، فعلم المناسبات معروف قبل الإمام وقد عزا كثيرًا من النقول إلى علماء معروفين مثل: القاضي^(٢)، وابن القفال^(٣)، وأبي مسلم^(٤)، وأحيانًا يذكر ما شاع على وجه العموم ولا يخصه بأحد كما في قوله: «اعلم أن الناس ذكروا في تعلق هذه الآية بما قبلها وجوهاً، ولا أستحسن واحدًا منها»^(٥).

(١) "التفسير" الرازي ٧ / ١٨٠.

(٢) "التفسير" ٣ / ٣٦٣.

(٣) السابق ٣ / ٣٦٣.

(٤) السابق ٣ / ٣٨٦.

(٥) "التفسير" ٦ / ٢٧١.

وهذا يدل على أنه اطلع على جميع ما سبقه ومحسه فلم ينقله كله وإنما نقل ما استحسسه ورأى له وجهًا وأعرض عن كثير، فالإمام عنده منهج واضح يسير عليه في التحليل والاختيار، وليس الغاية طلب المناسبة كيفما اتفق ويظهر ذلك في وجه الترتيب في قوله: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٠].

قال: «اعلم أن من الناس من قال: إنه تعالى لما شرح عظيم نعمه على المؤمنين فيما يتعلق بإرشادهم إلى الأصلح لهم في أمر الدين وفي أمر الجهاد، أتبع ذلك بما يدخل في الأمر والنهي والترغيب والتحذير، فقال: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾».

وعلى هذا التقدير تكون هذه الآية ابتداء كلام ولا تعلق لها بما قبلها، وقال القفال رحمه الله: «يحتمل أن يكون ذلك متصلًا بما تقدم من جهة أن المشركين إنما أنفقوا على تلك العساكر أموالًا جمعوها بسبب الربا، فلعل ذلك يصير داعيًا للمسلمين إلى الإقدام على الربا حتى يجمعوا المال وينفقوه على العسكر فيتمكنون من الانتقام منهم، فلا جرم نهاهم الله عن ذلك»^(١).

ورغم رسوخ قدمه في هذا الباب لم نجد دراسة تقف عند جهده وتستخلصه وتبرز منهجه ولفئاته البلاغية، لذلك يهدف البحث إلى استخلاص مادة التناسب في التفسير وتصنيفها وبيان منهجه فيها.



(١) "التفسير" ٣/ ٣٦٣.

الباب الأول

التناسب في بناء السورة

وفيه ثلاثة فصول

التناسب في الفواتيح والخواتيم.

الفصل الأول

التناسب بين الآيات.

الفصل الثاني

التناسب بين الأغراض داخل السورة.

الفصل الثالث

الفصل الأول

التناسب في بناء السورة

الفصل الأول

التناسب بين الفواتيح والخواتيم

حظي الأول والآخر باهتمام الدرس البياني بلاغة ونقدًا، فهما من الأبواب التي تمحص بلاغة المتكلم، وتكشف عن مدى اقتداره؛ لأن تصريف معاني الآخر على معاني الأول يتطلب اعتبارات مختلفة، تتصل بالدلالة في أغمض مستوياتها، «لأن الطرفين حاصران للوسط، ويدلان عليه لأجل ارتباط التناسب»^(١). أي أن الأول والآخر يشكلان الهيئة المكتملة للنص بجميع مقاصده، فالبدء يكتنف الأغراض والمعاني التي يؤسس لها المتكلم ثم تنسل من لغته وتنامي داخل الوسط، والآخر تستقر عنده الدلالة على الأغراض المتنوعة في الداخل فيلاقي أطرافها ويجمع مختلفها.

وهذا يتطلب فطنة في ترديد المعاني دون تكرارها كي لا تمهلها النفس، ويستقلها الفهم، بل يداخل ويبازج بينها بالتلاخط والتألف دون التواطؤ. وجعاه بعضهم مقياس الشاعرية: «قال العلماء: ينبغي للمتكلم أن تزيد عنايته ويكثر اهتمامه بأربعة مواضع من كلامه - وإن كان ينبغي أن يتحرى الأجود في سائره - أول الكلام، وآخره، ومكان التخلص من فنٍ إلى فنٍ، وموضع الطلب، فقالوا: براعة المطلع، وحسن التخلص، وحسن الطلب، وحسن الختام»^(٢).

وروى المرصفي حكاية لطيفة تدل على دقة هذا المقياس في الحكم على بلاغة الكلام والحكم على قريحة صاحب البيان، حكى أن شاعرًا مغربيًا كان قد سمع شعرًا للصاحب بهاء الدين زهير المصري، فقصد مصر؛ ليتعلم رقة الشعر فلما لقيه وعرفه مراده ألقى عليه البهاء صدرًا؛ ليعمل له عجزًا فأنشده:

يا بان وادي الأجرع

(١) "الروض المربع" ابن البناء ص ٦٩.

(٢) "الوسيلة الأدبية" المرصفي ٩٢/٢.

فأخذه المغربي وانصرف يكدر فكره في تميمه ثم جاء صبيحة ليلته إلى الصاحب فأنشده:

يا بان وادي الأجرع سقيت غيث الأدمع

فقال البهاء: الصدر يطلب غير هذا، وأتمه بقوله:

هل ملت من طرب معي^(١)

وذكر المرصفي وجه بلاغة العجز فقال: «فأنت ترى أن الميل مأخوذ من البان، وتعليل المساعدة للعاشق ومجانسته إياه في العشق، فمثل هذا ينبغي أن تكون المطالع»^(٢).

فالأول لم يصنع شيئاً ومطل الكلام إلى معنى لم يُبين عليه الصدر فأفسد البناء بقطع النداء بعد أن هياً لمعنى يتعلق به، وأسس عليه ما ليس من جنسه وهو الدعاء.

وأما الآخر فبنى على النداء الطلب فأشبع تحفز النفس لاستقبال المعنى المتوقع، ثم شبك الآخر بالأول بوصف الميلان الذي هو من أخص صفات البان، وزاد في الدلالة بأن جانس مجانسة خفية بين حالة الشاعر واهتزازة بعشقه وحالة البان وتمايله، فكأن هواه انتقل إلى جميع أعضاء الوجود فحركها طرباً وأشاع فيها أنساً؛ لتعين العاشق في وجده وحنينه.

ثم نَمى أجواء الطرب التي أبرقت بها لفظة «البان» فتشابه الطرفان، بينما أحدث اختيار لفظ الأدمع عند الآخر حزناً وعويلاً بعد أن تمايلت النفس أنساً وطرباً مع البان.

وقد تعددت أوجه العناية بهذا الباب فانخذت صوراً مختلفة تتبع انعكاسات الأول في الآخر جرساً وآخر لفظاً وثالث معنى. فتكاثر مباحثه وتنوعت، ولكن يظل يجمعها أصل واحد وهو أن الكلام «يلتبس أوله بآخره»، ويأخذ آخره من أوله»^(٣)، وتنوع مباحثه كان على اعتبار من تنوع صور الالتباس والأخذ.

(١) «الوسيلة الأدبية» المرصفي ٩٤/٢ بتصرف.

(٢) السابق نفسه.

(٣) «اختيار المنظوم والمثور» ابن طيفور ص ٨٣.

فظهرت الكثير من المصطلحات التي تعنى بملاحظة أوجه الالتقاء بين البدء والآخر كالتهيم أو التوشيح، والتصدير أو رد العجز على الصدر، وتشابه الأطراف، وأخرى تبحث في علاقة الآخر بالمقاصد كالنذيل وحسن المقطع والخاتمة، وثالثة تلاحظ المطلع وانسجامه مع الأغراض كبراعة الاستهلال أو المبادئ والمطالع.

وقد عني البلاغيون بجميع ما من شأنه أن يحدث في الكلام تشابكاً؛ لأن الكلام الجيد مبني على هذا فيأخذ بعضه برقاب بعض ويدل أوله على آخره.^(١)

وأقدم صور ملاحظة الأواصر والنسب الحميمة بينها كانت باعتبار المعنى والبناء عليه، فهذا الشافعي [ت ٢٠٤ هـ] يجعل ضبط الدلالة لا يكتمل إلا عند الآخر؛ لما يجدته أحد طرفي الكلام من تغير في الطرف الآخر بالتفصيل أو التخصيص أو التعميم، فلا يتبين المعنى إلا برده على ما أنهى إليه الخطاب فالكلام «ينبئ أوله عن آخره، وآخره عن أوله»^(٢) ففهم أحد الطرفين لا يغني عن الآخر، وهنا التفاتة رائعة من الشافعي حينما جعل وظيفة الختام وظيفة إعلامية فقال «ينبئ» فأخرجت دلالة الآخر عن التكرير لدلالة الأول، وإنها لها بيان تأسيسي لمعان لا تؤديها جملة صدر الكلام، فأخراص صوت الإبانة في الآخر والنظر إليه باعتبار التباسه بالأول وأخذه منه دون إنطاق الجانب البياني له من خلال تأسيسه لمعان آخر لم تحملها دلالة الأول يحول دون اكتمال المقاصد، ويعفي على كثير من محاسن البيان.

وفقه الدلالات المتشابهة عند البلاغيين لا يعني التطابق التام بحيث يصبح الآخر هو الأول بصريحة ومكنية، وإنما التفتوا إلى المزايا والخصائص والصفات التي تندس في لغة الآخر فتشده إلى الأول، وتعلقه بإعطافه، ثم تجري فيه عناصر تطرح بدلالته إلى آفاق جديدة تزيد في محتواه ويستقل بها. فالخاتمة تروّز مقاصد البدء فتفصل ما أجمل هناك وتفسره وتخصص ما عمم وتعمم ما خصص، وتقابل صور البدء بنظائره الضدية؛ لتكتمل المعاني وتتم المقاصد.

(١) "سر الفصاحة" ابن سنان ص ٥١.

(٢) "الرسالة" الشافعي ص ٥٢.

ثم تتجاوز هذا التشابك فتفيض بدلالات تمنحها من الوسط، فتستقي منه وتسقيه . وتؤسس لمعانٍ يستقر عندها الكلام؛ لأن الكلام عند منقطعه يكون قد بلغ الغاية في الإفهام، فالناس في الفهم صنفان: صنف يكتفي باللمح الدال، وصنف لا يشفي فهمه إلا التفصيل والتحليل .

وقد هداني هذا القول ما رواه الجاحظ عن رجل من طئ يمدح كلام رجل فيقول:
«هذا كلام يكتفى بأولاه، ويشفى بأخراه»^(١).

فقف بقوله: «يكتفى بأولاه» وما يحمله من تصوير لوظيفة البدء، وأنه ذو دلالة مجملة تكتنف دلالات الكلام جملة، حتى يداخلك أن كل معنى يتضمنه الكلام له أصداء في جملة البدء، وأن ما وراءه تفصيل وحل لما نفث في كلماتها وأجراسها، وعقدت عليه لغتها، ثم قف بقوله: «ويشفي بأخراه» وتأمل موقع الشفاء في الخاتمة وكيف تمريض لغتها ومعانيها الإجمال في البدء، فكان الخواتيم هي طب الفواتيح، فعندها تتجلى المقاصد وتستقر بعد أن توزعتها التراكيب وحركتها باتجاهات متنوعة بحسب الأغراض والأحوال فتأتي الخاتمة لتتجمع أعناق المعاني في بيان ملتقى يسكن فيه المعنى ويتجلى عياناً بعد أن كان يروغ في دلالات متزاحمة تجتمع أصدائها فلا يكاد يمتاز رنينه، فحضور الخاتمة يدل عليه ويعلي صوته، وبهذا تشفى نفس المخاطب من الترددي في أودية المعنى المترامية، فتروود به بواطن الدلالات، ويقف منها على مكان يشرف به على جميع المقاصد المتنوعة من خلال هذه الزاوية المحدودة .

ولا يهولك هذا الخدس، فيقع في وهمك أي أنكلف قراءة النص وأنطق رجل طئ بما لم ينطق، وتطالب بالدليل المنقول، فعلم ذلك وكل إلى صفاء القرائح وحفاوتها بعبارة العلماء فتتظر فيها كما في عروق الذهب، وواقع النقد العربي القديم يقرر هذا النمط من القراءة، ويجعل الوصول إلى أصوله بمعاناة لغة البيان ومعالجة أسرارها وأحوالها فمن رآه من غير مزاولة ومحاولة رام عسيراً .

(١) "البيان والتبيين" ١/ ١٤٩ .

ولذلك قال الجاحظ: «طلبت علم الشعر عند الأصمعي، فوجدته لا يحسن إلا غريبه، فرجعت إلى الأخفش فوجدته لا يتقن إلا إعرابه، فعطفت على أبي عبيدة فوجدته لا ينقل إلا ما اتصل بالأخبار ... فلم أظفر بما أردت إلا عند أدباء الكتاب»^(١).

وبهذا يتضح الطريق إلى أصول النقد وأن لغة الأدباء في تذوق البيان، هي التي تؤصل مناهجه، وترسم حدوده، وتخط معالمه، فالتقيد نشأ في حنايا البيان وخالط لغته، ولن يفضي إليك بمكنونه حتى تشق طريق اللغة وتنظر في بلاغتها وتجلي دلالته فتفيض لك بها في صدرها من أسرار وأصول أودعها أهل اللسان في كلماتها.

فالأدباء حينما أودعوا أصول فهم بيانهم ومقاصدهم في لغتهم، يرومون من ذلك أن من لم يكن قادرًا على تذوق الكلام واستشفاف غوره هو بمعزل عن النقد؛ لأن أعظم أصول النقد مزاوله كلام العرب والمدارس له، فمن كان عاجزًا عن ذلك فلن يؤصل أصوله، ولن يرسم مناهجه. وهذه من فطنة النقد العربي حتى يخرج الأدعياء فلا يصح فيه ولا يثبت إلا من أشرب في قلبه البيان.

وإن كان النقد العربي يحمل كثيرًا من التصريحات التي توجه إلى أماكن الحسن في أواخر الكلام وأوائله، كما في حديث ابن طباطبا عن موقع القافية، وتمكنها في مكانها باعتبار الدلالة، فالشاعر متى «اتفقت له قافية قد شغلها في معنى من المعاني، واتفق له معنى آخر مضاد للمعنى الأول، وكانت تلك القافية أوقع في المعنى الثاني منها في المعنى الأول نقلها إلى المعنى المختار»^(٢).

وذكر صورًا كثيرة لذلك منها قول أبي عبيدة المهلب:

(١) "العمدة" ابن رشيق ٨٤/٢.

(٢) "عيار الشعر" ابن طباطبا ص ٨.

دنيا دعوتك مسمعا فأجيبني وبما اصطفتيك للهوى فأثبي
دومي أدّم لك بالوفاء على الصفا إنني بعهدك واثق فثقي بي

وعلق عليه قائلا: «ف قوله: «فثقي بي» لطيفة جدًا، فيستدل بها على حذق قائلها بنسج الشعر»^(١).

فالقافية «فثقي بي» هي قرار المعنى، حيث هيأت الطلب في صدر الأبيات: فأجيبني، «فأثبي»، و«دومي»، إلى التحقق والوقوع؛ لأنه متى حصلت ثقة الدنيا بالشاعر سُمع صوته، وأثابته لاصطفائها باصطفائه وألبسته حلل الوفاء والصفاء على وفائه.

فالقافية وإن مكنت دلالة الجملة التي وقعت فيها فهي لا تنقطع عما قبلها وإنما تجد لها مدخلًا في دلالة المطلع فقد سدت لحمة الأبيات، وأحكمت نسجها، فاستقرت عندها الدلالة.

ومثله قول عروة بن أذينة:

وكل هوى وإن عنى زماناً له من بعد ميعته تجلّي
كأنّي لم أكن من بعد ألف عدلت النفس قبل على هوى لي
فإن أقصر فقد أجريت عصرًا وبلّاني الهوى فيمن يبلّي

فقوله: «هوى لي» لطيفة الموقع^(٢)، وقد أحسن ابن طباطبا غاية الإحسان إذ أورد ما قبلها وما بعدها من الأبيات لأن فقه دلالة حسن الموقع لا تكون إلا بذلك الحضور الدلالي للسابق واللاحق، فكيف أجهض كثير من نقاد اليوم أقوال علماء البلاغة في الوحدة؛ لأنهم

(١) «عيار الشعر» ص ١٨٣.

(٢) «عيار الشعر» ابن طباطبا ص ١٨١.

وقفوا باستدلالهم عند الآيات المفردة، فقطعوا الجمل عن متعلقاتها، وهذا ابن طباطبا يدرس القافية ثم لا يعلق دراسته بالبيت المفرد، وإنما ينص على أنها داخلة في نسيج الشعر وليس الجملة أو جملة الآيات وإنما القصيدة كلها، فتمكنها يناط بملاحظة عدة جمل تتوزع دلالتها . وأكثر شواهد هذا الفصل جملة أبيات يجعل فيه لطف الموقع لأحد قوافيه، وكأنها هي النازمة للمعنى .

فلطف موقع «هوى لي» جاء من كونها نظمت ما قبلها فيها، وجسرت للمعنى الذي بعدها، فالبيت الأول معنى عام قرر حقيقة شائعة بأن كل صاحب هوى وإن متع زمناً بعشقه، وتنعم برشف لذيق كأسه، أو تنغص بغصص عنائه، فإن تطاول فله من بعد أنسه وصفوه انجلاء، حتى إذا أنست النفس بهذه الحقيقة بنى عليها تجربته وهو أنه تجاسر على أهوال العشق، وروض نفسه فارتاضت وأقصر باطلها فأقصرت، ثم جسر هذا المعنى لما بعده وهو أن عزوفه عن الغي ما كان يكون لولا أعصر بلى وأبلت معها الشاعر، ثم حارت الدلالة إلى العموم في مطلع الآيات واستحضره فقال: «فيمن يبل»؛ ليؤكد أن هذا ديدن كل هوى.

وقد شاع مصطلح الفواتيح والخواتيم في الدراسات القرآنية^(١)، وعند أكثر المفسرين، وجرى الرازي في «تفسيره» على هذه التسمية، وأحياناً يذكر الأول والآخر، ويندر عنده استخدام مصطلح المطالع والمقاطع بينها يكثر البقاعي من استخدامه في الحديث عن علاقة آخر السورة بأولها، ولعل سبب ذلك منهجه الذي بنى عليه دراسته للتناسب تفسير القرآن كله تفسير السورة الواحدة، وجعل السورة بمنزلة الجملة من الجملة، فمقطع السورة يلتقي بمطلعها ثم ينشق منه ما يهيئ لما بعده، وهذه ركيزة جرى عليها البقاعي في جميع «تفسيره».

أما الرازي فكان في بداية تحوير المصطلح وغرسه في سياق أبعد وأغزر، فانتقاله كان محسوباً بخطوات تتقارب مع أصول منبته ومغرسه، ولكن مع هذه المقاربة استطاع أن يخلص التفاتة عبد القاهر في تحليله لقوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَيْي مَاءَكَ وَنَسَمَاءَ أَقْلِي وَغِيصَ

(١) البرهان " الزركشي ١/ ٣٣ ، " معترك الأقران " السيوطي ١/ ٥٨ ، " إعجاز القرآن " الباقلاني ص ٢٠٨ .

أَلَمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَأَسْوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾. وذكر أن من أوجه إعجازها: «مقابلة «قيل» في الخاتمة بـ «قيل» في الفاتحة»^(١) فهذه هذه الطريقة من التحليل في مقابلته لمعاني الآخر وعطفها على أوائل الكلام وبواديه لاستثارة المعاني، والكشف عن وجوه الملائمة بينهما، هدته إلى دراسة حركة المعنى ما بين الفواتيح والمقاصد أو الوسط والخواتيم ثم المزاجية بينها فترد المقاصد على الفواتيح والخواتيم ثم الخواتيم على الفواتيح فيحدث توزيع الدراسة بين هذه العناصر الثلاثة إحكام لبنية السورة، وتحلية لمقاصدها المستكنة في أعطاف لغتها وسياقاتها المتباعدة، فيتبع المعنى الخفي صداه في مواقع متنوعة، ويعلو صوته فينطق مفهومه منطوقه، وتجتمع أصداؤه المتفرقة في منظومة متنامية تتصاعد فيها المعاني وتشكل من خلال ارتداد أطراف السياقات بعضها على بعض، وبهذا تكون الوحدة التي يترابط نسيج أعضائها بوشائج دقيقة يتصل فيها المعنى بالمعنى ليس بالتابع والتدرج المنطقي وإنما بالتشني وردُّ السياق إلى السياق وعطفه عليه فتكتمل عندها الدلالة.

ومن أبرز ما تميز به الرازي عن غيره من المفسرين الأوائل والمتأخرين عنه، وصفه لبنية السورة بالوقوف عند وحداتها أو العناصر المكونة لها ثم ما بين هذه العناصر من تشارب وتمازج وتلاحظ وإن تباعدت في أماكنها وترتيبها داخل نظم السورة لها . فلم تعد العناية بهذه الوحدات الثلاث عند السابقين سوى إشارات وتلميحات تحت ذوي الأبصار على أن ترونها ونجس خباياها، ويكاد الباقلاني ينفرد بين علماء البلاغة بالتصريح بتقسيم السورة إلى وحدات ونبه على مكانة العلم بها من الإعجاز وقد ذكر ذلك في صدد حديثه عن تميز النظم القرآني، يقول: «وإذا عرف ما يجري إليه الكلام، وينهى إليه الخطاب، ويقف بعد عليه الأسلوب ويختص به القبيل، بأن عند أهل الصنعة تميز بابه، وانفراد سبيله، ولم يشك البليغ في انتباهه إلى الجهة التي ينتمي إليها، ولم يرتب الأديب البارع في انتسابه إلى ما عرف من نهجه»^(٢).

(١) "دلالة الإعجاز" ص ٤٦ .

(٢) إعجاز القرآن " ص ٢٠٩ .

فهذا النص يضم الوحدات الثلاث وهي: الفواتح «ما يجري إليه الكلام» والخواتيم وهي «ما ينهي إليه الخطاب»، والوسط وهو المقاصد التي «يقف عليها الأسلوب». وصرح بهذه التسمية في قوله: «وما يقع بين الفاتحة والخاتمة من الواسطة»^(١).

وهذا النص بارع يغري بفتح باب دراسة ذلك الفن وتتبع نبعه في القرآن الكريم، والكشف عن منابع إعجازه، وكيف يتفاضل بيان عن بيان بمراعاته والأخذ بأسبابه. وأن الوصول إلى تمييز طرائق الكلام واختلاف مسالكه ومناهجه التي يتجهجها المتكلم في الإبانة عن مقاصده وأغراضه، لا يكون إلا بدرك هذا الباب، وإتقان معرفته وسبر غوره. وبه يحكم بناء الكلام، ويضبط مجاري الخطاب وتحولاته وتنقلاته، حتى كأن المتصدي له يعد عن المتكلم «مجاري حركاته وأنفاسه»^(٢). فيتبع أصداء المعاني بعضها في بعض فيلاحظ ائتلاف تجاورها وإن اختلفت في ظواهرها، فهناك أنفاس تسري من قاعدة الكلام ومقاصده الكلية، فتحفظ للغة عبقاً واحداً يمازج بين مختلفاتها. ونقل هذا الشعر يثري درسه، ويوصل لوحدة بنائه، فالكلام وإن تشعبت به الأغراض وتوزعت فرجوعه إلى قاعدة ومقصد كلي بحكم تماسكه، ويعيد بناء برد كل معنى إلى نظائره، فتجتمع الأجزاء وتأتلف.

وهذا هو الجانب القريب لتفعيل هذا الباب وأبعد منه ما ذكره الباقلاني يقول: «وكذلك في الشعر واختلاف ضروبه، ويعرف المتحقق به طبع كل أحد وسبيل كل شاعر»^(٣).

فجعله أداة تستبين بها حقائق الكلام، وينفذ منها إلى جوهر بلاغته، وإدراك جوهر الأدب من أعسر الأشياء وأغمضها، تلتبس فيه المسالك وتختار بسالكه الطرقات، لكن إحكام هذا الفن يقصر المسافات التي تباعدت لتعدد مداخلها، ويسلك بها مسلكاً جامعاً لا يسد مسدّه فن من الفنون في تمييز صنعه للكلام. فبه يعرف سبيل كل شاعر في كلامه، ونهجه

(١) «إعجاز القرآن» ص ٢٠٨.

(٢) «إعجاز القرآن» الباقلاني ص ٢٠٩.

(٣) السابق نفسه.

في بيانه على ضروبه المختلفة ومقاصده المتنوعة فيدل على طبع كل شاعر من شعره، ويقتفي به آثار سيبا شاعرية الشاعر بالوقوف على مجاري كلامه ابتداءً، وأسلوب تنقلاته في معانيه وتحولاته وسطاً، وما يستقر عنده انتهاءً.

والرازي انتقل بتبنيها الباقلائي إلى أرض مباركة وهي القرآن، فتضاعف عطاؤها، وامتد بها إلى مجالات متراحة تريك أفانين في تناول المعاني الواحدة، فوضعها في مواقع مختلفة وجعلها مرة ابتداءً وأخرى وسطاً وثالثة انتهاءً في تنقلات مختلفة تعطيها خصوصيات في كل سورة غير التي كانت عليها في السورة الأخرى، لذلك قسم السورة إلى جزئيات تطول وتقصّر بحسب إتمام الجزء للفائدة، ثم يذكر تعلق الجزء بالمقاصد السابقة، ومكانه منها، وكيف انشق مجراه من جملة سابقة حتى استقر قراره . فعلاقات الجزئيات والفروع ليست بالضرورة قائمة على التابع والتوالي . وإنما قد تنعطف الآية على سياقات أبعد مع تمكنها مع ما قبلها، وهكذا ترتب الآيات أحياناً بالتوالي وأحياناً بالتنادي . وهذا سنوفيه حقه - إن شاء الله - في موضعه أثناء الحديث عن التناسب بين الآيات داخل السورة .

والذي يعيننا في هذا الفصل هو عنايته بتقسيم السورة إلى ثلاث وحدات: الفاتحة، والوسط، والخاتمة، وحرصه على أن تنماز جملتا الفاتحة والخاتمة عن جملة الوسط بمحاولته تحديد منتهى الافتتاح وابتداء الاختتام . وهو بهذا التحديد لا يقطع ما بينها من علائق وإنما يقف على الجزئيات ثم يلاحظ ما بينها من تفاعل وكيف يمد فيها المعنى المعنى ويساعد في تشكيله، وإن استقل العنصر الآخر بدلالته فهو لا ينقطع عن أصوله ونظائره في السورة . فكل جملة تظل تصحب الجملة الأخرى في جميع تحولاتها وتخلصاتها، فالبدء دوماً يستصحبه المفسر في تحليله وسطاً وآخرًا وكذلك الوسط والآخر في علاقات متبادلة لا تكاد تنقطع إلا عند الختام الذي ينعطف بالمفسر إلى الوسط ثم إلى البدء، فتحكم بتلك الارتدادات بنية الكلام، وتعطي غزارة للمعاني برد بعضها على بعض، فيبين بعضها دلالة بعض ويشرح مجمله، ويكشف ما استتر من غوامض معانيه، ويشكل دلالته بما يتلاءم مع معاني الجوار فتمدها وتستمد منها.

وهذا من النمط العالي في تحليل الكلام، واستخراج ما فيه من غزارة تكمن وراء تراكيبه وسياقاته المتنوعة والمتباعدة، ودراستها كمنظومة واحدة وإن استقلت بعض عناصرها بالفائدة من وجه فهي لا تنأى عن المقاصد والأغراض المجاورة.

وعنايته بالوقوف عند تحديد موقع جملة الافتتاح والخاتمة، والوقوف على رسوم تعلقها مع أجزاء السورة ومكوناتها، لا نعلم أن أحدًا فيها سبق من علماء التفسير والإعجاز وقف عندها وأنعم التأمل لمكانه من الإعجاز، على أنه بالغ الأهمية؛ لأن معرفة بناء السورة وتعالق أجزائها وعناصرها لا يكون إلا بعد معرفة موقع ومكان كل جزء بنفسه ثم موقعه في غيره، ولم يختص كل جزء بمكانه، فتتظيم الكلام بالترتيب والتقديم والتأخير يكون لاعتبارات توجب أن يكون هذا أولًا، وذاك آخرًا؛ لأن «الكلم ترتب في النطق بسبب ترتب معانيها في النفس، وأنها لو خلّت من معانيها حتى تتجرد أصواتًا وأصداً حروف لما وقع في ضمير ولا هجس في خاطر أن يجب فيها ترتيب ونظم، وأن يجعل لها أمكنة ومنازل، وأن يجب النطق بهذه قبل النطق بتلك»^(١).

فإذا كانت البلاغة توجب النظر إلى مواقع الألفاظ وترتيبها داخل الجملة فمن باب أولى اعتبار هذا النظر في دراسة بناء الكلام قرآنًا وشعرًا حتى لا يصبح نضدًا ورصفًا خاليًا من اعتبارات ترجع إلى معانيه المترتبة في النفس، فالنطق بالفاتحة ابتداء ليس خاليًا من دلالة وكذلك الوسط والخاتمة كل منها له أمكنة ومنازل أوجبت تقديم بعضها على بعض.

وهذا مقدم على دراسة الاعتبارات التي ترجع إلى علاقات الأجزاء، وكيف كان أحدها بسبب من الآخر، فالتنبية على علل وضع الأشياء في مواضعها، وما مقتضى كون هذه الجملة فاتحة والأخرى خاتمة يضبط حركة المعاني داخل البناء، وينسب كل معنى إلى أصله، فالوصول إلى البنية المكتملة للكلام لا يكون إلا بعد إحكام النظر في مواقع عناصرها

(١) "دلائل الإعجاز" عبد القاهر ص ٥٦.

وأماكنها على حدة، ثم النظر بعدها في علاقات الأجزاء، وهذا ما فعله الرازي في تفسيره رغم صعوبة بابه، وعسر ضبط الحد الفاصل بين العناصر المتداخلة حتى لا يدخل غيرها وإن كان من جنس معانيها فيها، وهذا التحديد لا يعزل الدلالات ولا ينفي التداخل بين العناصر المكونة للسورة، وإنما يوجه نحو خصوصية مواقع المعاني . وهو منهج يتجلى أيضًا في طريقة تقسيمه للآيات أثناء التفسير إلى مجموعات وفق تصوره للأغراض والمقاصد التي هي مضمون كل جزء، ثم يذكر الروابط بين الأجزاء ومكان بعضها من بعض .

ومما يؤكد تتبعه واجتهاده في استبانة ابتداء الجزء وانتهائه ما صرح به في تفسيره لسورة «يونس» من أن بدء مقاصد السورة من الآية الثانية يقول في الآية الحادية عشرة «إن الذي يغلب على ظني أن ابتداء هذه السورة في ذكر شبهات المنكرين للنبوة مع الجواب عنها»^(١).

أي أنه كان أمامه توقعات واحتمالات حتى ترجح عنده تحديد الجملة. وأولى شبهات المنكرين للنبوة ذكرتها الآية الثانية وهي تعجبهم وتعجيبهم من تخصيص واصطفاء محمد ﷺ من بينهم بالرسالة والوحي، ثم توالى أنواع متعددة من الشبهات تتعلق جميعها بالمقصد الكلي، وهو نبوة محمد ﷺ ودحض الأباطيل التي ردها المشركون حولها، وسد جميع الطرق التي سلكوها لزعزعة الدعوة بالتشكيك أو بالمحاربة ومناصبتها العداء.

وعلى هذا يكون الافتتاح قوله تعالى: ﴿الرَّيُّكَ أَيُّنَا أَكْثَرُ الْحَكِيمِ﴾، جملة واحدة هيأت لما بعدها، ومكنت للدلائل والبراهين بجعل آيات السورة كحاكم يميز الحق من الباطل في الاعتقادات، «وكحاكم على أن محمد صادق في دعوى النبوة؛ لأن المعجزة الكبرى لرسولنا - عليه الصلاة والسلام - ليست إلا القرآن»^(٢).

وبلاحظ أن تحديد بدء الأغراض انعكس على تفسير جملة الافتتاح ووجه دلالتها نحو ما يتلاءم مع مقاصد السورة . فالتقسيم لا يوجه دلالة كل وحدة بمعزل عن سياقها بقدر

(١) "التفسير الكبير" ٢١٨/٦ .

(٢) "التفسير الكبير" ١٨٥/٦ .

ما يبحث عن الخصوصيات المتولدة من تألف وتمازج كل قسم مع غيره من الأقسام الأخرى، وبهذا تتشكل وحدة هي نتاج ما بين هذه العناصر، وحاصلة من مجموعها .

وأما تحديد الخاتمة فالأمر فيها أظهر غالباً ما يصرح على أن هذه الآيات خاتمة السورة ثم يذكر علاقتها بما قبلها وعلاقتها بالفاتحة، وإذا لم يذكر ذلك أثناء تفسيره للسورة نبه إليه في مطلع تحليله للسورة التالية لها، كما في سورة «لقمان» لما لم يصرح بخاتمتها جاء في سورة «السجدة» فبه عليها بقوله: «لما ذكر الله تعالى في السورة المتقدمة دليل الوجدانية، وذكر الأصل وهو الحشر، وختم السورة بهما بدأ ببيان الرسالة في هذه السورة»^(١).

وهذا المقصد جاء في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَارٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ [لقمان: ٣٣].

والرازي في تحديده لا يعول على نسبة عددية معينة، فالفاتحة قد تكون آية واحدة أو آيتين وقد تطول إلى إحدى عشرة آية، وكذلك الخاتمة قد تكون آية أو أكثر وقد تختصر إلى أن تصبح فاصلة الآية الأخيرة هي الخاتمة للسورة كلها، فتكون منقطع الجملة التي جرت في سياقها ثم تحور دلالتها إلى جميع أغراض السورة؛ لتجمع أطرافها، وهذا وعي بالغ ويقظة شديدة من الإمام لوظيفة الخاتمة، وأن ليس كل جملة صالحة لأن تكون منقطعاً للكلام، والضابط لهذا التحديد يقظة المفسر لمراتب المعاني داخل السورة وملاحظة أصول الدلالات وما بنى عليها من تفاريع. فالفاتحة غالباً ما تأتي بجملة لأغراض السورة، ومنبهة على مقاصدها، والخاتمة صورتها أن تكون جامعة لما تفرق فهي دعامة تستقر عندها الجزئيات، وتكتمل بجوامعها المقاصد.

وهذا الفهم جارٍ على ما استقر في الدرس النقدي من تفريق بين مصطلحين هما المطالع والمقاطع، والمبادئ والانتها، فالمصطلح الأول وإن تقارب مع الثاني في اعتبار الموقع في أول

(١) "التفسير" ١٣٥/٩ .

الكلام وآخره، إلا أن هناك فروقاً دقيقة مناطها العموم والخصوص، فكل أول مطلع وكل آخر مقطع، وليس كل أول فاتحة، ولا كل آخر خاتمة، فهما مصطلحان لهما خصوصية يستقيانها من الدلالة، فحدودهما لا تقف عند الكلمة أو الجملة الأولى أو الأخيرة، وإنما تمتد إلى أكثر من جملة، فضابطهما شيات وأحوال تنعكس من المقاصد والأغراض التي يرومها المتكلم، فهذا ابن رشيقي يؤكد على أن مصطلح المبادئ والانتهاى له خصوصية تضاف إلى كونها أول الكلام وآخره، يقول: «فإن الشعر قفل أوله مفتاحه به يستدل على ما عنده من أول وهلة»^(١). وعلى الانتهاى أنه «قاعدة القصيدة»^(٢).

فكل منهما له وظيفة في فهم دلالة النص ومقاصده الكلية، فالبدء إجماء ومكاشفة بعناصر تهدي إلى ما استكن من الأغراض، فيدل عليها. وأما الخاتمة فهي دعامة ترتكز عليها جميع المقاصد، ويستقر عندها ما تفرق من المعاني؛ لذلك جعلها قاعدة الكلام.

ومساحة جملة الفاتحة تطول وتقصر باعتباريات ترجع إلى حرصه على أن تستكمل الجملة جميع متعلقاتها اللغوية ومكوناتها البيانية، فغالبًا ما يتوقف في تفسيره أمام جملة البدء متتبعًا علاقاتها التركيبية واضعًا ترجيحات ومفترضًا الاحتمالات، ولا يقطع باليقين على أن هذا منتهى الجملة حتى يفتح أمامك بابًا من التأويل متسعًا يقلب فيه العلاقات اتصالًا وانفصالًا، ظاهرًا وباطنًا ثم لا يضع يدك على الراجح إلا عند ختام السورة بعد أن تكتمل المقاصد فيرد الخاتمة على ما ترجح لديه أنه الفاتحة. وهذا منهج حسن في الضبط؛ لأن القطع بالتحديد بدءًا مظنة للزلل؛ لتداخل بنى الكلام.

وإبراز ما يصور ما وصفناه تفسيره لفاتحة سورة البقرة في قوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾^(١)، والذين آمنوا ويقيمون الصلاة ويؤتوا الزكاة وهم بفقون * والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون * أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون ﴿البقرة: ١-٥﴾.

(١) "العمدة" ٢١٨/١.

(٢) السابق ٢٣٩/١.

فالعلاقات بين الجملة تحتل الوصل التام حتى تصبح جملة واحدة تُنصب لغرض معين لا تكتمل الإبانة عنه إلا بالوقوف على مقطع الجملة الأخيرة وهي ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾. أو تكون مقطعين الأول: الافتتاح، والثاني: بدء التفصيل لما تحمله من مضامين، فخلص إلى «وجه ثلاثة: أحدها: أن ينوي الابتداء بـ ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ وذلك لأنه لما قيل ﴿هُدًى يَتَّقِينَ﴾ فخص المتقين بأن الكتاب هدى لهم كان لسائل أن يسأل فيقول: ما السبب في اختصاص المتقين بذلك؟ فوقع قوله: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ إلى قوله ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ جواباً عن هذا السؤال . كأنه قيل: الذي يكون مشغلاً بالإيمان وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والفوز بالفلاح والنجاة لا بد وأن يكون على هدى من ربه. وثانيها: ألا ينوي الابتداء به بل يجعله تابعاً للمتقين، ثم يقع الابتداء من قوله ﴿وَأُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ﴾ كأنه قيل: أي سبب في أن صار الموصوفون بهذه الصفات مختصين بالهدى؟ فأجيب بأن أولئك الموصوفين غير مستبعد أن يفوزوا دون الناس بالهدى عاجلاً وبالفلاح آجلاً . وثالثها: أن يجعل الموصول الأول صفة «المتقين» ويرفع الثاني على الابتداء، و«أولئك» خبره، ويكون المراد جعل اختصاصهم بالفلاح والهدى تعريضاً بأهل الكتاب الذين لم يؤمنوا بنبوّة رسول الله ﷺ وهم ظانون أنهم على الهدى، وطامعون أنهم ينالون الفلاح عند الله تعالى»^(١).

فقبل القطع بمنتهاى جملة الفاتحة نجده يقف عند كل جزء وكل مقطع متبعاً للخيوط الغائرة في غيب اللغة التي توجه دلالات الكلام وتصحح وضع كل جملة، وتبين سبب أن اختصت بذلك دون غيرها .

وهو تتبع على هدى من الدلالة فيبين ما اتصل بسابقه، وما استقل فيكون مقطعاً جديداً، فمتى أمكنه حمل الكلام على فائدة زائدة حملة عليه، وصرف النظر عن اعتباره تابعاً لحكم سابقه، وهذه وإن كانت منهجاً اختطه الرازي في جملة تفسيره إلا أنها في باب الفواتيح والخواتيم أظهر وأجلى.

(١) "التفسير الكبير" ١ / ٢٧٨ .

ثم وقف عند قوله: ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ مسترجعاً أقاصي الجمل، راداً عليها موقع هذه الآية؛ ليستبين طريق العلاقات والعناصر التي أدرجتها في حكم ما قبلها ودمجتها في السياق السابق لها، فكانت هناك علاقات متعددة أعطت فسحة من التأويل فعلى الوجه الأول والثاني تكون من تمام ما قبلها؛ لأنها من الاستئناف البياني مع فارق وهو أن الآية في الوجه الأول واقعة في سياق جملة ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ التي هي جواب عن سؤال أثارته ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ فجاءت ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ إلى قوله: ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ﴾ جواباً على هذا السؤال، وبياناً لأوصاف المتقين.

أما الوجه الثاني فتصير ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى﴾ بدء الاستئناف البياني، وعليه تكون بياناً للطريقة الحميدة والعاقبة الحسنة التي إليها أمرهم، وهي الفوز بالهدى عاجلاً وبالفلاح آجلاً.

وفي كلا الوجهين نجد للكلام جذراً واحداً تنفرع منه الآيات وتدور في محيطه ولا تبتعد عن دلالته بزيادة سوى التفصيل والتفسير، وهذا الجذر هو قوله: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ وما بعده واقع في ساقته^(١) مدرج في حكمه، «فلا تكون محوراً وأصلاً في الكلام أو جذراً من جذور معانيه ينبنى عليه غيره ... فلم يصلح أن يكون جناح كلام في مقابلة خبر الذين كفروا»^(٢).

أما الوجه الثالث فعليه يصير الكلام مكتئزاً متعدد المضامين؛ لأن الواو جاءت لتغاير بين الكلامين وتنبيه على الخبيء ليطلب، وتدل على مكنون من المعاني جرى في سياق العموم لوصف المتقين ثم سلته الواو من ضمير اللغة فأبدته وأفسحت له حيزاً دلاليّاً مستقلاً عن سابقه، وبهذا جعل الفاتحة تمهد لمقصدتين وغرضين عليهما مدار السورة، المقصد الأول: التحدي بهذا الكتاب، وتقرير التحدي بكونه بلغ الغاية في الكمال لانتفاء الريب عنه ولكونه

(١) "الكشاف" الزمخشري ١/ ٣٤.

(٢) "دلالات التراكم" دكتور محمد أبو موسى ص ٣١٦، ٣١٧.

نبراس هداية للمتقين^(١). وينتهي هذا المقصد عند قوله: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾. والمقصد الثاني: إقامة الحجة على أهل الكتاب بهدايته لأخبارهم المنصفين لتصديقه لما بين يديهم من «التوراة» و«الإنجيل». وفي ذلك تأكيد لنفي الريب وهذه هي الوشيجة الواصلة بين المقصدين ثم تؤسس الآية لدلالة زائدة لم يحدث بها الكلام السابق فجاءت الواو؛ لتجذر لهذا المعنى، وتنبه على مفصل آخر من مفاصل الكلام التي تقوم به بعد ذلك المقاصد داخل السورة؛ لذلك جعل الموصول الثاني ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ مبتدأ وخبره ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ﴾ فهو جملة تامة منقطعة عن سابقتها. والموصول الأول ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ عام في حق كل من آمن بمحمد ﷺ سواء كان قبل ذلك مؤمناً بموسى وعيسى - عليهما السلام - أو لم يكن مؤمناً بهما، والثاني: خاص بمن آمن به من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأمثاله^(٢). وعطف الخاص على العام تنبيه على مزيد عناية بهذا الخاص؛ لأن «دلالة اللفظ العام على بعض ما دخله التخصيص أضعف من دلالة اللفظ الخاص على ذلك البعض؛ لأن العام يحتمل التخصيص والخاص لا يحتمله .. لأن في هذا التخصيص بالذكر مزيد تشريف لهم ... ثم ترغيب لأمثاله في الدين»^(٣).

أي أنه لما كانت دلالة اللفظ العام لا تقوم بهذا المعنى، ولا توفيه حقه في الإبانة حيث يظل هامساً في محيط اللفظ العام، عطف عليه الخاص؛ ليتنزع دلالاته ويجعله أصلاً تنفرع عنه أغراض مختلفة ويبنى عليه ما بعده من الكلام؛ لأن الشئ على المؤمنين من أهل الكتاب هياً لمعنى التعريض بأهل الكتاب الذين كفروا بنبوة محمد ﷺ وقالوا: تؤمن بما أنزل إلينا وهم يظنون أن ذلك هو الهدى. وعلى هذا يكون الكلام بياناً للمنهج القويم والصراط المستقيم الذي سألته الحامدون لله في سورة الفاتحة، فطلبوا من الله المحمود قبل حمد الحامدين بصفاته المتفرد بها عن غيره أن يهديهم الصراط المستقيم، فجاءت هذه السورة لتدل عليه وتبين صفته لهم.

(١) "التفسير الكبير" ٢٦٩/١.

(٢) السابق ٢٧٧/١.

(٣) "التفسير الكبير" الرازي، ٢٧٧/١.

وقد بني سؤالهم في سورة «الفاحة» على طلب الهداية إلى الصراط المستقيم مع مجانبة ما تفرق طرقاً وتشعب بين الضلال والغضب فبنت سورة «البقرة» على هذين المعنيين، وهذا وعي بالغ من الرازي حينما وجه دلالة ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ نحو معنى التعريض بطريق أهل الضلال الذين تتبين لهم آيات الله فيعرضون عنها ويصدون من آمن بالله ويبغونها عوجاً، وهو معنى معتبر في السورة لذلك اقتنع الرازي دلالته من غيب التخصيص في جملة ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾.

والرازي في «تفسيره» كثير التنقيب عن التوجيهات التي تفجر ينابيع الكلام، وتسمح بها تحت اللغة فتندفق في غزارة وامتداد، وهذا التوجيه مثال واضح لهذه الطريقة التي تدل على ما يستنبطه الأسلوب من معاني تستكن تحت اللغة، ولا يهيج بلابلها ويجهر صوتها إلا عطفها على ما جرت به السورة من مقاصد وأحوال فتبعث فيها خصوصيات تكشف عن إجمالها فتبوح بخبيئها، فالسورة جرى فيها ذكر أهل الكتاب ومجادلتهم بصدق الرسول ﷺ وكثر فيها هذا المعنى وتنوع عناصره حتى أصبح مقصداً وأصلاً من الأصول التي تروم السورة تقريره، بل وأبلغ من ذلك إعادته واستحضاره في أسلوب صريح في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٦٢].

والعناصر اللغوية ليست وحدها سبيل اكتمال الدلالة وإنما وراء ذلك وشائج معنوية دقيقة، تقصدها تكتمل عنده هيئة المعنى والغرض الذي تروم جملة الفاتحة بيانه والدلالة عليه؛ لذلك نظر الإمام إلى هذه العناصر التي تشكل لبنات تجري مجرى التكميل.

وهذا يحتاج إلى فضل تأمل في ردّ المعاني إلى أصولها وملاحظة المدى الذي تجري فيه منها.

فجملة الافتتاح في سورة «إبراهيم» تكتمل عند قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلَّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِيَ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [إبراهيم: ٤]؛ لأنه «تعالى لما ذكر في أول السورة ﴿كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ

لِنُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴿١﴾ كان هذا إنعاماً على الرسول من حيث إنه فوض إليه هذا المنصب العظيم ، وإنعاماً أيضاً على الخلق من حيث إنه أرسل إليهم من خلصهم من ظلمات الكفر وأرشدهم إلى نور الإيمان، فذكر في هذه الآية ما يجري مجرى تكميل النعمة والإحسان في الوجهين. أما بالنسبة إلى الرسول - عليه الصلاة والسلام - فلأنه تعالى بين أن سائر الأنبياء كانوا مبعوثين إلى قومهم خاصة وأما أنت يا محمد فمبعوث إلى عامة الخلق، فكان هذا الإنعام في حقه أفضل وأكمل، وأما بالنسبة إلى عامة الخلق فهو أنه تعالى ذكر أنه ما بعث رسولاً إلى قوم إلا بلسان أولئك القوم، فإنه متى كان الأمر كذلك كان فهمهم لأسرار تلك الشريعة ووقوفهم على حقائقها أسهل وعن الغلط والخطأ، أبعد فهذا هو وجه النظم»^(١).

فقوله: ﴿كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ﴾ أفاد عموم بعثته ﷺ وأنه مرسل إلى الناس كافة، وأن هذا الكتاب المنزل عليه هو الإمام الهادي والداعي إلى الحق، والنور الكاشف لحالك الظلمات التي تحبب في سرايبيها الذين يستحبون الحياة الدنيا ويتناسون الآخرة فتصدهم الأهواء عن الصراط المستقيم، ويردون في هاوية الطرق الملتبسة المعوجة فتتخطفهم هذه المفترقات لتقذف بهم في أودية الويل والعذاب الأليم.

فالآية تراحم فيها دلالات ضمنية نبذت في كلمات معدودة وهي: ذكر النعمة والمنعم عليهم والمنعم، وكل منها غرض في ذاته، لذلك مطلق ذكر المنعم بعد ذكر النعمة؛ لبيان أن عظم منزلتها كونها من الله، فكان وصف المنعم زيادة في قدرها ومكانتها، ثم جاء ما بعدها ليبعث دفائن قوله: ﴿أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ﴾ فبنى عليه ذكر المنعم عليهم وهم الخلق حيث أرسل إليهم الرسل؛ ليرشدوهم إلى الحق ويخلصوهم من غمرات الضلال والعمية، فتضمن هذا معنى الإنعام أيضاً على الرسول باصطفائه واختياره؛ ليلبغ عن ربه وانتهاء أمر الرسالة إليه، وذلك من قوله: ﴿أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ﴾ فاختيار «إلى» أفاد الغاية التي انتهى إليها المعنى وهو الإنزال ثم طوى تحت الغاية قصة تأريخ الرسالات وأحوال الرسل مع أقوامهم .

(١) "التفسير الكبير" ٦٢ / ٧ .

وبعد أن فرق هذه المعاني في زاوية مختلفة جمع بين أطرافها بقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

فاستحضرت مدخل الافتتاح وهو ﴿كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ﴾ فبينت أن من كمال هذا الكتاب كونه أنزل بلسان قومه؛ ليسهل عليهم الشرائع والحقائق، لذلك جاء التنكير في «كتاب» أي أنه كتاب أي كتاب . فهو عظيم الشأن قوي البلاغ تام الحجة لمن طلب الهداية وتفكر في بيانه. فإنزاله بلسانهم يسر لهم طريق الهداية لمن ألقى له السمع .

ثم ارتدت دلالتها إلى المنعم عليهم وقررت الإنعام السابق وزادت عليه ما يجري مجرى التكميل لهذا الأنعام، فعموم إرساله ﷺ للناس كافة بعد أن كان الرسل دعوتهم خاصة بأقوامهم، فالاصطفاء والاختيار وإن كان نعمة في حد ذاته إلا أن إرسالك يا محمد إلى عامة الخلق وعمومية دعوتك أتم النعم وأكملها .

والانتقال من خصوصية النعم إلى ذكر عامة الرسل يباس المعاني التي قبلها ويقررها ثم يهيئ لذكر أحوال الرسل مع أقوامهم قبل بعثة محمد ﷺ.

وكذلك اعتنى بالتدقيق في تحديد الخاتمة وخالف غيره في بعض المواضع كما في خاتمة سورة «مريم» حيث جعل النسخي قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا﴾ [مريم: ٩٧] مقطعة تنتهي عنده الأغراض فذكر أن «هذه خاتمة السورة ومقطعها، فكأنه قال: بلغ هذا المنزل أو بشر به وأنذر، فإنما أنزلناه «بلسانك» أي بلغتك وهو اللسان العربي المبين وسهلناه وفصلناه لتبشر به ... وقوله: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا﴾ [مريم: ٩٨] تخويف لهم وإنذار»^(١).

بينما يعدها الرازي كلاماً مستأنفاً لغرض «بين به عظيم موقع هذه السورة لما فيها من التوحيد والنبوة والحشر والنشر والرد على فرق المضلين المبطلين، فبين تعالى أنه يسر ذلك بلسانه؛ ليبشر به وينذر»^(٢).

(١) "الكشاف" ٤٨/٣ .

(٢) "التفسير" ٥٦٧/٧ .

ويجعل من قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ﴾ خاتمة للسورة، يقول فيها: «ثم إنه تعالى ختم السورة بموعظة بليغة فقال: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ﴾ لأنهم إذا تأملوا وعلموا أنه لا بد من زوال الدنيا والانتهاى إلى الموت خافوا ذلك وخافوا أيضًا سوء العاقبة في الآخرة فكانوا فيها إلى الحذر من المعاصي أقرب»^(١).

وتحديدها لموقع الخاتمة عول فيه على المقصد الكلي، فقله: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا﴾ يتلاءم مع غرض السور وهو الرد على أصناف الكفرة وشرح أحوالهم في الدنيا والآخرة^(٢)، فناسب ذلك الاعتبار بمن سبق ليعلموا زوال ما هم فيه وما لهم حتى يحذروا الدنيا ويخافوا سوء المآل في الآخرة.

وإذا كانت جملة الختام شديدة التعلق بما قبلها وجزءًا في بنائها وصلها بها دون عدها خاتمة للسورة مثل قوله تعالى: ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾ [الشمس: ١٥] فالكناية جاءت عقب ثلاثة مذكورات فكان لها ثلاثة وجوه «أولها: أنه كناية عن الرب تعالى! إذ هو أقرب المذكورات... المراد منه التنبيه على أنه بالغ في التعذيب، فإن كل ملك يخشى عاقبة، فإنه يتقي بعض الانتقاء، والله تعالى لما لم يخف شيئًا من العواقب، لا جرم ما اتقى شيئًا؟^(٣) وثانيها: أنه كناية عن صالح الذي هو الرسول أي لا يخاف صالح عقبى هذا العذاب الذي ينزل بهم وذلك كالوعد لنصرته ودفع المكاره عنه.. وثالثها: المراد أن ذلك الأشقى الذي هو أحيمر ثمود فيما أقدم من عقر الناقة لا يخاف عقباها. وهذه الآية وإن كانت متأخرة لكنها على هذا التفسير في حكم المتقدم.. والمراد بذلك أنه أقدم على عقرها وهو كالآمن من نزول الهلاك به ويقوم به ففعل مع هذا الخوف الشديد فعل من لا يخاف البتة فنسب في ذلك إلى الجهل والحمق»^(٤).

(١) "التفسير" ٥٦٧/٧.

(٢) السابق.

(٣) ينظر "الكشاف" ٧٦١/٤؛ لأنه تعريض بها ذكره.

(٤) "التفسير" ١٨٠/١١.

فالجملة الأخيرة تجري في محيط ما قبلها على هذه التأويلات دون تدخلها في نسيج السورة كلها ؛ لذلك حصر دلالتها في بيان ما قبلها . بينما نجد الإمام البقاعي يلحظ موقعها في بناء جملة الافتتاح وجعلها تكملة للقسم الذي بدأت به السورة و زادت في تقريره ؛ لأن «من له هذه الأفعال الهائلة التي سوى بين خلقه فيها وهذا التدبير المحكم هو بحيث لا يعجزه أمر ولا يخشى عاقبة»^(١).

ويمكن تصنيف العلاقة بين هذه الوحدات الثلاث كما يتناولها الرازي في ثلاثة محاور:

- ١ - علاقة الفواتيح بالمقاصد .
- ٢ - علاقة الخواتيم بالمقاصد .
- ٣ - علاقة الخواتيم بالفواتيح .



المبحث الأول

التناسب بين الفواتيح والمقاصد

تعد العناية بمبادئ الكلام إحدى الأصول البلاغية التي تجذرت في الدرس البياني، فقدمها قدم البيان، فهذا الخاتمي يعلل استحسان الأصمعي لمطلع قصيدة أوس بن حجر في الرثاء:

أيتها النفس أجمل جزعاً إن الذي تحذرين قد وقعا

لتناسب الافتتاح مع المقاصد، والمذهب الذي بنى عليه كلامه، يقول: «لأنه افتتح المراثية بلفظ نطق به على المذهب الذي ذهب إليه منها في القصيدة، فأشعرك بمراده في أول بيت»^(١). وقد أدرك حذاق الشعر والعارفون بصناعته مكانة هذا الباب من البلاغة، لأنه يزدان به الكلام حسناً، ويكسوه رونقاً، ويجعل عليه أهبة، فنحنوا مقاصدهم في الألفاظ ابتداءً، ودلوا عليها؛ لينشط السامع معه لاستقبال الكلام ومتابعة الخطاب. فقد روي ابن رشيق عن بعض الحذاق بصناعة الشعر أنه قيل له: «لقد طار اسمك واشتهر». فقال: «لأنني أقللت الحز، وطبقت المفصل، وأصبت مقاتل الكلام، وقرطست نكت الأغراض بحسن الفواتح والخواتم»^(٢).

فقلوه: «حسن الفواتح والخواتم» يدل على أن الدلالة على الأغراض متلبس باللغة فليست قرطسة المقاصد بأدائها وإفهامها بمعزل عن اختيار الألفاظ ودقة انتظامها وترتيبها، مما يجعل رأس الكلام مستوعباً لمراد المتكلم كله، فلا يجري وسط الكلام غرض ما إلا رأيت له صدى في الافتتاح، فمتى تتبعت منابه ابتداء لم تخطئه.

(١) "حلية المحاضرة" ٩٤/١.

(٢) "العمدة" ٢١٧/١.

وهذه الأقوال نبهت الرازي إلى علاقة تصل أطراف الكلام في سياقاته المتباعدة وأغراضه المختلفة وتردها إلى نسب واحد وأصل فرد ينتظم به البيان، فلما أدار عليها تحليل السور ظهر بها مكان الإعجاز، وربما قدره؛ لأن فاتحة الكلام تشكل وشيجة تتعطف عليها عروق الكلام وأصوله وفروعه فهي مغرس جميع أغراض السورة .

ولا أعلم فيمن قبل الرازي من كشف القناع عن وجه الإبانة عن المقاصد في فاتحة القول، ولا من استكشف وجلى حقائقها في التفسير والتحليل على الوجه الذي ذكره الرازي وإنما استقر ذلك فيما بعد، فجعل معيار حسن المطالع بمدى استيعابها لمقاصد الكلام ودلالاتها على أغراض المتكلمين، يقول حازم «هي الطليعة الدالة على ما بعدها المترلة من القصيدة منزلة الوجه والغرة، تزيد النفس بحسنها ابتهاجاً ونشاطاً لتلقي ما بعدها إن كان بنسبة من ذلك»^(١).

وقد حظيت الفواتح عند الإمام بكثير من العناية والتأمل، فكشف عن وجوه بلاغتها وبديع أسرارها ولطيف ترتيبها وانتظامها وما وراء مواقع الترتيب من إيماءات بمعاني تستوعب السورة بجميع أغراضها المختلفة، وبهذا يلتقي مع عبد القاهر في أن الإعجاز في النظم والترتيب ليس باعتبار وضع كل لفظة موضعها الأخص بها، وإنما باعتبار الغزارة المستكنة خلف الألفاظ، فموقع اللفظة وعلاقتها المتشابهة مع ما قبلها وما بعدها يفتح أحوالاً متكاثرة ومعاني متنوعة، وهذا هو أصل المزية في النظم وبه يفضل كلام كلاماً^(٢).

ويؤكد ذلك ملاحظته توزيع الأساليب بين الافتتاح والوسط وأثره في إحكام العلاقة والمقاربة بين المقاصد والزيادة فيها كما في بدء سورة «الفاتحة» ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ ثم جاء في الوسط ﴿أَهْدِنَا﴾ فقارب بين الطرفين وأبعد المنتهى فـ «كأنه يقول: أيها العبد، أأست قلت في أول السورة: الحمد لله وما قلت: أحمد الله فذكرت أولاً حمد جميع الحامدين فكذلك في وقت الدعاء أشركهم فقل: ﴿أَهْدِنَا﴾»^(٣).

(١) "منهاج البلاغ" ص ٥٠٩ .

(٢) "مراجعات في أصول الدرس البلاغي" دكتور محمد أبو موسى ص ١٩٦ .

(٣) "التفسير" الرازي ١/ ٢١٩ .

فهذه المقاصد استثارها تكرار الأسلوب ونبه على ما انطوى تحت اللغة من معان وأحوال، فقوله: ﴿أَهْدِنَا﴾ أَرَّ معنى الاجتماع والتكافل الذي لفته «الحمد لله» في بيانها، فكان لسان العبد يقول: أحمذك كما يحمدك جميع العالمين فأنت المحمود بلسان جميع العالمين، فأثبت له ولغيره فعل الحمد، فكان اللسان يلهج بحمد متتابع فلا ينقطع لسان عبد عن الحمد حتى يتحرك لسان آخر. وهذا المعنى كان صامتا حتى جاء قوله: ﴿أَهْدِنَا﴾ فنبهت على خصوصية اختيار التحدث بالجمع وكونها مقصدا رئيسيا في بناء هذه السورة، فأثبتت اللغة بلمحة دالة: أن المؤمن يتحرك في إطار الجميع في أقواله وأفعاله وظنونه، فكما هو يشي على أخيه المؤمن ويثبت له الخير، فكذلك في وقت الدعاء يسأل له الخير كما يسأله لنفسه.

فالرازي في دراسته لنظم الافتتاح لم يكن يبحث في أبلغية اللفظة أو الأسلوب بقدر ما كان يتتبع منابع الغزارة في الجمل ويروز ما تحت بلاغتها من معاني نبذت بها اللغة نبذا مختصرا ثم نمت هذه العناصر وشكلت أغراضا أصلية في بناء السورة.

وأبسط تصور لجملة الافتتاح يكون بتتبع عناصرها في الجملة الموالية لها، وكيف تناسلت في بيانها وانحلت في نظمها فنبه على مداخل تلك الجمل في الافتتاح وموقعها منه فتارة تأتي شرحا وتفصيلا كما في سورة «الأنفال» في قوله تعالى: ﴿يَسْتَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١].

ثم والاهـا بقوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢] لأنه لما قال: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ واقتضى ذلك كون الإيـان مستلزما للطاعة، شرح ذلك في هذه الآية مزيد شرح وتفصيل، وبين أن الإيـان لا يحصل إلا عند حصول هذه الطاعات^(١).

وفسر الزمخشري قوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ بأنها «إشارة إليهم أي أنهم الكاملون الإيمان، من صفتهم كيت وكيت» (١).

وهذا ظاهر أنه في حدود الجملة المفردة، أما الرازي فقد لاحظ ترتيب الطاعة على الإيمان وما وراء ذلك من مقتضيات أبهمت تحت ذلك الترتيب فجاءت الجملة التالية إشباعاً لدلالاتها ومزيد تفصيل لها.

وكذلك جملة الافتتاح في «الحج» في قوله: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَتَقُورَ رِيعَكُمْ إِن زَلَزَلَتْ السَّاعَةُ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ * يَوْمَ تَرَوُنَّهَا تُذْهِلُ كُلَّ مَرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: ٢١].

ولم يجعل الآية التالية تفصيل وبيان لزلزلة الساعة؛ لأن مقصد السورة وغرضها الإنذار بالساعة وبيان أحوالها، وجعل بدء التفاصيل في قوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَتَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ﴾ [الحج: ٣]. يقول في وجه تعلقها بالمطلع: «أخبر تعالى فيما تقدم عن أهوال يوم القيامة وشدها ودعا الناس إلى تقوى الله. ثم بين في هذه الآية قوماً من الناس الذين ذكروا في الأول وأخبر عن مجادلهم» (٢).

وأما في سورة «فاطر» يأتي قوله: ﴿أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ [فاطر: ٣]؛ لأنه «لما بين أن الحمد لله وبين بعض وجوه النعمة التي تستوجب الحمد على سبيل التفصيل بين نعمه على سبيل الإجمال، فقال: ﴿أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾» (٣).

وفي مواقع أخرى تجاذب الآية والمالية أطراف المطلع فتفصلها ثم ترتد إلى رأس الكلام مثل سورة «الأنبياء» حيث جاء قوله: ﴿مَاءَ أَمْنَةٍ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرِيْبَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ * وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَتَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾

[الأنبياء: ٦، ٧]

(١) «الكشاف» ٢/ ١٩٥.

(٢) «التفسير» ٨/ ٢٠٢.

(٣) «التفسير» ٩/ ٢٢٢.

فلما طلبوا آية جلية في قوله: ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلِمٌ بَلْ أَفْتَرْتَهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٠]. «بدأ بالجواب عن هذا السؤال الأخير بقوله: ﴿مَاءَ أَمْنَتَ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرِيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٠].

وأجاب عن سؤالهم الأول وهو قولهم: ﴿هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ [الأنبياء: ٣٠] بقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ﴾. فين أن هذه عادة الله تعالى في الرسل من قبل محمد ﷺ ولم يمنع ذلك من كونهم رسلاً للآيات التي ظهرت عليهم فإذا صح ذلك فيهم ظهر على محمد مثل آياتهم»^(١).

وأحياناً تأتي الجملة مؤكدة لمقاصد المطلع وبناء عليها، كما في سورة «المؤمنون» حيث جاء قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٢]. ف «لما أمر بالعبادة في الآية المتقدمة، والاشتغال بعبادة الله لا يصح إلا بعد معرفة الإله الخالق لا جرم عقبها بذكر ما يدل على وجوده واتصافه بصفات الجلال والوحدانية فذكر من الدلائل أنواعاً»^(٢).

ويمتد تتبعه ليستوعب جميع مكونات السورة ومعانيها وما نمت منها وكونه غرضاً بذاته وأوضح ما يصور ذلك وقوفه عند جملة المطلع في سورة «النساء» وتحليله لعناصرها وما يندرج تحتها من صفات مقاصد انجرت وسط السورة. فجملة المطلع هي قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَّوْا وَخُلُقُوا مِنْهَا وَجْهًا وَبِئْسَ مِنْهَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]. فقوله: ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمُ﴾ لها موقعان: أحدهما: باعتبار ما قبلها، يقول: «اعلم أنه تعالى أمرنا بالتقوى وذكر عقبيه أنه تعالى خلقنا من نفس واحدة، وهذا مشعر بأن الأمر بالتقوى معلل بأنه خلقنا من نفس واحدة»^(٣).

(١) "التفسير" ١٢٢/٨.

(٢) السابق ٢٦٤/٨.

(٣) "التفسير" ٤٧٩/٣.

فتصير هنا ابتداء أمر رتب عليه علته، والثاني: يردها إلى مقاصد السورة ويجريها بين أعطاف أغراضها فتهيأ بهيئة أخرى؛ حيث تصبح علة لجميع الأغراض داخل السورة وقدمت العلة على معلولها لموجب بياني، لما كثرت فيها التكاليف والفرائض مما قد يحصل منها مشقة على النفوس، فابتدئها بذكر الامتنان والإنعام الذي أسبغه العزيز الحكيم على العباد، ولا أعظم ولا أبلغ في قود النفوس من التذكير بالنشأة الأولى وخلقهم من العدم، والإنعام عليهم بعد الإيجاد والتخليق بأن جعلهم أمة واحدة وجعل بينهم المودة والرحمة، مما يوجب الامتثال للتكاليف والفرائض، يقول في ذلك: «ولما كانت هذه التكاليف شاقة على النفوس لثقلها على الطبع لا جرم افتتح السورة بالعلة التي لأجلها يجب حمل هذه التكاليف الشاقة وهي تقوى الرب الذي خلقنا والإله الذي أوجدنا»^(١).

وتكررت أيضاً وسط السورة في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلّٰهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللّٰهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىَٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِن تَلَوْا أَوْ نَعَرَضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ حَبِيرًا﴾ [النساء: ١٣٥].

يقول فيها: «تقدم في هذه السورة أمر الناس بالقسط، كما قال: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَمِينِ﴾. وأمرهم بالإشهاد عند دفع أموال اليتامى إليهم، وأمرهم بعد ذلك ببذل النفس والمال في سبيل الله، وأجرى في هذه السورة قصة طعمة بن أبيرق واجتماع قومه على الذب عنه بالكذب والشهادة على اليهودي بالباطل، ثم إنه تعالى أمر في هذه الآيات بالمصالحة مع الزوجة، ومعلوم أن ذلك أمر من الله لعباده بأن يكونوا قائمين بالقسط، شاهدين لله على كل أحد، بل وعلى أنفسهم، فكانت هذه الآية كالمؤكد لكل ما جرى في هذه السورة من أنواع التكاليف»^(٢).

(١) "التفسير" ٤٧٥/٣.

(٢) "التفسير" ٢٤١٠، ٢٤٠/٤.

وأيضاً ملاحظته لموقع القيد في جملة ﴿أَتَقْوُوا رَبَّكُمْ أَلَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجَعَلَكُمْ﴾ ومراجعة صداها المتردد في سياقات السورة، وسلطته على الأغراض الأصلية والفرعية يقول: «إن الأمر بالتقوى معلل بأنه تعالى خلقنا من نفس واحدة ولكل من هذين القيدين أثر في وجوب التقوى .. فمعرفة أنه خلقنا علة لوجوب الانقياد لتكاليف الله تعالى والخضوع لأمره والاحتراز عن نواهيه.

ومعرفة كيفية التخليق يدل على كمال قدرته وله فائدتان: الأولى: أنه لما دلت هذه الدقيقة على أن مدبر العالم فاعل مختار قادر على كل الممكنات عالم بكل المعلومات فحينئذ يجب الانقياد لتكاليفه وأوامره ونواهيه، فكان ارتباط قوله: ﴿أَتَقْوُوا رَبَّكُمْ﴾ بقوله: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجَعَلَكُمْ﴾ في غاية الحسن والانتظام^(١).

فالالتزام بالتقوى معلل بذكر نعمة الخلق التي هي كفيلة في ذاتها بالانقياد والخضوع لأوامره لكن حينها أضيف لها قيد آخر وهو ﴿مِنْ نَفْسٍ وَجَعَلَكُمْ﴾ المبينة لكيفية التخليق زادت في معنى الأنعام معنى كمال القدرة، فإذا لم تكن نعمة الإيجاد والخلق ملزمة على التقوى فإن المعرفة بالمنعم وقدرته وعظيم صفاته وحدها موجبة للانقياد له وإقامة تكاليفه وأداء فرائضه.

والفائدة الثانية: تشربتها الدلالة من السياقات المتنوعة في السورة، فاتصاها بقوله: ﴿وَأَتُوا آلَئِنَّمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا الْحَيْثُ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾

[النساء: ٢].

فتفصيل الخلق بكونهم خلقوا من نفس واحدة له أثر في تقرير المعاني الخاصة بإيجاب الحقوق بينهم، وهو من المعاني الأصلية التي دارت عليها السورة، فكون الناس من أرومة واحدة يزيد في إيجاب الشفقة بينهم وتعطف بعضهم على بعض وأيضاً ترك المفاخرة، مما يشيع بينهم حسن الخلق والتواضع؛ لذلك قرن عبادته بأداء الحقوق بين الناس في قوله: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ﴾

(١) "التفسير" الرازي ٣/ ٤٧٧، ببعض التصرف.

وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ
أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ [النساء: ٣٦].

فالإلزام ببر الوالدين والإحسان إلى دي القربى وحفظ الحقوق بين الناس على تنوع
أصنافهم مقرون بعبادته وتوحيده وهو «أمر بصلة الرحم كما ذكر في أول السورة بقوله:
﴿وَالْأَرْحَامَ﴾»^(١).

ثم ينبه الرازي على سبب أن ذكر في الفاصلة الاختيال والفخر في سياق الأمر بالصلة
والبر بحقوق الله وحقوق العباد، وذلك لخصوصية بلاغية، فـ «إنما خص الله تعالى هذين
الوصفين بالذم في هذا الموضع؛ لأن المختال هو المتكبر، وكل من كان متكبراً فإنه قلما يقوم
برعاية الحقوق، ثم أضاف إليه ذم الفخور؛ لثلا يقدم على رعاية هذه الحقوق لأجل الرياء
والسمعة، بل لمحض أمر الله تعالى»^(٢).

وهذا تحقيق لمعنى التقوى المأمور به ابتداءً، لأن النفس متى تمحضت فيها تقوى الله
باعدت بينها وبين كل ما ينزعها إلى التمرد على فرائضه وتكاليفه، وبين أن تتخذ من القيام
بالحقوق ذريعة وسليماً ترقى به درجات تبرزه، وتظهره للناس، وهذا من التواضع الذي يفضي
إلى كبر، وإنما يجب الله من تطامن وخفض رأساً لأمر الله لا يبتغي من الدنيا عرضاً ومبلغاً.

وأظن أن هذه الآية هي التي بنى عليها الزمخشري ترجيحه؛ لأن المقصود بقوله:
﴿أَتَقَوُّوا رَبَّكُمْ﴾: «تقوى خاصة وهو أن يتقوه مما يتصل بحفظ الحقوق بينهم، فلا يقطعوا ما
يجب عليهم وصله... وهذا المعنى مطابق لمعاني السورة»^(٣).

ويتتبع الرازي تفرعات المعاني داخل السورة وتولدها من جملة الافتتاح وكيف بنى
بعضها على دلالتها، فجملة ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾^(٤) تضمنت كثيراً من المعاني الفرعية،

(١) "التفسير" ٧٦/٤.

(٢) السابق ٧٨/٤.

(٣) "الكشاف" ٤٦٢/١.

(٤) "التفسير" ٤٧٧/٣.

فالحديث عن المعاد راجع إليها «لأن من كان قادرًا على أن يخرج من صلب شخص واحد أشخاصًا مختلفين فكيف يستبعد عليه إحياء الموتى وبعثهم»؟

وقد جاء ذكره صريحًا، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعَ بَيْنَكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧].

وأخرى ممكنًا في سياق الحديث عن الجهاد، كما في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْتُمُ الْمَلَائِكَةَ ظَالِمِينَ أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا قَالُوا لَئِنْ مَآوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ٩٧].

وثالثة في سياق الحديث عن النبوة في قوله: ﴿كَيفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١].

وأيضًا في بيان جزاء من صدق وآمن بآيات الله وما أنزل على النبيين ومن كفر بها وصد عنها في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كَمَا يُضَيَّعُ جُلُودُهُمْ بِدَلَّتْهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا * وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَندْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ [النساء: ٥٦، ٥٧].

وروى أيضًا قولًا آخر في تضمين قوله: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ لمعنى النبوة والتوحيد، فقد «ذكر الأصم أن ﴿خَلَقَكُمْ﴾ دليل على معرفة التوحيد، وقوله: ﴿مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ دليل على معرفة النبوة»^(١).

وهذان المعنيان يتخللان التكليف ويجريان في محيطها وأحيانًا يكونان غرضًا برأسه، فأيات التوحيد تستقل تارة كما في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨]. وقوله: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [النساء: ١٣٢].

(١) "التفسير" ٤٧٧/٣.

وأحياناً تأتي لتقوية الأوامر والنواهي وتساند دلالتها كما في قوله عز وجل: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدُوا بَيْنَ الْنِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَدْرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا * وَإِنْ يَنْقَرَفَا بُعْثَ اللَّهِ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا * وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾ [النساء: ١٢٩-١٣١].

وأما النبوة فأمرها ظاهر؛ لأن تقوى الله لا تقوم إلا بإقرار ما جاء به الأنبياء وتصديقهم؛ لذلك اقترنت بطاعة الله كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].

ويقف عند جملة ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾ فيستحضر الأمر في مدخل الآية وهو ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾ فيرد التكرار في العجز على دلالة الصدر، وكأن هذا التكرار يبرز عنصراً جملياً في بناء مدخل جملة الافتتاح فينصه ويخصه بالذكر والتفصيل لمكانه من مقصد المتكلم، يقول في الوجوه المستفادة من التكرار: «وذلك لوجوه: الأول: تأكيد الأمر والحث عليه .. والثاني: أنه أمر بالتقوى في الأول لمكان الإنعام بالخلق وغيره، وفي الثاني أمر بالتقوى لمكان وقوع التساؤل به فيما يلتمس البعض من البعض . والثالث: الرب لفظ يدل على التربية والإحسان، والإله لفظ يدل على القهر والهيبة، فأمرهم بالتقوى بناء على الترغيب، ثم أعاد الأمر به بناء على التهيب»^(١).

فالقيام بالحقوق بين الناس بعد أن كان همساً خفياً في دلالات متكاثرة ومتنوعة للتقوى سل من بينها وأبرز سياقاً له خصوصية وعناية زائدة وكأنه جنس مستقل، فاستقلاله بالبيان يقابله استقلال في مكانه في باب التقوى .

ثم إن المكاشفة بها خصوصًا بعد أن كانت تجري في عموم حقوق مختلفة فيه إنباء بمضمون السورة، فالعناية بهذه التقوى في وسط السورة وسيطرته على الأغراض المتنوعة داخلها امتداد لهذا المثل في جملة ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾.

ويرد الرازي سبب غزارة المعاني المتولدة من عطف جملة ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ على قوله: ﴿وَاتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾ برده إلى الخصوصيات التي روعيت في اختيار كل لفظة. ووضعها في الموقع الأنسب والأصلح لها، فتكرار الفعل ﴿وَاتَّقُوا﴾ واستحضاره مرة أخرى أكد المعنى الأول وزاد فائدة في الحث على المسارعة في أدائه، ثم جاءت الفروق بينهما من خلال القيد؛ لتفتح قناة لسياقين متغايرين فالأولى تجري في سياق الإنعام؛ لأن القيد تذكير بالخلق الأول ونعمة التآلف والتكاثر التي تمت بها النعمة الأولى، فناسب ذلك لفظ الرب. أما الجملة الثانية فقد جاءت في سياق الإنعام فيها يلتمس بعضهم من البعض من حقوق وواجبات يصلح بها معاشهم، فناسب هذا الموقع التذكير بالألوهية المتضمنة لمعنى القهر والاستعلاء.

وتعدى الفعل الواحد إلى صفتين متقابلتين نزع بالسياق نحو بنائين كل منهما له خصوصية، فالجملة الأولى: بنيت على الترغيب لما فيها من التلطف بذكر صفة الربوبية وماتستلزمه من الإحسان والرحمة بهم كما هو حال المربي وشفقته على من تحت يده.

والثانية: بنيت على الترهيب بذكر الألوهية و ما تنطوي عليه من أحوال العلو وكمال القدرة وجميع ما من شأنه أن يوقع في النفس الهيبة فتقف عند أوامر الله ونواهيه مطاطة الرأس لما يوجبه الله تاركة كل هوى. وهذه المراوحة بين الترغيب والترهيب وبناء صدر الافتتاح على الترغيب ثم تصعيد الإلزام بالترهيب في العجز هو صدى للمذهب والبناء الذي بنيت عليه الأغراض في ثنايا السورة حيث سيطرت على حركة معانيها المراوحة بين الوعد والوعيد فتجد الأوامر والنواهي تنمو وتتصاعد في أجواء الترهيب والترغيب، يقول في ذلك: «اعلم أنه تعالى أكد الوعيد في أكل مال اليتيم ظلماً وقد كثر الوعيد في هذه الآيات مرة بعد أخرى على من يفعل ذلك ﴿وَلَا تَبْدُلُوا الْخَيْثَ بِالْطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ النساء: ١٢، ﴿وَلَيْخَشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَفًا﴾

النساء: ١٩. ثم ذكر بعدها هذه الآية مفردة في وعيد من يأكل أموالهم، وذلك كله رحمة من الله تعالى باليتامى؛ لأنهم لكمال ضعفهم وعجزهم استحقوا من الله مزيد العناية والكرامة، وما أشد دلالة هذا الوعيد على سعة رحمته وكثرة عفوه وفضله؛ لأن اليتامى لما بلغوا في الضعف إلى الغاية القصوى بلغت عناية الله بهم إلى الغاية القصوى^(١).

وأيضًا في سياق الموارد فـ «بعد بيان سهام الموارد ذكر الوعد والوعيد ترغيبًا في الطاعة وترهيبًا عن المعصية».

فمداخل الكلام لها خصوصية في الإبانة والدأني للأغراض؛ لذلك يكتنفها كثير من الغموض لدقة الدلالة واكتنازها فتحمل اللفظة حمولة دلالية تكاد تحتوي جميع مقاصد السورة، وهذه الخصوصية هيأت لتمكن جملة الافتتاح في موقع الصدارة من الكلام.

وقد نبهت دراسته للمكونات البلاغية المشكلة لجملة الافتتاح على أن هذه الجملة لها هيئة تصير بها لائقة أن تكون بدء الكلام ومفتحه، ويرد خصوصياتها غالبًا إلى مداخلة المقاصد والأغراض لألفاظها وتعطفها بين كلماتها وهذا ظاهر في مراجعته لما تحت ألفاظها من معانٍ، وما في ترتيبها من لطف ودقة وتناسب، وما وراء التناسب في الانتظام من معانٍ وإيجازات تطبق مفصل السورة، وقد قرر حازم ذلك فيما بعد وجعله أصلًا في دراسة المبادئ يقول: «وفي الكلام ماله صورة يصير بها لائقًا أن يكون رأس كلام ومفتتح قول، ومنه ما لا يليق بالمبادئ، ولا يكون له هيئة تصلح لها»^(٢).

وهذه الهيئة يسرت لجملة الافتتاح أن تصحب الكلام في جميع تحولاته وتنقلاته، فقد تتبع في تفسيره للآيات ترتيبها على المعاني ابتداءً، وكيف تنسل الأغراض والمقاصد داخل السورة من أصولها في الافتتاح، فكشف بذلك عن العمق الدلالي لبناء جملة الافتتاح واتساعه ليشمل جميع المقاصد والأغراض وسط السورة، وقد هيأ لهذا العمق خصوصيات بلاغية من الإيجاز ودقة الاختيار وحسن الترتيب.

(١) "التفسير" ٥٠٦/٣.

(٢) "منهاج البلغاء" ص ٣١٠.

وغالبًا ما يعول في استثارته للمعاني على حسن الترتيب ويجعله المنظم لبناء المعاني وتفرع بعضها على بعض نحو ما ذكره في افتتاح «آل عمران»: ﴿إِلَهَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ «آل عمران: ١٢٠».

فالسورة تتضمن الرد على النصارى الذين نازعوا الرسول ﷺ في دينه لتقرير صحة ما أتى به وصدقه، وبالغت في كشف جميع الشبهات ليثبت ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ يقول الرازي في بيان ذلك: «اعلم أن مطلع هذه السورة له نظم لطيف عجيب، وذلك لأن أولئك النصارى الذين نازعوا رسول الله ﷺ كأنه قيل لهم: إما أن تنازعوه في معرفة الإله، أو في النبوة، فإن كان النزاع في معرفة الإله وهو أنكم تثبتون له ولدًا وأن محمد لا يثبت له ولدًا فالحق معه بالدلائل العقلية القطعية، فإنه قد ثبت بالبرهان أنه حي قيوم، والحي القيوم يستحيل عقلاً أن يكون له ولد وإن كان النزاع في النبوة، فهذا أيضًا باطل؛ لأن بالطريق الذي عرفتم أن الله تعالى أنزل «التوراة» و«الإنجيل» على موسى وعيسى فهو بعينه قائم في محمد ﷺ، وما ذاك إلا بالمعجزة وهو حاصل ههنا، فكيف يمكن منازعته في صحة النبوة، فهذا هو وجه النظم وهو مضبوط حسن جدًا ثم إنه تعالى لما ذكر ما هو العمدة في معرفة الإله على ما جاء به محمد ﷺ، وما هو العمدة في إثبات نبوة محمد ﷺ لم يبق بعد ذلك عذر لمن ينازعه في دينه فلا جرم أردفه بالتهديد والوعيد، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ «آل عمران: ٤١» فقد ظهر أنه لا يمكن أن يكون كلام أقرب إلى الضبط وإلى حسن الترتيب وجودة التأليف من هذا الكلام»^(١).

فبناء الجملة على الإجمال أحال على لوازم متكاثرة كونت فيها بعد أغراضًا ومقاصد دارت عليها السورة، فقلوه: ﴿إِلَهَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أثبتت أن العبادة لا يستحقها إلا الله، وأقامت دعوى على النصارى في ألوهية عيسى عليه السلام، ثم بنى عليها الأدلة ورتبها باختيار وصف الحي القيوم دون غيرها من صفات الألوهية، فجمع وجوه الدلائل المبطلّة لشبهات

(١) "التفسير" الرازي ١٢٩/٣.

النصارى في تأليه عيسى عليه السلام لأن صفة الحي ترتب عليها نفي الولد، فمتى امتنع أن يتخذ الإله ولداً امتنع كون عيسى عليه السلام ولداً، والقيوم أنه لما كان عيسى عليه السلام يأكل ويشرب ويحدث امتنع كونه إلهاً،^(١) لأن هذا منافٍ للقيومية، فمن لم يكن قائماً بذاته فلن يستطيع أن يكون مقوماً لغيره.

ثم بنى الدعوى الثانية على حذو بناء جملة ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ فأجرى دعوى إثبات نبوة محمد ﷺ بتقرير صدق المعجزة التي تثبت بها نبوته ﷺ ورتب عليه الحجة المصدقة لها، وهي أن العلم بأن «التوراة» و«الإنجيل» كتابان إلهيان حاصل من قيام المعجزة وهي العلامة الفارقة بين القول الحق والباطل، وهذه الدلالة بين المعجز وغيره كما هي هادية إلى كونها نازلين من عند الله، قائمة في «القرآن» فترتب عليه تصديق كونه منزلاً من عند الله ومتى كان الطريق مشتركاً فالواجب تكذيب الكل أو تصديق الكل أما الانتقاء المحتكم إلى الأهواء والتشهي فجهل وتقليد.

وتلتقي جميع الأغراض والمعاني عند هاتين الجملتين، فالسورة تصور شبهات الفرق الضالة من اليهود والنصارى والمنافقين ومحاولاتهم الدائبة للتشكيك في الدين والتلبس على المؤمنين وزعزعة استقرار حسن العقيدة في نفوسهم؛ لذلك عمدت في الافتتاح إلى معنيين هما عمدة في تقرير أمر هذا الدين، وأصلين يحفظانه من المشبهات وتثبت بها أركانه وهما: معرفة الإله ومعرفة النبوة.

وقد جاء تقرير الدين والتنبية على مكانته، وأنه المنهج الأقوم الذي اصطفاه الله وجعله ختاماً لرسالته صالحاً للناس كافة، جاء في سياقات الحديث عن الألوهية، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ

(١) "التفسير" ١٢٩/٣ بتصرف.

مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ * وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٨٤﴾ آل عمران: ٨٥، ٨٤.

وأيضاً بعد ذكر شهادة الله والملائكة والنبين بوحداية الله يقول عز وجل: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ لَأَسْلَمُوا وَمَا أَخْتَلَفَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَقِيَّتًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِنَائِبِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ آل عمران: ١٨، ١٩.

وفي سياق الإلزام بنبوة محمد ﷺ، وأن الإيمان به شرع شرعه الله على النبيين من قبل حيث قال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ، وَتَحْضُرُوهُ، قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ * فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ * أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ آل عمران: ٨١-٨٣.

ثم بينت السورة منهج وطريق من يشته عليه الدين، ويشبه على الناس بإلقاء الشبهات وإشاعتها ليزلوهم ويردوهم في تيه الكفر والضلال فتردد فيها التحذير والوعيد لأهل الكتاب من إغواء وإضلال المؤمنين كما في قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ آل عمران: ١١٨.

وأما قصة هزيمة أحد فقد تجاذبتها سياقات مختلفة من السور، فمرة تحجري في سياق التحذير عن مخالطة الكفار أو الاحتكام إلى ما يلقونه بالسنتهم؛ ليوهنوا به عزم المسلمين ويفرقوا به وحدتهم وكلمتهم، كما في قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يُؤْخَذُوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَبِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ آل عمران: ١٤٩.

وتارة تحيي في سياق تقوية الإيثار وتمحيص المؤمنين الصادقين الصابرين من المنافقين، فجاءت هذه الهزيمة تربية للنفوس المؤمنة على تقلبات المواقف ومدادولة النصر، وإن هزيمة الحق لا تحط من شأن هذا الدين، ولا تعلي من وهج الباطل، وإنما هي سنة من سنن الله في الابتلاء وتصريف الأحوال للكشف عن معادتهم، ولتمييز الخبيث من الطيب «فإن نصر بدر فتح الطريق أمام المغامرين وطلاب المصلحة كي يبتعدوا إلى الدين الجديد»^(١) تطلعاً لما تمده يد المستقبل لهم من خير ورفعة، فأذاقهم الله البأساء والضراء؛ ليستخرج الصفوة من الصديقين، فهذه الهزيمة لا تهز من ثبات ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ الْأَسْلَمُ﴾ وإنما خلت في الأولين، وقد ذكرهم سبحانه بحقيقة ذلك في قوله: ﴿وَكَايْنٍ مِّنْ نَّبِيٍّ قَتَلَ مَعْمُورِيَّتُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الضَّعِيفِينَ﴾ آل عمران: ١٤٦.

وبهذا يتبين أن إجراء الافتتاح على تقرير الألوهية والنبوة لأمر معتبر تناط به مقاصد السورة، فهما الرباط الناظم لما اختلف وتفرق من أغراض وسطها فردها إليه يجعل من السورة بياناً واحداً لا اختلاف فيه وإنما يتنوع ويتفرق فتولد منه فروع متعددة، تشقق دلالة المقصد الكلي، وتشيع زوايا المعاني في جهاتها المختلفة، ومع ذلك لا تخرج عن سيطرة المقصد الأصلي وتحكم إليه في حركتها وتحولاتها.

وسورة «الزمر» وإن التقت في مقصدها مع «آل عمران» في إثبات الألوهية لله وتقرير حقيقة هذا الدين وإيجاب صرفه لله، إلا أن هناك فروقاً يؤسس لها الافتتاح فيبنى على أصول تختلف من سورة إلى سورة تتنوع تبعاً لها الإبانة عن المقصد الواحد، فاختلف تناول الألوهية وتنوع مقاصده في سورة «الزمر» عنه في «آل عمران» يرجع إلى اختلاف الأصول التي أصل لها الافتتاح وبنى عليها.

وليتبين ذلك فتأمل قوله تعالى: ﴿تَزِيلُ الْكِتَابَ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ * إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ * أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن

(١) "نحو تفسير موضوعي" محمد الغزالي ص ٣٨.

دُونِهِ أُولَئِكَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ
إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ * لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا
يَشَاءُ سُبْحَنَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿الزمر: ١-١٤﴾.

فالسورة خطاب لمشركي مكة ومحاجة لهم وتسفيه لمعتقداتهم من اتخاذهم الأصنام آلهة من دون الله وصرفهم العبادة لها مع علمهم بنقصها وكمال الله وعجزها واستغناء الله، فبنيت الجملة على تقرير الألوهية لله، ونفيها عما عداه وتنزيهه عن الشريك والولد وإخلاص الدين لله بصرف العبادة له دون غيره، وقررت هذا المقصد الكلي بأصلين هما: كمال القدرة، وكمال الاستغناء، يقول في ذلك: «فلما بنى تلك المسألة على هذه الأصول ذكر عقيبتها ما يدل على كمال القدرة، وعلى كمال الاستغناء، وأيضاً فإنه تعالى طعن في إلهية الأصنام فذكر عقيبتها الصفات التي باعتبارها تحصل الألوهية»^(١).

وسبقت هذه الأدلة أسلوب غاضب للألوهية التي أبيحت لغيره ونازعه فيها - تعالى عما يشركون - من لا يستحقها ولا يقوم بوصفها، وهذا المعنى هو قلب السورة الذي يتحكم في توزيع المعاني داخلها فنجد أنه يتردد صريحاً وضمنياً بصور ذلك قوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ﴿الزمر: ١٧﴾. وقوله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿الزمر: ٢٩﴾.

فمدار آياتها على الإثبات والنفي وقد سار هذان المعنيان جنباً إلى جنب في غالب آياتها، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَغْفِرَ اللَّهُ تَأْمُرُونَنِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾ ﴿الزمر: ٦٤﴾.

لذلك جعل الإمام معنى الحصر معنى معتبراً في السورة، فعندما يفسر قوله تعالى: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ يقول: «إنا إذا قلنا: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ﴾ جملة تامة من المبتدأ والخبر أفاد فائدة شريفة، وهي أن تنزيل الكتاب يكون من الله لا من غيره، وهذا الحصر معنى معتبر أما إذا أضمرنا المبتدأ لم تحصل هذه الفائدة»^(٢).

(١) "التفسير" ٤٢٣/٩.

(٢) "التفسير الكبير" ٤١٨/٩٠.

وابتدأ السورة بإثبات أن الكتاب منزل من الله ثم إردافه بأوصاف الألوهية وهي «العلم بجميع المعلومات، والقدرة على كل الممكنات، والاستغناء عن كل الحاجات»^(١)؛ لأنه متى تمكن هذا المعنى استمالها للاستماع ومن ثم انتفعت بما يرد عليها من خطاب.^(٢)

وأما في «آل عمران» فقد ابتدأت بإثبات الألوهية ثم بنى على تقريرها إثبات نبوة محمد ﷺ وأن ما أتى به صدق، لأنه تنزيل من الله المتفرد بألوهيته وصفاته.

وهذا توجيه حسن من الرازي راعى فيه مقاصد السور فمعنى إنزال الكتاب من الله يتكرر كثيرًا في «القرآن» في صياغات متقاربة، لكن وضعه في بيان السورة وسياقها يعكس عليه خصوصيات يمتاحها من مقاصد الكلام ومجريات الخطاب.

وبعد أن أثبتت الآيات أن الكتاب تنزيل من الله لا من غيره أردفه ببيان أعظم مقاصد الإنزال وهو «أن يشتغل الإنسان بعبادة الله تعالى على سبيل الإخلاص ويتبرأ عن عبادة غير الله بالكلية»^(٣).

فتغير المعاني وتزايد الخصوصيات في المعنى الواحد يكون باعتبار جريانها وتعطفها في ثنايا المعاني المتلبسة بسياقها فتأخذ من أحوال ما تجاور معها، فالقرآن مدار معانيه على تقرير مطالب أربعة معاني كلية وهي التوحيد والنبوة والمعاد والقضاء والقدر تارة يكون التوحيد هو الأصل ويبني عليه النبوة والمعاد، وتارة يتحول ما هو فرع على أصل في صورة أخرى وتبنى عليه المعاني الأخرى لذلك يلزم معرفة ما يجري إليه الكلام بملاحظة ما يؤسس عليه رأس الكلام من أصول المعاني ثم تتبع ما بني عليها من معاني أخرى، ويتضح هذا الفهم أيضًا في تحليله لسورة «الصافات» حيث يقول: «اعلم أنا قد ذكرنا أن المقصد الأقصى من هذا

(١) "التفسير الكبير" ٤١٩/٩.

(٢) السابق نفسه.

(٣) "التفسير" الرازي ٤١٩/٩.

الكتاب الكريم إثبات الأصول الأربعة وهي: الإلهيات، والمعاد، والنبوة، وإثبات القضاء والقدر، فنقول: إنه تعالى افتتح هذه السورة بإثبات ما يدل على وجود الصانع ويدل على وحدانيته، وهو خلق السماوات والأرض وما بينهما وخلق المشرق والمغرب، فلما أحكم هذا الباب فرع عليه إثبات القول بالحشر والنشر والقيامة^(١).

لذلك كان الرازي يعول على جملة الافتتاح في دراسة مقاصد السورة فيتبع المعاني التي أحكمتها وأجملتها ثم يتبع ما بني عليها من تفرعات كانت أصولاً في سورة أخرى ثم تحولت فروغاً تسقي دلالة الأصل وتجري في مداره.

وفي علاقة الأغراض الفرعية في داخل سورة «الزمر» برأس الكلام نجده يستحضر الأصول التي بني عليها الافتتاح ويحرك دلالتها من هذه الأصول، فوصف أحوال القيامة في سياق كمال القدرة الدالة على تفرد بالألوهية يخرج بالمعنى من غرض إثبات البعث ليصور كمال الهيمنة الموجبة لعبادته دون سواه، يقول في قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ فِيَّامٍ يَنْظُرُونَ﴾ [الزمر: ١٦٨] يقول فيها: «واعلم أنه تعالى لما قدر كمال عظمتها بما سبق أردفه بذكر طريقة أخرى تدل أيضاً على كمال قدرته وعظمتها، وذلك شرح مقدمات يوم القيامة»^(٢).

وبه أيضاً على سيطرة أصول الافتتاح على ترتيب الأساليب داخل السورة كما جاء في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ تَرَأَوْنَ أَنَّهُمُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنْبِيعٌ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَنُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطْحُطًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ١٢١].

فتقديم صفات القيامة على صفات الدنيا لصلته بالأصل الذي دارت عليه السورة وهو عبودية الله وحده دون سواه؛ لأن «شرح صفات القيامة يقوي الرغبة في طاعة الله، وشرح صفات الدنيا يقوي النفرة عن الدنيا، وإنما قدم الترغيب في الآخرة على التنفير عن الدنيا؛ لأن

(١) "التفسير" ٣٢١/٩.

(٢) "التفسير الكبير" ٤٧٩/٩.

الترغيب في الآخرة مقصود بالذات، والتنفير عن الدنيا مقصود بالعرض، والمقصود بالذات مقدم على المقصود بالعرض^(١).

وكذلك توجيه اختيار بعض الصفات باعتبار ما يشع عليها من أحوال المقصد الكلي يقول في اختيار وصف المتقين في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ الزمر: ١٣٣. «وتقريره أن التوحيد والشرك ضدان، وكلما كان أحد الضدين أشرف وأكمل كان الضد الثاني أخس وأرذل، ولما كان التوحيد أشرف الأسماء كان الشرك أخس الأشياء، والآتي بأحد الضدين يكون تاركًا للضد الثاني، فالآتي بالتوحيد الذي هو أفضل الأشياء يكون تاركًا للشرك الذي هو أخس الأشياء وأرذلها، فلهذا المعنى وصف المصدقين بكونهم متقين»^(٢).

وهذا أصل بنيت عليه السورة ابتداء فهي قائمة على الإثبات والنفي وحصر الألوهية في الله دون سواه، فتقرير التوحيد وحده ليس هو المطلب وإنما تعدى الإقرار بالتوحيد إلى ترك الشرك فالانتقاء هو اجتناب الشرك.

وتتنوع دراسته للفواتح تبعًا للتنوع في الجملة القرآنية، فبعد أن أشار إلى النوع الذي ينبذ في كلماتها أصول الأغراض التي جرت في وسط السورة ودارت عليها مقاصدها يشير إلى نوع آخر ثانٍ فيه الفاتحة مهيئة ومجملية للأغراض، كما في سورة «النور» في قوله تعالى: ﴿سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ يَبَيِّنُ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النور: ١].

ويصف الرازي القيمة البيانية للإجمال وكيف طوي تحت لغته جميع الأغراض ودل عليها فأقام طنبها ثم فصل كل جهة حسب ترتيبها وموقعها ابتداء بقوله في ذلك: «إنه سبحانه ذكر في أول السورة أنواعًا من الأحكام والحدود وفي آخرها دلائل التوحيد، فقلوه ﴿وَفَرَضْنَاهَا﴾ إشارة إلى الأحكام التي بينها أولًا ثم قوله: ﴿وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ يَبَيِّنُ﴾ إشارة

(١) السابق ٩/ ٤٤٠.

(٢) "التفسير" ٩/ ٤٥٢، ٤٥٣.

إلى ما بين من دلائل التوحيد، والذي يؤكد هذا التأويل قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ فإن الأحكام والشرائع ما كانت معلومة لهم ليؤمروا بتذكرها، أما دلائل التوحيد فقد كانت كالمعلومة لهم لظهورها فأمروا بتذكرها ... قال القاضي: إن السورة كما اشتملت على عمل الواجبات فقد اشتملت على كثير من المباحثات بأن بينها الله تعالى، ولما كان بيانه سبحانه لها مفصلاً وصف الآيات بأنها بينات^(١).

ونوع آخر تجدد فيه جملة البدء حاملة للمقصد الكلي الذي تركز عليه الأغراض المختلفة داخلها كما في سورة «المائدة»، في قوله تعالى: ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَيْعَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتَى عَلَيْكُمْ غَيْرِ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾

[المائدة: ١].

يقول الرازي: «اعلم أنه تعالى لما قرر بالآية الأولى على جميع المكلفين أنه يلزمهم الانقياد لجميع تكاليف الله تعالى وذلك كالأصل الكلي والقاعدة الجمالية، شرع بعد ذلك في ذكر التكاليف المفصلة، فبدأ بذكر ما يحل وما يحرم من المطعومات فقال: ﴿أُحِلَّتْ لَكُمْ بَيْعَةُ الْأَنْعَامِ﴾ [المائدة: ١]^(٢).

فالجملة الأولى من الآية هي أصل السورة ومبناها . والفارق بين هذا النوع وسابقه أن الإجمال هو تضمن جملة الافتتاح للمعاني والأغراض التي تفصلها السورة فيما بعد: أما الكلي فهو قاعدة ومعنى ركيزة تلتف حوله الأغراض، فتستقر به دون أن يسيطر على نموها وتفصيلها، ويصور ذلك صدى الافتتاح في قوله تعالى: ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ

(١) "التفسير الكبير" ٨/ ٣٠١، ٣٠٢.

(٢) "التفسير" ٤/ ٢٧٧.

أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَئِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿المائدة: ٦﴾

فالاftتاح وطفد لميثاق بين الرب والعبد واثقهم به ابتداء فبين عهد العبودية وهو الوفاء بما أمر الله به والتزام فرائضه وعهد الربوبية من الله بإحسانه وعظيم إنعامه على العبد فيما يصلح دنياه من الطيبات والرزق، وما يصلح آخرته من بعث الرسل مبشرين ومنذرين، فجاء الأمر بإقامة الصلاة بعدما استقصى سبحانه «ما يحل ويحرم من المطاعم والمناكح .. وعند تمام هذا البيان كأنه يقول «وقد وفيت بعهد الربوبية في الدنيا من المنافع واللذات، فاشتغل أنت في الدنيا بعهد العبودية، ولما كان أعظم الطاعات بعد الإيمان الصلاة، وكانت الصلاة لا يمكن إقامتها إلا بالطهارة لا جرم بدأ تعالى بذكر شرائط الوضوء»^(١).

ويقول أيضًا في قوله: ﴿وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾: «ففيه أن الكلام يتعلق بما ذكر في أول السورة إلى هنا، وذلك لأنه تعالى أنعم في أول السورة بإباحة الطيبات والمناكح، ثم إنه تعالى ذكر بعده كيفية فرض الوضوء، فكأنه قال: إنما ذكرت ذلك لتتم النعمة المذكورة أولاً وهي نعمة الدنيا، والنعمة المذكورة ثانيًا وهي نعمة الدين»^(٢).

وأيضًا في ذكر أهل الكتاب اختير منه ما يناسب الافتتاح فجاء الحديث عن تمردهم وعتوهم على ما عهد إليهم يقول في ذلك: «اعلم أن المقصود بيان عتو بني إسرائيل وشدة تمردهم عن الوفاء بعهد الله، هو متعلق بما افتتح الله به السورة، وهو قوله: ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾^(٣).

(١) "التفسير" ٢٩٦/٤.

(٢) "التفسير" ٣١٨/٤.

(٣) السابق ٤٠٤/٤.

والرازي في تتبعه لنوع المعاني في وسط السورة وعلاقتها بالأصول التي بني عليها الافتتاح يلحظ حركة المعنى باتجاه الزيادة والنمو من عناصر المطلع، وطريقة توزيعه في أغراض السورة؛ لأن التفصيل يكمل تلك العناصر وينميها بالبناء على معانيها وتفرع مضامينها المكونة في زوايا لغتها، فالتفريع يفتح جميع الخصوصيات البيانية للمبادئ فتأخذ مكوناته بأطراف الدلالة وتوزعها بين مقاطعها المتعددة كما في سورة «الأحقاف»، إذ جعل رأس الكلام فيها قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَكُنْ لِحَافِهِمْ بَقْدِرٌ عَلَى أَنْ يُخَيِّئَ الْمَوْتَ بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف: ١٣٣].

فالافتتاح «يدل على إثبات الإله لهذا العالم ويدل على أن ذلك الإله يجب أن يكون عادلاً رحيماً بعباده، ناظراً لهم محسناً إليهم، ويدل على أن القيامة حق ... واعلم أنه تعالى لما قرر هذا الأصل الدال على إثبات الإله، وعلى إثبات كونه عادلاً رحيماً، وعلى إثبات البعث والقيامة بنى عليه التفاريع»^(١).

فجميع ما في السورة من معاني تفرع وتوزيع للمعاني التي تضمنها نسق هذه الآية، فرد جميع المقاطع والأغراض عليها. فبدأ أولاً بأدلة التوحيد واختصاصه بالالهوية وفرع عليه إبطال مسلك المشركين في عبادتهم للأصنام، وهذا تضمنه قوله ابتداءً ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الأحقاف: ٣] وراجع اختيار ﴿بِالْحَقِّ﴾ وموقعها في سياق إثبات الإلهية وكيف بني عليها رد مذهب كفار مكة في عبادتهم للأصنام وتكذيبهم لهم في معتقداتهم. ثم بني على الإلهية إثبات النبوة في قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُذِرُوا مُعْرِضُونَ﴾ [الأحقاف: ٣] «والمراد أن مع نصب الله تعالى هذه الدلائل ومع إرسال الرسل وإنزال الكتب، ومع مواظبة الرسل على الترغيب والترهيب والإعذار والإنذار - بقي هؤلاء معرضين عن هذه الدلائل»^(٢).

وبني عليها أيضاً إثبات اليوم الآخر وذكر أحوال المعاد بقوله: ﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الأحقاف: ٣] فهي تنبيه على صحة القول بالبعث والقيامة»^(٣).

(١) "التفسير" ٦٥/١٠.

(٢) "التفسير" ٦/١٠.

(٣) السابق نفسه.

ولخص الرازي ذلك البناء بقوله: «اعلم أنه تعالى ذكر في أول السورة ما يدل على وجود الإله القادر الحكيم المختار، ثم فرع عليه فرعين: الأول: إبطال قول عبدة الأصنام، والثاني: إثبات النبوة وذكر شبهاتهم في الطعن في النبوة، وأجاب عنها، ولما كان أكثر إعراض كفار مكة عن قبول الدلائل بسبب اغترارهم بالدنيا واستغراقهم في استيفاء طيباتها وشهواتها، وبسبب أنهم كان يثقل عليهم الانقياد لمحمد والاعتراف بتقدمه عليهم ضرب لذلك مثلاً وهم قوم عاد فإنهم كانوا أكمل في منافع الدنيا من قوم محمد ﷺ فلما أصروا على الكفر أبادهم الله وأهلكهم، فكان ذلك تخويف لأهل مكة بإصرارهم على إنكار نبوة محمد ﷺ، ثم لما قرر نبوته على الإنس أردفه بإثبات نبوته في الجن وإلى ههنا قد تم الكلام في التوحيد والنبوة، ثم ذكر عقيبتها تقرير مسألة المعاد»^(١).

وهذا التلخيص جمع فيه أعناق المعاني المتفرقة داخل السورة وسلك بها مسلكاً مؤتلفاً ثم رد دلالتها على صدر الكلام وأوله، وهذا نمط جيد في التحليل يراجع جميع الجزئيات والتفاريع في نهاية السورة ويرتد بها إلى أصولها في جملة البدء، فيحكم بذلك تصور بنية السورة وتنظيم مقاصدها.

ونبه أيضاً على التشابه في توزيع معاني المطلع مع توزيعها في بناء القصص داخل السورة كما في سورة «هود» ﷻ حيث جاء في مطلعها: ﴿الرَّكَنُ أَهْكَمْتُ أَيْنَهُ ثُمَّ فَضَلْتُ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَيْرٍ * أَلَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُرْسِيُّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ * وَإِنْ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُغْفِرْ لَهُمْ مَنَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ [هود: ١-١٣].

فالجملة «مشتملة على التكليف من وجوه: الأول: أنه تعالى أمر ألا يعبد إلا الله .. والمرتبة الثانية من الأمور المذكورة في هذه الآية قوله: ﴿وَإِنْ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾. والمرتبة الثالثة: ﴿ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾»^(٢).

ثم جرت هذه التكاليف الثلاثة بنفس النسق الذي جاءت عليه ابتداء في ثنايا القصص

(١) "التفسير" ٢٩١/١٠.

(٢) "التفسير" ٣١٤/٦.

الواردة وسط السورة، وجاءت على مسارها وتنظيمها فأمرُوا أولاً بتبليغ التوحيد ثم دعوتهم إلى الاستغفار ثم التوبة كما في قصة هود في قوله: ﴿وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَنْقُورِمُ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ * يَنْقُورِمُ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ * وَيَنْقُورِمُ أَسْتَغْفِرُكُمْ وَأَرْبَابُكُمْ ثُمَّ نُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِيدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾ (هود: ٥٠-٥٢).

علق عليها الرازي بقوله: «واعلم أنه تعالى حكى عن هود عليه السلام أنه دعا قومه إلى أنواع من التكليف . النوع الأول: أنه دعاهم إلى التوحيد ... النوع الثاني من التكليف ... دعاهم إلى الاستغفار ثم إلى التوبة، والفرق بينهما قد تقدم في أول هذه السورة»^(١).

وجرت قصة صالح مع ثمود على ذلك الترتيب ف«نظمها مثل النظم المذكور في قصة هود»^(٢).



(١) "التفسير" ٣٦٢، ٣٦٣.

(٢) "السابق" ٣٦٧/١.

المبحث الثاني

التناسب بين الخواتيم والمقاصد

وجملة الختام ينتهي إليها مراد المتكلم من كلامه، فتكتمل عندها المقاصد وتستقر الدلالة؛ لذلك كان التعويل عليها لتنظيم ما تشعت في الكلام من أغراض وما تفرق وسطها من سياقات أمراً بالغ الأهمية اشتدت لأجله عناية الرازي بهذه الجملة فتتبع علائقها بجميع عناصر السورة وأصدائها في بواطن الكلام، وقد استند في تفسيرها على أصلين هما:

١- جملة الأغراض والمقاصد الكلية .

٢- جملة الافتتاح وتناسبها مع مكوناتها المعنوية واللفظية .

وفي هذا المبحث أفصل القول في طرائق الرازي في رد جملة الختام إلى المقاصد الكلية، وقدمت الحديث عنها على ردها إلى جملة البدء؛ لأن التقاء الجملتين مداره على الأغراض والمعاني التي جرت وسط السورة، وأيضاً وضع الخاتمة في موقعها من المقاصد أولاً ثم ردها إلى جملة البدء يحلر نقاط الالتقاء ويجلوها، مما يسر الكشف عن الوجه الجامع بين الجملتين والتنبيه على الزيادة في معاني الخاتمة وأصول هذه الزيادات وهذا النوع من المناسبة وإن جاءت فيه التنبيهات بكلمات معدودة إلا أن وراءها جهداً جاهدًا وتأملاً شقيقاً وقف به طويلاً عند تتبع ما اندس فيها من آثار الأغراض؛ ليدل عليها وينبه على خبيثتها، وجذر باب علاقة الخواتم بالمقاصد دراسة مناسبة الفاصلة القرآنية لسياقها وما قبلها من معاني، ولا يكاد يخلو مؤلف في الإعجاز من الإشارة إلى ثراء هذا الباب، وقد عني الإمام بالوقوف عنده وتحليل الفواصل باعتبار المعاني، وأفاد في بعضها من بعض أئمة التفسير نحو ما ذكره في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوءٌ غَفُورٌ﴾ [الحج: ١٦٠]. وتعلقها بما قبلها وهو قوله: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرْنَاهُ اللَّهُ﴾ [الحج: ١٦٠].

ف «فيه وجوه: أحدها: أن الله تعالى ندب المعاقب إلى العفو عن الجاني، فلما لم يأت بهذا المندوب فهو نوع إساءة، فكأنه سبحانه قال: إني قد عفوت عن هذه الإساءة وغفرتها، فإني أنا

الذي أذنت لك فيه. وثانيها: أنه سبحانه وإن ضمن له النصر على الباغي لكنه عرض مع ذلك بما كان أولى به من العفو والمغفرة فلوح بذكر هاتين الصفتين. وثالثها: أنه سبحانه دل بذكر العفو والمغفرة على أنه قادر على العقوبة؛ لأنه لا يوصف بالعفو إلا القادر على ضده^(١).

وكذلك في فاصلة قوله تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَأَلْصَقَ لِحَنَّتْ قَيْنَتُ حَفِظَتْ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّي تَخَافُونَ نُشُوزَهُمْ فَعِظُوهُمْ وَاهْجُرُوهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُمْ فَإِنْ أَطَعْتُمْكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِمْ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا﴾ النساء: ٣٤.

ف «ذكر هاتين الصفتين في هذا الموضع في غاية الحسن، وبيانه من وجوه: الأول: أن المقصود منه تهديد الأزواج على ظلم النسوان، والمعنى أنهن إن ضعفن عن دفع ظلمكم وعجزن عن الانتصاف منكم، فالله سبحانه علي قاهر كبير قادر يتتصف لهن منكم ويستوفي حقهن منكم، فلا ينبغي أن تغتروا بكونكم أعلى يداً منهن، وأكبر درجة منهن.

الثاني: لا تبغوا عليهن إذا أطعنكم لعلو أيديكم؛ فإن الله أعلى منكم وأكبر من كل شيء وهو متعالٍ عن أن يكلف إلا بالحق.

الثالث: أنه تعالى مع علوه وكبريائه لا يكلفكم إلا ما تطيقون فذلك لا تكلفوهن محبتكم فإنهن لا يقدرن على ذلك.

الرابع: أنه مع علوه وكبريائه لا يؤاخذ العاصي إذا تاب، بل يغفر له، فإذا تابت المرأة عن نشوزها فأنتم أولى بأن تقبلوا توبتها وتتركوا معاقبتها.

الخامس: أنه تعالى مع علوه وكبريائه اكتفى من العبد بالظواهر ولم يهتك السرائر، فأنتم أولى أن تكتفوا بظاهر حال المرأة، وألا تقعوا في التفتيش عما في قلبها وضميرها من الحب والبغض^(٢).

(١) "التفسير" الرازي ٨/ ٢٤٥، وينظر: "الكشاف" الزمخشري ٣/ ١٦٧.

(٢) "التفسير" ٧٣/ ٤.

فهو يلحظ ما أشار إليه ابن عطية من كونها تهديداً للأزواج فالله «قُدْره فوق كل قدر، ويده بالقدرة فوق كل يد، فلا يستعمل أحد على أمراته فالله بالمرصاد»^(١).

ويعم الفائدة فيجعلها متضمنة معنى التحذير والإعلام بعظم قدرة الله لينتهي كل مقتدر على من تحت يده حين يعلم أن الله مع علوه وكبريائه تعصونه ثم يتوب و يعفو فأنتم أحق بالعفو عمن يجني عليكم إذا رجع، وساق عليها ما روي عن أن أبا مسعود الأنصاري لما رفع سوطه ليضرب غلامه، فبصر به - عليه الصلاة والسلام - فصاح به: «الله أقدر عليك منك عليه»^(٢) بينما ذكر ابن عطية الرواية وجعل موقع الفاصلة نظير موقعها في بيان الرسول ﷺ حيث قال: «وينظر هذا إلى حديث أبي مسعود»^(٣).

وفي مواضع كثيرة نبه على أسرار لم يذكرها من كان قبله كما في فاصلة «فصلت» في قوله تعالى: ﴿فَقَضَيْنَهُنَّ مِمَّا سَبَّحَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ انفصلت: ١١٢.

يقول فيها: «واعلم أنه تعالى لما ذكر هذه التفاصيل، قال: ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ والعزیز إشارة إلى كمال القدرة، والعليم إشارة إلى كمال العلم، وما أحسن هذه الخاتمة؛ لأن تلك الأعمال لا تمكن إلا بقدرة كاملة وعلم محيط»^(٤).

فالفاصلة متعلقة بالمقصد الكلي مقررة له، وأحياناً تنفرع على عناصر السورة وتعلق بأكثر من جملة فتستوعب بهذا التوزيع جميع معاني السورة، مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٨].

(١) "المحرر" ٤٨/٢ .

(٢) "الكشاف" ٥٠٧/١ .

(٣) "المحرر" ٤٨/٢ .

(٤) "التفسير" ٥٥٠/٩ .

فـ «قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ أي اعلّموا بأمر الله ووعظه فإنه أعلم بالسموعات والمبصرات يجازيكم على ما يصدر منكم، وفيه دقيقة أخرى، وهي أنه تعالى لما أمر في هذه الآيات بالحكم على سبيل العدل وبإداء الأمانة قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ أي إذا حكمت بالعدل فهو سميع لكل السموعات يسمع ذلك الحكم، وإن أدت الأمانة فهو بصير لكل المبصرات، يبصر ذلك، ولا شك أن هذا أعظم أسباب الوعد للمطيع، وأعظم أسباب الوعيد للعاصي، وإليه الإشارة بقوله ﷺ: «اعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك» وفيه دقيقة أخرى وهي أن كلما كان احتياج العبد أشد كانت عناية الله أكمل، والقضاة والولاة قد فرض الله إلى أحكامهم مصالح العباد، فكان الاهتمام بحكمهم وقضائهم أشد، فلما كان هذا الموضوع مخصوصاً بمزيد العناية لا جرم قال في الآية ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ فما أحسن هذه المقاطع الموافقة لهذه المطالع^(١).

فدرك وجه المناسبة بين الفاصلة والمعنى في حدود الجملة يشوبها غموض يتطلب معه تلمّظ للكشف عن ما أجملته من مضامين تحور إلى سياقها وتغذي بيانه، ويزداد الخفاء في جملة الختام؛ لأنها تأتي في سياق معاني ومقاصد متنوعة يكون معه من العسير تعليقها بمعنى واحد دون غيره من المعاني.

ولم يخلُ تراث التفسير قبل الرازي من إشارات تغري بفتح هذا الباب واستقصائه في كل سورة، وقد أفاد الإمام من بعضها حيث ذكر كلاماً للقاضي في مناسبة خاتمة سورة الأنبياء لما جرى فيها من أغراض ومقاصد يقول: «قال القاضي: إنها ختم الله هذه السورة بقوله: ﴿قُلْ رَبِّ أَحْكُم بِالْحَقِّ﴾. «لأنه ﷺ كان قد بلغ في البيان الغاية لهم، وبلغوا النهاية في أذيتهم وتكذيبهم، فكان قصارى أمره تعالى بذلك تسليّة له وتعريفاً أن المقصود مصلحتهم، فإذا أبوا إلا التماادي في كفرهم، فعليك بالانقطاع إلى ربك ليحكم بينك وبينهم بالحق، إما بتعجيل العقاب بالجهاد أو بغيره..»^(٢).

(١) "التفسير" ١١٢، ١١١/٤.

(٢) "التفسير" ١٩٦/٨.

وكذلك في خاتمة سورة إبراهيم في قوله تعالى: ﴿ هَذَا بَلَّغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَليَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَحْدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [إبراهيم: ١٥٢].

يقول فيها: «أي هذا التذكير والموعظة بلاغ للناس، أي كفاية في الموعظة، ثم اختلفوا فقيل: إن قوله: «هذا» إشارة إلى كل القرآن. وقيل: بل إشارة إلى كل هذه السورة. وقيل: بل إشارة إلى المذكور من قوله: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ﴾ [إبراهيم: ٤٢] إلى قوله: ﴿ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ [إبراهيم: ٥١]... هذه الآيات مشعرة بأن التذكير بهذه المواعظ والنصائح يوجب الوقوف على التوحيد والإقبال على العمل الصالح، والوجه فيه أن المرء إذا سمع هذه التخويقات والتحذيرات عظم خوفه واشتغل بالنظر والتأمل فوصل إلى معرفة التوحيد والنبوة واشتغل بالأعمال الصالحة»^(١).

فالإمام يقلب آراء العلماء في وجهه تعلق الخاتمة بسياقات مختلفة سواء في محيط السورة أو في النظم القرآني عامة، ثم كشف عن وجه ربط أغراض السورة بالموعظة وما فيه من إشعار بأن التذكير بهذه المواعظ هادٍ إلى التوحيد، فاسم الإشارة خصوصية أسلوبية حوت كل ما مضى من أغراض ومعاني ووجهتها تجاه المقصد الكلي للسورة فجعل منها وحدة متماسكة حتى أصبحت السورة مبتدأ وخبراً، فكان الذي فتح الباب في علاقة الخواتيم بالمقاصد هو القرآن نفسه؛ لأن استخدام الربط اللفظي لفت ظاهر إلى هذه العلاقة وإلحاح على اقتصاص موضع الإشارة وآثارها على المعاني السابقة.

وتوقف بعض العلماء عند دراسة موضوعات الخواتيم وتنوعها ما بين وعظ ونصيحة ووعيد وأمثال وغير ذلك دون بيان لمناسبة كل نوع للمقاصد والسياقات المكتنفة له، أو ترتيب موقعها باعتبار من الأغراض. فجميع من جاء بعده لم يتجاوز إطار الموضوع إلى موقعه، فهذا الزركشي يقول فيها: «وهي مثل الفواتح في الحسن؛ لأنها آخر ما يقرع الأسماع، فلها جاء متضمنة للمعاني البديعة مع إيذان السامع بانتهاء الكلام حتى يرتفع معه تشوق النفس إلى ما يذكر بعد....»

(١) "التفسير" ١١٤/٧، ١١٥.

ولأنها بين أدعية ووصايا وفرائض ومواظ وتحميد وتهليل، ووعد ووعيد إلى غير ذلك»^(١).

وكذلك الطيبي عول في وجه حسنها وبلاغتها على ذلك يقول: «جميع خواتيم السور في نهاية من الكمال ؛ لأنها بين أدعية ووصايا ومواظ وتحميد ووعد ووعيد وتعظيم وتبجيل والله أعلم»^(٢).

بينما لم أجد للإمام عناية بتصنيف موضوعاتها ومعانيها، وإنما جملة الخواتيم عنده جملة تذليل وليست تأسيساً فوظيفتها أشبه بجملة التذليل في عدم استقلالها بل هي تجري في محيط المعاني السابقة لها من ابتداء السورة إلى ما قبل هذه الجملة، وتمكنها في موقعها باعتبارات ترجع إلى ردها إلى معاني الوسط سواء كان معنى كلياً أو معاني هي صفوة ما تسعى السورة إلى تقريره وبيانها؛ لذلك يجاوز الوقوف على موضوعاتها إلى فتح وجه المناسبة بين معانيها ومقاصد السورة والبحث فيما بينها من وشائج ونسب، فيعزوها إلى ما يناسبها ويناسب دلالتها وفق ما سبقها من أغراض، فأراك به ما تحت لغة الخاتمة من علائق تروغ بالمعنى وتتعطف به عن ما قبله من جمل لتصلها بعموم المقاصد، مما يكسب عناصرها فاعلية ما كانت لتكون في الجملة بمفردها، ولكن تضافرها مع السياقات وترابطها المنسجم داخل هذا الكل أضاف إليها معاني، وأضاف إلى المقاصد والأغراض معاني أخرى.

وشاهد ذلك موضوع النصيحة والوعظ وتنوعها باعتبار من الأغراض كما في سورة «لقمان» في قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ أَتْقَارَ رَبِّكُمْ وَأَخْشَوَاتِمْ لَا يَجْزِي وَالِدَ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئاً إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ * إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مِمَّا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ١٣٤، ١٣٥].

(١) "البرهان"، ١/٢٣٣، وينظر "معترك الأقران" السيوطي ١/٥٨.

(٢) "التيان" ٤٦٦.

فـ «لما ذكر الدلائل من أول السورة إلى آخرها وعظ بالتقوى؛ لأنه تعالى لما كان واحدًا أوجب التقوى البالغة، فإن من يعلم أن الأمر بيد اثنين لا يخاف أحدهما مثل ما يخاف لو كان الأمر بيد أحدهما لا غير، ثم أكد الخوف بذكر اليوم الذي يحكم الله فيه بين العباد، وذلك لأن الملك إذا كان واحدًا ويعهد منه أنه لا يعلم شيئًا ولا يستعرض عباده، لا يخاف منه مثل ما يخاف إذا علم أن له يوم استعراض واستكشاف، ثم أكد بقوله: ﴿لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ﴾... ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ يقول بعض المفسرين: إن الله تعالى نفى علم أمور خمسة بهذه الآية عن غيره، وهو كذلك لكن المقصود ليس ذلك؛ لأن الله يعلم الجوهر الفرد الذي كان في كتيب رمل في زمان الطوفان ونقله الريح من المشرق إلى المغرب كم مرة، ويعلم أنه أين هو ولا يعلمه غيره، ولأن يعلم أنه يوجد بعد هذه السنين ذرة في بركة لا يسلكها أحد ولا يعلمه غيره، فلا وجه لاختصاص هذه الأشياء بالذكر وإنما الحق فيه أن نقول: لما قال الله: ﴿وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ﴾ وذكر أنه كائن بقوله: ﴿إِنَّ وَعَدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ كأن قائلًا قال: فمتى يكون هذا اليوم، فأجيب بأن هذا العلم ما لم يحصل لغير الله ولكن هو كائن، ثم ذكر الدليلين اللذين ذكرناهما مرارًا على البعث: أحدهما: إحياء الأرض بعد موتها... وثانيهما: الخلق ابتداء... فقال ههنا: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾ القمان: ١٣٤. إشارة إلى أن الساعة وإن كانت لا تعلمها لكنها كائنة والله قادر عليها، وكما هو قادر على الخلق في الأرحام كذلك يقدر على الخلق من الرخام...»^(١).

وفي سورة «ص» يتخذ النصيح والإرشاد مسلكًا مختلفًا وذلك في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ «إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ» وَلَنَعْلَمَنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴿

[ص: ٨٦-٨٨].

ووجه تمكنها مع مقاصد السورة ما ذكره الإمام: «اعلم أن الله تعالى ختم هذه السورة بهذه الخاتمة الشريفة، وذلك لأنه تعالى ذكر طرقًا كثيرة دالة على وجوب الاحتياط في طلب الدين، ثم قال عند الختم: هذا الذي أدعو الناس إليه يجب أن ينظروا في حال الداعي، وفي

(١) "التفسير" ٩/ ١٣٢.

حال الدعوة ليظهر أنه حق أو باطل، أما الداعي وهو أنا، فأنا لا أسألكم على هذه الدعوة أجراً ومالاً، ومن الظاهر أن الكذاب لا ينقطع طمعه عن طلب المال ألبتة، وكان من الظاهر أنه ﷺ كان بعيداً عن الدنيا عديم الرغبة فيها، وأما كيفية الدعوة فقال: ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص: ٨٦] والمفسرون ذكروا فيه وجوهاً والذي يغلب على الظن أن المراد أن هذا الذي أدعوكم إليه دين ليس يحتاج في معرفة صحته إلى التكاليف الكثيرة بل هو دين يشهد صريح العقل بصحته، فثبت أني لست من المتكلفين في الشريعة التي أدعو الخلق إليها بل كل عقل سليم وطبع مستقيم فإنه يشهد بصحتها وجلالتها، وبعدها عن الباطل والفساد وهو المراد من قوله ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ [ص: ٨٧] ولما بين هذه المقدمات قال: ﴿وَلَنَعْلَمَنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ [ص: ٨٨] والمعنى أنكم إن أصررتم على الجهل والتقليد وأبستم قبول هذه البيانات التي ذكرناها فستعلمون بعد حين أنكم كنتم مصيبين في هذا الإعراض أو مخطئين وذكر هذه الكلمة بعد تلك البيانات المتقدمة مما لا مزيد عليه في التخويف والترهيب^(١).

وإذا وقف عند معاني الخاتمة أطلعك على ما تكتنزه من بيان وأسرار دون تعرض للمعاني العامة وإنما يشير بإيجازها وإجمالها ويحرك لغتها التفصيل كما في سورة «الصفات» في قوله تعالى: ﴿سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ * وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الصفات: ١٨٠-١٨٢].

قال فيها: «إنه تعالى ختم السورة بخاتمة شريفة جامعة لكل المطالب العالية وذلك لأن أهم المهمات للعاقل معرفة أحوال ثلاثة: فأولها معرفة إله العالم بقدر الطاقة البشرية وأقصى ما يمكن عرفانه من صفات الله تعالى ثلاثة أنواع: أحدها: تنزيهه وتقديسه عن كل ما لا يليق بصفات الإلهية وهو لفظة سبحان، وثانيها: وصفه بكل ما يليق بصفات الإلهية وهو قوله ﴿رَبِّ الْعِزَّةِ﴾ فإن الربوبية إشارة إلى التربة وهي دالة على كمال الحكمة والرحمة، والعزة

(١) "التفسير" ٤١٧، ٤١٦/٩.

إشارة على كمال القدرة، وثالثها: كونه منزهاً عن الإلهية عن الشرك والنظير، وقوله: ﴿رَبِّ الْعِزَّةِ﴾ يدل على أنه القادر على جميع الحوادث؛ لأن الألف واللام في قوله: ﴿الْعِزَّةِ﴾ تفيد الاستغراق، وإذا كان الكل مثلًا له ولمنكأ لم يبق لغيره شيء، فثبت أن قوله: ﴿مُبَحَّنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ كلمة محتوية على أقصى الدرجات وأكمل النهايات في معرفة إله العالم.

والمهم الثاني: من مهمات العاقل يعرف أنه كيف ينبغي أن يعامل الخلق في هذه الحياة الدنيوية، واعلم أن أكثر الخلق ناقصون ولا بد لهم من مكمل يكملهم ومرشد يرشدهم، وهاهنا يهديهم، وما ذلك إلا الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - وبديهة الفطرة شاهدة بأنه يجب على الناقص الاقتداء بالكمال فنبه على هذا الحرف بقوله: ﴿وَسَلَّمَ عَلَى الْمُرْسَلِينَ﴾ لأن هذا اللفظ يدل على أنهم في الكمال اللائق بالبشر فاقوا غيرهم ولا جرم يجب على كل من سواهم الاقتداء بهم.

والمهم الثالث: من مهمات العاقل أن يعرف أنه كيف يكون حاله بعد الموت، فنبه على هذا الحرف بقوله: ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وذلك لأن استحقاق الحمد لا يحصل إلا بالإنعام العظيم، فبين بهذا كونه منعمًا وظاهر كونه غنيًا عن العالمين، ومن هذا وصفه كان الغالب منه هو الرحمة والفضل والكرم، فكان هذا الحرف منبهًا على سلامة الحال بعد الموت، فظهر بما ذكرنا أن هذه الخاتمة كالصدفة المحتوية على درر أشرف من دراري الكواكب^(١).

بينما ذكر شيخه الواحدي أن: ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ من اتخاذ البنات والنساء، ﴿وَسَلَّمَ عَلَى الْمُرْسَلِينَ﴾ الذين بلغوا عن الله التوحيد والشرائع ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ على هلاك المشركين ونصرة الأنبياء والأولياء^(٢).

(١) "التفسير" ٣٦٣/٩، ٣٦٤.

(٢) "الوسيط" ٥٣٥/٣.

وأجراها على ذلك الزمخشري وردها إلى المقصد الكلي للسورة؛ لأنها «اشتملت على ذكر ما قاله المشركون في الله ونسبوا إليه مما هو منزّه عنه وما عاناه المرسلون من جهتهم، وما خولوه في العاقبة من النصرة عليهم فختمها بجوامع ذلك من تنزيه ذاته عما وصفه به المشركون والتسليم على المرسلين ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ على ما قبض من حسن العاقبة»^(١). فلما قرر من قبله موقعها في سياقات السورة وتناسبها مع مقاطعها وإحالة كل جملة إلى ما يلائمها من أغراض اكتفى الرازي بما ذكره في مجراها داخل الأغراض، وبني عليه ما وراء تلك الجمل المعدودة من مطالب عالية وأصول شاملة لجميع ما يتطلبه الإنسان من معارف تصلح له معاشه ومعاده، وكل منشأ للخلل عند المشركين جاء من الخطأ في فهم هذه الأصول الثلاثة.

والرازي في دراسته للخاتمة يتفقد الجمل التي تشكل مقطعاً ينقطع عنده الكلام وتستقر عنده الدلالة، فليست كل جملة تصلح أن تكون خاتمة للسورة، بل هناك خصوصيات وشيأت لجملة المنقطع تميزها عن غيرها من المقاطع، فتجده أحياناً يقتصر من الآية ذات الجمل المتعددة على فاصلتها ويتجاوز بالفاصلة حدود موقعها والمسار السابق لها إلى سياقات أشمل وأعم من سياقها فيجريها على المعنى الكلي للسورة، مثل نهاية سورة «الأنفال» وهي قوله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدِ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولَئِكَ الْأَرْحَامُ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٧٥].

فيجري صدر الجملة على ما قبلها ثم ينعطف بـ ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي عجزها وفاصلتها إلى مقاصد السورة ويجعلها خاتمة للسورة كلها، يقول في ذلك: «ثم قال في ختام السورة ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ والمراد أن هذه الأحكام التي ذكرتها وفصلتها كلها حكمة وصواب وصلاح، وليس فيها شيء من العبث والباطل، لأن العالم بجميع المعلومات لا يحكم إلا بالصواب ونظيره أن الملائكة لما قالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ [البقرة: ٣٠] قال مجيباً لهم: ﴿قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠] يعني لما علمتم كوني عالماً بكل المعلومات فاعلموا أن حكمي بكوني منزهاً عن الغلط كذا ههنا والله أعلم»^(٢).

(١) «الكشاف» ٤/ ٦٩.

(٢) «التفسير» ٥/ ٢٠.

وراجع استدلاله بموقع ﴿قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ من الآية التي وردت في سياقها وكيف هداه انتظام الفاصلة مع ما قبلها من الاعتراضات الواردة من الملائكة على اتخاذ سبحانه خلفاء في الأرض من دونهم وهم يسبحون بحمده ويقدمونه، مع ما تتضمنه الآيات من تخوفهم من مغبة ذلك الاصطفاء ألا يليق به من يستخلفهم، فيتخذون من الأرض ساحة فساد وسفك للدماء. فشابه سياق سورة «الأنفال» سياق الآية، لما في السورة من كراهية المؤمنين وترددهم عند الأمر بقتال المشركين؛ لكونهم قلة مستضعفين خوفاً على مستقبل هذا الدين لعدم تكافؤ القوى وقد بينت السورة تلك المواقف كما في: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَرِهُونَ * يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا بَيَّنَّ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ [الأنفال: ٦٥].

وموقف آخر في قوله: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَائِرَ الْكَافِرِينَ﴾ [الأنفال: ٧].

فناسب هذه المعاني تقرير صفة العلم والحكمة مما يزيل عن النفس التردد وأسباب الكراهية فتنقاد النفوس للأحكام والفرائض وتنصرف عن التوقع وقراءة المستقبل فتفوض الأمر لله وعلمه.

والنص السابق نشر لما انطوى وأجمل تحت عبارة ابن عطية في بلاغة اختيار وصف العليم وأنها «مناسبة لنفوذ هذه الأحكام»^(١).

وأيضاً خاتمة سورة «الشعراء» ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧]. فالخاتمة عنده فاصلة الآية، يقول فيها: «فأما قوله تعالى: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ فالذي عندي - والله أعلم - أنه تعالى لما ذكر في هذه السورة ما يزيل الحزن عن

(١) "المحرر" ٢ / ٥٥٧.

قلب رسول الله ﷺ من الدلائل العقلية، ومن أخبار الأنبياء المتقدمين ثم ذكر الدلائل على نبوته ﷺ ثم ذكر سؤال المشركين في تسميتهم محمداً ﷺ تارة بالكاهن وتارة بالشاعر، ثم إنه تعالى بين الفرق بينه وبين الكاهن أولاً ثم بين الفرق بينه وبين الشاعر ثانياً ختم السورة بهذا التهديد العظيم، يعني أن الذين ظلموا أنفسهم وأعرضوا عن تدبر هذه الآيات، والتأمل في هذه البينات فإنهم سيعلمون بعد ذلك أي منقلب ينقلبون. وقال الجمهور: المراد منه الزجر عن الطريقة التي وصف الله بها هؤلاء الشعراء، والأول أقرب إلى نظم السورة من أولها إلى آخرها والله أعلم^(١).

فالرازي لا يفسرها في حيز ما قبلها وإنما يعديها إلى مجالات أوسع، وقد هيأ لذلك العموم في قوله: ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ التي أحالت على جميع أنواع التعدي وتجاوز الحد في الطغيان بالانصراف عن التدبر في الدلائل والبراهين الصادقة القاطعة بنبوته ﷺ وتلييس منهج الحق وتفريقه في مفترقات مختلفة بين الكهانة والشعر، فجاء التهديد متمكناً في سياق الإنكار حيث أتى به في صورة مقابلة لما هم عليه من التعالي والإعراض، فقابل إنكارهم لما ورد عليهم من الحق في الدنيا بعلمهم القاطع بما سينزل إليه مصيرهم يوم القيامة.

ويلاحظ أنه أعرض عن قول الجمهور وإن عرض له؛ لكونه يحتجز الدلالة ويضرب عليها أسواراً تمنعها من الانطلاق في الأفق الممتد للسورة، بينما دلالة العموم تزيد في معنى التهديد لذلك وصفه بالعظيم لمكانه وموقعه من مقاصد السورة ومعانيها المتعددة، وهذا ما جرى عليه الزمخشري قبله حيث فسر ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ على إطلاقه^(٢) ولم يقيد به قبله.

وقد لفت أيضاً إلى دقائق اختيار نوع الخاتمة باعتبار المقاصد وكيفية انتظامها مع غيرها من الفصول وأن هذا الترتيب وفق اعتبارات تبني عليها مقاصد السورة، وتكتمل حلقاتها فيحكم موقعها بناء الكلام، وذلك ما نبه إليه في تفسيره لخاتمة سورة «غافر» وتنزيله آخر

(١) "التفسير الكبير" ٥٣٨/٨.

(٢) "الكشاف" ٣٤٥/٢.

الكلام باعتبار ما جرى عليه بناء السورة وترتب عليه نظمها، يقول فيها: «اعلم أنه تعالى راعى ترتيباً لطيفاً في آخر هذه السورة وذلك أنه ذكر فصلاً في دلائل الإلهية وكمال القدرة والرحمة والحكمة ثم أرفده بفصل التهديد والوعيد، وهذا الفصل الذي وقع عليه ختم هذه السورة هو الفصل المشتمل على الوعيد والمقصود أن هؤلاء الكفار الذين يجادلون في آيات الله وحصل الكبر العظيم في صدورهم بهذا، والسبب في ذلك كله طلب الرياسة والتقدم على الغير في المال والجاه فمن ترك الانقياد للحق لأجل طلب هذه الأشياء فقد باع الآخرة بالدنيا فبين تعالى أن هذه الطريقة فاسدة؛ لأن الدنيا فانية ذاهبة واحتج عليه بقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [غافر: ٨٢]. يعني لو ساروا في أطراف الأرض لعرفوا أن عاقبة المتكبرين والمتمردين ليست إلا الهلاك والبوار»^(١).

وتأمل كيف عاد بالخاتمة إلى فصول السورة وخرج بدلالة التهديد في قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَأَثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [غافر: ٨٢]. إلى موقعها في بناء الكلام وكشف بها عن الغموض في موقف هؤلاء العصاة من الحق لما جاءهم، وأن السبب في جدالهم وعزوفهم هو تصادم الحق مع ما في نفوسهم من الطلب للرياسة والتقدم في أمور الدنيا، وأن إقرارهم بالألوهية لله يسلب السلطة التي مكنتهم من استعباد الناس واسترقاقهم فكان ذلك مانعاً لهم من الإذعان والتسليم، فالسبب ليس في الدلائل واشتباهاها عليهم وإنما دواخلهم الموبوءة.

وخاتمة سورة «مريم» وإن تقاربت مع «غافر» إلا أنه يجعلها من قبيل الموعظة والإنذار يقول في ذلك: «ثم إنه تعالى ختم السورة بموعظة بليغة فقال ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّن قَرْنٍ هَلْ يُحْسِنُ مِنْهُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ [مريم: ٩٨]. لأنهم إذا تأملوا وعلموا أنه لا بد من زوال الدنيا والانتهاى إلى الموت خافوا ذلك وخافوا أيضاً سوء العاقبة في الآخرة فكانوا

(١) «التفسير الكبير» ٩/ ٥٣٤، ٥٣٥.

فيها إلى الحذر من المعاصي أقرب ثم أكد تعالى في ذلك فقال: ﴿هَلْ تُحِشُّ مِنْهُمْ مَنْ أَحَلَّ﴾ لأن الرسول ﷺ إذا لم يحس منهم أحدًا برؤية وإدراك وجدان ﴿أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْرًا﴾... دل ذلك على انقراضهم بالكلية، الأقرب في قوله: ﴿أَهْلَكْنَا﴾ أن المراد به الانقراض بالموت وإن كان من المفسرين من حمّله على العذاب المعجل في الدنيا والله أعلم بالصواب^(١).

ومرد ذلك إلى المقاصد لأن سورة «مريم» جرى فيها التذكير بالنعم، فتزع به السياق إلى ملاحظة عناصر التخفيف في الخطاب، وهي إشراك الرسول ﷺ معهم في الخطاب بعد أن كان الكلام ابتداءً مع كفار قريش فقال: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ﴾ ثم انتقل إلى الرسول ﴿هَلْ تُحِشُّ مِنْهُمْ﴾ فالتذكير ليس مختصًا بالكفار وإنما لكلا الفريقين، ثم اختيار لتفسير قوله ﴿أَهْلَكْنَا﴾ أنه ليس المراد به العقاب والعذاب وإنما الانقراض بالموت وهذه سنة جارية على المتقين وأهل اللدد.

وكثير من الخواتيم تتقارب في موضوعاتها أو تراكيبيها، لكن مع هذا التقارب نجد تنوعًا في تفسيره إياها تبعًا لاعتبارات سياقية تغير مدلولاتها كما في انتهاء بعض السور بالحمد وهي «الصافات» و«الزمر» و«الجاثية».

وقد ذكر الرازي أن حرف الحمد يدل على سلامة الحال بعد الموت وجاء على هذا التأويل في سورتي «الصافات» و«الزمر»، يقول في «الصافات»: «فنبه على هذا الحرف بقوله: ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الصافات: ١٨٢] وذلك لأن استحقاق الحمد لا يحصل إلا بالإنعام العظيم، فبين بهذا كونه منعمًا وظاهرًا كونه غنيًا عن العالمين، ومن هذا وصفه كان الغالب منه هو الرحمة والفضل والكرم، فكان هذا الحرف منبهاً على سلامة الحال بعد الموت»^(٢).

وخاتمة سورة «الزمر» مساقها حكاية أحوال القيامة وموقف العرض وما يحفل به من

(١) «التفسير» ٥٦٨/٧.

(٢) «التفسير الكبير» ٤٦٤/٩.

خوف ورجاء واستشراق لرحمته - سبحانه - ثم يصير كمن يحسب عمله: من كذب بالرسول أراداه عمله جهنم، والصادقون وفاهم وعدهم ربهم فحمدوا وصرح بذلك بقوله: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ﴾ [الزمر: ٧٤]. ثم أبهم الحمد في ختام السورة لخصوصية بيانية زائدة على سلامة الحال بعد الموت، فقال تعالى: ﴿وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الزمر: ٧٥].

يقول الإمام في هذا: «وقوله: ﴿وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ عبارة عن الإقرار بكونه موصوفاً بصفات الإلهية وهي صفات الإكرام،... وفي قوله: ﴿وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ دقيقة أخرى وهي أنه لم يبين أن ذلك القائل من هو، والمقصود من هذا الإبهام التنبيه على أن خاتمة كلام العقلاء في الثناء على حضرة الجلال والكبرياء ليس إلا أن يقولوا: ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وتأكد هذا بقوله تعالى في صفة أهل الجنة: ﴿وَأَجْرُهُمْ دَعْوَتُهُمْ إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: ١٠].»^(١)

وأما سورة «الجاثية» وإن جاءت في سياق مشابه حيث سبقت في موقف العرض وتفصيل أحوال القيامة، فمساقتها قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُومِذِرُ يَحْشُرُ الْمُبْطِلُونَ﴾ ونرى كل أمت جاثية كل أمة تدعى إلى كتبها اليوم تجزون ما كنتم تعملون ﴿

[الجاثية: ٢٧، ٢٨].

إلا أن الرازي ردّ دلالتها إلى المعنى الكلي للسورة فجعلها مترتبة على اكتمال الأدلة والبراهين المؤكدة على كونه متفرداً بالألوهية والتي تصدقها مظاهر الخلق وآياته في الآفاق أرضاً وسماً ثم الوعيد الشديد لمن صدق عن آياته «ولما تم الكلام في هذه المباحث الشريفة الروحانية ختم السورة بالتحميد لله تعالى، فقال: ﴿قُلْ لِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الجاثية: ٣٦]. أي فاحمدوا الله الذي هو خالق السماوات والأرض، بل خالق كل العالمين من الأجسام والأرواح، والذوات والصفات، فإن هذه الربوبية توجب الحمد والثناء على كل أحد من المخلوقين والمربوبين»^(٢).

(١) "التفسير" ٩/ ٤٨١.

(٢) "التفسير" ٩/ ٦٨٢، ٦٨٣.

فحمل ظاهر الخبر في قوله: ﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ﴾ على معنى الإلزام وجعل الأصل فيه الأمر باعتبار موقعه في سياق البراهين السابقة، فكانه أمام قوة هذه الحجة لا يتسنى للعقل إلا أن يسلم بها وينزع عنه رداء الكبر والمعاندة فيوجب لهذه الكينونة الحمد والثناء دون سواء.

وأظن أن الذي حملة على رده إلى المقصد الكلي هو إشباع الوصف في قوله: ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ بينما بنى الوصف على الإيجاز في السورتين السابقتين، فكان لذلك شأن في توجيه الدلالة وتغيير مجراها إلى ما يوجب المناسبة بين النظم والمعنى.

وأيضاً نجد التنوع في تفسير دلالة ختام بعض السور بتعظيم أمر القرآن فلا يردده إلى معنى واحد وإنما يستنفر معانيها بالأحوال السياقية المكتنفة لدلالاتها أو يفرع عنها معاني تشرى المقاصد الكلية وتقويها، يقول في ختام سورة الكهف: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مَدَادًا لَكَلِمَتِ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ نُنْفِذَ كَلِمَتِ رَبِّي وَنُوحِشَائِمِثْلَهُ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٠٩]. «اعلم أنه تعالى لما ذكر في هذه السورة أنواع الدلائل والبيانات وشرح أقاصيص الأولين نبه على كمال حال القرآن»^(١)

وكذلك خاتمة «الحاقة» جاءت بتعظيم القرآن في قوله: ﴿فَلَا أَقِيمُ بِمَا تُبْصِرُونَ * وَمَا لَا تُبْصِرُونَ * إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [الحاقة: ٣٨-٤٠].

ولكنه مرتب على معنى آخر غير ما جاءت به الكهف بـ «أنه تعالى لما أقام الدلالة على إمكان القيامة ثم على وقوعها، ثم ذكر أحوال السعداء وأحوال الأشقياء ختم الكلام بتعظيم القرآن، فقال: ﴿فَلَا أَقِيمُ بِمَا تُبْصِرُونَ﴾»^(٢).

فالسورتان وإن جمع خاتمتها غرض كلي جامع وهو التعظيم لشأن القرآن إلا أن الإمام تعداه إلى التنبيه على الخصوصيات التي تشربتها كل جملة من المقاصد التي ترتبت عليها فوجهت دلالتها وجهة مبينة، فـ «الكهف» لما كانت ردًا لما أثاره المبطلون من تساؤلات دافعها التشكيك في نبوته ﷺ خرج ذلك بالتعظيم إلى التنبيه على إعجاز بيانه وشرف برهانه

(١) "التفسير" ٥٣/٧.

(٢) "التفسير" ١٠/٦٣٢.

وأن هذه البراعة في إيراد البيانات وكشف الشبهات وتفصيل الدلائل بالقصص ليست في مُنة بشر، وإنما هي تنزيل من لدن حكيم عليم.

بينما نجدها في سورة «الحاقة» تأتي بعد سياق إقامة الدلائل على وقوع القيامة وذكر ما وراءها من وصف أحوال السعداء وأحوال الأشقياء وهو أمر غيبي تنزع النفس عن التصديق به فجاء تعظيم أمر القرآن بزيادة تأكيد وتقوية، وأن ما يبصرونه من صدق إعجازه برهان وشاهد يستدل به على حقيقة ذلك اليوم.

وقد حاولت أن أثبت الفروق في رده للخواتيم على المقاصد وهل كان يوردها موردًا واحدًا، أم أن هناك تنوعًا واختلافًا بحسب ما تكتنزه جملة الخاتمة من هيئات لمعان جرت وسط السورة فتارة تجدها يردّها إلى جميع المقاصد الأصلية، وأحيانًا تتضمن فروع المعاني وتحتل الرد إليها، وتارة ينعطف بها إلى بعض العناصر دون بعض فهو في بحث دءوب عن الزوايا التي تستكن فيها عناصر الوسط في لغة الخواتيم ويمكن تصنيف طريقته في ثلاثة أضرب:

الضرب الأول

وهذا النوع يغرسه الرازي في قلب السورة ويعلقه بجميع عناصرها وأغراضها فيسدي به لحمه النظم، وعنده تبلغ المعاني غاية الظهور مع اكتمال النسق، وقد عول - غالبًا - في دراسته لآثار المقاصد في جملة الخاتمة على اللغة وما ينطبع عليها من سمات وهيئات للمعاني التي قررتها السورة، فينبه عليها بكلمات معدودة يحمل بها ما سبق مع تثبيته وتقويته، وقد أثار بهذا المسلك دفائن كانت وادعة بين الكلمات فكان ردها إلى مكونات السورة ينمي مدلولاتها أو يبتعد بها بمسافات عن مجراها إلى محيط أوسع وأعم، ويصور ذلك تفسيره لنهاية سورة «آل عمران» عند قوله تعالى: ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَاطِبُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

قال فيها: «واعلم أنه تعالى لما ذكر في هذه السورة أنواعًا كثيرة من علوم الأصول

والفروع، أما الأصول ففيها يتعلق بتقرير التوحيد والعدل والنبوة والمعاد، وأما الفروع ففيها يتعلق بالتكاليف والأحكام نحو الحج والجهاد وغيرها، ختم هذه السورة بهذه الآية المشتملة على جميع الآداب وذلك لأن أحوال الإنسان قسمان: منها ما يتعلق به وحده، ومنها ما يكون مشتركاً بينه وبين غيره، أما القسم الأول فلا بد فيه من الصبر وأما القسم الثاني فلا بد فيه من المصابرة.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ونظام التحقيق فيه أن الأفعال مصدرها هو القوي، فهو تعالى أمر بالصبر والمصابرة، وذلك عبارة عن الإتيان بالأفعال الحسنة، والاحتراز عن الأفعال الذميمة، وذلك هو المراد بالمرابطة، ثم ذكر ما به يحصل دفع هذه القوى الداعية إلى القبائح والمنكرات، وذلك هو تقوى الله، ثم ذكر ما لأجله وجب ترجيح تقوى الله على سائر القوى والأخلاق وهو الفلاح، فظهر أن هذه الآية التي هي خاتمة لهذه السورة مشتملة على كنوز الحكم والأسرار الروحانية، وأنها على اختصارها كالمتمم لكل ما تقدم ذكره في هذه السورة من علوم الأصول والفروع، فهذا ما عندي فيه.

ولنذكر ما قاله المفسرون: قال الحسن: اصبروا على دينكم ولا تتركوه بسبب الفقر والجوع، وصابروا على عدوكم ولا تفشلوا بسبب وقوع الهزيمة يوم أحد. وقال الفراء: اصبروا مع نبيكم، وصابروا عدوكم فلا ينبغي أن يكون أصبر منكم. وقال الأصم: لما كثرت تكاليف الله في هذه السورة أمرهم بالصبر عليها، ولما كثرت ترغيب الله تعالى في الجهاد في هذه السورة أمرهم بمصابرة الأعداء^(١).

فالجملة تركيز موجز لأصول المعاني وفروعها، فكل كلمة من كلماتها تحيل إلى جملة أغراض امتدت في مساحات مختلفة في وسط السورة، فهي خمس كلمات رتبت ترتيباً بديعاً نظمت به معاهد وأخذت بكل منها بطرف فـ«اصبروا» ونهت على الأصول والفروع التي يختص الفرد بالقيام بها وهي حقوق بينه وبين الله يندرج تحته أنواع: أولها: أن يصبر على مشقة

(١) "التفسير" ٣ / ٤٧٤.

النظر والاستدلال في معرفة التوحيد والعدل والنبوة والمعاد، وعلى مشقة استنباط الجواب عن شبهات المخالفين. وثانيها: أن يصبر على مشقة أداء الواجبات والمندوبات. وثالثها: أن يصبر على مشقة الاحتراز عن المنهيات، ورابعاً: الصبر على شدائد الدنيا وآفات^(١).

﴿وَصَابِرُوا﴾ تنبه على الحقوق الواقعة بينه وبين الغير «ويدخل فيه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر... ويدخل فيه الجهاد، فإنه تعرض النفس للهلاك، ويدخل فيه المصابرة مع المبطلين وحل شكوكهم والجواب عن شبههم»^(٢).

وقوله: ﴿وَرَابِطُوا﴾ هي التي يتحقق بها الأمران السابقان، فمن لم يكن مشغلاً طول عمره بمجاهدة الأخلاق الذميمة وقهرها لا يمكنه الإتيان بالصبر والمصابرة^(٣).

ثم رتب عليها باعثها وداعيها «وهو تقوى الله لنيل الفلاح والنجاح»^(٤).

وإذا راجعت السورة فلن تجد معنى يندُّ عن موقعه في هذه الكلمات وقد أحسن الإمام حينما جعلها مستوعبة لجميع المقاصد ولم يخص بها معنى دون آخر لذلك عرض أقوال المفسرين بعد أن فتح الباب لمعرفة الكيفية التي تستوعب بها الجملة مقاصد السورة بأكملها وأقوال المفسرين نبهت على جانب من العلائق بينها وبين بعض المقاصد وخاصة ردها إلى غزوة أحد وهذا داخل في جملة الأغراض التي ذكرها الرازي.

وأحياناً يستحضر سياقات السورة وأغراضها ثم يضع الخاتمة في قلب هذه الأغراض ويصلها بها لتضيف إليها بعداً آخر كما في خاتمة سورة الأنعام في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ خَلْقَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوكُمْ فِي مَاءِ تَنَكُّرٍ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٦٥].

(١) "التفسير" ٤٧٣/٣.

(٢) السابق نفسه.

(٣) "التفسير" ٤٧٣/٣ بتصرف.

(٤) السابق ٣٧٤/٣.

يقول فيها: «اعلم أنه تعالى لما علم رسوله أنواع دلائل التوحيد، والرد على القائلين بالشركاء والأنداد والأضداد وبالغ في تقرير إثبات التوحيد، والنافين للقضاء والقدر، ورد على أهل الجاهلية في أباطيلهم، أمره أن يختم الكلام بقوله: ﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتُ رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ١٦١]. وذلك يدل على أن الهداية لا تحصل إلا بالله»^(١).

فكانه لما بالغ في إظهار الدلائل وتقرير أدلة التوحيد والقضاء والقدر ورد الأباطيل بالبراهين الكاشفة، جاءت هذه الآية لتدفع توهم من ظن أن الأدلة وحدها تكفي في حصول الهداية، وآخر السورة يبين المنهج القويم المقابل لطرق أهل الضلال والزيغ التي وصفها الآيات وسط السورة واستحضرت منهج إبراهيم في قوله ﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتُ رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ١٦١]. قال فيها الرازي: «المقصود منه الرد على المشركين»^(٢).

ثم أتت تقرير التوحيد بنفي الإشراك والأمر بالإخلاص التام في صرف سائر العبادات لله في قوله: ﴿قُلْ إِنِّي صَلَّاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢]. وقرر القضاء والقدر بقوله: ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٣]^(٣).

وكذلك سورة «يونس» وخاتمتها قوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَابِعُوا النَّاسَ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ * وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَأَصِرْ حَتَّىٰ يَخُذَكَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْخَازِنِينَ﴾

[يونس: ١٠٨، ١٠٩].

قال فيها: «واعلم أنه تعالى لما قرر الدلائل المذكورة في التوحيد والنبوة والمعاد وزين آخر هذه السورة بهذه البيانات الدالة على كونه تعالى مستبداً بالخلق والإبداع والتكوين والاختراع ختمها بهذه الخاتمة الشريفة العالية... ثم إنه تعالى ختم هذه الخاتمة بخاتمة أخرى لطيفة ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَأَصِرْ حَتَّىٰ يَخُذَكَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْخَازِنِينَ﴾.

(١) التفسير ١٩٠/٥.

(٢) التفسير ١٩١/٥.

(٣) السابق نفسه.

والمعنى أنه تعالى أمره باتباع الوحي والتنزيل فإن وصل إليه بسبب ذلك الاتباع المكروه فليصبر عليه إلى أن يحكم الله فيه وهو خير الحاكمين^(١).

ورحم الله الإمام فقد حرمتنا ضيق صدره بمصابه في ولده من تفصيل علو وشرف هذه الخاتمة، فقد ذكر ذلك في نهاية تفسيره للسورة بقوله: «ختمت تفسير هذه السورة ... وكنت ضيق الصدر كثير الحزن^(٢) بسبب وفاة الولد الصالح محمد أفاض الله على روحه وجسده أنوار المغفرة والرحمة»^(٣).

وإن كان ما نبه عليه فيه الكثير، فالسورة مقصدها الكلي ومدار آياتها على إثبات نبوة محمد ﷺ والرد على شبهات المنكرين لها وهذا ما ذكره في تفسيره للآية التاسعة والتسعين حيث قال: «اعلم أن هذه السورة من أولها إلى هذا الموضع في بيان حكاية شبهات الكفار في إنكار النبوة مع الجواب عنها»^(٤).

فهناك معاني متفرقة ودلائل متعددة جرت في وسط السورة منها ما هو أصل وبعضها فروع تشعب وتبنى على المقصد الكلي، فالتوحيد والخشوع معاني فرعية انشقت وانشعبت ولم تستقل بدلالاتها وإنما يحكم السياق الأكبر قبضته على مسارها فيوجه دلالتها بمقدار تجليه أو التدليل على معنى دون أن تكون هي مدار المعنى وإنما تدور هي في فلك أشمل، وحينما يرد الرازي ختام السورة إلى جميع المعاني الأصلية والفرعية ولا يقصر دلالتها على السياق الكلي المسيطر على حركة هذه الفروع. هنا ينبغي التوقف عند لغة الخاتمة لمعرفة القناة التي شقت مجرى لجميع المعاني السابقة لتصب فيها، وكيف احتوت بلفظة واحدة ما تفرق وتفرع داخل

(١) "التفسير" ٦/ ٣١١، ٣١٠.

(٢) علق عليه المشرف: لقد ذكر الرازي هذا ليدلنا على معنى جليل وهو أن كتابة العلم للأجيال القادمة لا يقطعها حدث وإن جلّ فليس أشق على الوالد من موت الولد. اللهم اغفر له وارحمه.

(٣) "التفسير" ٦/ ٣١١.

(٤) "التفسير" ٦/ ٣٠٤.

الوسط، فكلمة «الحق» بعمومها استحضرت جميع الدلائل المذكورة من القول الفصل في أمر النبوة ودلائل التوحيد والمعاد وما ذيل به آخرها من أمر ﷺ بإظهار دينه ومباينة طريق المشركين بعد أن بلغت الدلائل منتهى غاياتها^(١).

فالخاتمة لم يردّها على ما قبلها وإنما أجراها على جميع الدلائل التي قررتها الآيات ثم عاد بخاتمة الخاتمة على المقصد الأصلي وهو تقرير دلائل النبوة والرد على شبهات القوم فيها فقال: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ﴾ وذلك بتخصيصه بالذكر بعد أن جرى في سياق عموم الحق فختمت الخاتمة بتقرير المعنى الذي بدأت به السورة وأكدت اختصاصه بالنبوة بعد أن شكك فيها المشركون وظنوه أمراً عجباً.

ومما يبرز عنانيه بأواصر النسب بين جملة الختام والمقاصد مغالفته للزغخشري في تفسير آخر «النمل». وإلحاحه على أن الكلمات داخل سياق هذه الجملة ليس وليد دلالة مفردة وإنما تحكمه أصول وأغراض كبرى يرتد إليها، ولا تتشكل دلالاته بصورة مكتملة إلا بمعانقته لأصوله، ويتبين ذلك الغرض في تفسيره لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبِّي هَٰذَا الْبَلَدَ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ * وَأَنْ أَتْلُوا الْقُرْآنَ فَمَنْ أَعْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ * وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ * وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيَرْيَكُم مَّا بَيْنَهُ فَنَقَرُوا نَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [النمل: ٩١-٩٣].

قال فيها الزغخشري: «أمر سوله بأن يقول ﴿أُمِرْتُ﴾ أن أخص الله وحده بالعبادة، ولا أتخذ له شريكاً كما فعله قريش، وأن أكون من الخنفاء والثابتين على ملة الإسلام .. والبلدة: مكة حرسها الله تعالى، اختصاصها من بين سائر البلاد بإضافة اسمه إليها؛ لأنها أحب بلاده إليه ... وأشار إليها إشارة تعظيم لها وتقريب، والأعلى أنها موطن نبيه ومهبط وحيه ووصف ذاته الذي هو خاص وصفها، فأجزل بذلك قسمها في الشرف والعلو، ووصفها بأنها محرمة لا يتتهك حرمتها إلا ظالم مضاد لربه ... وجعل دخول كل شيء تحت ربوبيته وملكوته كالتابع لدخولها تحتها، وفي ذلك إشارة إلى أن ملكاً ملك مثل هذه البلدة عظيم

(١) بنظر: "التفسير" ٣٠٨/٦.

الشان وقد ملكها وملك إليها كل شيء»^(١).

وقال فيها الرازي: «اعلم أنه سبحانه وتعالى لما بين المبدأ والمعاد والنبوة ومقدمات القيامة وصفة أهل القيامة من الثواب والعقاب، وذلك كمال ما يتعلق ببيان أصول الدين ختم الكلام بهذه الخاتمة اللطيفة فقال: قل يا محمد: إني أمرت بأشياء: الأول: أني أمرت أن أخص الله وحده بالعبادة ولا أتخذ له شريكاً، وأن الله تعالى لما قدم دلائل التوحيد فكأنه أمر محمداً بأن يقول لهم هذه الدلائل التي ذكرتها لكم إن لم تفد كلم بالتوحيد، فقد أفادت لي ذلك فسواء قبلتم هذه الدعوة أو أعرضتم عنها، فإني مصر عليها غير مرتاب فيها، ثم إنه وصف الله تعالى بأمرين الأول: أنه رب هذه البلدة والمراد مكة وإنما اختصها من بين سائر البلاد... وأشار إليها إشارة تعظيم لها دالاً على أنها موطن نبيه ومهبط وحيه...

وثانيهما: وصف الله تعالى بقوله: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَكَ شَيْءٌ﴾. وهذا إشارة إلى ما تقدم من الدلائل المذكورة في هذه السورة على التوحيد من كونه تعالى خالقاً لجميع النعم فأجل ههنا تلك المفصلات.

الثاني: أمر بأن يكون من المسلمين. الثالث: أمر بأن يتلو القرآن عليهم... ﴿فَمَنْ أَهْتَدَى﴾ في هذه المسائل الثلاث المتقدمة وهي: التوحيد والخير والنبوة... ﴿وَمَنْ ضَلَّ﴾ فلا علي وما أنا إلا رسول منذر ثم إنه سبحانه ختم هذه السورة بخاتمة في نهاية الحسن وهي قوله: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على ما أعطاني من نعمة العلم والحكمة والنبوة أو على ما وفقني من القيام بأداء الرسالة وبالإنذار ﴿سَيَرْكَبُهُ عَيْنِي﴾ القاهرة ﴿فَنَعْرِفُونَهَا﴾ لكن حين لا ينفعكم الإيمان ﴿وَمَارَبُّكَ يُغْفِلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ لأنه من وراء جزاء العاملين»^(٢).

فالزخشي يحلل العناصر باعتبار موقعها في حدود الجملة، بينما يتجاوز الرازي تبعية الألفاظ السابقة لها ويمتد بها إلى الأصول والأغراض ويجعل منها إشارات وإيحاءات تحيل

(١) الكشف ٣/ ٣٨٩، ٣٩٠.

(٢) "التفسير" ٨/ ٥٧٦، ٥٧٥.

على سياقات لتأكيدھا وتقويتھا، فقولہ: ﴿وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ﴾ حللھا الزمخشري باعتبار جريان العام بعد الخاص لمزيد فضل البلد الحرام وكان دخول العموم في ربوبيته وملكوته لكل شيء تابع لدخول مكة تحتھا.

أما الرازي فلا يلتفت إلى دلالة العموم بعد الخصوص بل أحال دلالة ﴿وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ﴾ إلى سياقات التوحيد وأدلته فيجمع أطرافھا في جملة واحدة «فأجل ههنا تلك المفصلات».

وأيضاً أشار إلى ما داخل قولہ: ﴿رَبِّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ﴾ وقولہ: ﴿وَأَنْ أَتْلُوا الْقُرْآنَ﴾ من براهين النبوة فاختصاصھا بالفضل؛ لكونھا مهبط وحیه وأشرف رسالته، و﴿وَأَنْ أَتْلُوا الْقُرْآنَ﴾ هو التبليغ والإنذار الذي هو مناط النبوة وبرهان صدق دعواه، وأيضاً استحضرت هذه الجملة جميع ما يقرره القرآن من أصول.



الضرب الثاني

وفي هذا النوع تتخبط الخاتمة معنى من المعاني التي جرت في ثنايا السورة، وغالبًا ما يكون أبرز ما تضمنته وحشدت بيانها لتأكيدهِ وتقريرهِ، فتأتي جملة الخاتمة لتمييزه بعد أن كان مختلطًا بغيره من الأغراض كما في سورة «يس» حيث جاء قوله: ﴿فَسُبْحَنَّ الَّذِي يَبْدِئُ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: ٨٣] اختتامًا لآياتها التي توزعها أصول ثلاثة هي: تقرير الرسالة والحشر والتوحيد وما يتخللها من الاستدلال على ثوابه وعقابه . وبعد أن قررت الأصول استرجعت الخاتمة معنى الحشر وقرنته بالتوحيد لتنبه على مزيد العناية به وكأنه قطب السورة والعمود الذي عليه استقرار آياتها .

يقول الإمام في ذلك: «لما تقررت الوجدانية والإعادة وأنكروها وقالوا بأن غير الله آلهة، قال تعالى وتنزه عن الشريك ﴿الَّذِي يَبْدِئُ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ وكل شيء ملكه فكيف يكون المملوك للمالك شريكًا، وقالوا بأن الإعادة لا تكون، فقال: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ردًا عليهم في الأمرين... ويمكن أن يقال بأن هذه السورة ليس فيها إلا تقرير الأصول الثلاثة بأقوى البراهين، فابتدأها ببيان الرسالة بقوله: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [يس: ٣]. ودليلها ما قدمه عليها بقوله: ﴿وَالْقُرْآنُ الْحَكِيمُ﴾ [يس: ٢]. وانتهأها ببيان الوجدانية والحشر بقوله: ﴿فَسُبْحَنَّ الَّذِي يَبْدِئُ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: ٨٣] إشارة إلى الحشر وليس في هذه السورة إلا هذه الأصول الثلاثة ودلائله وثوابه»^(١).

وعلل اقتران التوحيد فيها بالحشر بما ذكره الغزالي، ولأن الإيمان صحته بالاعتراف بالحشر والحشر مقرر في هذه السورة بأبلغ وجه^(٢) .

وكذلك سورة «الرعد» جاءت خاتمتها تميمًا لما تضمنته السورة من ذكر النبوة والاستدلال عليها، فقررت ذلك المعنى بقوله: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا

(١) "التفسير" ٣١١/٩، ٣١٢.

(٢) السابق ٣١١/٩.

قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴿٤٣﴾ [الرعد: ٤٣].

فاحتج عليهم تعالى بأمرين: الأول: شهادة الله على نبوته، والثاني: المعجزة فإنه فعل مخصوص يوجب القطع بكونه رسولاً من عند الله تعالى، فكان إظهار المعجزة أعظم مراتب الشهادة. ^(١)

وخاتمة «الحج» تأتي مؤكدة للغرض الأخير فالسورة موزعة بين ثلاثة فصول: فصل في الإلهيات، وثانٍ في النبوات، وثالث في التشريع، ذكر ذلك في قوله: «اعلم أنه سبحانه لما تكلم في الإلهيات ثم في النبوات أتبعه بالكلام في الشرائع...» ^(٢).

وختمها بقوله: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِاللَّهِ﴾ [الحج: ٧٨]. وهي: «شرح يجري مجرى المؤكد لما مضى وهو قوله: ﴿فَأَقِمْوُا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ ويجب صرفها إلى المفروضات؛ لأنها هي المعهودة» ^(٣).



(١) "التفسير" ٥٤/٧.

(٢) السابق ٢٥٣/٨.

(٣) السابق ٢٥٧/٨.

الضرب الثالث

وفي هذا النوع تأتي الخاتمة لتضيف بعدًا آخر للمقاصد والأغراض وتزيد في الفائدة كما في سورة التوبة ختمها بقوله: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ * فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿[التوبة: ١٢٨، ١٢٩].

وبيانها ما ذكره الإمام: «إنه تعالى لما أمر رسوله ﷺ أن يبلغ في هذه إلى الخلق تكاليف شاقة شديدة صعبة يعسر تحملها، إلا لمن خصه الله تعالى بوجوه التوفيق والكرامة، ختم السورة بما يوجب سهولة تحمل تلك التكاليف وهو أن هذا الرسول منكم، فكل ما يحصل له من العز والشرف في الدنيا فهو عائد إليكم، وأيضًا فإنه بحال يشق عليه ضرركم وتعظم رغبته في إيصال خير الدنيا والآخرة إليكم، فهو كالطبيب المشفق والأب الرحيم في حقكم، والطبيب المشفق ربما أقدم على علاجات صعبة يعسر تحملها، والأب الرحيم ربما أقدم على تأديبات شاقة، إلا أنه لما عرف أن الطبيب حاذق، وأن الأب مشفق صارت تلك المعالجات المؤلمة متحملة، وصارت تلك التأديبات جارية مجرى الإحسان، فكذا ههنا لما عرفتم أنه رسول حق من عند الله فاقبلوا منه هذه التكاليف الشاقة بكل خير، ثم قال للرسول عليه السلام: فإن لم يقبلوها بل أعرضوا عنها وتولوا فاتركهم ولا تلتف إليهم وعول على الله وارجع في جميع أموركم إلى الله ﴿فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ وهذه الخاتمة لهذه السورة جاءت في غاية الحسن والكمال .

... ثم ذكر تساؤلًا حول موقع الفاصلة، قال فيه: «لما قال: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾ فهذا النسق يوجب أن يقال: رءوف رحيم بالمؤمنين، فلم ترك هذا النسق وقال: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾؟ الجواب: أن قوله: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ يفيد الحصر بمعنى أنه لا رأفة ولا رحمة إلا بالمؤمنين، فأما الكافرون فليس له عليهم رأفة ورحمة، وهذا كالمتمم لقدر ما ورد في هذه السورة من التغليظ كأنه يقول: إني وإن بالغت في هذه السورة في التغليظ إلا أن ذلك التغليظ على الكافرين والمنافقين،

وأما رحمتي ورأفتي فمخصوصة بالمؤمنين فقط، فلهذه الدقيقة عدل على ذلك النسق^(١).

فالسورة لما كثر فيها الإلزام بتكاليف شاقة عسيرة على النفس جاءت الخاتمة ببيان عظيم ما أنعم الله عليهم بأن بعث فيهم رسولاً من أنفسهم، فكان هذا الاصطفاء ليس لشخصه ﷺ فحسب وإنما هو اصطفاء لكم وتشريف لكم أنتم فتقرير صدق نبوته ﷺ في سياق التكاليف السابقة يهيئ النفوس لتحمل مشقة تلك التكاليف؛ لأن معرفتهم بكونه رسولاً حقاً من عند الله موجب للقبول.

ثم عادت الفاصلة إلى مقاصد السورة لتستحضر أجواء التغليظ والترهيب وجاء ذلك بمسلك بياني هو التقديم المفيد للحرص في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا هَذِهِ السُّورَةَ﴾. فاكتملت بها معاني الوعيد في داخل السورة، ثم أفادت فائدة أخرى وهي دفع توهم أن يكون المنهج الرباني منهج قهر وعنت على أوليائه، وأن ما فيه من تأديبات وإلزامات، وإن كانت شاقة إلا أن فرضها رافة بهم ورحمة لهم، ف«صارت تلك المعالجات المؤلمة متحملة وصارت تلك التأديبات جارية مجرى الإحسان».



(١) "التفسير" ١٧٧/٦ - ١٧٩.

المبحث الثالث

التناسب بين الفواتيح والخواتيم

وهذا النوع من المناسبة العناية به أظهر في التراث النقدي والبلاغي، فقد صرحوا كثيرًا بضرورة الملاءمة والمؤامة بين أطراف الكلام صدرًا وعجزًا، وتحقيق التوازن في تفقد بناء جملي الأول والآخر فلا ينظر في إتقان جملة البدء وحسن انتظامها بمعزل عن حسن الانتظام في جملة الختام، بل مناط البلاغة هو التلاؤم بين الأول والآخر واشتباههما في الحسن والمزية لفظًا ومعنى ونسجًا، وأشار إلى ذلك الجاحظ في قوله: «ويكون تصفحه لمصادره في وزن تصفحه لموارده»^(١). ثم جاء نص ابن طباطبا لبيان نمط التصفح والتفقد فوجهه إلى «أن تكون القصيدة كلها كلمة واحدة في اشتباه أولها بآخرها نسجًا وحسنًا وفصاحة وجزالة ودقة معاني وصواب تأليف»^(٢).

أي الاستواء التام فلا تنبو عبارة في ألفاظها أو جرسها عن عبارة أخرى اقترنت بها أو ضمت إليها، فالكلمة النابية أو الجرس الأجش لا يعفي على حسن الجملة التي جرى فيها وإنما يتداعى أثرهما على ما تجاور معها من جمل فيطفئ إشعاعه الفصاحة المتوقدة في قلب الكلام، وإذا كان هذا على مستوى الكلمة فرعاية ذمام المعنى ومنعة جانبه بتحقيق التناسب والاشتباه مطلب بياني ملح يمنع من التناقض والاختلال في حركة العقل وينساب به في مسار واحد وإن تشعبت جوانبه، لذلك جعله الجاحظ من حقوق المعنى بل هو عنده من الأصول التي لا تغني الإصابة في غيرها من أبواب الصناعة عن الإصابة فيها، يقول: «ومن علم حق المعنى أن يكون الاسم له طبقًا وتلك الحال له وفقًا، ويكون الاسم له لا فاضلاً ولا مفصولًا، ولا مقصرًا، ولا مشتركًا، ولا مضمنًا، ويكون مع ذلك ذاكرًا لما عقد عليه أول كلامه»^(٣).

(١) «البيان والتبيين» ٩٣/١.

(٢) «عيار الشعر» ص ٢٢٣.

(٣) «البيان» ٩٣/١.

وتأمل عبارته «من علم حق المعنى» في أن جعل كل ما من شأنه أن يكسب الكلام صفة البلاغة راجع إلى رعاية حق المعنى، وقوله: «ويكون مع ذلك» يدل على أن ضبط هذا الباب فيه مشقة وعسر؛ لأن النفس قد تشغل عنه وتعنى بغيره ظناً أنه الأولى في الإبانة، فجاءت «مع ذلك» للتنبيه على أن الإحسان في كل ما سبق من مطابقة اللفظ للمعنى، وموافقته للحال وجميع الحقوق لا تغني عن رعايته، وكأنه باب بذاته، وبلاغة خاصة تداخل بلاغة الكلام، لها أصول وضوابط ودرجات ومنازل يتفاوت بها حظ كلام عن كلام.

فتذكر أول الكلام واستحضاره لا لذات التذكر وإنما للبناء عليه وتعليق المعاني التالية به، وهو في صميم قضية النظم، وأصل من أصوله التي فجر عبد القاهر نبعها الأول، وجعلها شريعة واضحة تسقي الدرس البلاغي ففصاحة الكلام «إنما تكون إذا ضم بعضها إلى بعض وكان يكون المراد بضم بعضها إلى بعض تعليق معانيها بعضها ببعض»^(١).

وأيضاً «ألا نظم في الكلم ولا ترتيب حتى يعلق بعضها ببعض، ويبني بعضها على بعض، وتجعل هذه بسبب من تلك»^(٢).

أي أن التشابه والتناسب أصل معتبر في فصاحة الكلام؛ لأن التعليق هو ملاحظة الوشائج والروابط المعنوية التي يحسن بها اقتران الكلمة بالكلمة وضمها إليها وجعل آخرها بسبب من أولها.

والتعليق بين الكلمات وما يتولد عنه من ألفة بين مفردات اللغة يتأدى بها مراد المتكلم مسلك تسهل رعايته في الجملة والجملة، ولكن الصعوبة في أن يظل المتكلم ممسكاً بأزمة المعاني رغم تنقلاتها وتوزع عناصرها وتفرق شعبها ثم يحكم سيطرته على المقاصد بتعليق جملة الختام برأس الكلام فيحكم بذلك معاهد المعاني، وبمقدار ذلك التعليق يتفاضل كلام على كلام وتعلو مكانته فيصل إلى حد الإعجاز مما ليس في منة بشر ولا يحيط به لسان ولا يضبطه تدبير.

(١) «دلائل الإعجاز» ص ٤٦٧.

(٢) السابق ص ٥٥.

فالإجمال في عبارة الجاحظ وخصوصية التعليق في نظرية النظم عند عبد القاهر كان حائلاً دون تشكيل وبلورة لنمط تعلق الآخر بالأول، لكن الإمام استطاع تفصيل مجملها بقدها بنظرية النظم، وتجاوز الخصوصية بالعودة إلى جذر النظم وهو التعليق وضم الكلام بعضه إلى بعض دون أن ينظر إليه باعتبار ما يتوخاه المتكلم من قواعد النحو لضم كلمة إلى كلمة أو جملة إلى جملة، وإنما نقلها إلى ما يتوخاه من أحوال ترجع إلى المعاني وما بينها من نسب توجب رد بعضها على بعض وعطف آخرها على أولها رغم بعد ما بينها من مسافة وكأن تضاريس الكلام وشعبه المتفرقة لا تحول دون حنين الشبيه إلى شبيهه ولا بين النسب وما يتسبب إليه، فكشف عن باب من الإعجاز حجه تناول العلاقة بين الجمل المحدودة في محيط الفصل والوصل أو اعتبار روابط محددة يجري عليها الترتيب ويتشكل وفقها التعليق، فالزنجشري حينما تنبه للضدية في ختام سورة المؤمنون في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٧] اكتفى بقوله: «جعل فاتحة السورة ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ١] وأورد في خاتمتها ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ فستان ما بين الفاتحة والخاتمة»^(١).

فقد استحضر معنى التضاد جملة الافتتاح في الذهن وأحال عليها دون أن يتبعه في كل سورة وإنما كان لفظة عرضت هده إلیها حسه البياني ودله عليها طول ملازمة لما بين الجمل من وجوه انتساب . ونقلها عنه الرازي دون أن يضيف إليها^(٢) . ولكنه أحسن حينما مدّ هذه اللفظة وجعلها من الوجوه التي يعول عليها في حسن البيان.

والدارس لمنهج الرازي في ردّ الخواتيم على الفواتيح يجد فيه عمقا في إدراك العناصر الغائبة بين الجملتين مع الوضوح في رؤيته حتى كأنه ممسك بجميع مكونات السورة وأغراضها يحركها تجاه غاية واحدة ويستقر بها عند ركيزة تجمع أعناق المعاني، وغالبًا ما يستشف إيمضات من لغة الختام يستضيء بها للكشف عن جوانب قد غشاها الغموض في

(١) "الكشاف" ٢٠٧/٣ .

(٢) "التفسير" ٣٠٠/٨ .

تنظيم وحدات السورة، فالإيحاءات المتولدة من العلاقة بين الخاتمة والفتحة تبرز إلى النور عمق المعنى وتلتقي عندها المعاني الجزئية فترأب ما تشعث وتعتد ما تفرق مما يكسب المعاني مزيداً من الثراء والتنظيم؛ لذلك كان تأخيرها ووضعها في نهاية السورة مع جريانها في محيط البدء لا يكون إلا لفائدة لا تحصل إلا بهذا الوضع وهي ما يندس في لغتها من مقاصد الوسط مما يجعلها بمثابة المراقبة التي يشرف منها المفسر على جميع مقاصد السورة، وهذا ما أكدته حازم بعده فجعل الخاتمة أجود ما في القصيدة وأدخل في المعنى الذي قصد له الشاعر في نظمها.^(١)

ويصدقه أيضاً ما ذكره أحد المبدعين المحدثين في رؤيته لنهاية القصيدة يقول رضا صافي: أنه لم «يكن يرى نهاية القصيدة إلا بعد الفراغ من مطالعها، فإذا تم له المطلع وضع هيكل القصيدة كلها فيشرف على خاتمتها من مكانه ذاك»^(٢).

وجميع ذلك يؤكد أن جملة الختام هي مخاض سياق الابتداء والوسط وأن فهم المقاصد بمعزل عنها فهم تنقصه الوحدة والتكامل؛ لأن المقصد الكلي يتشكل من خلال النسب المتعقدة بين الخاتمة والفتحة، مع تنظيمها لعناصر السورة وما اختلف فيها من أغراض، فتأتي الخاتمة لتصهر جميع المقاصد مما يحتاج إلى نظرة شمولية تتسع لتقصي جميع أجزاء الكلام وتحيط بأفاهه فتصبح على صغر مساحتها متشعبة توزع مساحات السورة في كلماتها المعدودة، لذلك غالباً ما يعيد الرازي هيكل السورة ويصف بناءها من خلال الخاتمة.

كما في ختام سورة «البقرة» قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الرَّسُولُ فَمَا أَنزَلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكَيْهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا تَفِرُّ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ * لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٥، ٢٨٦].

(١) "منهاج البلغاء" ص ١٧٨.

(٢) "الأسس النفسية للإبداع" مصطفى سوييف ص ٢٢٢.

قال فيها: «إنه بدأ في السورة بمدح المتقين: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَهُمْ يُنْفِقُونَ﴾. وبين في آخر السورة أن الذين مدحهم في أول السورة هم أمة محمد ﷺ فقال: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكَيْهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا تَفْرِقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾. وهذا هو المراد بقوله في أول السورة: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ ثم قال ههنا: ﴿وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ وهو المراد بقوله في أول السورة: ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ ثم قال ههنا: ﴿غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ وهو المراد بقوله في أول السورة: ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾. ثم حكى عنهم ههنا كيفية تضرعهم إلى ربهم في قوله: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ خِيسًا أَوْ آخِطَانًا﴾ إلى آخر السورة وهو المراد بقوله في أول السورة: ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾. فانظر كيف حصلت الموافقة بين أول السورة وآخرها»^(١).

فآخر بيان الموصوف بعد أن صدر الحديث بصفات مبهمة ثم بين أصناف الناس ومواقفهم من هذا الدين وفرع عليه التذكير بالميثاق وحال الأمم مع ما أنزل الله فمنهم من زاده هدى ومنهم من أعرض وكفر، ومنهم من نافق وأبطن، وقرر ذلك بقوله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَ تَهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ٢١٣].

وفرع عليه القصص في قصة آدم واستخلافه ثم خروجه من الجنة بعد الزلّة وتوثيق العهد بقوله تعالى: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨]. ثم أتبعها بقصة بني إسرائيل مع ما عهد إليهم ونقضهم لما واثقهم به، ثم بيان خيرية أمة محمد ﷺ التي هي واسطة عقد الأمم وجاء

التصريح به في قوله عز وجل: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]. بعد أن قال قبلها بآيات: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا هَذِهِ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زُجُجَ لَكُمُ الْكِتَابُ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الْبَيِّنَاتِ كُلَّهَا لَعَلَّكُمْ يَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٤١].

وآيات السورة تلح على هذا المعنى وجاءت الخاتمة لتؤكد وتبرزه بعد أن كان مبثوثاً في طيات معاني متنوعة يخفي تارة ويلوح وميضه من بين معاني هي منه بسبب، فلما صرح بالموصوف ألقى بينها وصوبها تجاه غاية واحدة ثم إن الأوصاف التي ذكرت ابتداء استرجعتها جملة الختام في صياغة أخرى تحمل عبقاً من معاني الوسط فانتشت عبارتها بمعنى الخيرية التي أقرها عز وجل لهذه الأمة ففضلها بالقرآن سبيل الهداية والمحجة الواضحة النائية عن الريب والشبهات .

وتارة تجده ينظم أغراض السورة بجمع عناصر من الخاتمة وعناصر من الفاتحة يكون التقاؤهما تعزيزاً لمعاني الوسط وتقوية لها . كما في خاتمة سورة النساء في قوله تعالى: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنْ أَمَرْتُكُمْ هَلْكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ إِنْ كَانَتْ أُنثَىٰ فَلَهَا النِّصْفُ مِنَ الْوَرَثِ بِمَا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلَّذَكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَىٰ بَيْنَ اللَّهِ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النساء: ١٧٦].

يقول: «اعلم أنه تعالى لما تكلم في أول السورة في أحكام الأموال ختم آخرها بذلك؛ ليكون الآخر مشاكلاً للآول ووسط السورة مشتمل على المناظرة مع الفرق المخالفين للدين، قال أهل العلم: إن الله تعالى أنزل في الكلاله آيتين إحداهما في الشتاء وهي التي أول هذه السورة، والأخرى في الصيف وهي هذه الآية ... واعلم أن في هذه السورة لطيفة عجيبة، وهي أن أولها مشتمل على بيان كمال قدرة الله تعالى فإنه قال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]. وهذا دال على سعة القدرة، وآخرها مشتمل على بيان كمال العلم وهو قوله: ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾. وهذان الوصفان هما اللذان بهما

ثبتت الربوبية والإلهية والجلال والعزة، وبها يجب على العبد أن يكون مطيعًا للأوامر والنواهي منقادًا لكل التكاليف^(١).

والرازي حينها قال: «ختم آخرها بذلك ليكون الآخر مشاكلًا للأول» نبه على أن المجانسة بين الجملتين أصل في الإبانة وأن مسار السورة وإن توزعته معاني يحور في الخاتمة إلى رأس الكلام مقررًا لمعانيه أو مشاكلًا له، وإن كان هذا الارتداد لا يقطع الوشائج والروابط مع الأغراض داخل السورة وإنما يمتد بطرف إلى معاني الوسط؛ ليدل عليها ويقرر أصولها ويكشف هذا التحليل عن نمط من البيان تتوزعه عناصر تفرق في جملة البدء والختام، ويكون في التقائهما تلخيص لما دارت عليه السورة من معاني، وتنظيم لما تفرق فيها من أغراض، فالسورة تسودها الدلالة على أحكام الأموال والوسط تعرض للرد على شبهات الطاعنين ومناظرة الفرق المخالفة للدين، فجاءت الخاتمة والفاصلة بوصفين نظمًا ما تفرق فيها من أغراض، وذلك بإثبات القدرة ابتداء في قوله: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾. ثم إثبات كمال علمه جل سلطانه بقوله ختامًا ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ وهذان الوصفان دعامتان ارتكزت عليهما مقاصد السورة وألغا بين مختلف المعاني ووحدا أجواء السورة فبها تدفع شبهات الطاعنين والمخالفين بتقرير ربوبيته وألوهيته، وبها أيضًا ينقاد المكلف لما جاء فيها من أحكام وتكاليف فالوصفان يغذيان جميع معاني السورة ويصبان في أغراضها.

وهذه الطريقة من التفسير تبرز للناسخ السورة جملة واحدة وتريه الأغراض المختلفة والأفانين المتنوعة على تباعد أمكنتها قد التقت حلقاتها وجمعت له أطرافها حتى يراها في مكان واحد وصل فيه آخرها بأولها.

ونقل عنه البقاعي ما انتظم بين الوصفين من معاني وزاد عليه رعاية موقع الآية وتأخيرها عن نظائرها في السورة ووضعها ختامًا للسورة؛ ليناسب أولها في شأن الفرائض؛ لأن «تفريق القول فيها تأباه النفوس وإلقاءه شيئًا فشيئًا باللفظ والتدريج أدعى لقبوله، وللإشارة إلى شدة الاهتمام بأمر الفرائض بجعل الكلام فيها في جميع السورة، أولها أو أثنائها

(١) "التفسير" ٢٧٥/٤.

وآخرها، والتخويف من أن يكون حالهم كحال المنافقين ومن هنا ظهرت مناسبة آخر هذه السورة لأولها؛ لأن أولها مشير إلى أن الناس كلهم كشيء واحد، ... وآخرها مشير إلى ذلك بالتسوية بين النساء والرجال في مطلق التوريث بقرب الأرحام وإن اختلفت الأنصاء^(١).

واستصحاب الخاتمة لمعاني الافتتاح قد يكون جلياً وذلك بتكرار عناصر جرت ابتداء فتحيل إلى مظانها وتعيد سياقها إلى الذهن، وكثيراً ما تكون تلك العناصر المسترجعة هي صفوة معانيها وقطب مدارها، وفائدة ذلك أن تراكم السياقات عند معنى محدد ينمي دلالة ويضيف إليه. كما جاء في ختام سورة «الزخرف» في قوله: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [الزخرف: ٨٧] استصحبته من جملة الافتتاح حيث ذكره ابتداء بقوله تعالى: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ [الزخرف: ٩].

قال فيها: «اعلم أنه تعالى ذكر هذا الكلام في أول هذه السورة وآخرها والمقصود التنبيه على أنهم لما اعتقدوا أن خالق العالم وخالق الحيوانات هو الله تعالى فكيف أقدموا مع هذا الاعتقاد على عبادة أجسام خسيسة وأصنام خيثة لا تضر ولا تنفع بل هي جمادات محضة»^(٢).

والأولى جاءت في سياق مشرقي قريش والأخيرة في سياق الرد على النصارى ولو انفرد واحد منهم بالتعبير لكان مؤدياً للغرض، ولكن اجتماعهما أضاف إلى الأول التعجيب من حالهم، وأيضاً التقاء حلقتي الكلام مع اختلاف سياقهما دل على أن منهج الضلالة وإن تنوع في طرائقه إلا أنه يتخذ مساراً واحداً هو الإسراف والصدّ عن الدلائل رغم استنارتها في عقولهم وقرارها في أعماق فطرتهم فالنصارى مقرون بكمال قدرته وعلمه «ومن كان كاملاً في الذات والعلم والقدرة ... امتنع أن يكون ولده في العجز وعدم الوقوف على أحوال العالم بالحد الذي وصفه النصارى»^(٣).

فلما رد آخر الكلام على أوله أفاد تسلياً قلب النبي ﷺ وأن هذا سنن من كان قبلهم.

(١) "نظم الدرر" ٣٨٢/٢.

(٢) "التفسير" ٦٤٩/٩.

(٣) "التفسير" ٦٤٩/٩.

وكذلك ختام سورة «القلم» استرجع المعنى لزيادة بيان ما ذكره ابتداء ف «قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾ [القلم: ٥١] وهو على ما افتتح به السورة ﴿وَمَا هُوَ﴾ أي وما هذا القرآن الذي يزعمون أنه دلالة جنونه ﴿وَلَا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ فإنه تذكير لهم، وبيان لهم وأدلة لهم، وتنبية لهم على ما في عقولهم من أدلة التوحيد، وفيه من الآداب والحكم وسائر العلوم ما لا حد له ولا حصر، فكيف يدعي من يتلوه مجنوناً ونظيره مما يذكرون، مع أنه من أدل الأمور على كمال الفضل والعقل»^(١).

بينما عدها البقاعي استحضاراً لمعاني الافتتاح في إزالة ما وصف به ﷺ من أن ما يقوله من تخاليط من يصرع بالجن، وتأكيد ما جرى في أولها من القسم على كونه على خلق وذكر عظيم بقصر القلب ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾^(٢).

وهذا النوع تدلك فيه المعاني على نفسها ولا تحتاج إلى طول تأمل وإنعام فكرة بينما نجد نوعاً آخر نبه فيه الرازي على أن المكونات أو العناصر الدلالية لا ترد بصيغتها الأولى التي كانت عليها في الافتتاح وإنما يداخلها تغيرات تعتري الدلالة من بعد جريانها وامتدادها في السياق، فحينما تستقر في الخاتمة تتغير صورتها نسبياً وتتخذ ملامح وشيآت سياقها الذي احتواها ونمى أصلها وفطرتها الأولى وذلك في تحليله لختام سورة «الواقعة» ما طرأ على الصفات التي جاءت ابتداء من تغيرات حينما جيء بها ختاماً ف «ذكر الأزواج الثلاثة في أول السورة بعبارة وأعادهم بعبارة أخرى فقال: ﴿فَأَصْحَبُ الْعِجْنَةِ﴾ [الواقعة: ٨]. ثم قال: ﴿وَأَصْحَبُ الْيَمِينِ﴾ [الواقعة: ٢٧]. وقال: ﴿وَأَصْحَبُ الشِّمَةِ﴾ [الواقعة: ٩]. ثم قال: ﴿وَأَصْحَبُ الشِّمَالِ﴾ [الواقعة: ٤١]. وأعادهم ههنا، وفي المواضع الثلاثة ذكر أصحاب اليمين بلفظ واحد وبلفظين مرتين، أحدهما غير الآخر، وذكر السابقين في أول السورة بلفظ السابقين، وفي آخر السورة بلفظ «المقرين»، وذكر أصحاب النار في الأول بلفظ «أصحاب المشأمة» ثم بلفظ «أصحاب الشمال» ثم بلفظ «المكذبين» فما الحكمة فيه؟ نقول: أما السابق فله

(١) "التفسير" ٦١٩/١٠، وينظر أيضاً: ١٩٧/١٠.

(٢) "نظم الدرر" ١١٨/٨.

حالتان: إحداهما في الأولى، والأخرى في الآخرة فذكره في المرة الأولى بما له في الحالة الأولى، وفي الثانية بما له في الحالة الآخرة، وليس له حال هي واسطة بين الوقوف للعرض وبين الحساب، بل هو ينقل من الدنيا إلى أعلى عليين ثم ذكر أصحاب اليمين بلفظين متقاربين؛ لأن حالهم قريبة من حال السابقين، وذكر الكفار بألفاظ ثلاثة كأنهم في الدنيا ضحكوا عليهم، بأنهم أصحاب موضع شؤم، فوصفهم بموضع الشؤم، فإن المشأمة مفعلة وهي الموضع، ثم قال: ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ﴾ فإنهم في الآخرة يؤتون كتابهم بشمالهم، ويقفون في موضع هو شمال، لأجل كونهم من أهل النار، ثم إنه تعالى لما ذكر حالهم في أول الحشر بكونهم من أصحاب الشمال ذكر ما يكون لهم من السموم والحميم ثم لم يقتصر عليه، ثم ذكر السبب فيه، فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ * وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٤٥، ٤٦]. فذكر سبب العقاب لما بينا مراراً أن العادل يذكر للعقاب سبباً، والمتفضل لا يذكر للإنعام والتفضل سبباً، فذكرهم في الآخرة ما عملوه في الدنيا، فقال ﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكْذِبِينَ﴾ [الواقعة: ٩٢] ليكون ترتيب العقاب على تكذيب الكتاب فظهر العدل وغير ذلك ظاهر^(١).

فاستدل على أطوار حال الأصناف الثلاثة بتنقلات الصيغة فذكر الكفار تنقل في ثلاث صيغ فنبه ذلك على درجاتهم وأحوالهم في الدنيا ثم أول الحشر ثم منزلتهم في الدار الآخرة ولما التزم في صفة السابقين وأصحاب اليمين بحالتين دل على ما ينالونه من كرامة وقرب منزلة فينقلون من الدنيا إلى أعلى عليين فليس لهم حال واسطة بين الوقوف للعرض وبين الحساب.

ونوع آخر لا تستصحب فيه عناصر لغوية لربط آخر الكلام بأوله وإنما بالبناء والترتيب عليه فيستثير خباياها ويبرز مكوناتها؛ لأن الجملة «يصير معناها بالبناء عليها شيئاً غير الذي كان، وأنه يتغير في ذاته».

فبناء الخاتمة على جملة الافتتاح لا تقتصر وظيفتها على ترجيع المعاني وإنما يحدث تغيرات وتحويرات في الفاتحة توجه معانيها وتنبه على أسرار ومزايا زائدة على الأصول المتفرعة عنها،

ثمة تفاعل بين عناصر السورة ووحداتها المختلفة مناطة إحكام النسب فيما بين المعاني؛ لأن العلاقة إذا كانت صحيحة وقوية تيسر معه استعادة الذهن للنظائر والمثالات داخل السورة وتميز وجه انتساب بعضها إلى بعض.

وهذا النوع تدق فيه العلاقة وتلطف ويلزمك معرفتها ألا تقصر النظر على ما ظهر من المعاني ودعا إلى نفسه دون ما كمن وأن ترود بوارق شامت خلف لغتها فتتبع ما شابه من معانيها وتناسج في خاتمها من فاتحتها وحتى تتأمل أطراف هذه الآيات فتعرف انتساب بعضها إلى بعض، واتصال آخرها بأولها مع افتنان مذهبها وتباعد موقعها.

والعلاقات بين معاني الجمل مما لا يمكن حصره ولكن نعتمد في تصنيفها على ما ذكره الرازي من توجيهات للنسب بين المعاني وطرائق رده آخرها على أولها . وتتلخص في الأوجه التالية:

أولاً: ما كانت فيه الخاتمة مقابلة لمعاني الافتتاح وجاء ذلك في سورة الفاتحة فقد كان «أول السورة مشتمل على الحمد والثناء عليه والمدح له، وآخرها مشتمل على الذم للمعرضين عن الإيمان به والإقرار بطاعته، وذلك يدل على أن مطلع الخيرات وعنوان السعادات هو الإقبال على الله تعالى، ومطلع الآفات ورأس المخافات هو الإعراض عن الله تعالى والبعد عن طاعته والاجتناب عن خدمته»^(١).

فدلالة أن مطلع الخيرات هو الإقبال على الله تعالى كانت غائبة في صدر «الفاتحة» لم يجليها إلا رد ما آل إليه أهل الضلالة من مصير نتيجة الإعراض عن الله تعالى ومجانبة الطاعة على الابتداء الذي تعلوه الطمأنينة والرضى التام المتولد من الحمد لله ثم ترتيب الإقرار بربوبيته وألوهيته على صفات الله في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾. وقد هيأت جميع هذه الخصوصيات لإجراء المقابلة بين عجز الكلام وصدوره، وكانت بمثابة قرينة محقة للتناسب بين الجملتين.

(١) "التفسير" ٢٣/١.

ويلاحظ في تحليل الإمام تصوره الكلي لمعاني السورة، فلم يفسر الخاتمة باعتبارها قفلاً للمعاني، وإنما جعلها جزءاً من بناء معاني الافتتاح، وكان معنى الضدية معنى معتبر في دلالة الصدر لا يكتمل بيانه إلا بتعليقه به ورده إليه.

ثانياً: التأكيد: وهو أن تكون معاني الخاتمة مطابقة في مغزاها لمعاني الفاتحة فتواطىء الدلالة الدالة فتقويها وعليه أكثر سور القرآن، ومن ذلك ما ذكره في تفسيره لخاتمة سورة «الدخان»: «اعلم أنه تعالى لما ذكر الوعيد في الآيات المتقدمة ذكر الوعد في هذه الآيات فقال: ﴿إِنَّ الْمُنَاقِبِينَ﴾... ثم قال تعالى: ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [الدخان: ٥٧]. ولما بين الله تعالى الدلائل وشرح الوعد والوعيد قال: ﴿فَإِنَّمَا يَسْتَرْزِقُهُ بِلسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الدخان: ٥٨]. والمعنى أنه تعالى وصف القرآن في أول السورة بكونه كتاباً مبيناً أي كثير البيان والفائدة وذكر في خاتمتها ما يؤكد ذلك فقال: إن ذلك الكتاب المبين الكثير الفائدة إنما يسرناه بلسانك أي إنما أنزلناه عربياً بلغتك لعلهم يتذكرون»^(١).

وفي سورة «القيامة» تسترجع الخاتمة مقاصد البدء وتؤكد بها البناء عليها وتقويتها بالاستدلال يقول في قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦]: «واعلم أنه تعالى لما ذكر في أول السورة قوله: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ أعاد في آخر السورة ذلك، وذكر في صحة البعث والقيامة دليلين. الأول: قوله: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾... الدليل الثاني: الاستدلال بالخلقة الأولى على الإعادة، وهو المراد من قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ بِكَ نُفُوسًا مِمَّنْ مَتَّيْئَتٍ﴾ [القيامة: ٣٧]»^(٢).

وأحياناً نجده ينص على أن جملة الخاتمة لا تكفي وحدها في التعليق بالافتتاح وإنما إحكام المناسبة بينهما تكون بملاحظة بعض عناصر الأغراض السابقة لها فيتولد من بينها وشائج تحقق النسبة وتؤكد بها كما في ختام سورة «الحجرات» في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الحجرات: ١٨].

(١) "التفسير" ٩/ ٦٦٥ - ٦٦٧.

(٢) "التفسير" ١٠/ ٧٣٧.

ففيه «إشارة إلى أنه لا يخفى عليه أسراركم وأعمال قلوبكم الخفية، وقال: ﴿بَصِيرٌ يَمَا تَعْمَلُونَ﴾ يَبْصُرُ أَعْمَالَ جَوَارِحِكُمُ الظاهرة، وآخر السورة مع الثامنة بها قبله فيه تقرير ما في أول السورة وهو قوله تعالى: ﴿لَأنَّهُ مُوَابِّئٌ بِدَيِّ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْقَا اللَّهُ﴾ [الحجرات: ١] فإنه لا يخفى عليه سر فلا تتركوا خوفه في السر، ولا يخفى عليه علن فلا تأمنوه في العلانية»^(١).

فقوله تعالى: ﴿قُلْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٦]. وانتظامها مع قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ غزيا جملة المطلع وأكد الأمر بالتقوى والتخويف من إضمار النفاق؛ لأنه بصير بما تعملون.

ثالثاً: التفصيل: وهذا النوع تكون فيه الفاتحة مكتترة لمعانٍ مجملة فتأتي الخاتمة لتستل منها ودائع فنيها وتستقصيها كما في سورة الكهف في قوله: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ نَنْفَذَ كَلِمَاتِ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١٠٩، ١١٠].

يقول فيها: «اعلم أنه تعالى لما بين كمال كلام الله أمر محمداً ﷺ بأن يسلك طريقة التواضع فقال: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ﴾ أي لا امتياز بيني وبينكم في شيء من الصفات إلا أن الله تعالى أوحى إلي أنه لا إله إلا الله الواحد الصمد»^(٢).

فالخاتمة حركت المعاني المجملة في الافتتاح ووجهتها نحو التفصيل فنبهت على كمال حال القرآن وعلو مكانته، وحققت معنى العبودية الذي كان هامساً في قوله: ﴿أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ﴾ [الكهف: ١] فمطلت دلالته وبينت أنه يجب عليه أن يسلك طريق التواضع؛ لأن اختصاصه من بين الناس بالنبوة واصطفاءه بتلقي كلام الله لا بموجب امتياز في شيء من الصفات البشرية.

(١) "التفسير" ١١٨/١٠.

(٢) "التفسير" ٥٠٣/٧.

وكذلك سورة «الإسراء» ختمت ببيان الكيفية في التكليف المجمل في بدء السورة في قوله: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ [الإسراء: ١]. ثم جاءت الخاتمة لتفصيله «فقال: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِّ وَكَبِيرٌ﴾ [الإسراء: ١١١]. فذكر ههنا من صفات التنزيه والجلال وهي السلوب ثلاثة أنواع من الصفات: النوع الأول: من الصفات أنه لم يتخذ ولداً ... والنوع الثاني: من الصفات السلبية قوله: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾. والسبب في اعتبار هذه الصفة أنه لو كان له شريك فحينئذ لا يعرف كونه مستحقاً للحمد والشكر، والنوع الثالث: قوله: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِّ﴾ والسبب في اعتبار هذه الصفة أنه لو جاز عليه ولي من الذل لم يجب شكره لتجويز أن غيره حمله على ذلك الإنعام، أو منعه منه، أما إذا كان منزهاً عن الولد وعن الشريك، وكان منزهاً عن أن يكون له ولي يلي أمره كان مستوجباً لأعظم أنواع الحمد ومستحقاً لأجل أقسام الشكر»^(١).

وفي سورة «ق» ينبه على أن آخرها تفصيل وبيان للغرض الرئيسي الذي عليه مدارها وهو الحشر في قوله: ﴿أَوَدَا مِنَّا وَكُنَّا نَرَاهُ ذَٰلِكَ رَجْعًا بَعِيدٌ﴾ [ق: ٣]. فكان قوله: ﴿يَوْمَ تَشَقُّ الْأَرْضُ﴾ [ق: ٤٤]. بيانا لإمكان وقوعه ويسر ذلك لكمال قدرته ونفوذ مشيئته وألح إلى هذا بقوله: «ولما كان افتتاح هذه لبيان الحشر قال في آخرها ﴿يَوْمَ تَشَقُّ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا﴾»^(٢).

وأيضاً هناك خصوصيات بيانية أحكمت الربط ويسرت إحالة الذهن إلى المطلع فمخالفة التعبير ونقض تساؤلهم المستنكر لإمكان الرجعة بعد الموت وتحلل الجسد وتفرقه أجزاء بالتقرير الهادئ دون عناصر مؤكدة نبه على ضلالتهم وعميتهم عن حقيقة أطبق الكون على التصديق بها؛ لظهور دلائلها، ثم دفع قولهم: ﴿ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ [ق: ٣] بأسلوب مقابل في ﴿ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ [ق: ٤٤]. فهم استبعدوا الرجعة والإعادة فأثبت عز ووجل ما هو أبعد من ذلك وهو الحشر؛ لأنه يشمل الرجعة وغيرها من مواقف العرض.

(١) «التفسير» ٤٢٠، ٤١٩/٧.

(٢) «السابق» ١١٩/١٠.

وهناك تفصيل باعتبار السببية كما في سورة «يوسف» عليه في قوله: ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١].

يقول: «إنه ذكر في أول السورة ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ [يوسف: ٣]. ثم ذكر في آخرها ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١] تنبيها على أن حسن هذه القصة إنما كان بسبب أنه يحصل منها العبرة ومعرفة الحكمة والقدرة»^(١).

رابعاً: تكميل المعاني: وفي هذا النوع نجد الخاتمة تربو بمعاني المطلع وتنميتها، فيتدرج المعنى بسيطاً ويرتقى إلى أعلى مدارجه كما في سورة «المائدة» في قوله: ﴿يَلِلَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ١٢٠].

فـ «مفتتح السورة كان بذكر العهد المنعقد بين الربوبية والعبودية فقال: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١]. وكما حال المؤمن في أن يشرع في العبودية وينتهي إلى الفناء المحض عن نفسه بالكلية فالأول هو الشريعة وهو البداية والآخر هو الحقيقة وهو النهاية، فمفتتح السورة من الشريعة ومختتمها بذكر كبرياء الله وجلاله وعزته وقدرته وعلوه، وذلك هو الوصول إلى مقام الحقيقة فما أحسن المناسبة بين ذلك المفتتح وهذا المختتم»^(٢).

فالخاتمة تصوير لقصة ذلك العهد المنعقد بين الإنسان وربه وتصور مجاهدته وصراعه من أجل البقاء على ما عاهد الله عليه ثم ترقيه في منازل التكليف ومراتبه إلى أن يصل إلى ذروة سنامه وهو اليقين والحقيقة.

فيبدأ أمره بالانقياد والوفاء بحق العبودية وينتهي إلى المعرفة بالله الواحد في قوله: ﴿إِلَّا مَا يَتْلُو عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: ١] وشيجه ناظمة لطرفي الكلام فالخاتمة تقرير لها؛ لأن الوقوف عندما أحل الله وحرمه يثول إلى أن كل ما في السماوات والأرض لله تعالى في قبضته ومسير بأمره واقتداره.

(١) "التفسير" ٥٢٢/٦.

(٢) "التفسير" ٤٦٩/٤.

وأحياناً لا يصرح بالمناسبة بين الخاتمة والفتحة وإنما يتبين ذلك من تشابه العرض واستحضار السياق ذاته في تدوير معاني الخاتمة وأغراضها، ففتحة «الأعراف» يجعل مدارها على تقرير أمر الرسالة وذلك «يتم بالمرسل وهو الله ﷻ، والمرسل وهو الرسول، والمرسل إليه وهو الأمة، فلما أمر في الآية الرسول بالتبليغ والإنذار مع قلب قوي وعزم صحيح أمر المرسل إليه وهم الأمة بمتابعة الرسول فقال: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ٢٣]»^(١).

فجاءت الخاتمة لتقرير ذلك وتفصيله فقال: ﴿إِنَّ وَلِيََّ اللَّهِ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٦] ف«بين بهذه الآية أن الواجب على كل عاقل عبادة الله؛ لأنه هو الذي يتولى تحصيل منافع الدين والدنيا، أما تحصيل منافع الدين فبسبب إنزال الكتاب، وتحصيل منافع الدنيا فهو المراد بقوله ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾»^(٢). وهذا في المرسل.

وقوله: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ * وَإِنَّمَا يَنزَغُكُمُ الشَّيْطَانُ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ [الأعراف: ١٩٩، ٢٠٠]. بيان للمنهج القويم والصراط المستقيم في معاملة الناس^(٣). وهذا في أمر المرسل وهو الرسول -عليه الصلاة والسلام-. ثم جاء قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ * وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّوهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يَقْصِرُونَ * وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَإُيْرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهَدَىٰ وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾

[الأعراف: ٢٠١-٢٠٤]

في أمر المرسل إليهم يقول فيها: «لما بين في الآية الأولى أن شياطين الجن والإنس لا يقصرون في الإغواء والإضلال بين في هذه الآية نوعاً من أنواع الإغواء وهو أنهم كانوا يطلبون آيات معينة ومعجزات مخصوصة على سبيل التعنت»^(٤).

(١) "التفسير" ١٩٦/٥.

(٢) "التفسير" ٤٣٣/٥.

(٣) "التفسير" ٤٣٤/٥.

(٤) "التفسير" ٤٣٨/٥.

ثم عاد الخطاب للرسول بالمبالغة في إلزامه بأمر الدعوة فجاء قوله: ﴿وَأَذْكُرْ بِكَ فِي نَفْسِكَ نَضْرَعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ * إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥، ٢٠٦] فكانت هذه الآية جارية مجرى أمر الله محمدًا بأن يقرأ القرآن على القوم بصوت عالٍ رفيع، وإنما أمره بذلك؛ ليحصل المقصود من تبليغ الوحي والرسالة، ثم ... ذكر عقبيه ما يقوي دواعيه في ذلك، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ﴾^(١).

ويحكم البقاعي رد آخر السورة على أولها بتتبع عناصر الآية وجزئياتها في جملة المطلع وذلك برجوع الآخر ومعاضدته للأول في الأمر باتباع القرآن ومقابلة وصف المقربين بالخضوع وعدم الاستكبار لما جاء في بدئها من عصيان إبليس ونفوره عن السجود.^(٢)



(١) "التفسير" ٤٣٨/٥.

(٢) "نظم الدرر" ١٨٠/٣.

الفصل الثاني

التناسب بين الآيات

الفصل الثاني

التناسب بين الآيات

ويعد هذا الباب من أوسع الأبواب وأدقها: أما سعته فجاءت من تتبع الإمام لوجه المناسبة بين الآية والآية سواء كانت واضحة جلية أم دقيقة خفية فينص على موقع كل آية من سابقتها، أما دقته فأتت من أن الموقع يتشرب دلالات متعددة تجعل رده إلى أكثر من آية ممكنًا ولا يكون اختصاصه بما قبله أولى من غيره، وهو بهذا يصور ما تحت اللغة من غزارة معانٍ لا يكشف عنها إلا تتبع نبع العلاقات بين مواقع الآيات، والكشف عن الروابط المعنوية المنظمة لمنازل الآيات ووجه انتساب بعضها إلى بعض.

وهذا لا يعني تجاهله للروابط اللفظية، وإنما يشير إليها كثيرًا من خلال اعتبار الضمائر والتكرار والعطف وغيرها، لكنه لا يبحث فيما وراء نظم الآيتين من تناسب وتألف؛ لأن مجيء الروابط اللفظية إيدان باتصال المعنى، وأما المناسبات بحث فيما بين ما تجاور واقترن معنى وإن تصور في اللفظ صورة المنقطع؛ لذلك لم يشر إلى أحوال الائتلاف بين ما كان ارتباطه باعتبار من الألفاظ، كما في قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ [الطور: ١١].

يقول: «فالفاء لاتصال المعنى، وهو الإيدان بأمان أهل الإيمان، وذلك لأنه لما قال: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾ لم يبين بأن موقعه بمن، فلما قال: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ [الطور: ١٧]. علم المخصوص به وهو المكذب»^(١).

وكذلك قوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ [الشورى: ١٧]. ف«كلمة ذلك للإشارة إلى شيء سبق ذكره.. يقتضي تشبيه وحي الله بالقرآن بشيء... وليس هاهنا شيء سبق ذكره يمكن تشبيه وحي القرآن به إلا قوله: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيفٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ [الشورى: ١٦]. يعنى كما أوحينا إليك أنك لست حفيظًا عليهم ولست وكيلًا عليهم، فكذلك أوحينا إليك قرآنًا عربيًا لتكون نذيرًا لهم»^(٢).

وتدخله في تحليل ما وراء الروابط اللفظية من مناسبة لا يظهر إلا فيها خفيت مجانسته لما

(١) "التفسير" ٢٠٣/١٠.

(٢) السابق ٥٨٠/٩.

فله في بيانه وجه المناسبة بين قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [المؤمنون: ١٧٨]. وما قبلها: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَنْضَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١٧٦]. يقول فيها: «والسؤال الثالث: العطف لا يحسن إلا مع المجانسة فأي مناسبة بين قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ﴾ وبين ما قبلها؟

الجواب: كأنه سبحانه لما بين مبالغة أولئك الكفار في الإعراض عن سماع الأدلة ورؤية العبر والتأمل في الحقائق قال للمؤمنين: وهو الذي أعطاكم هذه الأشياء، ووقفكم عليها، تنبيهًا على أن من لم يستعمل هذه الأعضاء فيما خلقت له فهو بمنزلة عادمها... تنبيهًا على أن حرمان أولئك الكفار ووجدان هؤلاء المؤمنين ليس إلا من الله»^(١).

وهذا ضبط محكم لمجال المناسبات وعملها في الكلام؛ لأنها علم يجرز بالعقول وليس سبيل دركه الألفاظ، وبذلك احترز الإمام عن ما وقع فيه المتأخرون من خلط علم المناسبات بالروابط اللفظية كما فعل الزركشي.^(٢)

والترتيب عنده من أقوى القرائن الدالة على مراد المتكلم، فأسباب النزول من القرائن القاطعة بالدلالة إلا أنها إذا تعارضت مع الترتيب قدم عليها المعنى المفاد من سياق الكلام، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦].

فردًا ما عليه الجمهور: من أنها جاءت في النبي ﷺ لما رأى حمزة وقد مثلوا به فقال: «والله لأمثلن بسبعين منهم». وبني عليه مجاهد والنخعي وابن سيرين معنى وهو أن المقصود منها نهي المظلوم عن استيفاء الزيادة من الظالم - فرد ذلك وأجراها في محيط ما قبلها من المعاني فـ «حل هذه الآية على قصة لا تعلق لها بما قبلها يوجب حصول سوء الترتيب في كلام الله تعالى، وذلك يطرق الطعن إليه وهو في غاية البعد، بل الأصوب عندي أن يقال: المراد أنه تعالى أمر

(١) "التفسير الكبير" ٢٨٩/٨.

(٢) "البرهان" ٧٤/١.

محمدًا ﷺ أن يدعو الخلق إلى الدين الحق بأحد الطرق الثلاثة: وهي الحكمة، والموعظة الحسنة، والجدال بالطريق الأحسن، ثم إن تلك الدعوة تتضمن أمرهم بالرجوع عن دين آبائهم وأسلافهم وبالإعراض عنه والحكم عليه بالكفر والضلالة وذلك مما يشوش القلوب ويوحش الصدور. ويحمل أكثر المستمعين على قصد ذلك الداعي بالقتل تارة، وبالضرب ثانيًا، وبالشتيم ثالثًا، ثم إن ذلك المحق إذا شاهد تلك السفاهات، وسمع تلك المشاغبات لا بد وأن يحمله طبعه على تأديب أولئك السفهاء تارة بالقتل، وتارة بالضرب، فعند هذا أمر المحققين في هذا المقام برعاية العدل والإنصاف وترك الزيادة، فهذا هو الوجه الصحيح الذي يجب حل الآية عليه.

فإن قيل: فهل تقدحون فيما روي أنه ﷺ ترك العزم على المثلة وكفر عن يمينه بسبب هذه الآية؟ قلنا: لا حاجة إلى القدح في تلك الرواية؛ لأننا نقول: تلك الواقعة داخلة في عموم هذه الآية، فيمكن التمسك في تلك الواقعة بعموم هذه الآية، إنما الذي يتنازع فيه أنه لا يجوز قصر هذه الآية على هذه الواقعة؛ لأن ذلك يوجب سوء الترتيب في كلام الله^(١).

فالسبب قيد الدلالة وحال دون انتظام المعنى، فحملها على ما قبلها وما بعدها؛ لتتأخي عناصر النظم وتلتئم أجزاء الكلام.

وردة الآية على ما قبلها له ضوابط تصحح العطف وتحسنه، وليس الرد كيفما اتفق بل على بصيرة وهدى من المعنى، ويصور ذلك تفسيره لقوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِيْ أَعْيُنِهِمْ أَغْشَاءً فَهُمْ إِلَىٰ آذَانٍ قُمْحًا ۖ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [إس: ١٨].

يقول فيها: «لما بين أنهم لا يؤمنون بين أن ذلك من الله فقال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا﴾ وفيه وجوه: أحدها: أن المراد أنا جعلناهم ممسكين لا ينفقون في سبيل الله كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ [الأنعام: ١٢٩]، والثاني: أن الآية نزلت في أبي جهل وصاحبيه المخزوميين حيث حلف أبو جهل أنه يرضخ رأس محمد، فرآه ساجدًا فأخذ صخرة ورفعها؛ ليرسلها على رأسه فالتزقت بيده ويده بعنقه.

(١) "التفسير الكبير" ٧/ ٢٨٨، ٢٨٩.

والثالث: وهو الأقوى وأشد مناسبة لما تقدم وهو أن ذلك كناية عن منع الله إياهم عن الاهتداء، وفيه مسائل: المسألة الأولى: هل للوجهين الأولين مناسبة مع ما تقدم من الكلام؟ نقول الوجه الأول: له مناسبة وهي أن قوله تعالى: ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ إيس: ١٧. يدخل فيه أنهم لا يصلون كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ البقرة: ١٤٣. أي صلاتكم عند بعض المفسرين والزكاة مناسبة للصلاة على ما بينا فكأنه قال: لا يصلون ولا يزكون. وأما على الوجه الثاني فمناسبة خفية وهي أنه لما قال: ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ﴾ إيس: ١٧. وذكرنا أن المراد به البرهان قال بعد ذلك: بل عاينوا وأبصروا ما يقرب من الضرورة حيث التزقت يده بعنقه ومنع من إرسال الحجر وهو يضطر إلى الإيمان ولم يؤمن علم أنه لا يؤمن أصلاً. والتفسير هو الوجه الثالث^(١).

فالآية يصح عطفها على جملتين من مقاطع الآية السابقة لها، فالعطف على قوله: ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ إيس: ١٧. يقوي دلالة عدم الإنفاق في سبيل الله، وقوله: ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ﴾ إيس: ١٧. يقوي دلالة سبب النزول وهو البرهان المؤيد لصحة نبوته عليه السلام. والأقوى عنده أنها تفصيل وبيان لمضمون الآية السابقة أي القول الذي حق عليهم وهو منع الله إياهم عن الاهتداء.

وتارة يقتضي أثر السياقات السابقة ويحكم العلاقة بينها من خلال اللغة واختيار التراكيب، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ إيس: ١٤٥ ذكر في وجه تعلق الآية بها قبلها هو أن الله تعالى لما عدد الآيات بقوله: ﴿وَأَيَّةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ﴾ إيس: ١٣٣. ﴿وَأَيَّةٌ لَهُمُ الْبَلَدُ﴾ إيس: ١٣٧. ﴿وَأَيَّةٌ لَهُمُ أَنْأَحْمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ إيس: ١٤١ وكانت الآيات تفيد اليقين وتوجب القطع بها قال تعالى ولم تفدهم اليقين، قال: فلا أقل من أن يحترزوا عن العذاب فإن من أخبر بوقوع عذاب يتقيه، وإن لم يقطع بصدق قول المخبر احتياطاً، فقال تعالى: إذا ذكر لهم الدليل القاطع لا يعترفون به، وإذا قيل لهم: اتقوا لا يتقون فهم في غاية الجهل ونهاية الغفلة لا مثل العلماء الذين يتبعون البرهان، ولا مثل

(١) "التفسير الكبير" ٩/ ٢٥٤.

العامّة الذين يبنون الأمر على الأحوط، ويدل على ما ذكرنا قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَرْحَمُونَ﴾ بحرف التمني أي في ظنكم فإن من يخفى عليه وجه البرهان لا يترك طريقة الاحتراز والاحتياط^(١).

فجاءت بالظن بعد سياق مفعم باليقين حيث تتابعت الآيات في عرض الدلالة التي توجب القطع بنزول العذاب بمن كذب وتولى ففي إهلاك ما قبلهم شاهد يوجب اليقين، فلما جاء الظن في هذا السياق أفاد معنى بلادة حسهم وقصور فهمهم ونهاية غفلتهم؛ لأن العاقل إذا عرضت عليه الدلائل فإنه إذا لم يصدقها فلا أقل من أن يحترز عن العذاب ويتقيه.

ودراسة الترتيب بين الآيات عند الإمام أشبه بباب التقديم والتأخير، فكلاهما يعول فيهما على ما وراء أحوال الترتيب، وعلاقات الانتظام من معاني وأسرار أوجبها اختيار مواقع الكلام، إلا أن دراسة بلاغة منازل الكلام ومواقعه في الآيات أصعب مراساً منها في المفردات، فالمفردات ضابطها العناية أما ترتيب المعاني فليس له حد يحصره بل هو باب متسع تفتح فيه الدلالة الدلالة وتنزل فيه المعاني باعتبار من سوابقها، فتتمكن لها المحل مع لطائف تنتج من مداخلتها وإسنادها لتلك الآيات تزيد فيها خصوصيات ومعاني تتم بها ما قبلها وتحدد شياتها نحو ما ذكره في تقديم الاستعاذة على البسملة يقول: «ومن اللطائف أن قوله: ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ﴾ إشارة إلى نفي ما لا ينبغي من العقائد والأعمال، وقوله: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ إشارة إلى ما ينبغي من الاعتقادات والعمليات، فقوله: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ لا يصير معلوماً إلا بعد الوقوف على جميع العقائد الحقّة والأعمال الصافية، وهذا هو الترتيب الذي يشهد بصحته العقل الصحيح والحق الصريح»^(٢).

فملاحظة الآيات وحسن تجاورها واتتلاف بعضها مع بعض ينظم عناصر السورة مع تشكيل هيئات لمعاني خفية لا ينبه عليها إلا اعتبار سياقات سابقة، كما في تنظيم أسماء الله الحسنى في سورة «الفاتحة» حيث اثتلفت من مجموعها مراحل الإنسان خلقه ومسيرته بين

(١) "التفسير" ٢٨٦/٩.

(٢) السابق ٢٣/١.

أهدى والضلال وعين الله رقية عليه ترحم وتستر وتجازي المحسن بإحسانه والكفور بكفرانه، وقد أحسن الإمام في تصوير ذلك بقوله: «إنه تعالى ذكر في هذه السورة من أسماء نفسه خمسة: الله، والرب، والرحمن، والرحيم، والمالك، والسبب فيه كأنه يقول: خلقتك أولاً فأنا إله، ثم ربيتك بوجوه النعم فأنا رب، ثم عصيت فسترت عليك فأنا رحمن، ثم تبت فغفرت لك فأنا رحيم، ثم لا بد من إيصال الجزاء إليك فأنا مالك يوم الدين»^(١).

ويتجاوز هذا الباب البلاغة ليصل إلى حد الإعجاز حين تنبّه «إلى أن السورة لم تنزل على هذا الترتيب، فكان الأخرى ألا تلتئم، وألا يناسب بعضها بعضاً، وأن تذهب آياتها في الخلاف كل مذهب، ولكنها روح من أمر الله تفرق معجزاً فلما اجتمع اجتمع له إعجاز آخر»^(٢).

فكل آية تتخذ موقعاً من عناصر الكلام السابق وتداخلها في بيانها وتنسب إليها لذلك كان تفسيرها بمعزل عن جاراتها تفسير لظاهرها وقطع الأواصر ما بين الآيات، مما يحول دون تجلية عمق الدلالة؛ فباطن الآيات موكل بمنطق ما قبلها.

لذلك نجد الرازي يلوح بالظاهر ولا يعلق تمام الدلالة به وإنما ينفذ منه إلى تتبع أصداء الكلام السابق فيها ومواقع دلالاته من دلالتها. وبهذا تبنى السورة بناءً تدريجياً وتشكل من أحوال دلالية متعددة ترتب وتنتقل دلالاته فيها من الإجمال إلى التفصيل ومن الخفاء إلى التفسير، وينسل المعنى من مقابله أو ما هو سبب عنه.

فالترتيب داخل السورة يتخذ أشكالاً متعددة من العلاقات وقد حاولت ضبط ما يتسنى لي ضبطه من وجوه وتصنيفها من خلال نصوص الرازي فوجدتها سبعة أنواع هي كالتالي:

(١) "التفسير" ٢٠٨/١.

(٢) "إعجاز القرآن" الراغب ص ٢٤٤.

أولاً: المقابلة:

وهي وإن كانت نوعاً مألوفاً في الإبانة إلا أنها في باب المناسبات تخفى وتدق فتجد الآية تطوي في بنائها معنى مخالفاً لما قبلها، لذلك حسنت مجاورتها له وسيقت في سياقه، فاللفظ يأتي ظاهره مستقلاً بحكم فإذا عطف على سابقه كان في حكم المقابل لدلالته، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١١٣]. وموقعها من قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١١١]. فالثانية ظاهرها الأمر بالإيمان ولكن لما نهاهم في الآية المتقدمة عن الفساد في الأرض دل على أن كمال حال الإنسان لا يحصل إلا بمجموع الأمرين أولهما: ترك ما لا ينبغي ﴿لَا تُفْسِدُوا﴾ وفعل ما ينبغي ﴿ءَامِنُوا﴾^(١).

وقد صرح بأن الترتيب باعتبار الضد يفيد تنبيهات وتتميمات للمعاني، وذلك حينما فسر قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا﴾ [البقرة: ١٦٥]. يقول: «اعلم أنه سبحانه وتعالى لما قرر التوحيد بالدلائل القاهرة القاطعة أردف ذلك بتقبيح ما يضاد التوحيد؛ لأن تقبيح ضد الشيء مما يؤكد حسن الشيء، ولذلك قال الشاعر: وبضدها تتبين الأشياء فلهذا السبب أردف الله تعالى الآية الدالة على التوحيد بهذه الآية»^(٢).

فمعنى التقبيح تولد من ترتيبها على إثبات صحة العقول لمن تفكر في الدلائل فاهتدى للوحدانية، فكان من اتخذ أنداداً من دون الله هو خارج دائرة أصحاب العقول.

والإمام يجعل جذر دلالة الآية متفرعاً عن آيات التوحيد في قوله: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ

(١) "التفسير" ٣٠٧/١ بتصرف.

(٢) السابق ١٧٢/٢.

دَابَّتْ وَخُفِرَيفَ الرِّيحِ وَالسَّحَابِ السَّحَرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَرْ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٦٤﴾
 البقرة: ١٦٤. ولم يرد لها أي سياق تنقيح مسلك الذين كفروا في قوله تعالى:
 ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾
 البقرة: ١٦١. وإنما رتبها على الضدية لسياق آيات التوحيد؛ لأن ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ
 وَالْأَرْضِ﴾ قررت التوحيد وأكدته بالدلائل القاهرة، فلما جاء قوله: ﴿بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ﴾
 البقرة: ١٦٤. شقت مجرى للتقبيح من مسلك فئة تصر على العدول والإغضاء عن الحق
 وتسلك سبل العماية في اتخاذ غير الله إلهًا، فجاء قوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ ليريك المناقضة
 بين إحسان المنعم المتفضل عليهم بأن سخر لهم ما في السماوات والأرض وفعل الإنسان تجاه
 هذا التسخير بأن اتخذ من دون الله أندادًا .

ونبه إلى نوع من المقابلة لطيف المسلك دقيق المآخذ تخطئه أبصار العارفين من الذين
 راضوا الكلام ورازوا أسرارهم، وما ذاك إلا من دقة مدخلها واختلاف نمطها، ولكن هذا
 الاختلاف ينول بك إلى ائتلاف إذا فتشت لغته وجدت تحتها تناسبًا حسنًا، نحو قوله: ﴿وَيَوْمَ
 يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا يَمْعَشَرُ الْجَنِّ قَدْ اسْتَكْبَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا
 اسْتَمَعَ بَعْضُنَا بَعْضًا وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوٍ لَكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ
 اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ الأنعام: ١٢٨. فقد فسرهما الزمخشري ﴿يُحْشَرُهُمْ﴾ لمن يحشر من
 الثقلين وغيرهم " . وغاب عنه مدخل المقابلة في بناء الآية بينها وجه الإمام دلالة الآية
 باعتبار ما قبلها ولم يجعلها منقطعة عنها فقوله: ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا
 كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ الأنعام: ١٢٧. بيان لحال من يتمسك بالصراط المستقيم وإتمام النعمة عليهم
 يوم القيامة بأن يدخلوا في ولاية الله، ثم أردف هذا المعنى بـ «حال من يكون بالضد؛ من ذلك
 لتكون قصة أهل الجنة مردفة بقصة أهل النار، وليكون الوعيد مذكورًا بعد الوعد» (١) . وقال

(١) "الكشاف" ٦٤/٢ .

(٢) "التفسير" ١٤٧/٥ .

فيها أيضًا: «أنه تعالى لما بين في أهل الجنة أن لهم دار السلام، بين أنه تعالى وليهم بمعنى الحفظ والحراسة والمعونة والنصرة، فكذلك لما بين حال أهل النار ذكر أن مقرهم ومثواهم النار، ثم بين أن أولياءهم من يشبههم في الظلم والخزي والتكال وهذه مناسبة حسنة لطيفة»^(١). فالزخشي جعل الآية من قبيل تعميم الحكم السابق بعد أن كان للإنس جاء عامًا للثقلين، أما الرازي فيمطل دلالتها بإجرائها على معنى المقابلة ويندس في زواياها؛ ليكشف عن أصداء المعنى السابق ونظائره الضدية في أبنية لغتها.

وهو يتتبع هذا المسلك في بناء المعاني المتقابلة؛ ليدل على تشابه معانيها ويضع المعنى حذو المعنى فيرجع أصداءه ويعيده إلى الذهن فينعطف الكلام بعضه على بعض وينسقه نسق الجملة من الجملة، فتأمل قوله في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [الحج: ١٤]: «اعلم أنه سبحانه لما بين في الآية السابقة حال عباده المنافقين وحال معبودهم، بين في هذه الآية صفة عباده المؤمنين وصفة معبودهم»^(٢).

فتجد الآية في سياقها البعيد استحضرها الترتيب وأعادها الاختلاف، فبيان صفة عباده المؤمنين واقتنائها بوصف معبودهم بعد ذكر المنافقين ووصف معبودهم أحوال تشابه البناء وتطابق حذو الكلام إلى إجرائها في نسق ما قبلها وإسنادها إليها ونبه على افتقارها إلى بيانها.

وفي قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْثَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [النور: ٣٩]. يقول: «اعلم أنه سبحانه لما بين حال المؤمن، وأنه في الدنيا يكون في النور وبسيه يكون

(١) السابق، ١٥٠/٥.

(٢) "التفسير" ٢١٠/٨.

متمسكاً بالعمل الصالح، ثم بين أنه في الآخرة فائز بالنعيم المقيم والثواب العظيم، أتبع ذلك بأن بين أن الكافر يكون في الآخرة في أشد الخسران، وفي الدنيا في أعظم أنواع الظلمات^(١).

وهنا نظم عناصرها باعتبار ما قبلها من آيات فجعل قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بياناً مقابلاً لذكر حال المؤمنين في الآخرة وفوزهم بالنعيم المقيم، ولما ذكر في الآيات السابقة وصف حالهم في الدنيا رتب قوله: ﴿أَوْ كُظِّلُمْتُمْ فِي بَحْرٍ﴾^(٢) (النور: ٤٠). وجعلها معنى منجراً عنه، وعليه تكون بياناً لحال الكافر في الدنيا، وبذلك تكتمل صورة المعنى المقابل ويستوفي أجزائه بملاحظة عناصر الآيات المتقدمة وحمل اللاحقة عليها.

ثانياً: تكميل المعاني:

هو باب من أبواب تفريع الكلام ومطل المعاني يتطلب رهاقة حس لإدراك صلات المعاني فيه لرد الآية إلى جذرها ومناطها؛ لأن الآية تتأخر وتسبقها آيات ثم ترتد دلالتها إلى معنى متقدم تتمه وتضيف إليه، مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾^(٣) (الحج: ١٣٨). جاءت في سياق ما يلزم الحج ومناسكه وما فيه من منافع الدنيا والآخرة، ولم يرد الرازي دلالتها إلى ذلك وإنما عداها إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾^(٤) (الحج: ٢٥). يقول في ذلك: «اعلم أنه تعالى لما بين ما يلزم الحج ومناسكه وما فيه من منافع الدنيا والآخرة وقد ذكرنا من قبل أن الكفار صدوهم أتبع ذلك ببيان ما يزيل الصد ويؤمن معه التمكن من الحج فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾»^(٥).

وتأمل كيف نبذ الإمام بوجه انتظام النظم والتثامه بجملته واحدة علق الآية بأصلها في قوله: «أتبع ذلك ببيان ما يزيل الصد» ونبه فيها إلى فائدة تنزيل الآية وتأخيرها بعد آيات

(١) «التفسير» ٣٩٩/٨.

(٢) «التفسير» ٢٢٨/٨.

الأذان بالحج في قوله: «ويؤمن معه التمكن من الحج» وكان تأخيرها لموجب وهو جمع السياقات السابقة في سلك واحد وهو تعظيم المسجد الحرام، وعظيم منزلة السالكين إليه حتى جعلهم في معية الله وحفظه يدافع عنهم ويغلب من غالبهم.

وأيضاً قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا﴾ [النساء: ١٢٦]. جاءت في سياق الوعد والوعيد وترتبت عليه؛ لأن تمام الوعد والوعيد يحصل ويكمل بإثبات الألوهية فـ «لا يمكن الوفاء بهما إلا عند حصول أمرين: أحدهما: القدرة التامة المتعلقة بجميع الكائنات والممكنات . والثاني: العلم التام المتعلق بجميع الجزئيات والكمالات حتى لا يشبه عليه المطيع والعاصي والمحسن والمسيء . فدل على كمال قدرته بقوله: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ وعلى كمال علمه بقوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا﴾^(١).

وتارة يكون المعنى قسماً لما قبله كما في قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصَّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ﴾ [ابن: ٤٢]. فهو داخل في حيز قوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ، وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ [ابن: ٤٠]. فهذه ذكرت مواقف الناس من أمر القرآن فهما صنفان: طائفة مؤمنة به وطائفة كافرة به، ثم جاءت الآيات بعدها لبيان القسم الثاني وتفريعه فـ «قسم من لا يؤمن به إلى قسمين: منهم من يكون في غاية البغض له والعداوة له، ونهاية النفرة عن قبول دينه، ومنهم من لا يكون كذلك»^(٢).

فعناية الرازي بما وراء تجاور الآيات هدته إلى القسمة الخفية بين المعاني، بينما أجراها من قبله على ظاهرها دون ردها إلى معنى «ومنهم من لا يؤمن به»^(٣).

وكذلك حمله الاستفهام الإنكاري في قوله تعالى: ﴿أَتَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرَدِّدِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ﴾ [ابن: ٢٣] على معنى

(١) "التفسير" ٢٣٢/٤.

(٢) "التفسير" ٢٥٧/٦.

(٣) "الكشاف" ٣٤٩/٢.

الآية السابقة لها والخروج به من دائرية التأكيد إلى التكميل يقول فيه: «ثم قال: ﴿عَٰتِخِذُوا مِنْ دُونِهِ ۖ ءَالِهَةً﴾؛ لينتم التوحيد، فإن التوحيد بين التعطيل والإشراك، فقال: ﴿وَمَا إِلَىٰ لَا أَعْبُدُ﴾ إشارة إلى وجود الإله، وقال: ﴿عَٰتِخِذُوا مِنْ دُونِهِ﴾ إشارة إلى نفي غيره فيتحقق معنى لا إله إلا الله^(١).

وهذا فقه محكم للمعنى يتجاوز روابط اللغة إلى عمق الدلالة فتستبين عندها صلات المعاني ومنازل بعضها من بعض، ومسار كل آية في محيط ما قبلها، وبهذا الفهم تحصل للكلام هيئة واحدة، وبنية متفقة تتعاقب فيها أجزاء الكلام، فلا تفسر فيه كلمة بمعزل عن سابقتها، بل كل جملة تؤسس لمعنى في بيان ما بعدها.

وأحياناً تتابع الآيات لمعنى واحد في الظاهر لكن الإمام يجعل كل آية طريقاً آخر في بيان المعنى يستقصي كل منها جهة من جهاته يتم دلالته، مثل قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنْفَرُوا يُعَذِّبَكُمُ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (التوبة: ٣٩). اكتمل عندها معنى الترغيب في الجهاد بناء على ما أعد لهم من ثواب الآخرة، وابتغاء منافع الدنيا، ثم جاء قوله: ﴿إِلَّا تَنْفَرُوا فَقَدْ أَنْصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْفَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَخْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (التوبة: ٤٠). وهي «طريق آخر في ترغيبهم في الجهاد، وذلك لأنه تعالى ذكر في الآية الأولى أنهم إن لم ينفروا باستنفارهم، ولم يشتغلوا بنصرته فإن الله ينصره بدليل أن الله نصره وقواه حال لم يكن معه إلا رجل واحد، فهنا أولى^(٢)». فهي من باب ضرب الأمثال وإثبات المعنى بدليله، ثم ذكر طريقاً آخر فقال: ﴿انْفَرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ

(١) "التفسير" ٢٦٥/٩.

(٢) "التفسير" ٤٩/٦.

تَعْلَمُونَ ﴿التوبة: ٤١﴾. يقول فيها: «اعلم أنه تعالى لما توعد من لا ينفر مع الرسول وضرب له الأمثال ما وصفنا، أتبعه بهذا الأمر الجزم»^(١).

وقوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَلَدَيْهِ حَسَنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت: ٨] حددت قسماً ما بعدها وأحدثت في قوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [العنكبوت: ٩] شيات وخصوصيات نزعاً بالفاظها وخرجت بها عن الإعادة إلى الإبانة والتنوع، فعندما جاءت في سياق قوله: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ١٣] كانت بياناً لحال أقسام المكلفين المهتدي والضال، فلما تم الكلام استأنف قسمين آخرين وطأ لهما بمقدمة وهي قوله: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَلَدَيْهِ﴾ وهذا يقتضي أن يهتدى بهما، وقوله: ﴿وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي﴾ بيان إضلالهما. وقوله: ﴿إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُم﴾ بطريق الإجمال تهديد المضل، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ على سبيل التفصيل وعد الهادي فذكر ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ مرة لبيان حال المهتدي ومرة أخرى لبيان حال الهادي، والذي يدل عليه هو أنه قال: ﴿لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٧]. وقال ثانياً: ﴿لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ﴾ [العنكبوت: ٩]. والصالحون هم الهداة؛ لأنه مرتبة الأنبياء، ولهذا قال كثير من الأنبياء: ﴿وَالْحَقِّي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١]^(٢).

وأيضاً قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١] فظاهرها الإخبار بشهادة الرسل، ولكن تعليقها بها قبلها يحيل على معاني تتمم جميع جهات المعنى السابق فـ «وجه النظم هو أنه تعالى بين أن في الآخرة لا يجري على أحد ظلم، وأنه تعالى يجازي المحسن بإحسانه، ويزيده على قدر حقه، فبين تعالى في هذه الآية أن ذلك يجري بشهادة الرسل الذين جعلهم الله الحجة على الخلق؛ لتكون الحجة على المسيء أبلغ، والتبكيث له أعظم وحسرتة أشد، ويكون سرور من قبل ذلك من الرسول

(١) السابق ٥٥/٦.

(٢) "التفسير الكبير" الرازي ٣٢/٩ بتصرف.

وأظهر الطاعة أعظم، ويكون هذا وعيدًا للكفار الذين قال الله فيهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء: ٤٠]. ووعدًا للمطيعين الذين قال فيهم: ﴿وَأِنْ تَكَ حَسَنَةً يُّصَغِفْهَا﴾^(١).

وكذلك حمل قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ﴾ [فاطر: ٣٩] على معنى التقرير لقطع حجة الذين كفروا، فإنهم لما قالوا حين رأوا العذاب: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [فاطر: ٣٧] فرد دعواهم بتذكير ما كان عليه حالهم مع الدلائل والبراهين التي صادفوها فأعرضوا عنها وعموا وصموا، فقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ﴾ إشارة إلى أن التمكين والإمهال مدة يمكن فيها المعرفة قد حصل وما أمتهم وزاد عليه بقوله: ﴿وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ﴾ أي آتيناكم عقولاً، وأرسلنا إليكم من يؤيد المعقول بالدليل المنقول - زاد على هذا بقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي نبهكم بمن مضى وحال من انقضى فإنكم لولم يحصل لكم علم بأن من كذب الرسل أهلك لكان عنادكم أخفى وفسادكم أخف لكن أمهلتكم وعمرتم وأمرتم على لسان الرسل بما أمرتم وجعلتم خلائف في الأرض، أي خليفة بعد خليفة تعلمون حال الماضين وتصبحون بحالهم راضين ﴿فَمَنْ كَفَرَ﴾ [فاطر: ٣٩]. بعد هذا كله ﴿فَعَلَيْهِمْ كُفْرُهُمْ﴾^(٢).

فمجيء التقرير بعد الاستفهام في قوله: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ﴾ فيه تصعيد للحجة وتقوية لها بما لا نهاية بعده، فكان قطعاً وإجمالاً لكل محتج.

ثالثاً: زيادة بيان:

ويعول في هذا الباب على ما يثار في نفس المخاطب حول المعنى فتارة تعرض له شبهة وتارة تساؤل وأخرى غموض ينكشف بالتصريح، وإبانة المعنى عن المعنى لا تفهم من ظاهر اللفظ وإنما يؤسس لها حسن تجاور الكلام، ويتأتى إليها بحسن البيان فيداخل المعاني بعضها

(١) "التفسير" ٨٣/٤.

(٢) "التفسير" ٢٤٤/٩.

في بعض فيفتح بذلك الدلالة ويزيل إبهامها، نحو موقع قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرَ أُولِي الضَّرَرِّ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحَسَنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٥] من قوله: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَىٰ إِلَيْكُمْ أَلَسَلَّمَ لَسَلَّمَ مُمْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ٩٤] فـ "لما عاتبهم الله تعالى على ما صدر منهم من قتل من تكلم بكلمة الشهادة، فلعله يقع في قلبهم أن الأولى الاحتراز عن الجهاد؛ لئلا يقع بسببه في مثل هذا المحذور، فلا جرم ذكر الله تعالى في عقيقه هذه الآية وبين فيها فضل المجاهد على غيره إزالة لهذه الشبهة" (١).

وقد نبه الإمام إلى أن هذا النوع من التحليل هو مسلك السلف في فهم بيان معاني القرآن، وأن الآية لا تفسر بمعزل عن ما جاورها من عناصر ومكونات، فالإمام علي حينما سأله المشركون عن قوله تعالى: ﴿فَإِذَا أُنْسِلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ﴾ [التوبة: ٥] فقالوا: «إن أردنا أن نأتي الرسول بعد انقضاء هذا الأجل لسماع كلام الله أو لحاجة أخرى فهل نقتل؟ فقال علي: لا، إن الله تعالى قال: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ﴾ [التوبة: ٦] أي فأمنه ﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلِمَةَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٦] (٢) فالأولى يقتضي أنه إن جاء أحد من المشركين وطلب الدليل لا يلتفت إليه فلما كان هذا الكلام واقعاً في القلب لا جرم ذكر هذه الآية إزالة لهذه الشبهة» (٣).

أو يكون تساؤلاً هامساً لا يصل إلى الوهم والشك كما في النوع الأول فتولد عنه آيات تشبع حاجة في نفس المخاطب وتزيل ما يعترى البيان كما في قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي

(١) "التفسير" ١٩٢/٤.

(٢) السابق ٥٢٩/٥.

(٣) السابق نفسه، وينظر هذا النوع في: ٢/٢٩٣، ٣/٨٢، ٩/٢١٦، ٨/٢٢١.

أَلْقِصَاصِ حَيَوةً يَتَأُولَى الْأَلْبَبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿البقرة: ١٧٩﴾ جاءت في سياق إيجاب القصاص و «لما كان القصاص من باب الإيلاء توجه فيه سؤال وهو أن يقال: كيف يليق بكمال رحمته إيلاء العبد الضعيف؟ فلأجل دفع هذا السؤال ذكر عقبيه القصاص فقال: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ﴾»^(١).

وتارة تحيي الآية للتصريح بمعنى جرى فيها قبلها، وغالباً ما يكون موضع غناية فتتوافر الآيات عليه لإبرازه وتمكينه كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ، وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾^(٢) التوبة: ١٠٤ قال فيها: «واعلم أنه تعالى لما حكى عن القوم الذين تقدم ذكرهم أنهم تابوا عن ذنوبهم وأنهم تصدقوا وهناك لم يذكر إلا قوله: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾»^(٣) التوبة: ١٠٢ وما كان ذلك صريحاً في قبول التوبة ذكر في هذه الآية أنه يقبل التوبة وأنه يأخذ الصدقات والمقصود ترغيب من لم يتب في التوبة وترغيب كل العصاة في الطاعة»^(٤).

فقوله: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ في سياق مفعم بالغضب والنقمة عليهم؛ لتخلفهم عن نصرة رسوله شاب الدلالة بالظن في قبول توبتهم فجاء التصريح؛ لتجلية الدلالة وزيادة بيان.

وأحياناً تقع الآيات نصريحاً لمعانٍ كلية، كما في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَوِّرُكَ فِي الْبَرْقِ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتَ فِي أَلْفَاكٍ وَجَرَدَ بِهَمَّ رِيحٍ طَبِئَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ لَيْنَ أَنْجَيْنَا مِنْ هَذِهِ، لَنُكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * فَلَمَّا أَنْجَيْنَاهُمْ إِذَا هُمْ يَتَّبِعُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾^(٥) أيونس: ٢٢، ٢٣. لأنه «لما قال: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ

(١) "التفسير" ٢/ ٢٢٩، ٢٢٨.

(٢) "التفسير" ٦/ ١٣٩.

رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَاءَ مَسْتَهْمٍ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا ﴿١٢١﴾ إينس: ١٢١ كان هذا الكلام كلياً لا ينكشف معناه إلا بذكر مثال كامل، فذكر الله تعالى لنقل الإنسان من الضر الشديد إلى الرحمة مثلاً، ولمكر الإنسان مثلاً، حتى تكون هذه الآية كالمفسرة للآية التي قبلها، وذلك لأن المعنى الكلي لا يصل إلى أفهام السامعين إلا بذكر مثال جلي واضح يكشف عن حقيقة ذلك المعنى الكلي^(١).

رابعاً: التفصيل:

وهو منهج بياني في بناء معاني القرآن، يكاد يكون نمطاً مطرداً في بناء بلاغته، وخصوصية من خصوصيات بيانه، فقد بين تعالى أنه يفصل الآيات، ومعنى تفصيلها أي تتابعها واحد عقيب الآخر فصلاً بعد فصل لشرح معانيها، وجميع ما ذكرناه من العلاقات داخل في معنى التفصيل؛ لأن إيرادها لأجل الإبانة والشرح لما قبلها، ولكن ما نقصده بالتفصيل هنا هو ما كانت فيه الآية شرحاً لزواوية مجملة في الآية السابقة، فتأتي التالية لتمطل دلالتها وتمتد ببيانها كما في قوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسْكَنٌ طَيِّبٌ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾ (النوبة: ٧٢، ٧١) فـ «لما ذكر الوعد في الآية الأولى على سبيل الإجمال ذكره في هذه الآية على سبيل التفصيل وذلك لأنه تعالى وعد بالرحمة، ثم بين في هذه الآية أن تلك الرحمة هي هذه الأشياء»^(٢).

أي أن قوله: ﴿أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ﴾ هو الزواوية المجملة في بيان هذه الآية فتتابع ما بعدها لإشباع دلالتها وتفصيل مجملها.

(١) "التفسير" ٢٣٢/٦.

(٢) "التفسير" ١٠١/٦.

وكذلك موقع قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا زَلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلِئِكَةَ وكَلَّمَهُمُ الْمَوْتُ وَحِشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ [الأنعام: ١١١] من قوله: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٩]. يقول فيها: «اعلم أنه تعالى بين في هذه الآية تفصيل ما ذكره على سبيل الإجمال بقوله: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فيبين أنه تعالى لو أعطاهم ما طلبوه من إنزال الملائكة وإحياء الموتى حتى كلموهم بل لو زاد في ذلك ما لا يبلغه اقتراحهم بأن يحشر كل شيء عليهم قبل ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله»^(١).

وأيضاً مقطع الوعيد في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمياً وَبُكماً وَأُولَئِكَ هُمُ جَهَنَّمَ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعيراً﴾ [الأنعام: ٩٨، ٩٧] هو تقرير وامتداد للإيجاء به في قوله: ﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبيراً بَصيراً﴾ [الأنعام: ٩٦] يقول فيها: «اعلم أنه تعالى لما أجاب عن شبهات القوم في إنكار النبوة وأردفها بالوعيد الإجمالي وهو قوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبيراً بَصيراً﴾ ذكر بعده الوعيد الشديد على سبيل التفصيل»^(٢).

ومسلك آخر تأتي المعاني المفصلة ثم تردف بمعنى إجمالي يستوعب ما سبق، كما في قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسَ أَدْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَآذَنْتُمْ أَنْ تَكُونُوا﴾ [فاطر: ٣]. يقول: «لما بين أن الحمد لله وبين بعض وجوه النعمة التي تستوجب الحمد على سبيل التفصيل بين نعمة على سبيل الإجمال فقال: ﴿أَدْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ﴾ وهي مع كثرتها منحصرة في قسمين: نعمة الإيجاد، ونعمة الإبقاء،

(١) "التفسير" الرازي ١١٧/٥.

(٢) السابق ٤١١/٧.

فقال تعالى: ﴿هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ﴾ إشارة إلى نعمة الإيجاد في الابتداء، وقال تعالى: ﴿يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ إشارة إلى نعمة الإبقاء بالرزق إلى الانتهاء^(١).

خامساً: العموم والخصوص:

نوع آخر من التناسب تمتاز فيه الآية مع ما قبلها بأن تكون تعميماً لحكمها أو تخصيصاً وهو مسلك أيضاً في تفریع المعاني وتوسيع دلالتها والإحاطة بجهااتها لا غنى للمفسر من تتبعه في بيان المتكلم، وحمل تلك الفروع وردها إلى محل الحكم وتأليفها باعتبار منه، كما في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنْفِخُ بِنَفْثَاتٍ﴾

[الجنانية: ٢٧].

فـ «لما احتج بكونه قادراً على الإحياء في المرة الأولى، وعلى كونه قادراً على الإحياء في المرة الثانية في الآيات المتقدمة، عمم الدليل، فقال: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي لله القدرة على جميع الممكنات سواء كانت من السماوات أو من الأرض»^(٢).

فالآيات المتقدمة استدلت على قدرة الله بجزء من الممكنات وهي القدرة على الخلق والقدرة على البعث فجاء قوله: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ تعميماً لمحل الاستدلال؛ ليعيط بجميع الممكنات ولتصور القدرة المهيمنة المالكة للأمر كله.

وفي سورة «لقمان» جاء قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ٢٩] منعطفاً على قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَاءَ السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾ [لقمان: ٢٠] وتفرعاً عليها بالتخصيص، قال فيها: «إن وجه الترتيب هو أن الله تعالى لما قال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَاءَ السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ على وجه العموم ذكر منها بعض

(١) "التفسير" ٢٢٢/٩، وينظر: ١٨٥/٥.

(٢) "التفسير" ٦٨/٩، وينظر: ١٠٥/٤.

ما هو فيها على وجه الخصوص بقوله: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ﴾ إشارة إلى ما في السموات وقوله بعد هذا: ﴿الْقَرَرُ أَنَّ الْفَلَكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [لقمان: ٣١] إشارة إلى ما في الأرض^(١).

سادساً: التأكيد:

وهو من الأنواع الخفية في بسط المعاني وإبرازها، فالمعنى لا يعود بهيته وإنما تجد له إيضاحاً تحت لغة الآية التالية تنعطف بأعنة العقل إلى الأصل الذي تفرعت عنه، مثل قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠] جاءت تأكيداً لما قبلها: ﴿اللَّهُ يُخَكِّمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [سبا: ٦٩] لـ «يعلم أنه سبحانه عالم بما يستحقه كل أحد منهم، فيقع الحكم منه بينهم بالعدل لا بال جور»^(٢).

وكذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [الحج: ٤٧] «لأن الرسالة لا تثبت إلا بالدعوى والبينة بأن يدعي شخص النبوة ويظهر الله المعجزة فهي بينة شاهدة والتصديق بالفعل يقوم مقام التصديق بالقول»^(٣).

ويستدل في آيات أخرى على مواقع التوكيد بوجود عناصر ترجع وتردد نظائرها فتوجه إلى سياقات سابقة، كما في قوله تعالى: ﴿لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ جاءت في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ اتَّفَقْتُمْ فِي أَغْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَغْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ [الأنفال: ٤٤] بعد أن داخلت قوله: ﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَا خِلَافَ لَكُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٤٢]. وليس

(١) "التفسير" ١٢٩/٩، وينظر أيضاً: ١٥٧/٦، و٢٤٣/٨.

(٢) "التفسير" ٢١٥/٩.

(٣) "التفسير" ٢٤٩/٨ - ٢٥٠.

في ذلك تكرار لاختلاف المقصد فالمقدمة جرت في سياق المؤمنين فكان الغرض منها أنه فعل تلك الأفعال؛ ليحصل استيلاء المؤمنين على المشركين على وجه يكون معجزة دالة على صدق الرسول ﷺ، وفي هذه الآية المعنى أنه قلل عدد المؤمنين في أعين المشركين؛ ليصير ذلك سبباً للتخلي عن الحذر والاستعداد فيكون سبباً لانكسارهم.^(١)

فلما اختلف السياق وتباعد أبعاد الجملة؛ لتجاذب ما اختلف وترده إلى المغزى من تفريعه، فرجعت معنى الوعد بإظهار المؤمنين واستيلائهم على المشركين وأكدته بتتميم جهاته وكشفت عن تدابيرها لتمكينه لهم في أنفسهم ومع أعدائهم.

وأحياناً ترد إلى آيات أبعد لتستحضرها وتؤكدها، كما في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ [يونس: ٦٧] فلم يرد دلالتها إلى ما قبلها وهو ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمِنَ الْأَرْضِ مَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَسْتَجِيبُوا إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [يونس: ٦٦] فلما كانت هذه الآية داخلة في حيز معنى أصل وهو قوله: ﴿إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٦٥] عطفها على جذر الكلام وجعلها فرعاً عنه وتابعاً له بقوله: «اعلم أنه تعالى لما ذكر قوله: ﴿إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ احتج عليه بهذه الآية»^(٢).

سابعاً: السببية:

وهي من العلاقات التي تحكم ربط الجملة بالجملة ويصير بها الكلام شيئاً واحداً، وأحياناً تكون ظاهرة كما في قوله تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشْوَةً وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٧]. فهي بمنزلة السبب لقوله: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٦] لأن ما قبلها بيان أن المشركين لا يؤمنون سواء عليهم أنذرت أم لم تنذر «أخبر في هذه الآية بالسبب الذي لأجله لم يؤمنوا، وهو الختم»^(٣).

(١) "التفسير" ٤٨٨/٥.

(٢) "التفسير" ٢٨٠/٦.

(٣) "التفسير" ٢٩١/١.

ومنها ما يكون خفيًا يتطلب لطفًا في رده سببًا لما قبله، كما في قوله تعالى: ﴿رُزِنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [البقرة: ٢١٢] ومكانها من قوله: ﴿سَلِّ بَنِي إِسْرَءِيلَ كَمَا ءَاتَيْنَاهُمْ مِنْ ءَايَةٍ يَبَيِّنَنَّ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [البقرة: ٢١١] يقول فيها: «اعلم أنه تعالى لما ذكر من قبل حال من يبدل نعمة الله من بعد ما جاءته وهم الكفار الذين كذبوا بالدلالة والأنبياء وعدلوا عنها أتبعه الله تعالى بذكر السبب الذي لأجله كانت هذه طريقتهم، فقال: ﴿رُزِنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾. وعصّل هذا الكلام تعريف المؤمنين ضعف عقول الكفار والمشرّكين في ترجيح القاني من زينة الدنيا على الباقي من درجات الآخرة»^(١).

وقد جعلها الزمخشري مقطعًا جديدًا فيه إخبار عن تزيين الشيطان بوساوسه وكيف حبيها إليهم حتى لا يريدوا غيرها^(٢) بينما رتبها الرازي على تبديل الآيات وانتهاجهم نهج الضلالة وإنكار البينات؛ لاستحواذ الدنيا عليهم فاطمأنوا بها. فكانت تنبيهاً على السبب الذي تولدت منه وزادت هي تحذير المؤمنين من طريقتهم وأنه سينالهم من العذاب ما حل بالمشرّكين أن بدلوا الآيات بعد أن ظهرت براهينها.

وأحسبه بهذا التوجيه جعل الآية تحقيقاً لترك الإضمار الذي قال به عبد القاهر في فاصلة الآية السابقة: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [البقرة: ٢١١] حيث ذكر أن عبد القاهر قال: «إن ترك الإضمار فيها أولى فلا يقال: شديد العقاب له». «وذلك لأن المقصود من الآية التخويف بكونه في ذاته موصوفاً بأنه شديد العقاب، من غير التفات إلى كونه شديد العقاب لهذا أو ذاك»^(٣).

(١) "التفسير" ٣٦٧/٢.

(٢) "الكشاف" ٢٥٤/١.

(٣) "التفسير" ٣٦٧/٢.

وأيضاً قوله تعالى: ﴿أَمْ لَمْ نَصِيبْ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾ [النساء: ٥٣].
فهذه الآية في وصف اليهود بالبخل والحسد، بعد وصفهم بالجهل، والعلاقة بين الوصفين
«أن السبب الأصلي للبخل والحسد هو الجهل، فلما ذكر تعالى الجهل أردفه بذكر البخل
والحسد؛ ليكون المسبب مذكوراً عقيب السبب»^(١).

فالرازي يتغلغل في ترتيب المعاني بعضها على بعض والسبب في أن قدمت الآية على
الآية وهذه ذلك إلى بيان المناسبة بين الصفتين وأن ثانيتهما مسببة عن الأولى، وهذا زائد على
ما ذكره علماء التفسير قبله على أنه وصف لليهود بشر خصلتين^(٢).

والرازي لم يتخذ من دراسة الترتيب بين الآيات أداة للكشف عن ما أشكل تعلقه
فحسب وإنما اختطه منهجاً سار عليه في دراسته لجميع الآيات، فكان وقوفه عندما كان تعلقه
بغيره ظاهراً كوقوفه لما خفيت فيه وجه المناسبة، فكان علم المناسبة بين الآيات كشف عن
نسق الكلام وإحكام لمعاقد معانيه، وتجاهل هذا اللون من التحليل إهدار لثراء الدلالة
وتغيب لوجه من وجوه حسن الكلام، فهو أحد علوم الإبانة التي بإصابتها يحسن الكلام،
ويتبين مراد المتكلم ومقاصده.

والترتيب داخل السورة يراعى فيه خصوصيات وأحوال كما هو الحال في الجملة توضع
فيها الكلمة لاعتبارات من الكلمات المحيطة بها وتكون بلاغتها بمدى التعايش بين الكلمات
والتمازج والتفاعل فيما بينها، وكذلك السورة نموها واكتمالها بملاحظة واعتبار التواصل
والتشارب بين آياتها، فرد الآية على الآية ينمي المعاني ويزيد فيها ويشير تنبيهات ولطائف تتم
معها الدلالة، ومن ذلك ما ذكره في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ
وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ
تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت: ٣٧]. يقول: «اعلم أنه تعالى لما بين في الآية المتقدمة أن أحسن الأعمال

(١) "التفسير" ١٠٢/٤. وينظر في هذا النوع: ٢٧/٦، ٣٧٢/٢.

(٢) "الكشاف" ٥٢١/١.

والأقوال هو الدعوة إلى الله تعالى أردفه بذكر الدلائل الدالة على وجود الله وقدرته وحكمته، تنبيهًا على أن الدعوة إلى الله تعالى عبارة عن تقرير الدلائل الدالة على ذات الله وصفاته، وهذه تنبيهات شريفة مستفادة من تناسق هذه الآيات، فكان العلم بهذه اللطيفة أحسن العلوم»^(١).

فظاهر الآية عرض لدلائل وحدانية الله التي هي أصل من الأصول التي عليها مدار معاني القرآن، وهذا ما ذهب إليه المفسرون ذكر ذلك ابن عطية حيث قال فيها «وندب الله تعالى في هذه الآية المتقدمة إلى مكارم الأخلاق بالدفع بالتي هي أحسن، ثم عدد الله تعالى آياته؛ ليعتبر من صدف عن التوحيد»^(٢).

فجعل عرض الدلائل مقطوعًا مستقلًا يتضمن تنبيه من صدف أو أعرض عن التوحيد، أما الرازي فيعلقها بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣]. وهذا الترتيب خرج بالكلام عن كونه براهين دالة على التوحيد إلى بيان لأحسن الأقوال في الدعوة إلى الله وهو تقرير الدلائل الدالة على ذات الله . فتشربت أحوال سياق ما قبلها وتولد عن ذلك معاني وفوائد زائدة على أصل الكلام .

ويصرح الإمام بأن وضع الآية بجوار الآية يكون لأجل هذه التنبيهات كما في تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا أَوَلَوْ كُنَّا ءَابَاءَهُمْ لَا يَتَّبِعُونَ سَبِيلًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠].

يقول: «إنما ذكر تعالى هذه عقيب الزجر عن اتباع خطوات الشيطان؛ تنبيهًا على أنه لا فرق بين متابعة الشيطان وبين متابعة التقليد، وفيه أقوى دليل على وجوب النظر والاستدلال، وترك التعويل على ما يقع في الخاطر من غير دليل أو على ما يقوله الغير من غير دليل»^(٣).

(١) "التفسير" ٥٦٦، ٥٦٥/٩.

(٢) "المحرر الوجيز" ١١٦/١٣.

(٣) "التفسير" ١٨٩/٢.

وقد عدل الإمام عن توجيه الزمخشري حيث فسر الآية في مجال ما قبلها فجعل الضمير في لهم عائداً على الناس، وأنها من قبيل التنبيه على ضلالتهم^(١)، وجعلها الإمام مستأنفة والضمير عائداً على غير مذكور؛ ليهيئ للمعنى الإضافي المتولد من الترتيب، فكأنها نبهت على خطأ من يظن أن التقليد منهج، وأن المنهجين وإن اختلفت أسماؤهما لا فرق بينهما؛ لأن كل فكرة أو رأي لا يقترن ببرهان ولا يؤكد دليل خطوة من خطوات الشيطان، وهذا الرأي منسوب لابن عباس حيث قال إنها: «نزلت في اليهود، وذلك حين دعاهم رسول الله ﷺ إلى الإسلام، فقالوا: نتبع ما وجدنا عليه آباءنا، فهم كانوا خيراً منا، وأعلم منا. فعلى هذا الآية مستأنفة، والكناية في «لهم» تعود إلى غير مذكور، إلا أن الضمير قد يعود على المعلوم كما يعود على المذكور»^(٢).

وأيضاً ترتيب قوله تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (البقرة: ١٤١) على ما قبلها «لوجوه: أحدها: ليكون وعظاً لهم وزجراً حتى لا يتكلموا على فضل الآباء فكل واحد يؤخذ بعمله. وثانيها: أنه تعالى بين أنه متى لا يستنكر أن يكون فرضكم عين فرضهم لاختلاف المصالح لم يستنكر أن تختلف المصالح فينقلكم محمد ﷺ من ملة إلى ملة أخرى. وثالثها: أنه تعالى لما ذكر حسن طريقة الأنبياء الذين ذكرهم في هذه الآية بين أن الدليل لا يتم بذلك بل كل إنسان مسئول عن عمله، ولا عذر له في ترك الحق بأن توهم أنه متمسك بطريقة من تقدم؛ لأنهم أصابوا أم أخطئوا لا ينفع هؤلاء ولا يضرهم لثلاث توهم أن طريقة الدين التقليد»^(٣).

والوجه الأول ذكره الطبري^(٤)، وزاد عليه ابن عطية بالتنبيه على ما تحمله الآية من مضامين مختلفة عن نظيرتها في نفس السورة أحدثها وضع الآية وتأخيرها يقول: «كررها عن

(١) "الكشاف" ١/ ٢١٣.

(٢) "التفسير" ٢/ ١٨٨.

(٣) "التفسير" ٢/ ٧٨.

(٤) "جامع البيان" ١٢/ ٥٧٦.

قرب؛ لأنها تضمنت معنى التهديد والتخويف: أي: إذا كان أولئك الأنبياء على إمامتهم وفضلهم يجازون بكسبهم فأنتم أخرى، فوجب التأكيد فلذلك كررها، ولإيراد ذكرهم أيضًا في معنى غير الأول^(١).

فقوله: «في معنى غير الأول» كلمة نافذة فتحت للرازي وجوهاً مختلفة من التأويل حيث تتبع الآيات السابقة وما تحمله من مضامين نزلت بالآية إلى منازع مختلفة من الدلالة. وهذه الوجوه ليس لها رابط لفظي تنول إليه وإنما سبيلها لطائف مستقاهما العقل، وفوائد يحصلها النظر. فالرازي مكن لكل وجه بحسن استيعابه للسابق، وما تحته من أغراض هيأت للإيجاء بهذه المعاني.

وبهذا يتقرر أن العلاقة بين الآيات علاقة تفاعل وتداخل وكما أن رد الآية على ما قبلها يثري الدلالة السابقة وينميها، فكذلك الآية اللاحقة يفتح مدلولها ويسد ثغرات وفجوات في بيانها، كما في تحليله لقوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [القصص: ٦٨] المقصود أن يعلم أن الخلق والاختيار والإعزاز والإذلال مفوض إليه ليس لأحد فيه شركة ومنازعة، ثم أكد ذلك بأنه يعلم ما تكن صدورهم من عداوة رسول الله ﷺ وما يعلنون من مطاعنهم فيه وقولهم: هلا اختير غيره في النبوة^(٢). فتأويل مكنون صدورهم بعداوتهم للرسول وما يعلنونه من مطاعن وشبهات حول نبوته معنى انتزعه من سياق الآيات.

بل إن تحديد منطوق الآية لا يكون إلا بالنظر فيما جاورها؛ لذلك رد ما عليه أكثر المفسرين من أن قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشَأَ الْآخِرَى﴾ [النجم: ٤٧] إشارة إلى الحشر، وفسرها بمعنى نفخ الروح؛ لأن الإعادة سبق ذكرها في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾ [النجم: ٤٢] فهي عند الأكثرين لبيان الإعادة، وقوله: ﴿ثُمَّ يُجْزِئُهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى﴾ [النجم: ٤١] كذلك، فيكون ذكر النشأة الأخرى تكرر، فلما جرى ذكرها كانت ﴿النَّشَأَ

(١) "المحرر الوجيز" ٥٠٩/١.

(٢) "التفسير" ١١/٩.

الْآخِرَى ﴿١﴾ أمراً آخر بين دلالة قوله بعدها: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى﴾ [النجم: ٤٨] وهو حال من أحوال الدنيا فرشح دلالتها على معنى نفخ الروح وقواها، واتسق الكلام وعليه يكون الترتيب في غاية الحسن، فإنه تعالى يقول: خلق الذكر والأنثى ونفخ فيهما الروح الإنسانية الشريفة ثم أغناهما بلبن الأم ونفقة الأب في صغرهما، ثم أفناهما بالكسب بعد كبرهما^(١).

وهذا ظاهر في تفسيره لجميع الآيات لكنه أشد ظهوراً في الآيات التي تأتي بألفاظ واحدة وبيان متفق ثم تراه يفسرها تفسيراً مختلفاً عن سابقتها، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَكَافِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [النساء: ١٣١] تكررت في ثلاثة مقاطع وفي كل لها دلالة ويفرغ عليها معنى يقول فيها: «إنه تعالى ذكر هذه الآية ثلاث مرات لتقرير ثلاثة أمور، فأولها: أنه تعالى قال: ﴿وَإِنْ يَنفَرَا يُعْنِ اللَّهُ كُلاً مِّن سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٣٠]. والمراد منه كونه تعالى جواداً متفضلاً، فذكر عقيبه قوله: ﴿وَلِلَّهِ مَكَافِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ والغرض تقرير كونه واسع الجود والكرم، وثانيها: قال: ﴿وَإِنْ تَكْفُرُوا﴾ والمراد منه أنه تعالى منزّه عن طاعات المطيعين وعن ذنوب المذنبين، فلا يزداد جلاله بالطاعات، ولا ينقص بالمعاصي والسيئات، فذكر عقيبه قوله: ﴿وَلِلَّهِ مَكَافِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾. والغرض منه تقرير كونه غنياً لذاته عن الكل. وثالثها: قال: ﴿وَلِلَّهِ مَكَافِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [النساء: ١٣٢، ١٣٣]. والمراد منه أنه تعالى قادر على الإفناء والإيجاد فإن عصيته هو قادر على إعدامكم وإفنائكم بالكلية، ... فالغرض هنا تقرير كونه سبحانه قادراً على جميع المقدورات وإذا كان الدليل الواحد دليلاً على مدلولات كثيرة فإنه يحسن ذكر ذلك الدليل فإذا أعدته ثلاث مرات وفرعت عليه في كل مرة إثبات صفة أخرى من صفات جلال الله تنبه الذهن حيثئذ؛ لكون تخلق السماوات والأرض دالاً على أسرار شريفة ومطالب جليلة^(٢).

(١) "التفسير" ١٠ / ٢٨١، ٢٨٢ بتصرف.

(٢) "التفسير" ٤ / ٢٤٠، ٢٣٩.

وهنا نجد تصويرًا للغزارة معاني القرآن واتساع أسلوبه وأنه حمال لوجوه، ففي أي وجهة صرفته انصرف وانشق عن دلالة، فتخليق السماوات والأرض مستوعب لصفات الله وكاف في الاستدلال على ألوهيته، ثم خلاص الرازي من هذا التكرار الحي النامي إلى ربطه بالمنهج العام للقرآن والغرض الكلي من آياته، وهو صرف الأفهام والعقول إلى الاستغراق في معرفة الله^(١).

والترتيب فيما بين الآيات ليس له علاقة محددة ولا يتخذ مسارًا واحدًا وإنما يراعى فيه فقه الدلالة ووجود مناسبة يصح معها عطف الآية على الآية قبلها أو في سياق آخر يستلزم ردها إليه، وقد انتهج الإمام مسالك مختلفة في العطف مما يؤكد أن هناك ضوابط تضبط مجال كل آية وحركتها داخل ما قبلها من آيات، فكل آية تستبطن إبياضات توحى إلى معانٍ ضمنية لسياقات سابقة تتصل بها.

وبهذا تنوع علاقات الآيات ويختلف تفريعها، فتارة تجده يرتب الآية على ما قبلها، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ نُرِيدُ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٨] يرتبها على قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْزِلَ آيَةً وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٣٧] لـ «أنه تعالى بين في الآية الأولى أنه لو كان إنزال المعجزات مصلحة لهم لفعلها ولأظهرها إلا أنه لما لم يكن إظهارها مصلحة للمكلفين لاجرم ما أظهرها، وهذا الجواب إنما يتم إذا أثبت أنه تعالى يراعي مصالح المكلفين ويفضل عليهم بذلك فين أن الأمر كذلك، وقرره بأن قال: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾، فإذا كانت آثار عنايته واصله إلى جميع الحيوانات، فلو كان في إظهار هذه المعجزات القاهرة مصلحة للمكلفين لفعلها ولأظهرها ولا ممتنع أن يخل بها مع ما ظهر أنه لم يخل على شيء من الحيوانات بمصالحها ومنافعها، وذلك يدل على أنه تعالى إنما لم يظهر تلك المعجزات؛ لأن إظهارها يخل بمصالح المكلفين»^(٢).

(١) ينظر السابق ٤/ ٢٤٠

(٢) "التفسير" ٤/ ٥٢٣.

وأحياناً يعلق الآية على جملتين من جمل الآية السابقة لها وفي كل فائدة، كما في قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْمُ النَّاسِ وَالضَّرَاءُ وَذُرُوعُهُمْ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤]. ورتبها على قوله: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَ تَهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ ۗ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ٢١٣]. يقول في ذلك: «في النظم وجهان: الأول: أنه تعالى قال في الآية السالفة ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ والمراد أنه يهدي من يشاء إلى الحق وطلب الجنة فين في هذه الآية أن ذلك الطلب لا يتم ولا يكمل إلا باحتمال الشدائد في التكليف، فقال: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهِدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الضَّالِّينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢]. الثاني: أنه في الآية السالفة لما بين أنه هداهم لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه بين في هذه الآية أنهم بعد ذلك الهداية احتملوا الشدائد في إقامة الحق وصبروا على البلوى، فكذا أنتم يا أصحاب محمد لا تستحقون الفضيلة في الدين إلا بتحمل هذه المحن»^(١).

فتنوع المعنى بتنوع ترتيبها على جزئيات الآية السابقة فردها في الوجه الأول إلى فاصلة الآية وهو قوله ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾. وفي الثاني إلى الخبر المبهم في قوله ﴿فَهَدَى اللَّهُ...﴾ فجاءت بيانا وتفصيلا له.

وفي آيات أخرى يستحضر سياقات بعيدة ويرتب عليها الدلالة، وهذا يتطلب وعياً بالغاً بمنازل المعاني ومكان بعضها من بعض، ورهافة حس وشرف تأمل مع إحاطة بالأغراض؛ ليتمكن للآية في قلب الأخرى، نحو قوله تعالى: ﴿يَبْنَئُ عَادَمٌ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١]. فردها إلى آيتين إلى

(١) "التفسير" ٣٧٧/٢، ٣٧٨.

قوله: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف: ٢٩]. وقوله: ﴿يَبْنِيْءَ آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ لِبَاسًا يُؤَدِّي سَوَاءَ فَعَلْتُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسَ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ يَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٦] ف «لما أمر بالقسط في الآية الأولى، وكان من جملة القسط أمر اللباس وأمر المأكول والمشروب، لا جرم أتبعه بذكرهما، وأيضاً لما أمر بإقامة الصلاة في قوله: ﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٢٩]. وكان ستر العورة شرطاً لصحة الصلاة لا جرم أتبعه بذكر اللباس» (١).

وأيضاً قوله تعالى: ﴿إِنَّ الصِّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٥٨]. علقها بثلاثة سياقات «أحدها: أن الله تعالى بين أنها حول القبلة إلى الكعبة؛ لبتن إنعامه على محمد ﷺ وأمه بإحياء شرائع إبراهيم ودينه على ما قال: ﴿وَلَا تَمْنَعِي عَيْتَكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٠]. وكان السعي بين الصفا والمروة من شعائر إبراهيم على ما ذكر في قصة بناء الكعبة وسعي هاجر بين الجبلين فلما كان الأمر كذلك ذكر الله تعالى هذا الحكم عقيب تلك الآية.

وثانيها: أنه تعالى لما قال: ﴿وَلَتَبْلُؤَنَّكُمْ بَشَىءٌ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥] قال: ﴿إِنَّ الصِّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ وإنما جعلها كذلك؛ لأنها من آثار هاجر وإسماعيل مما جرى عليهما من البلوى واستدلوا بذلك على أن من صبر على البلوى لا بد وأن يصل إلى أعظم الدرجات وأعلى المقامات.

وثالثها: أن أقسام تكليف الله تعالى ثلاثة، أحدها: ما يحكم العقل بحسبه في أول الأمر فذكر هذا القسم أولاً وهو قوله: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢]. فإن كل عاقل يعلم أن ذكر المنعم بالمدح والثناء والمواظبة على شكره أمر

مستحسن في العقول . وثانيها: ما يحكم العقل بقبحه في أول الأمر إلا أنه بسبب ورود الشرع به يسلم حسنه، وذلك مثل إنزال الآلام والفقر والمحن، فإن ذلك كالمستقبح في العقول؛ لأن الله تعالى لا ينتفع به ويتألم العبد منه، فكان ذلك كالمستقبح، إلا أن الشرع لما ورد به وبين الحكمة فيه، وهي الابتلاء والامتحان على ما قال: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ﴾ فحيثئذ يعتقد المسلم حسنه ... وثالثها: الأمر الذي لا يهتدي لا إلى حسنه ولا إلى قبحه، بل يراه كالعبث الخالي عن المنفعة وهو مثل أفعال الحج من السعي بين الصفا والمروة، فذكر الله تعالى هذا القسم عقيب القسمين الأولين، ليكون قد نبه على جميع أقسام تكاليفه وذاكرًا لكلها على سبيل الاستيفاء والاستقصاء^(١).

فتأمل كيف كيف مكن للآية وجعلها صلة لجميع ما سبق، وكأن المعاني السابقة تصب في دلالتها، فإذا وضعتها في الإنعام السابق كانت من تمامه، وإذا استبصرت بها دلائل بشرى الصابرين بصرتك واستدللت بها على منزلتهم ووصولهم إلى أعلى الدرجات وخلود ذكرهم على مر الأزمان وتعاقب العصور فكانت كشاهد عيان للكلام السابق، وإذا أجريتها في سياق التكليف كانت قسيًا مكملًا للنوعين السابقين .

وذكر الألوسي وجهًا واحدًا من كلام الإمام وهو أن الصبر اقتضى بيان معالم الحج للحاجة إليه في قضاء مناسكه، واستقل برأي وهو أنه: «لما أشار سبحانه فيما تقدم إلى الجهاد عقب ذلك ببيان معالم الحج فكانه جمع بين الحج والغزو، وفيهما شق الأنفس وتلف المال»^(٢).

أي أنه يردّها إلى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتَ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١٥٤]. ولكن يعرض له إشكال وهو أن الآية ليست في باب الحث على الجهاد وذكر فضيلته وإنما جاءت تفصيلًا لقوله: ﴿أَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ﴾ [البقرة: ١٥٣]. وبيانًا له. وقد تجاوز الإمام الرازي هذا بجعلها في حيز الصبر وهو رأس المعنى الذي تولد عنه ذكر فضيلة الجهاد والحج .

(١) "التفسير" ٢/ ١٣٤، ١٣٥ .

(٢) "روح المعاني" ٢/ ٢٥، ٢٤ .

وأحياناً يعلق الآية بآية هي جذر لما بعدها من الآيات، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩] يرتبها على قوله: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩] يقول في ذلك: «اعلم أنه تعالى لما أمر بطاعة الله وطاعة الرسول بقوله: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ ثم زيف طريقة الذين تحاكموا إلى الطاغوت وصدوا عن الرسول، ثم أعاد الأمر بطاعة الرسول مرة أخرى فقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ ثم رغب في تلك الطاعة بقوله: ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَكُمْ وَأَشَدَّ تَنْفِيسًا * وَإِذَا لَا تَنفِيسَ لَهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا * وَلَهَدَيْنَهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ [النساء: ٦٦-٦٨]. أكد الأمر بطاعة الله وطاعة الرسول في هذه الآية مرة أخرى ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩].

وانظر إلى دقة الرازي في توجيه الآية وتعليقها برأس الكلام وأنف الغرض مع أنها من باب الترغيب فلم يدخلها في حيز ما قبلها أي في قوله: ﴿وَإِذَا لَا تَنفِيسَ لَهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا﴾ لأن هذا الترغيب خاص بفتنة معينة وسياق محدود وهم ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ٦٠]. وتتابع الآيات للرد على هذه الفتنة وترغيبهم في الطاعة، فإذا أجزاها على ما قبلها خصصت فردها إلى جذر الكلام ليعمم الترغيب ويؤكد الأمر بالطاعة.

وأيضاً قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٧٩]. يقول فيها: «اعلم أن هذه الآية من بقية الكلام في قصة أحد، فأخبر تعالى أن الأحوال التي وقعت في تلك الحادثة من القتل واهزيمة، ثم دعاء النبي ﷺ إياهم مع ما كان بهم من الجراحات إلى الخروج لطلب العدو، ثم

دعاؤه إياهم مرة أخرى إلى بدر الصغرى لموعد أبي سفيان، فأخبر تعالى أن كل هذه الأحوال صار دليلاً على امتياز المؤمن من المنافق؛ لأن المنافقين خافوا ورجعوا وشمتموا بكثرة القتل منكم، ثم ثبطوا وزهدوا المؤمنين عن العود إلى الجهاد، فأخبر سبحانه وتعالى أنه لا يجوز في حكمته أن يذكركم على ما أنتم عليه من اختلاط المنافقين بكم وإظهارهم أنهم منكم ومن أهل الإيمان بل كان يجب في حكمته إلقاء هذه الحوادث والوقائع حتى يحصل هذا الامتياز، فهذا وجه النظم^(١).

فالآية وإن كانت متصلة بالكلام في قصة أحد إلا أن تأخيرها ووضعها بعد سياق ذكر المنافقين وتشتيتهم للمؤمنين عن الجهاد؛ لتبين أن هذا النوع من الابتلاء لامتياز المؤمنين من المنافقين.

وأيضاً قوله تعالى: ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٩] يردها إلى قوله: ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تُعْقِلُونَ﴾ [آل عمران: ١١٨]. يقول: «واعلم أن هذا من تمام الكلام الأول وذلك لأن الكفار لما أَرَجَفُوا أن النبي ﷺ قد قتل ودعا المنافقون بعض ضعفة المسلمين إلى الكفر، منع الله المسلمين بهذه الآية عن الالتفات إلى كلام أولئك المنافقين»^(٢).

وقد أفاد هذا من ابن عطية حيث جعل «الإشارة بقوله: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ إلى المنافقين الذين جبنوا المسلمين وقالوا في أمر أحد: لو كان محمد نبياً لم يهزم، والذين قالوا: قد قتل محمد فلنرجع إلى ديننا الأول»^(٣).

(١) "التفسير" ٤٤١/٣

(٢) "التفسير" ٣٨٣/٣

(٣) "التفسير" ٣٦٥/٣

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فِيمَوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ﴾ [فاطر: ٣٦]. يقول فيها: «ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ﴾ عطف على قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ﴾ [فاطر: ٢٩]. وما بينهما كلام يتعلق بالذين يتلون كتاب الله على ما بينا»^(١).

وهذا قريب من الفن الخاص الذي ذكره عبد القاهر في العطف ووصفه بدقة المسلك؛ لأن الجملة فيه «لا تعطف على ما يليها ولكن تعطف على جملة بينها وبين هذه التي تعطف جملة أو جملتان»^(٢) فلا يجري العطف على التوالي والتعاقب ويمنع من ذلك التحدر أمر من المعنى^(٣).

فقوله: ﴿الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ [فاطر: ٣٥]. كل ذلك ممسك ومتولد بعضه من بعض، ثم يستقل قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾. ويتصل به ذكر أحوالهم وهم يصطرخون في النار، ثم يعطف هذا الفصل من المعنى على جذر الكلام السابق وهو جملة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ﴾ ويعلقها بها فـ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ليس داخلا فيما سبقه؛ لأن ما قبله تفصيل للفضل الكبير الذي أعد للسابق في الخيرات من أمة محمد ﷺ وهذا متفرع من قوله: ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ [فاطر: ٣١]. ثم ارتد الكلام إلى ذكر الفئة الأخرى من الذين يتلون الكتاب فيضعها بهذا العطف وضع المعنى المقابل لتلك الصورة.

وهناك آيات يجعلها نهاية للمقطع كله، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ، فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَوْا بِهِ مُمْنًا قَلِيلًا فَيَتْسَمَوْنَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [آل عمران: ١٨٧]. فالآيات السابقة لها حكمت شبهة لليهود الذين طعنوا بها في نبوة محمد ﷺ ثم امتدت الآيات وتتابع للإجابة عنه ثم «أتبعه بهذه الآية، وذلك لأنه

(١) "التفسير" ٢٤٢/٩

(٢) "دلائل الإعجاز" ص ٢٤٤.

(٣) السابق ٢٤٧.

تعالى أوجب عليهم في «التوراة» و«الإنجيل» ... أن يشرحوا ما في هذين الكتابين من الدلائل الدالة على صحة دينه وصدق نبوته ورسالته، والمراد منه التعجب من حالهم كأنه قيل: كيف يليق بكم إيراد الطعن في نبوته ودينه مع أن كتبكم ناطقة ودالة على أنه يجب عليكم ذكر الدلائل الدالة على صدق نبوته ودينه»^(١).

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ قَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: ٣٧]. يجعلها قفلاً لما امتد من آيات في محيط قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ [يونس: ٢٠].

فـ «القوم إنما ذكروا ذلك لاعتقادهم أن القرآن ليس بمعجزة وأن محمداً إنما يأتي به من عند نفسه على سبيل الافتعال والاختلاق، ثم إنه تعالى ذكر الجوابات الكثيرة في هذا الكلام، وامتدت تلك البيانات على الترتيب الذي شرحناه وفصلناه إلى هذا الموضع، ثم إنه تعالى بين في هذا المقام أن إتيان محمد ﷺ بهذا القرآن ليس على سبيل الافتراء على الله تعالى، ولكنه وحى نازل عليه من عند الله، ثم إنه تعالى احتج على صحة هذا الكلام بقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾ [يونس: ٣٨]. وذلك يدل على أنه معجزة نازل عليه من عند الله، وأنه مبرأ عن الافتراء والافتعال، فهذا هو الترتيب الصحيح في نظم هذه الآيات»^(٢).

فالآية يمتد بيانها ليقرر جميع ما سبقها من حجج تثبت نبوته وتكشف عن بطلان شبهتهم حول صدق معجزته الدالة على اصطفائه نبياً من دونهم، وكان بمثابة البراءة عن الافتراء على الله والتأييد لكونه منزلاً عليه من ربه

وفي بعض الآيات لا نجد شيئاً ظاهراً نتردد إليه الآية أو تتعلق به وإنما يجمع بينها الغرض والمساق، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ

(١) "التفسير" ٤٥٥/٣

(٢) "التفسير" ٢٥٢/٦

مِنَ الْجِنَّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَلَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ [الكهف: ٥٠]. فهي في الظاهر لا صلة بينها وبين ما قبلها قوله: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يُوَلِّتُنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يَغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظِلُّمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]. ولكن لما كان المقصود من ذكر الآيات المتقدمة الرد على القوم الذين افتخروا بأموالهم وأعوانهم على فقراء المسلمين، وهذه الآية المقصود من ذكرها عين هذا المعنى، ذلك لأن إبليس إنما تكبر على آدم؛ لأنه افتخر بأصله ونسبه وهؤلاء المشركون عاملوا المسلمين بعين هذه المعاملة ... فالله تعالى ذكر هذه القصة ههنا تنبيهاً على أن هذه الطريقة هي بعينها طريقة إبليس ثم إنه تعالى حذر عنها وعن الاقتداء بها، فهذا وجه النظم وهو حسن معتبر^(١).

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [الأنعام: ٢٩] فلا يردّها احتجاجاً على صحة القول بالحشر والنشر؛ لأن ذلك الدليل قد تقدم ذكره في أول السورة في قوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمُرُّونَ﴾ [الأنعام: ٢٩] .. بل المقصود من هذه الآية الردع والزجر عن هذا المذهب والقول^(٢).

وينبه الرازي على سلطة الغرض على تنزيل الآيات وترتيبها في مواقعها فتقديم قوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقَدُونَ﴾ [يس: ٨٠]. على ذكر خلق السموات والأرض في قوله: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ [يس: ٨١]. حيث «قدم ذكر النار في الشجر على ذكر الخلق الأكبر؛ لأن استبعادهم كان بالصريح واقعا على الإحياء حيث قالوا: ﴿مَنْ يُحْيِي الْعِظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٨]. ولم يقولوا: من يجمعها ويؤلفها. والنار في الشجر تناسب الحياة^(٣).

(١) "التفسير" ٧/٧١، ٤٧٢.

(٢) "التفسير" ٤/٥١٢.

(٣) "التفسير" ٩/٣٠٩.

أي أن الله سبحانه خلق النار في الشجر والشجر ليس معدنًا لها؛ لأنه خضرة وماء كما خلق الحياة في الرميم وليس الرميم معدنًا لها فإذا كان سبحانه جعل لكم من الشجر الأخضر نارًا وأنتم تأخذون هذه النار ولا تلتفتون إلى أنه سبحانه أودع لكم بقدرته الشيء في غير ما يتوقع وأوجده فيه فلا تستبعدوا حياة الرميم؛ لأنه قادر على إيجاد الحياة في العظام النخرة .

وتقديم وعد المؤمنين وتوسطه في سياق ذكر المستكفين قبل بيان وعيدهم وما يفعل بهم؛ لأنه لما كان الغرض من بيان عظم عقابهم شدة حسرتهم زحزح جملة وعد المؤمنين وداخلها في ثنايا الوعيد تصعيدًا للغرض ومبالغة في الإيحاء يقول: «واعلم أنه تعالى لما ذكر أنه يحشر هؤلاء المستكفين لم يذكر ما يفعل بهم بل ذكر أولًا ثواب المؤمنين المطيعين . فقال: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ﴾ [النساء: ١٧٣]. ثم ذكر آخرًا عقاب المستكفين المستكبرين فقال: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٧٣]. وإنما قدم ثواب المؤمنين على عقاب المستكفين؛ لأنهم إذا رأوا أولًا ثواب المطيعين ثم شاهدوا بعده عقاب أنفسهم كان ذلك أعظم في الحسرة»^(١).

وآيات أخرى يعلقها مرة بما سبقها من آيات وأخرى بالغرض الكلي كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَءَامَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ١٢]. ذكر في «اتصال هذه الآية بما قبلها وجوهاً؛ الأول: أنه تعالى خاطب المؤمنين فيما تقدم فقال: ﴿وَأَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَتَقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [المائدة: ٧]. ثم ذكر الآن أنه أخذ الميثاق من بني إسرائيل لكنهم نقضوه وتركوا الوفاء به، فلا تكونوا أيها المؤمنون مثل

أولئك اليهود في هذا الخلق الذميم؛ لثلاث تصيروا مثلهم فيها نزل بهم من اللعن والذلة والمسكنة .

والثاني: أنه لما ذكر قوله: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المائدة: ١١] . وقد ذكرنا في بعض الروايات أن هذه الآية نزلت في اليهود، وأنهم أرادوا إيقاع الشر برسول الله ﷺ فلما ذكر الله تعالى ذلك أتبعه بذكر فضائلهم وبيان أنهم كانوا مواظبين على نقض العهود والمواثيق .

والثالث: أن الغرض من الآيات المتقدمة ترغيب المكلفين في قبول التكليف وترك التمرد والعصيان، فذكر تعالى أنه كلف من كان قبل المسلمين كما كلفهم؛ ليعلموا أن عادة الله في التكليف والإلزام غير مخصوصة بل هي عادة جارية مع جميع عباده^(١) .

فألوجه الأول يجعلها تفصيلاً للميثاق الذي ذكرهم به في آيات متقدمة عنها، وفي الثاني متفرعة عن ما قبلها، أما الثالث فيردها إلى الغرض الكلي من السياق وهو ترغيب الناس في قبول التكليف والانقياد لها .

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعَيْنٍ﴾ [الأنبياء: ١٦] يقول: «في تعلق هذه الآية بما قبلها وجهان: الأول: أنه تعالى لما بين إهلاك أهل القرية لأجل تكذيبهم أتبعه بما يدل على أنه فعل ذلك عدلاً منه ومجازاة على ما فعلوا فقال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعَيْنٍ﴾ أي وما سويها هذا السقف المرفوع وهذا المهاد الموضوع وما بينهما من العجائب والغرائب كما تسوى الجبابرة سقوفهم وفرشهم للهو واللعب، وإنما سويهاهم لفوائد دينية ودنيوية .. والثاني: أن الغرض منه تقرير نبوة محمد ﷺ والرد على منكريه؛ لأنه أظهر المعجزة عليه، فإن كان كاذباً كان إظهار المعجزة عليه من باب اللعب وذلك منفي عنه، وإن كان صادقاً فهو المطلوب، وحيث يفسد كل ما ذكره من المطاعن^(٢) .

(١) "التفسير" ٤/ ٣٢٢، ٣٢٣ .

(٢) "التفسير" ٨/ ١٢٤، ١٢٥ .

وردها إلى الغرض الكلي تفرد به الرازي؛ لأن من سبقوه حملوها على ما قبلها فجاءت وعظاً واحتجاجاً عليهم^(١)، فهي تعقيب على معنى التهديد في قوله: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ [الأنبياء: ١١] وتفريع عليها.

وبعض الآيات لا يردها إلى الغرض مباشرة، وإنما يقتص الجذر الذي تفرعت عنه الآيات السابقة لها وما أحدث فيها من خصوصيات وبها غذاها من أحوال، ولا يعلق الآية بالآية قبلها إلا بعد تمحيص بيان فيمكن لمعناها ويفرعا عليها.

فقوله تعالى: ﴿سَلِّ بَنِي إِسْرَءِيلَ كَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ وَمَنْ يَبْدُلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [البقرة: ٢١١]. ليس الأمر فيها للطلب لكونه عليه السلام أحوالهم بإعلام من الله تعالى، وإنما المقصود منها المبالغة في الزجر والتهديد «وبيان هذا الكلام أنه تعالى قال: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْخُلُوا فِي السَّلَامِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [البقرة: ٢٠٨]. فأمر بالإسلام ونهى عن الكفر، ثم قال: ﴿فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٠٩]. ثم بين ذلك التهديد بقوله: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ [البقرة: ٢١٠]. ثم ثلث ذلك التهديد بقوله: ﴿سَلِّ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ يعني سل هؤلاء الحاضرين أنا لما آتينا أسلافهم آيات بينات فأنكروها، لا جرم استوجبوا العقاب من الله تعالى، وذلك تنبيه لهؤلاء الحاضرين على أنهم لو زلوا عن آيات الله لوقعوا في العذاب كما وقع أولئك المتقدمون فيه، والمقصود من ذكر هذه الحكاية أن يعتبروا بغيرهم، كما قال تعالى: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَتَّوَلَّى الْأَبْصَارِ﴾ [الحشر: ٢]. وقال: ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١]. فهذا بيان وجه النظم^(٢).

(١) "جامع البيان" ٩/١٧، و"المحرر" ابن عطية ١/١٣٢.

(٢) "التفسير" ٣٦٥/٢.

وتأمل دقة الإمام فلم يعلقها مباشرة بالآية الجذر وإنما رتبها على المعنى الذي تكونه مجموع تلك الآيات وهو التهديد فكانت تصعيداً له .

وهناك آيات يجعلها مرة متصلة وأخرى غرضاً مستقلاً، كما في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا نَقَّالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٧]. فلها وجهان: «الأول: أنه تعالى لما ذكر دلائل الإلهية وكمال العلم والقدرة من العالم العلوي وهو السماوات والشمس والقمر والنجوم، أتبعه بذكر الدلائل من بعض الأحوال العالم السفلي ... الثاني: أنه تعالى لما أقام الدلالة في الآية الأولى على وجود الإله القادر العالم الحكيم الرحيم، أقام الدلالة في هذه الآية على صحة القول بالحشر والنشر والبعث والقيامة؛ ليحصل بمعرفة هاتين الآيتين كل ما يحتاج إليه في معرفة المبدأ والمعاد»^(١).

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُوا الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢]. ف«يمكن أن يقال: هذه الآية من بقية أحكام الجهاد، ويمكن أن يقال: إنها كلام مبتدأ لا تعلق له بالجهاد ... وتقريره أن يقال: إنه تعالى لما بين في هذه أمر الهجرة ثم أمر الجهاد، وهما عبادتان بالسفر، بين أيضاً عبادة التفقه من جهة الرسول ﷺ وله تعلق بالسفر، فقال: وما كان المؤمنون لينفروا كافة إلى حضرة الرسول؛ ليتفقوا في الدين بل ذلك غير واجب وغير جائز، وليس حال كحال الجهاد معه الذي يجب أن يخرج فيه كل من لا عذر له»^(٢).

ونبه أيضاً إلى أن هناك آيات تقع في البين ولها غرض كما في قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا

(١) "التفسير" ٢٨٧، ٢٨٦/٥ .

(٢) "التفسير" ١٧١، ١٧٠/٦ .

أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ [النساء: ٦٢]. ذكر في «اتصال هذه الآية بما قبلها وجهين، الأول: أن قوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ كلام وقع في البين، وما قبل هذه الآية متصل بما بعدها ... يعني أنهم في أول الأمر يصدون عنك أشد الصد ثم بعد ذلك يخيئونك ويخلفون بالله كذباً على أنهم ما أرادوا بذلك الصد إلا الإحسان والتوفيق، وعلى هذا التقدير يكون النظم متصلاً، وتلك الآية وقعت في البين كالكلام الأجنبي ... إلا أن هذا الكلام الأجنبي شرطه أن يكون له من بعض الوجوه تعلق بذلك المقصود ... والآية كذلك لأن أول الآية وآخرها في شرح قبائح المنافقين وفضائحهم وأنواع كيدهم ومكرهم فإن الآية أخبرت بأنه تعالى حكى عنهم في أول الآية أنهم يتحاكمون إلى الطاغوت مع أنهم أمروا بالكفر به، ويصدون عن الرسول مع أنهم أمروا بطاعته، فذكر بعد هذا ما يدل على شدة الأحوال عليهم بسبب هذه الأعمال السيئة في الدنيا والآخرة فقال: ﴿فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي فكيف حال تلك الشدة وحال تلك المصيبة، فهذا تقرير هذا القول، وهذا قول الحسن البصري واختيار الواحدي من المتأخرين .

الوجه الثاني: أنه كلام متصل بما قبله وتقديره أنه تعالى لما حكى عنهم في الآية المتقدمة أنهم يتحاكمون إلى الطاغوت، ويفرون من الرسول عليه الصلاة والسلام أشد الفرار دل ذلك على شدة نفرتهم من الحضور عند الرسول والقرب منه فلما ذكر ذلك، قال: ﴿فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾، يعني إذا كانت نفرتهم من الحضور عند الرسول أوقات السلامة هكذا، فكيف يكون حالهم في شدة الغم والحسرة إذا أتوا بجناية خافوا بسببها منك ثم جاءوك شاءوا أم أبوا يخلفون بالله على سبيل الكذب: إنا ما أردنا بتلك الجناية إلا الخير والمصلحة، والغرض من هذا الكلام بيان أن ما في قلوبهم من النفرة عن الرسول لا غاية له، سواء غابوا أم حضروا، وسواء بعدوا أم قربوا، ثم أنه تعالى أكد هذا المعنى بقوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [النساء: ٦٣]. يعني أنه لكثرة وقوته لا يقدر أحد على معرفته إلا الله، ثم لما عرف الرسول ﷺ شدة بغضهم ونهاية عداوتهم ونفرتهم أعلمه أنه كيف يعاملهم فقال: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ

﴿فَإِنْ أَنْفُسُهُمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾ [النساء: ٦٣]. وهذا الكلام على ما قررناه منتظم حسن الاتساق لا حاجة فيه إلى شيء من الحذف والإضمار، ومن طالع كتب التفسير علم أن المتقدمين والمتأخرين كيف اضطربوا فيه، والله أعلم^(١).

وكأن بالرازي يستحسن كونها متصلة بما قبلها ويؤكد على ذلك باتساق النظم وجريانه بعدها على هذا الوجه .

وأيضاً توسط آية الخلع بين الطلقة الأولى والطلقة الثالثة وهي «كالشيء الأجنبي»، ونظم الآية: الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجاً غيره، فإن قيل: فإذا كان النظم الصحيح هو هذا فما السبب في إيقاع آية الخلع فيما بين هاتين الآيتين؟

قلنا: السبب أن الرجعة والخلع لا يصحان إلا قبل الطلقة الثالثة، أما بعدها فلا يبقى شيء من ذلك، فلهذا السبب ذكر الله حكم الرجعة، ثم أتبعه بحكم الخلع، ثم ذكر بعد الكل حكم الطلقة الثالثة؛ لأنها كالخاتمة لجميع الأحكام المعتبرة في هذا الباب والله أعلم^(٢).

فتعقيب آية الخلع وهو قوله: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِخْسَارٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُعِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُعِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢٩]. بالفاء بعد المفاداة بالطلاق يوهم بأن الخلع من الطلاق، وعلى هذا احتج بعض الأحناف^(٣)، فنبه الإمام على سبب اقترانها بالرجعة وتقديمها على حكم الطلقة الثالثة لمناسبتها للأولى في أنها لا يصحان إلا قبل الطلقة الثالثة فأخرت؛ لأنها كالمتممة لأحكام هذا الباب.

(١) "التفسير" ١٢٣، ١٢٢/٤ .

(٢) "التفسير" ٤٤٨/٢، وينظر: ١٣٩/٤ و ٥٩/٨ .

(٣) "أحكام القرآن" ابن العربي ٢٦٥/١ .

ويكاد يكون ما ذكره حازم في التصرف في مقاصد الكلام وجهاته تلخيصًا وتنظيرًا محكمًا لتحليل الرازي لأنواع التعليقات وجهاتها ونسب المعاني داخل الغرض الواحد. فصنف جهات التصرف في صنفين: «ضرب يقع في الكلام مقصودًا لنفسه. وهو ما كان له بالغرض المقول فيه علاقة وله إليه انتساب بوجه يوجب ذكره، والصنف الثاني: ما لم يكن له بالغرض علاقة ولكن له علاقة ببعض الجهات المتعلقة بالغرض، فيذكر تابعًا لما ذكر...، وقد يكون له بالغرض علاقة إلا أنه لم يذكر إلا من حيث ما هو تابع لغيره ومتعلق به»^(١).

والعلاقات السابقة لا تخرج في جميع صورها عن هذين الصنفين فهو إما أن يعلقها بها قبلها أو يردها إلى جهات مختلفة من المعاني المتفرعة عن الغرض الأصل، أو ينعطف بها إلى الجملة الأم وجذر المعنى، وتارة يعلقها بالغرض الكلي المتحصل من مجموع الآيات.

فالبحث في تناسب الآيات يحيط بتنامي المعاني داخل الغرض الواحد وتكاملها وتماسكها، فأجزاء الكلام وعناصره المختلفة تتقاذف في مواقع مختلفة وتوزع فروعها بنسب محكمة، ومن خلال هذا التقاذف والتوزيع يتشكل للمعنى هيئة متفقة وسمت متشابهة.

فالتراث العربي - وإن تباعد سياق النظرية عن التطبيق - استوعب أحوال التماسك وتتبع وجوه انتساب الأجزاء بعضها إلى بعض وخصوصيات اختيار مواقع الأجزاء، وأن ذلك وفق اعتبارات من الأغراض فـ «الجهة الواحدة من الأول يمكن أن يناط بها جهات ثوانٍ كثيرة على أنحاء من الاستدراج والاستطراد وما جرى مجرى ذلك من الانتقالات المتنوعة بتنوع المقاصد»^(٢).

ووظيفة المفسر والناقد هو إدراك هذه النسب ورد جهات القول وتعليقها بالأصل المتفرعة عنه ثم رد الفروع إلى أصل جامع، وهذا المسلك يصحح وحدة الكلام ويستدل به على وجودها أو انعدامها. وليس الوحدة الساذجة التي تبرز للناقد وغيره سبيلها سبيل المنطق لا تذكر في محاسن الكلام، ولا يقف عندها المفسرون؛ لأنها من علم الظاهر الذي تستوي عنده الأقدام.

(١) «منهاج البلغاء» ص ٢١٦.

(٢) «منهاج البلغاء» ص ٢١٧.

وكان التماسك بين الآيات موضع عناية المتأخرين فلفتوا إلى ما فيه من إحكام وما وراءه من أسرار يجوز بها الكلام البلاغة ليدخل في نطاق المعجز ؛ لأن ذلك التماسك لا يتأتى إليه إلا بغزارة الجملة القرآنية وما طوته تحت بيانها من وشائج تحكم التعاليق بين أجزاء الكلام فتجتمع أعناق المعنى قبلها، وتوهم بمعنى تهيئ به للمعنى بعدها . وقد نبه الحرالي إليه في نص كريم يقول: « في كل آية معنى تنتظم به ما قبلها ومعنى تنهيا به للانتظام بها بعدها، وبذلك كان انتظام الآي داخلا في معنى الإعجاز الذي لا يأتي الخلق بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا^(١) ».

فالجملة القرآنية تؤسس معنى في ذاتها وتطوي معاني في بنائها تنسب بعضها إلى آيات سابقة وبعضها معنى يهيئ لآية لاحقة، وهذا نوع آخر من غزارة البيان القرآني غير الذي نبه عليه الشيخ عبد القاهر، فتلک غزارة من مكونات التراكيب والإصابة في وضعها واستعمال بعضها مع بعض وتلاحقها حتى تكثر في العين^(٢) . أما الغزارة التي في التناسب فجاءت من تداخل المعاني و تشابكها حتى تصبح كل آية أشبه بقناة تصب فيها المقاصد السابقة ثم تشق مجرى لمعنى تالي ويزيدك بيانا قوله: « فإن الإجمال في القرآن بمنزلة نطق الأكوان والألوان والبيان فيه بمنزلة تخطيط الصور^(٣) » . فتأتي الآية « إظهارا لإفصاح ما أفهمه مضمون الخطاب الأول لتنسق الآيات وتجمع الآية ما في تفصيل لاحقتها^(٤) ».

وفصل ذلك ما ذكره البقاعي في تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنَّ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١٥٤] يقول: « ولما كان الصبر واقعا على أمور أشقها الجهاد ثم الحج ثم الصوم، وكان بعض الصحابة - رضي الله تعالى عنهم - قد سألوا عمن مات منهم على قبلة بيت المقدس فيين لهم ما صاروا إليه بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ

(١) "تراث أبي الحسن الحرالي" ص ١٨٨ .

(٢) "دلائل الإعجاز" ص ٨٨ .

(٣) "تراث أبي الحسن" الحرالي ص ٣٥٨، ٣٥٧ .

(٤) السابق ص ٣٠٧ .

اللَّهُ لِيُضِيعَ إِمْعَانَكُمْ ﴿١٤٣﴾ [البقرة: ١٤٣]. تلو آية الصبر بتبيين حال الشهداء المقتولين في الجهاد من المؤمنين دفعا لظن أنهم أموات، والتفتاتا إلى ما أشار به إلى صيرورة الأمر إلى الحرب حيث عاب المانعين للمسجد وأخبر بأنه سيحصل لهم خزي في الدنيا بالقتل والأسر وعذاب عظيم في الآخرة بالنار والسخط، وإيحاء إلى أنه سيأذن لهم في مقارعة من أمرهم بالصبر على أذاهم من أهل الكتاب حتى يمحقهم السيف ويسكتهم الذل والخوف^(١).

فأجملت ما نبأت به الآيات السابقة من أمر الصّدّ عن المسجد وما سيحصل لهم من خزي فهيأت لمعنى تالٍ في معناه وهو الأذن بقتال المشركين بعد أن أمر سابقا بالصبر على أذاهم.

فالآية لفت في بنائها معاني نشرها ووزعها تعليقها ونسبتها إلى سياقات سابقة ولاحقة. وقد يتعد سياق التصريح عن الإجمال الذي هيا له فيكون ذلك جمعا لأطراف الكلام وثني بعضها على بعض؛ ليحكم تماسك الكلام كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَغَيَّرَ اللَّهُ أَخْبَدُ وَلِيًّا فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُهُ وَلَا يُطْعَمُ قُلُوبُ إِيْنِ أَمَرْتُ أَنْ أَكُونُ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَتْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٤]. قال فيها: «وفيه أيضا إيحاء إلى أنه كما خلقكم كلكم من طين على اختلافكم في المقادير والألوان والأخلاق وهو غني عنكم، فكذلك خلق المطعومات على اختلاف أشكالها وطعومها ومنافعها وألوانها من طين، وجعلها منافع لكم وهو غني عنها، وسيأتي التصريح بذلك في قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٩٩]. المستوفي في مضماره: ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذَكَرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِبَيِّنَاتٍ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام: ١١٨].^(٢)

فالمعنى طوي في ثنایا لغة الآية الأولى وأسفر ووضح في سياق آخر فضل دلالة ورسم تقاسيمه وشكل له هيئة بعد أن كان إملاحة خفية، وهذا معنى ما ذكره الحرالي من أن الإجمال إيحاء والتفصيل تخطيط للصور ونبه البقاعي على حال الآيات التي بين المعنى في صورته

(١) "نظم الدرر" ٢٧٨/١.

(٢) "نظم الدرر" البقاعي ٥٩٧/٢.

بجملًا ثم مفصلاً فقال في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ مَا أَتَتْخَذُ أصْنَامًا ۖ إِنَّهُ يَفْزَحُ أَرْثَكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٧٤] «كان في هذه المحاجة التصريح بها لوح إليه أول هذه السورة من إبطال هذا المذهب، وانعطف هذا على ذاك أي انعطاف ! وصار كأنه قيل: ثم الذين كفروا بربهم يعدلون الأصنام والنجوم والنور والظلمة، فنبههم يا رسول الله على ذلك بأنه لا متصرف غيرنا، اذكر لهم أنا الذي خلقتهم وخلقت جميع ما يشاهدون من الجواهر والأعراض، فإن تنبهوا فهو حظهم، وإلا فاذا لم يحاجة خليلنا إبراهيم عليه السلام» ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ﴾^(١).

فجمله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ﴾ طوت ما بينها وبين الآية الأولى من آيات والتحمت بها؛ لأنها كالدليل القاطع المصدق لما لوح به ببيان تلك.

وأيضاً قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢]^(٢).

لما عقب سبحانه ما ضرب سابقاً من الأمثال بقوله تعالى: ﴿وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ [النحل: ٧٢]. وتلاه بذكر الساعة بقوله تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ﴾ [النحل: ٧٧]. إلى آخره، واستمر فيما مضت مناسباته آخذاً بعضه بحجز بعض حتى ختم بالساعة وآمن من الظلم فيها، وبين أن الأعمال هناك هي مناط الجزاء - عطف على ما مضى من الأمثال المفروضة المقدرة المرغبة مثلاً محسوساً موجوداً، مبيناً أن الأعمال في هذه الدار أيضاً مناط الجزاء، مرهبا من المعالجة فيها بسوط من العذاب، فقال تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ﴾^(٣).

(١) "نظم الدرر" البقاعي ٦٥٧/٢.

(٢) "نظم الدرر" البقاعي ٦٥٧/٢.

(٣) السابق ٣١٦/٤.

وهذا الارتداد ليس بين المعاني فحسب وإنما ينظر فيه إلى التقاء أطراف الأساليب وثني أسلوب على نظيره في السورة . ونبه الإمام البقاعي على خصوصية كل مثل فالثاني داخله شوب من معاني الآيات السابقة له حيث جرى فيها ذكر الأعمال وأنها مناط الجزاء فدل بذلك على تمكنها في موقعها بما لا يحسن معه انتزاعها ووضع نظيرتها مكانها .

وموقع الآية من الآية وحسن اقترانها وإيلانها لما قبلها لم يحل دون ملاحظة عناصر شبيهة بها تناظرها وتنظم معها في قرن . كما في قوله تعالى: ﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتِمُّ النِّسَاءَ الَّتِي لَا تُوْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَرَرَّعْبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا ﴾ [النساء: ١٢٧] . فنبه على مجيئها عقيب ذكر الإسلام في قوله: ﴿ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ﴾ [النساء: ١٢٣] ، مع قوله فيما قبل: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴾ [النساء: ١٢٥] . قال فيها: «وما أنسب ذكر هذا الحكم الذي كثرت فيه المراجعة على وجه يؤذن بعدم إذعان بعض النفوس له عقب آية الإسلام الذي معناه الانقياد والخضوع، والإحسان الذي صار في العرف أكثر استعماله للإعطاء والتألف والعطف لا سيما للضعيف وذكر إبراهيم عليه الصلاة والسلام الذي تقدم أنه أتم ما ابتلاه الله تعالى به من الكلمات ووفى بها من غير مراجعة ولا تلغم، وأنه كان حنيفًا مبالًا مع الدليل؛ تعنيفًا لمن قام عليه دليل العقل وأتاه صريح النقل وهو يراجع ! وإذا تأملت قوله تعالى: ﴿ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ﴾ [النساء: ١٢٣] . مع قوله فيما قبل: ﴿ وَلِيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَةً ضِيعًا حَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ [النساء: ٩] . لاحت لك أيضًا مناسبة بديعة»^(١).

(١) "نظم الدرر" البقاعي ٣٢٨/٢.

وهذا المنهج في تتبع الكلام واستدعاء ما تشابه منه على تباعد مطارح المعاني وتلفعها في ثنایا اللغة وسهلها من ذلك الخفاء هو المنهج الذي يحكم تماسك الكلام ويسدي لحمته ويسد ما في النظم من ثغرات توقع البعض في وهم فقدان الوحدة .

وتميز البقاعي في دراسته للتعاليق بين الآيات بالتنبيه على ما يفيدته الترتيب من معاني إنتاجية يمكن لتشكيلها معاني سابقة، والمعاني الإنتاجية ليست التنبيهات التي ذكرها الرازي وغيره من علماء المناسبات وإنما هي وصف في عمل الإبانة، وإنشاء الكلام والدواعي التي مكنت لمجيء الآية عقيب الآية وكيف تحلفت من سابقتها وعول في ذلك على أمرين: أحدهما: ملاحظة المعنى وما يستلزمه من معان تتفرع عنه وتسدي بيانه، كما في قوله تعالى: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ بعد قوله: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ يقول: «ولما كانت أمانيتهم أنهم لا يجازون بأعمالهم الخبيثة أنتج ذلك لا محالة قوله: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾»^(١).

وكذلك قوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ [النحل: ٣٦]. انسلت من اختيار الجمع لكلمة رسول في قوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبْدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَنَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [النحل: ٣٥]. ف «لما كان جمع الرسل مفهوماً لتوزيعهم على الأمم، كان موضع توقع التصريح بذلك، فقال: دافعاً لكرب هذا الاستشراف، نافياً لطروق احتمال، دالاً على أن هذا القول السابق منصب إنكاره بالذات إلى اعتراضهم على الإرسال ومسلماً لنيه صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وحاتاً لهم على الاعتبار، عطفاً على ما تقديره - : فلقد بعثناك في أمتك هذه لأن يعبدوا الله وحده ويجتنبوا الطاغوت، فمنهم من هدينا، ومنهم حقت عليه الضلالة»^(٢).

(١) "نظم الدرر" ص ٣٢٣.

(٢) "نظم الدرر" ٢ / ٣٢٣.

أو ينتج المعنى من مجموع آيات كما في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٣٤]. ذكر أنه «لما أنتجت هذه الآيات كلها أنهم معاندون لربهم، وأنهم يريدون بهذه السؤالات أن يضللوا سبيله ويحتقروا مكانته ويهدوا منزلته، علم قطعاً أنه يعمر بهم دار الشقاء»^(١).

وكذلك موقع قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَّكُمْ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٧٠] بعد أن «وضح بالحجاج معهم الحق، واستبان بمحو شبههم كلها من وجوه كثيرة الرشد، وأوضح فساد طرقهم، وأبلغ في وعيدهم، أنتج ذلك صدق الرسول وحقيقة ما يقول»^(٢).

وثانيهما: ملاحظة ما يتوقعه المخاطب ويستشرفه من لوازم تثيرها تلك المعاني فيأتي ما بعدها إشباعاً لهذا التوقع فيتحدر الكلام إزالة لذلك التشوف كما في تمكن قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]. في سياق ما سبقها من آيات فقد «كان آخر هذه القصص في الحقيقة إبطال كل ما خالف الإسلام الذي هو معنى ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩]. وما بعد ذلك إنما جره ختم الآية بدعوى أن المخالفين من الخاسرين، وختم ذلك بأن من مات على الكفر لا يقبل إنفاقه للإنفاذ مما يلحقه من الشدائد لا بدفع لقاهر ولا بتقوية لناصر، فتشوفت النفس إلى الوقت الذي يفيد فيه الإنفاق وأي وجوه أنفع، فأرشد إلى ذلك وإلى أن الأحب منه أجدر بالقبول»^(٣).

وأيضاً محيى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: ٨٧]. في سياق ذكر ما أخذه الله

(١) "نظم الدرر" ٢٦٧/٤.

(٢) "نظم الدرر" البقاعي ٣١٦/٥.

(٣) "نظم الدرر" ١٢٥/٢.

على بني إسرائيل من ميثاق، قال: «لما بين لهم أنهم نقضوا العهود فأحاطت بهم الخطايا فاستحقوا الخلود في النار توقع السائل الإخبار عن سبب وقوعهم في ذلك هل هو جهل أو عناد فبشع سبحانه ذلك عليهم بحرف التوقع فقال: ﴿وَلَقَدْ﴾ باللام التي هي تأكيد لمضمون الكلام و«قد» هي لوقوع مرتقب مما كان خبراً أو مما سيكون علماً»^(١).

وفي جميع هذه النصوص نجد الإمام البقاعي يستخدم كلمة «أنتج» ويجعل ذلك الموقع ومحجى الآية ردفاً ما قبلها علماً قطعياً، والرازي لفت إلى بعض من هذا في تحليله لبعض الآيات، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: ١٠] جعلها «تتمية للإرشاد وذلك لأنه لما قال: ﴿وإن طآفئان من المؤمنين أقتتلوا﴾ كان لظان أن يظن أو متوهم أن يتوهم أن ذلك عند اختلاف قوم، فأما إذا كان الاقتتال بين اثنين فلا نعم المفسدة فلا يؤمر بالإصلاح هناك عند الاقتتال، وأما إذا كان دون الاقتتال كالتشاتم والتسافه فلا يجب الإصلاح فقال: ﴿بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ وإن لم تكن الفتنة عامة وإن لم يكن الأمر عظيماً كالقتال بل لو كان بين رجلين من المسلمين»^(٢).

ولكنه لم يتبع الفكرة في كل الآيات كما فعل البقاعي حيث جعلها منهجاً في تحليل آيات القرآن فدل بها على تناسج معانيها وتناسبها وقوة إحكامها وأخذ بعضها بحجز بعض.



(١) "نظم الدرر" ١٨٤/١

(٢) "التفسير الكبير" ١٠٦/١٠، وينظر أيضاً: ٤٢/١٠، و٢٦٤/٨.

الفصل الثالث

التناسب بين

الأغراض داخل السورة

الفصل الثالث

التناسب بين الأغراض داخل السورة

كشف الفصل السابق عن المدى الذي وصلت إليه نظرية النظم بإجرائها في مجالات أعم من مجالها إلى علاقات الآيات داخل السورة وما بينها من نسب أوجبت تجاوزها وتجانسها في بناء كلي، وهي وإن شطت بالنظرية إلى علاقات أبعد غورًا من العلاقة بين الجملة والجملتين إلى ملاحظة التجاوب وأسباب الوصل ونسبها المعنوية بين الآيات في مساحات السورة بأكملها، وابتعدت عن المألوف إلا أنها تظل في دائرته لم تحتث الفكرة من أصولها، وإنما تطاولت وتسامق فرعها وعلا على أصله، بينما نجد بحثه لتناسب الأغراض امتد بالفكرة من الهيئات التي تشكل بالرجوع إلى الآيات الأخرى في حيز محدود إلى الهيئات المتصورة من علاقات الانتظام والتحويلات في البنى المعنوية والأغراض داخل السورة بأكملها على اختلاف توزيع هذه الأغراض قريبًا وبعدًا واتلافًا واختلافًا.

ومعاني القرآن هي مجال من مجالات الإعجاز نبه أكثر العلماء عليه، لكن توجهت أنظارهم تلقاء طبيعة المعاني ووجه تأديتها وكرم أصولها وصحتها واستقامتها في العقول، أشار إليه الخطابي في قوله: «وأما المعاني فلا خفاء على ذي عقل أنها هي التي تشهد لها العقول بالتقدم في أبوابها والترقي إلى أعلى درجات الفضل من نعوتها وصفاتها»^(١).

وهذا أصل معتبر ولكن أصل الأصول في هذا الباب هو تأليفه لمعانيه وجمع معاقدها، والملائمة بين ما تمايز ظاهره فعاد معنى واحد لا اختلاف فيه ولا تباين، وهذا من البلاغة الخاصة بالقرآن تجد الأغراض تترامى ويتقاذف بها القول في نواحي مختلفة وأودية متباعدة ثم تجد أصولًا عامة تستوعب ذلك كله وتجعله بابًا واحدًا.

وليس المعول في تأليفه على اللغة ونظمها وإنما هو ضرب عجيب من التأليف يصير المختلفات مؤتلفات ويعيد ما تنافر آحادًا^(٢) سيملك في ذلك زيادة تأمل لحركة المعنى داخل منظومة السورة كلها ثم ملاحظة ضمنية الغرض إلى سابقه وكيف نشرطيه وانسل من جنباته ووطأ له مهاده، فتمكن في موضعه.

(١) "بيان إعجاز القرآن" ص ٢٧.

(٢) "إعجاز القرآن" الباقلاني ص ١٩٦، ١٩٧.

وقد فطن له عرب الجاهلية فتقاصر ببيانهم عن مجاراته ورضوا بالعجز عن التحدي، فليس لفظه وحده هو الذي بهر وإنما تضاعف الإعجاز لما رأوا تنوعه في تصريف المعاني المتنفة والأصول الواحدة في أنحاء مختلفة، ولخص الوليد بن المغيرة ذلك بقوله: «إن أعلاه لمورق، وإن أسفله لمعذق» والمعذق: كل غصن له شعب، فهذه الكلمة على وجازتها استوعبت أسلوب القرآن لفظاً ومعنى، وما يعنيني هو قوله «أسفله لمعذق» وكأن هذا القرشي هالته أصول معاني القرآن وما يداخلها من حياة ونماء تتفرع ثم تكون أصولاً يتفرع عنها فروع، وهكذا تنام وامتداد لا نظير له ولا يضبطه بيان إنساني.

ومقولة الوليد تستوعب ثقافة ذلك الزمن وأن العربي لم يكن يعنى بالألفاظ فحسب وإنما ينظر إلى المعاني وبلاغتها، وبلاغتها ليست في إيصالها وتصويرها وإنما في إحكام بناء الكلام وبسطه وكيف يكون متكاثراً في مباني اللغة ومتامياً في أصوله ذاتها.

ولم يغفل علماء البيان حينما جمعوا مذاهبه وقوانينه هذا الأصل بل جعلوا اتساق النظم وتسديد خصائص معانيه شرطاً في البلاغة لا يعذر المتكلم بتركه ولا يرخص له التهاون به وإن شغب شاغب، فكان ثبات القول هو صورة لثبات جنان قائله وقوة منته، وهنا ربط جيد بين نفس القائل والقول؛ لأن اقتدار المتكلم على ضبط أحوال نفسه وسياستها هي سياسة محكمة للقول وتصريفه وإحكامه، يقول الجاحظ: «وأشد أبو عبيدة في الخطيب يطول كلامه، ويكون ذكوراً لأول خطبته وللذي بنى عليه أمره وإن شغب شاغب فقطع عليه كلامه أو حدث عند ذلك حدث يحتاج فيه إلى تدبير آخر، وصل الثاني من كلامه بالأول، حتى لا يكون أحد كلاميه أجود من الآخر، فأنشد:

وإن أحدثوا شغباً يقطع نظمها فإنك وصال لما قطع الشغب

ولو كنت نساجاً سددت خصاصها بقول كطعم الشهد مازجه العذب»^(١)

(١) «البيان والتبيين» ٢١٥/١.

وهذا الوجه من أبواب البلاغة الغائبة في دراسة السابقين للإعجاز وإن نهبت إليه أقلام ودلت عليه إيماء دون أن ينص على الشيء ما هو ويكشف عن وجهه، باستثناء ما وجدناه عند الباقلاني من شذرات نظر بها له وأجراها في سورة من سورة نبه فيها على نسب المعاني وأصولها واتتلاف فروعها على تنوعها، وأن هناك وشيجة تضبط حركة المعنى وتوجه دلالاته لمقصد كلي تلتقي عنده المعاني فوقف عند بعض مقاطعها وفصولها ونبه على بلاغة الوصل فيها يستعصي فيه الوصل وكيف عاد مؤتلفاً واجتمع مؤنساً ففي قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ، وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ [غافر: ٧].

يقول: «ذكر المؤمنين بالقرآن بعد ذكر المكذبين بالآيات والرسول.... وهذا الكلام مفصول، تعلم عجيب اتصاله بما سبق ومضى وانتسابه إلى ما تقدم وانقضى، وعظم موقعه في معناه، ورفيع ما يتضمن من تحميدهم وتسييحهم»^(١).

ثم قال في تناسب آيات التوحيد في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُم ءَايَاتِهِ، وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ﴾ [غافر: ١٣].

«وإنما ذكر هذين الأمرين اللذين يختص بالقدرة عليهما؛ لتناسبهما في أنهما من تنزيله من السماء، ولأن الرزاق الذي لو لم يرزق لم يمكن بقاء النفس، تجب طاعته والنظر في آياته»^(٢).

وقد ذكر هذا الباب في مواقع متفرقة من الكتاب في قوله: «إن القرآن على اختلاف فنونه وما يتصرف فيه من الوجوه الكثيرة والطرق المختلفة يجعل المختلف كالمؤتلف والمتباين كالمتناسب والمتنافر في الأفراد إلى حدّ الأحاد، وهذا أمر عجيب تبين به الفصاحة وتظهر به البلاغة، ويخرج معه الكلام عن حدّ العادة ويتجاوز العرف»^(٣).

(١) «إعجاز القرآن» ص ١٩٨.

(٢) «إعجاز القرآن» ص ١٩٩.

(٣) السابق ص ٣٨.

وفي نص آخر: «فتأمل آية آية لتعرف الإعجاز وتبين التصريف البديع والتنقل في الفصول إلى آخر السورة... واعرف وجه الخلوص من شيء إلى شيء: من احتجاج إلى وعيد، ومن إغذار إلى إنذار، ومن فنون من الأمر شتى، مختلفة تأتلف بشريف النظم ومتباعدة تتقارب بعلي الضم»^(١).

والباقلائي لا يقصد بشريف النظم وعلي الضم الروابط اللغوية الظاهرة وإنما مراعاة مقاصد المتكلم في الخطاب أي «انتظامًا يتسق به أوله مع آخره على ما ينسقه قائله»^(٢).

وسمي فيها بعد ب «صحة النسق» وهو: «أن يستمر في المعنى الواحد، وإذا أراد أن يستأنف معنى آخر أحسن التخلص إليه حتى يكون متعلقًا بالأول غير منقطع عنه»^(٣).

واستقر في صورة متكاملة عند حازم القرطاجني استوعب بها كلام السابقين وفصل مجمله، ودعم أركانه وسمى ذلك بالأسلوب، وقد وصف هذا الباب وصفًا دقيقًا موجزًا يقول: «لما كانت الأغراض الشعرية يوقع في واحد منها الجملة الكبيرة من المعاني والمقاصد وكانت لتلك المعاني جهات فيها توجد، ومسائل منها تقتنى كجهة وصف المحبوب، وجهة وصف الخيال، وجهة وصف الطلول، وجهة وصف يوم النوى، وما جرى مجرى ذلك في غرض النسيب، وكانت تحصل للنفس بالاستمرار على تلك الجهات والنقلة من بعضها إلى بعض وبكيفية الإطراد في المعاني صورة وهيئة تسمى الأسلوب - وجب أن تكون نسبة الأسلوب إلى المعاني نسبة النظم إلى الألفاظ؛ لأن الأسلوب يحصل عن كيفية الاستمرار في أوصاف جهة جهة من جهات غرض القول وكيفية الإطراد من أوصاف جهة جهة، فكان بمنزلة النظم في الألفاظ والعبارات وهيئة الحاصلة عن كيفية النقلة من بعضها إلى بعض وما يعتمد فيها من ضروب الوضع وأنحاء الترتيب، فالأسلوب هيئة تحصل عن التأليفات المعنوية، والنظم هيئة تحصل عن التأليفات اللفظية»^(٤).

(١) «إعجاز القرآن» الباقلائي ص ١٩٦، ١٩٧.

(٢) «عيار الشعر» ابن طباطبا ص ٢١٣.

(٣) «سر الفصاحة» ابن سنان ص ٢٦٨.

(٤) «المنهاج» ص ٣٦٣.

فالأسلوب هو ما يتشكل في النفس من صور وهيئات لمعاني ثانوية تتولد من الاستمرار في جهة من جهات المعاني والتفريع عليها أو النقلة من جهة إلى أخرى. فكما أن النظم في الألفاظ صورة لما ترتب في النفس، فكذلك الأغراض والمعاني انتظامها بكيفية مخصوصة هو صورة لما انطبع في نفس المتكلم وذهنه من مقاصد وأغراض، وهذا قياس محمود فتح به أصلاً من أصول البلاغة الغامضة فكثيراً ما يتردد الأسلوب في مقابل العناية باللفظ ونظن أنه أعم من النظم دون النظر إليه باعتباره وصفاً خاصاً بالمعاني.

ونص حازم يكاد يكون شرحاً لمجمل النسق عند الخفاجي، ومدخله في ذلك النظر في الأفاويل الشعرية من حيث استمرار الشاعر في المعنى واستئنافه لمعاني جديدة ثم علاقة المعاني المطردة والمعاني المستأنفة وكيفية الملائمة وضروب التعلق بين تلك المعاني، وأضاف على نص الخفاجي ربط ذلك بجهات المعاني، فغرض النسيب تقوم فيه جملة معاني لها جهات مختلفة تكاد تكون أصلاً في بابه، ولكن طريقة الشاعر في التنقل من جهة إلى جهة أو الاستمرار في بعض الجهات هو الذي ينوع هذه المعاني ويبعث فيها الجدة ويشكل للمتكلم سمت بيانه ويجعل له خصوصية عن غيره، وإن اتفق معهم في أصل المعنى؛ لأن ما يعتمد منه من أنحاء الترتيب والتنقل هو الذي يكون هيئة وخصوصية زائدة على الأصل.

وحازم يجعل ضابط الأسلوب هو التأمل في اقترانات المعاني وجهات انتفاء كل معنى لما قبله وما بينهما من نسب وحسن التناسب والتلطف في الانتقال من جهة إلى جهة والصيرورة من مقصد إلى مقصد، فوضع بذلك المنهاج لمعالم الأسلوب ودل على مدخله.

فهيات المعاني المودعة في الألفاظ والمطوية في أبنية التركيب بحثت ودل عليها ونه على ما فيها من لطائف وأسرار وكيف تشكلت وأبانت، وبقي وراء ذلك باب حجب عن الكثيرين لصعوبة مراسه وحاجته إلى شمولية النظر ودقة التأمل فليس دركه بظواهر الألفاظ أو أبنية التراكيب وإنما سبيله التغلغل في جهات المعنى وزواياه وفي أصول المعاني والأغراض وكيف انشق عنها ونبع من معينها ثم يجمع أطراف المختلفات ويؤلف منها ما تباعد وتنافر في ظاهره؛ ليجعله قضية واحدة وإن توزعه الكلام أنحاء مختلفة ومواقع متباينة.

وحازم لم يسبق إلى تحديد موضع الأسلوب في المعاني وإنما أفاد ذلك من الرازي؛ لأنه يكاد يكون أول من خص الأسلوب بالترتيبات الحاصلة بين المعاني وما ينتج عنها من تنبيهات ولطائف هي ولائد ذلك الترتيب يقول في هذا: «ومن تأمل لطائف نظم هذه السورة وبدائع ترتيبها علم أن القرآن كما أنه معجز بحسب فصاحة ألفاظه وشرف معانيه، فهو أيضًا معجز بحسب ترتيبه ونظم آياته، ولعل الذين قالوا: إنه معجز بحسب أسلوبه أرادوا ذلك إلا أني رأيت جمهور المفسرين معرضين عن هذه اللطائف غير متنبهين لهذه الأمور»^(١).

وتأمل قوله: «ولعل الذين قالوا: إنه معجز بحسب أسلوبه، أرادوا ذلك» - أي الترتيب - فكأن مصطلح حسن الأسلوب لم يخصص قبله بشيء وإنما كان قسيمًا لفصاحة الألفاظ، فكانت هذه المقابلة خطوة أولى لكشف خبيء الباب والتنبيه عليه ليطلب، ويؤكد صحة ما ذهب إليه قوله «إنني رأيت جمهور المفسرين معرضين عن هذا الباب». أي أنه أول من فتحه وهتك الحجب دون ضميره، وكلام حازم لا يعدو أن يكون فهمًا محكمًا وتلخيصًا دقيقًا لعلاقات الترتيب بين الأغراض عند الإمام وما وراء أحوالها من رقائق المعاني ولطائفها أو ما سماه بالتنبيهات.

وهذا لا يعني التقليل من شأن حازم وإنما ردّ الكلام إلى منبعه ولفت الأنظار إلى كيف كان علماءنا يصنعون أبواب البلاغة ويقعدون لها، وأن مرحلة التقعيد لا تكون إلا بعد إجراء الأصول في النصوص وتحريكها بها ثم تأتي القاعدة لتضبط تلك الحركة وتؤسس لها، فالأسلوب كان يحتاج خطوة واحدة فقط وهي نقله إلى سياقه وإجراؤه في حقله والعناية به كما يعني بالألفاظ وحسن تجاورها واتصالها وما يتولد عن البناء اللغوي من خصوصيات وأحوال؛ لذلك لم تكن عناية الإمام بالتقعيد ووضع منهج نظري، وإنما كان يتبع صحة ما هداه إليه ذهنه من أن الأسلوب هو الترتيب بين المعاني، فأخذ يتأمل مقاطع الكلام وأغراضه والقطع والرجوع والاستمرار في جهة من الجهات وفي كل ذلك تتشكل هيئات معنوية زائدة عن الإفادة باللغة ولم يكن لهذا منبع سوى نسق المعاني والتأليف بينها. فكان جلّ عنايته بالمعنى وعلاقاته وأحوال تأليفه.

(١) "التفسير الكبير" ١٠٦/٣.

فالتفسير جهد ضخم في دراسة المعنى وما يتشكل عنه من مقاصد وما يعتره من تغيرات وزيادات ناتجة عن انتظامه مع غيره وترتيبه على ما قبله من المعاني.

وتحاول هذه الدراسة أن تصف منهج الإمام في التناسب بين الأغراض، وما توحى به النصوص التطبيقية من أصول وضوابط في توجيه انتظام الكلام، وملاحظة طرق وأنماط الترتيب بين الأغراض وما يسند إليه في رد المعنى على المعنى من قرائن.

وهذا الباب ليس له قانون يحيط به، ولا حد يحصره؛ لأنه نمط من التصريف والتنويع، يأتمل بتنظيم المدلولات اعتماداً على أبنيتها الداخلية، ودرك ذلك لا يكون إلا بالعقل وزيادة تأمل؛ لأنه تنظيم لما اختلف، والكلام يعتبر فيه الاختلاف حتى أنه لا يسمى نسقاً حتى «تكون الأشياء مختلفة في أنفسها، ثم يكون للذي يجيء بها مضمومًا بعضها إلى بعض غرض ومقصود، ولا يتم ذلك الغرض وذلك المقصود إلا بأن يتخير لها مواضع فيجعل ذلك أولاً وذاك ثانياً»^(١). والوقوف على المقصد من تنزيل المختلفات منازلها وترتيب بعضها على بعض يحتاج إلى مراجعة عقل، وإنعام تدبر، وقد حدد الإمام ابتداء مقاصد القرآن وأصول معانيه فوجد أن مدار القرآن على ثلاثة أصول، وهي التوحيد، والنبوة، والمعاد، ويقترن بها أحياناً القضاء والقدر، يقول في هذا: «اعلم أنا بينا مدار أمر القرآن على تقرير هذه المسائل الأربع وهي: التوحيد، والنبوة، والمعاد، والقضاء والقدر»^(٢).

وأكثر التفسير تتبع لنوع هذه الأصول تحت جمل القرآن وألفاظه، من مثل تفسيره لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْظَمُكُمْ بَوَاحِدَةً أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَشْنَىٰ وَفِرْدَىٰ ثُمَّ تُلَفُّونَ مِمَّا بَصَاحِبِكُمْ مِنْ جَنَّةٍ إِنَّهُ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبا: ٤٦] ف «ذكر الأصول الثلاثة في هذه الآية بعدما سبق منه تقريرها بالدلائل، فقله: ﴿أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ﴾ إشارة إلى التوحيد، وقله: ﴿مَا بَصَاحِبِكُمْ مِنْ جَنَّةٍ إِنَّهُ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ إشارة إلى الرسالة، وقله: ﴿بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ إشارة إلى اليوم الآخر»^(٣).

(١) «دلائل الإعجاز» عبد القاهر الجرجاني ص ٤٧٣.

(٢) «التفسير» ٢٥٥/٥، وينظر: ٢٣١/٧.

(٣) «التفسير» ٢١٤/٩.

وكذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ﴾ * وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى لَيْحِنِ * وَكَانُوا يَقُولُونَ: ﴿أَيُّدَا مِثْنَا وَكُنَّا ثُرَابًا وَعِظْمًا أَيْنَا لَمَبْعُوثُونَ﴾ [الواقعة: ٤٥-٤٧]. ذكر أن فيها «لطيفة» وهي أنه أشار في الآيات الثلاث إلى الأصول الثلاثة فقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ﴾ من حيث الاستعمال يدل على ذمهم بإنكار الرسل، إذ المترف متكبر بسبب الغنى فينكر الرسالة، والمترفون كانوا يقولون: ﴿أَبَشْرًا مِمَّا وَجَدْنَا نَنْبَعُهُ﴾ وقوله: ﴿وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى لَيْحِنِ﴾ إشارة إلى الشرك ومخالفة التوحيد. وقوله تعالى: ﴿وَكَانُوا يَقُولُونَ: أَيُّدَا مِثْنَا وَكُنَّا ثُرَابًا﴾ إشارة إلى إنكار الحشر والنشر^(١).

فتأمل كيف بعث الأصلين من نظم الآيات، فدلالة الحشر ظاهرة لأنها مدار السورة، وكذلك التوحيد، فاستدعى اجتماع الأصلين المعنى الثالث وهو النبوة فتزعم بدلالة «مترفين» إلى لازمها وهو إنكار الرسل، فالتقت بذلك الأصول الثلاثة وتقرر بذلك «أن الأصول الثلاثة لا يكاد ينفصل بعضها عن بعض في الذكر الإلهي، فأينما يذكر الله تعالى منها اثنين يذكر الثالث»^(٢).

واتفاق معانيه على أصول مقررة لا يعني ثبات الدلالة بل يستدل به على بلاغة القرآن وقوة تصريفه للمعاني المعدودة وكيف يترامى بها في أودية مختلفة ويتصرف بها في كل منزع، وليس ذلك إلا بالترتيب، فتارة يجعل أحدهما أصلاً والآخرين فرعاً، وأخرى يكون الفرع أصلاً، وهكذا تتشكل معانيه وتتسع وتتنوع ببناء بعضها على بعض. ذكر ذلك في سورة «يونس» حيث قال: «إنه تعالى لما حكى عن الكفار أنهم تعجبوا من الوحي والبعثة والرسالة، ثم إنه تعالى أزال ذلك التعجب بأنه لا يبعد البتة في أن يبعث خالق الخلق إليهم رسولاً يشرهم على الأعمال الصالحة بالثواب، وعلى الأعمال الباطلة الفاسدة بالعقاب، كان هذا الجواب إنما يتم ويكمل بإثبات أمرين: أحدهما: إثبات أن لهذا العالم إلهاً قاهراً قادراً نافذ الحكم بالأمر والنهي والتكليف. والثاني: إثبات الحشر والنشر والبعث والقيامة، حتى يحصل الثواب والعقاب اللذان أخبر الأنبياء عن حصولهما»^(٣).

(١) «التفسير» ١٠/٤١١.

(٢) السابق ٩/٣٩.

(٣) «التفسير» ٦/١٨٨.

فدلائل الألوهية والحشر جاءت استمرارًا وتتميمًا لمعنى النبوة وإثبات الرسالة. فكل أصل يوضع منزلة يكون بها المدار وغيره تابعًا له. وملاحظة هذه المنازل هي الهادية إلى نمط التصريف والكاشفة عن وجه الإبانة فيه. فتأمل تحليله لقوله تعالى: ﴿وَأَيُّهُمُ الْيَتْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ﴾ [يس: ٣٧]. يقول: «لما استدل الله بأحوال الأرض وهي المكان الكلي استدل بالليل والنهار وهو الزمان الكلي... ومثله مذكور في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الَّتِي وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت: ٣٧]. ثم قال بعده: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: ٣٩]. حيث استدل بالزمان والمكان هناك أيضًا، لكن المقصود أولاً هناك إثبات الوجدانية بدليل قوله تعالى: ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ﴾ ثم الحشر بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتِ﴾ وههنا المقصود أولاً إثبات الحشر؛ لأن السورة فيها ذكر الحشر أكثر، يدل عليه النظر في السورة، وهناك ذكر التوحيد أكثر بدليل قوله تعالى: ﴿قُلْ أَيْتَكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَتَعَلَّوْنَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [فصلت: ٩]. إلى غيره وآخر السورتين يبين الأمر»^(١).

فالأصول وإن كانت متفقة إلا أن ترتيبها واختيار منازلها وجه الدلالة ونظم المباني جهة المقاصد، فقدم المكان في سورة «يس» لأنه أقوى في الإبانة عن الحشر، وقدم الزمن الليل والنهار والشمس والقمر في سورة «فصلت»، لأنها أدل على التوحيد، ولكن اقترانها بسياق الحشر في سورة «يس» خرج بها إلى معنى الحشر؛ لأنه موضع عناية السورة.

وهذه الدلائل وإن كانت في أصلها دلائل توحيد إلا أنها تشكلت بهيئات مختلفة تشرتها من مقاصد السورة، فالاستدلال بالزمن لما اقترن بالسجود دل على الوجدانية التي هي مدار «فصلت»، وفي «يس» تضمن معنى الحشر؛ لأنه أصل الأصول فيها.

فهذه الأصول لا تتجرد للدلالة على ذات المعنى وإنما يداخلها معاني أخرى ناتجة من تجاورها مع غيرها من السياقات، ففي سورة «النحل» يداخل دلائل التوحيد معنى الإنعام فقد «ذكره الله تعالى؛ ليستدل به على وجود الإله المختار الحكيم، وليكون ذلك تنبيهاً على إنعام الله تعالى على عبده بمثل هذه النعم»^(١).

ودراسة الرازي للتناسب بين الأغراض تتمثل في تحديد مقاطع الكلام للوقوف على النقلة أو الاستمرار في المعاني، والاستمرار في المعنى يكون لباعث يوجب إتمام المعنى وإزالة ما فيه من إبهام أو وهم أو تفصيلاً لمجمله كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ [الشورى: ٢٧]. فهي استمرار لقوله تعالى: ﴿وَسَتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَزَيِّدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ [الشورى: ٢٦]. يقول: «اعلم أنه لما قال في الآية الأولى إنه يجيب دعاء المؤمنين ورد عليه سؤال وهو أن المؤمن قد يكون في شدة وبلية وفقير ثم يدعو فلا يشاهد أثر الإجابة. فكيف الحال فيه مع ما تقدم من قوله: ﴿وَسَتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ؟ فأجاب عنه بقوله: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾ أي ولأقدموا على المعاصي، ولما كان ذلك محذوراً وجب ألا يعطيهم ما طلبوه»^(٢).

وقوله تعالى في سورة «يونس»: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ * لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا يَبْدِيلُ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [يونس: ٦٢-٦٤]. فهذا المقطع استلزمه واقتضاه قوله: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [يونس: ٦١]. فلما كان هذا المعنى «عما يقوي قلوب المطيعين، ومما يكسر قلوب الفاسقين أتبعه الله تعالى بشرح أحوال المخلصين الصادقين الصديقين»^(٣).

(١) "التفسير" ١٩٢/٧.

(٢) "التفسير" ٥٩٨/٩.

(٣) "التفسير" ٢٧٥/٦.

وأما النقلة في الكلام فهي خروج وانتقال في المعنى ودخول في سياق آخر، وقد نبه الرازي كثيرًا على مقاطع الكلام ووجه العلة بين الأغراض المختلفة وكيف اتسق بعضها مع بعض فسورة الإنسان يجعلها غرضين متقابلين، فعندما عرض لتفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٣]. نبه على أن هذا مفصل آخر للكلام؛ لأنه «سبحانه» بين في أول السورة أن الإنسان وجد بعد العدم.. ثم بين أن الخلق بعد هذه الأحوال صاروا قسمين منهم شاكرو، ومنهم كفور... ثم إنه تعالى ذكر عذاب الكفار على الاختصار، ثم ذكر بعد ذلك ثواب المطيعين على الاستقصاء... فظهر مما بينا أن السورة من أولها إلى هذا الموضع في بيان أحوال الآخرة، ثم إنه تعالى شرع بعد ذلك في أحوال الدنيا وقدم شرح أحوال المطيعين على شرح أحوال المتمردين، أما المطيعون فهم الرسول وأمته، والرسول هو الرأس والرئيس، فلهذا خص الرسول بالخطاب... ومن تأمل فيما ذكرناه علم أن هذه السورة وقعت على أحسن وجوه الترتيب والنظام»^(١).

وأيضًا قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَأَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ * وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِي أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ * وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ * وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٠-٣٣].

وهذا الفصل وإن كان غرضًا برأسه فهو دال على وجود الصانع إلا أنه يتصل بها قبله ويضيف إليه؛ لأن «هذه الدلائل أيضًا دالة على كونه مترها عن الشريك؛ لأنها دالة على حصول الترتيب العجيب في العالم، ووجود إلهين يقتضي وقوع الفساد، فهذه الدلائل تدل من هذه الجهة على التوحيد فتكون كالتوكيد لما تقدم، وفيها أيضًا رد على عبدة الأوثان من حيث أن الإله القادر على مثل هذه المخلوقات الشريفة كيف يجوز في العقل أن يعدل عن عبادته إلى عبادة حجر لا يضر ولا ينفع»^(٢).

(١) "التفسير" ١٠/ ٧٥٧.

(٢) "التفسير" ٨/ ١٣٦.

فهي وإن كانت مقطعةً مختلفاً؛ لأن الغرض منها الرد على عبدة الأوثان إلا أنها داخلة في تقرير التوحيد فهي كالتأكيد له.

وذكر واقعة حنين في سياق التحذير من مخالطة المشركين وإن كان ظاهرها غرضاً أجنبياً إلا أن اقترانها به وإلحاق معناها ومداخلته لذلك السياق أسبغ على الواقعة معنى وجعلها رمزاً عضد به المعنى السابق، وزاد في توكيده وإظهاره؛ لأنه من باب الأمثال والمثل يجلي المعنى ويقويه. يقول فيها: «اعلم أنه تعالى ذكر في الآية المتقدمة أنه يجب الإعراض عن مخالطة الآباء والأبناء والإخوان والعشائر، وعن الأموال والتجارات والمساكن، رعاية لمصالح الدين، ولما علم الله تعالى أن هذا يشق جداً على النفوس والقلوب، ذكر ما يدل على أن من ترك الدنيا لأجل الدين فإنه يوصله إلى مطلوبه من الدنيا أيضاً، وضرب تعالى لهذا مثلاً، وذلك أن عسكر رسول الله ﷺ في واقعة حنين كانوا في غاية الكثرة والقوة، فلما أعجبوا بكثرتهم صاروا منهزمين، ثم في حال الانهزام لما تضرعوا إلى الله قواهم حتى هزموا عسكر الكفار، وذلك يدل على أن الإنسان متى اعتمد على الدنيا فاته الدين والدنيا، ومتى أطاع الله ورجح الدين على الدنيا آتاه الله الدين والدنيا على أحسن الوجوه، فكان ذكر هذا تسلياً لأولئك الذين أمرهم الله بمقاطعة الآباء والأبناء والأموال والمساكن؛ لأجل مصلحة الدين، وتصبيراً لهم عليه، ووعداً لهم على سبيل الرمز بأنهم إن فعلوا ذلك فالله تعالى يوصلهم إلى أقاربهم ومساكنهم على أحسن الوجوه، هذا تقرير النظم وهو في غاية الحسن»^(١).

وأحياناً يكتفي بالتنبيه على النقطة والقطع دون بيان لوجه العلاقة، كما في قوله تعالى: ﴿أَمْ آتَّخَذُوا إِلَهًا مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ﴾ * لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلَ اللَّهِ لَفَسَدَتَا فَسَبَّحَنَ اللَّهُ رَبَّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ * لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ * أَمْ آتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مِّن مَّعِيَ وَذِكْرٌ مِّن قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُّعْرِضُونَ * وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢١٠-٢١٥﴾

يقول: «اعلم أن الكلام من أول السورة إلى ههنا كان في النبوات وما يتصل بها من الكلام سؤالاً وجواباً، وأما هذه الآيات فإنها في بيان التوحيد ونفي الأضداد والأنداد»^(١).

وسكت عن بيان الوجه لقوة ظهوره؛ لأن النبوات كلها جاءت لتوكيد التوحيد ونفي الأضداد والأنداد، فالسكوت عن بيان الوجه مرجعه إلى قوة ظهوره.

والنقلة أحياناً تكون بالرجوع إلى الغرض الأصلي، فتارة يأتي معنى ثم ينقل منه إلى غرض آخر ويستمر في التفريع على ذلك الغرض فإذا استوفاه عاد الكلام إلى البيان الأول، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَرَّبُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْبُلُونَ وَيَقْبَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١]. يقول فيها: «اعلم أنه تعالى لما شرع في شرح فضائح المنافقين وقبائحهم لسبب تخلفهم عن غزوة تبوك فلما تم ذلك الشرح والبيان وذكر أقسامهم وفرع على كل قسم ما كان لا نقاً به، عاد إلى بيان فضيلة الجهاد وحقيقته»^(٢).

وأحياناً ينعطف الكلام إلى الغرض الأول بعد أن يوطئ له بآية تكون قفلاً لما قبلها ونجس للرجوع، كما في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤]. فالآية تتصل بسبب من الغرض السابق لها فهي كالمؤكد لخطأ نسبة الغلول إليه؛ لأنه نشأ بينهم ولم يظهر منه إلا الأمانة والصدق فكيف يليق به هذا الوصف، وقد يكون الانتقال لوصفه عليه الصلاة والسلام وبيان شرفه لإلزام كل ذي لب أن يعينه وينصره «فوجب عليكم أن تحاربوا أعداءه، وأن تكونوا معه باليد والسيف،

(١) "التفسير" ٨ / ١٢٥.

(٢) "التفسير" ٦ / ١٥٠.

والمقصود منه العود إلى ترغيب المسلمين في مجاهدة الكفار^(١). فليس الغرض إثبات خلوه من العيب. وإن كان هذا الأمر مفروغاً منه، وإنما المسألة أنه موصوف بأعلى الصفات، وأنه نعمة يمنها الله عليهم فيجب عليهم نصرته وإعانتة، وهذا هو غرض السورة ومدارها.

وقد تكون النقطة لتناسي المقصود الأصلي أو الغرض الأول فيخرج إلى معنى آخر لا تعلق له بالمعنى الأول، فيخرج إلى معنى ثانٍ ثم يضمن ذلك المعنى جزءاً من الحجة التي تقيم المعنى الأول وتقرره، فيكون هذا أبلغ في إلزام المخاطب، فالاستطراد هنا لإيهام المخاطب واستدراج ذهنه لتصديق المعنى الأول، ذكر هذه الدقيقة في تفسيره سياق قصة داود عليه السلام في نسق ما قبلها من حكاية المستهزئين من الكفار وأنهم بالغوا في إنكار البعث والقيامة يقول فيها: «ولما حكى الله عنهم ذلك لم يذكر الجواب، بل قال ﴿أَصِيرَ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَأَذْكُرُ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ١٧]. ومعلوم أنه لا تعلق بذكر داود عليه السلام بأن القول بالقيامة حق،... ولا تعلق لهذا الفصل بالكلمات المتقدمة، وإن كان كذلك كانت هذه الفصول فصولاً متباعدة لا تعلق للبعض منها ببعض... والجواب:..... أن العقلاء قالوا: من أبلَى بخصم جاهل مصر متصلب، ورآه قد خاض في ذلك التعصب والإصرار، وجب عليه أن يقطع الكلام معه في تلك المسألة... وأن يخوض في كلام آخر أجنبى عن المسألة الأولى بالكلية ويطلب في ذلك الأجنبى، بحيث ينسى ذلك المتعصب تلك المسألة الأولى، فإذا اشتغل خاطره بهذا الكلام الأجنبى ونسي المسألة الأولى فحينئذ يدرج في أثناء الكلام في هذا الفصل الأجنبى مقدمة مناسبة لذلك المطلوب الأول وحينئذ يصير ذلك الخصم المتعصب منقطعاً مفجعاً.... إن الكفار لما بلغوا في إنكار الحشر والنشر والقيامة إلى حيث قالوا: ﴿رَبَّنَا مَحِلٌّ لَنَا قُتْلًا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [ص: ١٦]. فقال: يا محمد، اقطع الكلام معهم في هذه المسألة واشرع في كلام آخر أجنبى بالكلية عن هذه المسألة، وهي قصة داود عليه السلام، فإن من المعلوم أنه لا تعلق لهذه القصة بمسألة الحشر والنشر، ثم إنه تعالى أظن في شرح تلك القصة ثم قال في آخرها: ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾ [ص: ٢٦].

(١) "التفسير" ٤١٧/٣.

وكل من سمع هذا قال: نِعَم ما فعل حيث أمره بالحكم الحق. ثم كأنه تعالى قال: وأنا لا أمرك بالحق فقط، بل أنا مع أي رب العالمين لا أفعل إلا بالحق ولا أقضي بالباطل فههنا الخصم يقول: نِعَم ما فعل حيث لم يقض إلا بالحق فعند هذا يقال: لما سلمت أن حكم الله يجب أن يكون بالحق لا بالباطل، لزمك أن تسلم صحة القول بالحق والنشر^(١).

وهناك مقاطع يقف عندها ويستحضر بها السياقات السابقة ويعيد تنظيم وترتيب فصول السورة بجمع معاهد معانيها ووصل كل غرض برأس الغرض الآخر حتى يصل إلى ما يريد بيانه في الآية التي هو بصدد تفسيرها، كما في قوله تعالى ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِن إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ * رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ * قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ * أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ * مَا كَانَ لِي مِن عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ * إِنْ يُوحَىٰ إِلَىٰ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [ص: ٦٥-٧٠]. يقول فيها: «اعلم أنه تعالى لما حكي في أول السورة أن محمداً ﷺ لما دعا الناس إلى أنه لا إله إلا إله واحد، وإلى أنه رسول مبین من عند الله، وإلى أن القول بالقيامة حق، فأولئك الكفار أظهروا السفاهة وقالوا: إنه ساحر كذاب واستهزءوا بقوله، ثم إنه تعالى ذكر قصص الأنبياء لوجهين، الأول: ليصير ذلك حاملاً لمحمد ﷺ على التأسي بالأنبياء -عليهم السلام- في الصبر على سفاهة القوم. والثاني: ليصير ذلك رادعاً للكفار على الإصرار على الكفر والسفاهة وداعياً إلى قبول الإيمان. ولما تم الله تعالى ذلك الطريق أردفه بطريق آخر وهو شرح نعيم أهل الثواب وعقاب أهل العقاب، فلما تم الله تعالى هذه البيانات عاد إلى تقرير المطالب المذكورة في أول السورة وهي تقرير التوحيد والنبوة والبعث، فقال: قل يا محمد: إنما أنا منذر... فإن الترتيب الصحيح أن تذكر شبهات الخصوم أولاً ويجاب عنها ثم تذكر عقبيها الدلائل الدالة على صحة المطلوب... لأن إزالة ما لا ينبغي مقدمة على إثبات ما ينبغي.. ومن نظر في هذا الترتيب اعترف بأن الكلام من أول السورة إلى آخرها قد جاء على أحسن وجوه الترتيب والنظم»^(٢).

(١) "التفسير" ٣٨٨/٩.

(٢) "التفسير" ٤٠٦/٩.

وهذا تلخيص محكم صور لك السورة بناءً واحداً ولم يغفل فيه أصلاً من أصولها وطوى ما بين الأغراض ونبه عليه بقوله: «ثم» لأن الفرع هو تشعيب للأصل وتكميل لدلالته فهو جارٍ فيه غير مستقل بذاته، حتى وإن كان هذا الفرع أصلاً لفروع أخرى فإنه منتمٍ إلى غرض أعم يستوعبه ويحيط بدلالته.

وفي تلخيص آخر يجعل فيه الكلام مصبوحاً لغرض واحد كل معنى يقتضي ما بعده لا تشعب ولا فروع كما في قوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩].

ف «هذه السورة من أولها إلى هذا الموضع في بيان حكاية شبهات الكفار في إنكار النبوة مع الجواب عنها، وكانت إحدى شبهاتهم أن النبي ﷺ كان يهددهم بنزول العذاب... ثم إن الكفار ما رأوا ذلك فجعلوا ذلك شبهة في الطعن في نبوته، وكانوا يبالغون في استعجال ذلك العذاب على سبيل السخرية، ثم إن الله سبحانه وتعالى بين أن تأخير الموعود به لا يقدر في صحة الوعد، ثم ضرب لهذا أمثلة، وهي واقعة نوح وواقعة موسى -عليهما السلام- مع فرعون وامتدت هذه البيانات إلى هذه المقامات، ثم في هذه الآية بين أن جد الرسول في دخولهم في الإيمان لا ينفع ومبالغته في تقرير الدلائل وفي الجواب عن الشبهات لا تفيد؛ لأن الإيمان لا يحصل إلا بتخليق الله تعالى ومشيته»^(١).

ونارة يخلص من هذا التلخيص إلى أن ما قبل هذه الآية هو تمهيد وتوطئة لها فيجعلها مركز السورة، كما في قوله: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَأَعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الأنعام: ١٠٢].

يقول فيها: «اعلم أنه تعالى لما أقام الحجة على وجود الإله القادر المختار الحكيم الرحيم وبين فساد قول من ذهب إلى الإشراك بالله وفصل مذاهبهم على أحسن الوجوه ثم حكى مذهب من أثبت لله البنين والبنات وبين بالدلائل القاطعة فساد القول بها.. فعند هذا صرح

(١) "التفسير" ٦/ ٣٠٤.

وكذلك تأخير الاحتجاج في قوله: ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا نُنْفِقُ * ﴿قُلْ مَنْ يَدْيُ مَلَكَوْتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ * بَلْ أَتَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿[الزمنون: ٨٤ - ٩٠] إلى ما بعد الغرضين بينما لو جاءت عقيب التوحيد لخصت به لمناسبتها الشديدة له ؛ لأنها من دلائله ولكن لما أخرت بعد ذكر الإعادة تشربت معاني من الغرض السابق أمكن معها تحميل اللغة مضامين الغرضين السابقين يقول في توجيه معناها: «اعلم أنه يمكن أن يكون المقصود من هذه الآيات الرد على منكري الإعادة وأن يكون المقصود الرد على عبدة الأوثان، وذلك لأن القوم كانوا مقرين بالله تعالى فقالوا: نعبد الأصنام لتقربنا إلى الله زلفى، ثم إنه سبحانه احتج عليهم بأمور ثلاثة: أحدها: قوله: ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا﴾ ووجه الاستدلال به على الإعادة أنه تعالى لما كان خالقاً للأرض ولما فيها من الأحياء، وخالقاً لحياتهم وقدرتهم وغيرها، فوجب أن يكون قادراً على أن يعيدهم بعد أن أفناهم. ووجه الاستدلال به على نفي عبادة الأوثان، من حيث إن عبادة من خلقكم وخلق الأرض وكل ما فيها من النعم هي الواجبة دون عبادة ما لا يضر ولا ينفع، وقوله: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ معناه الترغيب في التدبر؛ ليعلموا بطلان ما هم عليه. وثانيها: قوله: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ ووجه الاستدلال على الأمرين كما تقدم، وإنما قال: ﴿أَفَلَا نُنْفِقُ﴾ تنبيهاً على أن اتقاء عذاب الله لا يحصل إلا بترك عبادة الأوثان والاعتراف بجواز الإعادة. وثالثها: قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَدْيُ مَلَكَوْتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ اعلم أنه سبحانه لما ذكر الأرض أولاً والسماء ثانياً عمم الحكم ههنا، فقال: ﴿قُلْ مَنْ يَدْيُ مَلَكَوْتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾، ويدخل في المملوكات الملك والمملك على سبيل المبالغة، وقوله: ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ يقال: أجرت فلاناً على فلان إذا أغثته منه ومنعته. يعني وهو يغيث من يشاء عن يشاء، ولا يغيث أحد منه أحداً^(١).

والعناية بوجوه الترتيب لم تكن بين الأغراض المختلفة فحسب بل داخل فروع الأصل الواحد، لأن الانتظام فيها يكون وفق أولويات يقتضيها المقصد، فيقدم الأهم ويلحق به ما كان تبعاً وعرضاً في الكلام، كما في قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِلَهِ أَنْ يُبَيِّنَ لَهُ نُورٍ مِنْ رَبِّهِ قَوْلًا لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مَنْ ذَكَرَ اللَّهَ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الزمر: ٢٢]

يقول: «والحاصل أنه تعالى في الآيات المتقدمة ذكر ما يقوي الرغبة في الآخرة، وذكر في هذه الآية ما يقوي النفرة عن الدنيا، وإنما قدم الترغيب في الآخرة على التنفير عن الدنيا؛ لأن الترغيب في الآخرة مقصود بالذات، والتنفير عن الدنيا مقصود بالعرض، والمقصود بالذات مقدم على المقصود بالعرض»^(١).

فوجوب الإقبال على طاعة الله الأقوى لها ذكر الآخرة، وقوة هذا المعنى جاءت؛ لأن سياق الكلام يقتضيه ولأنه أصل في الترغيب مع تضمنه لمعنى التنفير فتقديمه هياً للمعنى بعده وممكن لتفريعه عليه.

وأيضاً قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة: ٣٨] فـ «لما شرح معاييب هؤلاء الكفار وفضائحهم عاد إلى الترغيب في مقاتلتهم، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾».

وتقرير الكلام أنه تعالى ذكر في الآيات السابقة أسباباً كثيرة موجبة لقتالهم وذكر منافع كثيرة تحصل في مقاتلتهم، كقوله: ﴿يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْرِجُهُمْ وَيَضْرِبُهُمْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٤]. وذكر أقوالهم المنكرة وأعمالهم القبيحة في الدين والدنيا وعند هذا لا يبقى للإنسان مانع من قتالهم إلا مجرد أن يخاف القتل ويحب الحياة، فبين تعالى أن هذا المانع خسيس؛ لأن سعادة الدنيا بالنسبة إلى سعادة الآخرة كالقطرة في البحر، وترك الخير الكثير لأجل الشر القليل جهل وسفه»^(٢).

(١) "التفسير" ٩/ ٤٤٠.

(٢) "التفسير" ٦/ ٤٧.

فالأية وإن كانت تتعلق بآيات الترغيب وتعود إليها إلا أن تأخيرها ووضعها بعد شرح فضائح الكفار والأسباب الموجبة لقتالهم أضاف إليها معنى زائداً على الترغيب وهو التقرير عليهم بأنه لم يبق باعث للنفرة عن الجهاد إلا حب الحياة والركون إلى متاع الدنيا، فوضع الاستفهام في حيز السياقات السابقة يستحثهم على التأمل ومراجعة النفس في البواعث التي تعيقهم عن قتال الكفار مع ظهور فضائحهم وإباحة قتالهم وأنه لم يبق معه باعث سوى حب الحياة.

وكذلك قوله تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَرْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: ٥٥].

يقول فيها: «ومن تأمل في هذه الآيات عرف أنها مرتبة على أحسن الوجوه، فإنه تعالى لما بين قبائح أفعالهم وفضائح أعمالهم، بين ما لهم في الآخرة من العذاب الشديد وما لهم في الدنيا من وجوه المحنة والبلى ثم بين بعد ذلك أن ما يفعلونه من أعمال لا يتفعون به يوم القيامة البتة. ثم بين في هذه الآية أن ما يظنون أنه من منافع الدنيا فهو في الحقيقة سبب لعذابهم وبلائهم وتشديد المحنة عليهم، وعند هذا يظهر أن النفاق جالب لجميع الآفات في الدين والدنيا، ومبطل لجميع الخيرات في الدين والدنيا، وإذا وقف الإنسان على هذا الترتيب عرف أنه لا يمكن ترتيب الكلام على وجه أحسن من هذا»^(١).

فتأمل كيف وقف عند تناسق المعاني وحسن متابعتها وتجاورها وأدارها على المعنى المقصود من السياق، هو أن النفاق جالب لجميع الآفات فجاءت الآيات لإشاعة الحسرة في نفوسهم؛ لأنه لما كان قد وقع في ظنهم حصولهم على فائدة من منافع الدنيا قطع ذلك الرجاء بأن بين أن ما يجودونه من منافع في الدنيا وطيبات هي سبب في زيادة الحسرة واجتماع المحن عليهم، فإذا علموا ذلك زادت حسرتهم وانقطع رجاءهم.

(١) "التفسير" ٧١/٦.

وأيضاً في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتْكُمْ مَنَاسِكُكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّكَاثِينَ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ﴾ [البقرة: ٢٠٠]. نبه على الترتيب التدريجي في بناء المعاني، وما ينطوي عليه من أسرار يقول فيها: «اعلم أن الله تعالى بين أولاً تفصيل مناسك الحج، ثم أمر بعدها بالذكر، فقال: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوا كَمَا هَدَيْنَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّالِّينَ﴾ [البقرة: ١٩٨].

ثم بين أن الأولى أن يترك ذكر غيره، وأن يقتصر على ذكره فقال: ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ ثم بين بعد ذلك الذكر كيفية الدعاء، فقال: ﴿فَمِنَ النَّكَاثِينَ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا﴾ وما أحسن هذا الترتيب، فإنه لا بد من تقديم العبادة لكسر النفس وإزالة ظلماتها، ثم بعد العبادة لا بد من الاشتغال بذكر الله تعالى لتنوير القلب وتجلي نور جلاله، ثم بعد ذلك الذكر يشغل الرجل بالدعاء؛ فإن الدعاء يكمل إذا كان مسبقاً بالذكر^(١).

وبهذا تصيح السورة وحدة مكتملة تتفاعل عناصرها وتشارب فلا ينظر في فصل من الفصول بمعزل عن ما قبله، وكذلك الألفاظ توضع في سياق الأغراض السابقة، وتوجه دلالتها باعتبار أجواء السورة كلها، فالإبهام في قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال: ٢٠].

ففي قوله: ﴿تَسْمَعُونَ﴾ إبهام؛ لأنه «لم يبين أنهم ماذا يسمعون إلا أن الكلام من أول السورة إلى هنا لما كان واقعاً في الجهاد علم أن المراد: وأنتم تسمعون دعاءهم إلى الجهاد»^(٢).

وكذلك الإجمال في لفظة ﴿الْأَنْبَاءِ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ﴾

(١) "التفسير" ٣٣٥/٢.

(٢) "التفسير" ٤٦٩/٥.

مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿[القمر: ٤]﴾. وقد ردّ بعضهم النبا إلى ما قبله من الإخبار عن إهلاك المكذبين، ورده آخرون إلى جميع ما في القرآن من أنباء، أما الرازي فيجريها في سياق الأغراض السابقة ويقتصص ما قبلها من أنباء فوجد أنها تستوعب جميع الأنباء الواردة في السورة من إخبار «الرسول لهم باقتراب الساعة، وإقام الدليل على صدقه، وإمكان قيام الساعة عقيب دعواه بانشقاق القمر.. فكذبوا بها واتبعوا الأباطيل الذاهبة وذكروا الأقاويل الكاذبة، فذكر لهم أنباء المهلكين بالآيتين تخويفاً لهم، وهذا هو الترتيب الحكمي، ولهذا قال بعد الآيات: ﴿حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ﴾ [القمر: ٥]»^(١).

وأيضاً العدول عن لفظ الجلالة ﴿اللَّهُ﴾ في سورة العنكبوت - مع أنه الاسم المهيمن على آياته - إلى لفظ «الرب» في قوله: ﴿وَلَيْنَ جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ﴾ [العنكبوت: ١٠]. وذلك لأن الكلام خرج لغرض آخر فناسبه لفظ الرب «لأن الرب اسم مدلوله الخاص به الشفقة والرحمة، والله اسم مدلوله الهيبة والعظمة، فعند النصّر ذكر اللفظ الدال على الرحمة والعاطفة، وعند العذاب ذكر اللفظ الدال على العظمة»^(٢).

ويتخذ منهج الرازي في دراسته لما بين الأغراض من علاقات مسارين الأول: يحدد الغرض ابتداء ثم يدير عليه المقاصد. والثاني وهو الأغلب: يحلل كل آية ثم يردها إلى الأصل المتفرعة عنه ثم يربط ما بين الأغراض المختلفة بردها إلى غرض كلي وهو الغرض الذي يكثر الرد إليه فيصبح هو مركز السورة المسيطر على تنظيم آياتها.

فسورة «الفاحة» يركز دلالتها في مقصد كلي هو عمودها ومدار آياتها ومفرداتها وهو: إثبات الألوهية والدعوة للتوحيد وتفرع منه الأمر بالعبودية، ف «التوحيد أصل والعبودية فرع، والتوحيد شجرة، والعبودية ثمرة، ولا قوام لأحدهما إلا بالآخر»^(٣).

(١) "التفسير" ٢٩١/١٠.

(٢) السابق ٣٤/٩.

(٣) السابق ٢١٥/١.

ثم يقسم السورة إلى مقطعين: الأول: في تقرير الربوبية، والثاني: في العبودية، يقول في هذا: «معرفة الربوبية فكما لها مذكور في قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْكَوْمِ﴾ * ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ * ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ فكون العبد منتقلاً من العدم السابق إلى الوجود يدل على كونه إلهًا وحصول الخيرات والسعادات للعبد حال وجوده يدل على كونه ربًا رحمانًا رحيمًا، وأحوال معاد العبد تدل على كونه مالك يوم الدين، وعند الإحاطة بهذه الصفات حصلت معرفة الربوبية على أقصى الغايات، وبعدها جاءت معرفة العبودية ولها مبدأ وكمال، وأول وآخر، أما مبدؤها وأولها فهو الاشتغال بالعبودية وهو المراد، بقوله: ﴿إِيَّاكَ تَعْبُدُ﴾ * وأما كمالها فهو أن يعرف العبد أنه لا حول عن معصية الله إلا بعصمة الله، ولا قوة على طاعته إلا بتوفيق الله، فعند ذلك يستعين بالله في تحصيل كل المطالب، وذلك هو المراد بقوله: ﴿وإِيَّاكَ تَسْتَعِينُ﴾ * ولما تم الوفاء بعهد الربوبية وبعهد العبودية ترتب عليه طلب الفائدة والثمرة وهو قوله: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ * وهذا ترتيب شريف رفيع عالٍ يمتنع في العقول حصول ترتيب آخر أشرف منه^(١).

ويسطر هذا المقصد على ترتيب الأسماء داخل نسق السورة وتوزيعها على هذه الهيئة ويجعل منها تفريعاً لجهات الألوهية وتغذية لدلالة الربوبية، فهي تنظيم لأحوال خلق الإنسان «فاسم الله منبع الخلق والإيجاد والتكوين والإبداع، واسم الرب يدل على التربية بوجوه الفضل والإحسان، واسم الرحمن يدل على التربية في معرفة المبدأ، واسم الرحيم في معرفة المعاد حتى يحترز عما لا ينبغي ويقدم على ما ينبغي، واسم الملك يدل على أنه ينقلهم من دار الدنيا إلى دار الجزاء»^(٢).

وأما سورة «البقرة» فيجعل مركز السورة وجذر أغراضها التأكيد على الميثاق الذي أخذه الله على المكلفين، فبدأت السورة بتقديم أحكام الفرق الثلاثة أي: المؤمنين، والكفار، والمنافقين، ثم إقام الدلالة على التوحيد والنبوة والمعاد في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا

(١) "التفسير" ٢١٥/١.

(٢) السابق ٢٤٤/١.

رَبِّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ * وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ * وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَتُوا بِهِمْ مُتَشَبِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿البقرة: ٢١ - ٢٥﴾.

وجاء تأكيده بقوله: ﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ ﴿البقرة: ٢٧﴾. والميثاق هو حجة الله القائمة على عباده الدالة لهم على صحة توحيدِهِ وصدق رسالِهِ^(١) ثم تفرع على قوله: ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ شرح النعم عامة واستمر هذا المعنى وامتد إلى الآية (٣٩). ونبه الرازي على أن النسق المعتبر في تفریع المعنى واستمراره يلاحظ فيه ما جرى داخل جذر الدلالة من ترتيب فبدأ أولاً بنعمة الإحياء وهي متفرعة من قوله: ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ ثم ذكر الانتفاع بالأرض والسماء وهو متفرع من قوله: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ فامتدت الآيات وتشعبت من تحت كلماتها و «ما أحسن ما رعى الله سبحانه وتعالى هذا الترتيب فإن الانتفاع بالأرض والسماء إنما يكون بعد حصول الحياة فلماذا ذكر الله أمر الحياة أولاً ثم أتبعه بذكر السماء والأرض»^(٢).

ثم يرتب الدلالة المتفرعة على السياق العام ويجعلها «دالة على التوحيد من حيث إن هذه النعم أمور حادثة فلا بد لها من محدث، وعلى النبوة من حيث إن محمداً ﷺ أخبر عنها موافقاً لما كان موجوداً في «التوراة» و«الإنجيل» من غير تعلم ولا تلمذة لأحد، وعلى المعاد من حيث إن من قدر على هذه الأشياء ابتداء قدر على خلقها إعادة»^(٣).

(١) «التفسير» ١/ ٣٧٤.

(٢) السابق، ١/ ٣٧٩.

(٣) السابق ١/ ٤٧٣.

وترتيبها عليه شكل لها هيئة وأضاف لها معنى زائداً على إثبات وجود الصانع أو التذكير بالنعمة وخرج بها إلى زجرهم عما أقدموا عليه من رد الحق والتمسك بالكفر، وبعثهم على اكتساب الإيمان وقبول التكليف^(١).

ثم شعب دلالة الفرع من العموم إلى الخصوص فاستأنف من الإنعام العام إنعاماته سبحانه وتعالى الخاصة على اليهود «كسراً لعنادهم ولجاجهم.. واستمالة لقلوبهم بسببها، وتنبيهها على ما يدل على نبوة محمد ﷺ من حيث كونها إخباراً عن الغيب، واعلم أنه سبحانه ذكرهم تلك النعمة أولاً على سبيل الإجمال، فقال: ﴿يَبْنَئِي إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أَوْفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠]. وفرع عن ذكره الأمر بالإيمان بمحمد ﷺ ﴿وَأَمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ﴾ [البقرة: ٤١]. ثم عقبها بذكر الأمور التي تمنعهم عن الإيمان به، ثم ذكرهم تلك النعمة على سبيل الإجمال ثانياً بقوله مرة أخرى: ﴿يَبْنَئِي إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ٤٧]. تنبيهاً على شدة غفلتهم، ثم أردف هذا التذكير بالترغيب البالغ بقوله: ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ مقرونًا بالترهيب ﴿وَأَنفِقُوا يَوْمًا لَا تَجْرَى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾ [البقرة: ٤٨]. ثم شرع بعد ذلك في تعديد تلك النعمة على سبيل التفصيل، ومن تأمل وأنصف علم أن هذا هو النهاية في حسن الترتيب لمن يريد الدعوة وتحصيل الاعتقاد في قلب المستمع^(٢).

وذكر النعمة مبني على التفريع فتجد التفصيل والتشقيق بشكل ظاهر حتى أن بعضها يكون ضمناً فيما قبله ويكون نعمة واحدة، ولكن بناء الكلام يجعلها في مقام نعمتين كما في قصة إحياء القتيل، وبذبح البقرة، وهما قصة واحدة، فالأصل في الكلام: أن يكون القتل مقدماً على الأمر بالذبح فجاء بالتقديم والتأخير لزيادة التقرير عليهم، ف«قدمت قصة الأمر بذبح البقرة على ذكر القتيل؛ لأنه لو عمل على عكسه لكانت قصة واحدة، ولو كانت قصة واحدة لذهب الغرض من بنية التفريع»^(٣).

(١) السابق ١/ ٣٧٥.

(٢) "التفسير" ١/ ٤٧٣.

(٣) السابق ١/ ٥٥١.

ثم أردفها بالتشديدات التي فرضها الله على بني إسرائيل والفائدة منها الدلالة «على أن أمة محمد ﷺ خير الأمم ؛ لأن أولئك اليهود مع أنهم شاهدوا تلك البراهين القاهرة اغتروا بهذه الشبهة الركيكة جدًّا، وأما أمة محمد ﷺ فإنهم مع أنهم محتاجون في معرفة كون القرآن معجزًا إلى الدلائل الدقيقة لم يغتروا بالشبهات العظيمة، وذلك يدل على أن هذه الأمة خير من أولئك وأكمل عقلاً وأزكى خاطرًا منهم»^(١).

ويمكن ذلك لمعنى وهو وصف قبائح اليهود وشبهاتهم ومطاعنهم في نبوة محمد ﷺ ثم عاد إلى تقرير التوحيد بقوله: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٠٧]. وذلك في سياق رد شبهة النسخ ف«لما حكم بجواز النسخ عقبه ببيان أن ملك السماوات والأرض له لا غيره، وهذا هو التنبيه على أنه سبحانه وتعالى إنما حسن منه الأمر والنهي؛ لكونه مالكًا للخلق... وإنما حسن التكليف منه لمحض كونه مالكًا للخلق مستوليًا عليهم لا لثواب يحصل أو لعقاب يدفع. قال القفال: ويحتمل أن يكون هذا إشارة إلى أمر القبلية فإنه تعالى أخبرهم بأنه مالك السماوات والأرض، وأن الأمكنة والجهات كلها له، وأنه ليس بعض الجهات أكبر حرمة من البعض... فلا مانع من تغييره من جهة إلى جهة»^(٢).

فهي تقرير المعنى قبلها؛ لأن المكلف مطالب بالانقياد لله؛ لأنه في ملكه وتدبيره ومستول عليه فلا يسأل عن شيء من أفعاله وهم يسألون، وتبيح لمعنى يتولد في ثنايا السورة وهو قوله: ﴿وَاللَّهُ الشَّرِيفُ الْغَرِيبُ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١١] لأن النسخ وتحويل القبلة بينهما مقاربة، وإشارة القفال تجعل ما بين آية النسخ وآية تحويل القبلة، متممًا لقوله: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

ثم ختم الفصل بعد أن استقصى شرح وجوه نعمه على بني إسرائيل وشرح قبائحهم في أديانهم وأعمالهم - بما بدأ به وهو تذكيرهم بنعمه «والزامهم بما وثقهم به فقال: ﴿يَبْنَئِ إِبْرَاهِيمَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٢]^(٣). وجاءت

(١) "التفسير" ٥١٢/١.

(٢) "التفسير" ٦٤٣/١.

(٣) ينظر "التفسير" ٣٠/٢.

قصة إبراهيم عائدة بالخطاب إلى المكلفين، أو الفرق الثلاثة التي ابتدأت السورة بهم يقول: «شرع سبحانه هنا في نوع آخر من البيانات وهو أن ذكر إبراهيم عليه السلام وكيفية أحواله، والحكمة فيه: أن إبراهيم عليه السلام شخص يعترف بفضل جميع الطوائف والملل... فحكى الله سبحانه وتعالى عن إبراهيم عليه السلام أموراً توجب على المشركين وعلى اليهود والنصارى قبول قول محمد صلى الله عليه وآله والاعتراف بدينه والانقياد لشرعه»^(١).

أي هي تأييد لدين الإسلام وشرعه وفيها بيان لكمال حال أمة محمد صلى الله عليه وآله وأن هذا الدين هو استجابة لدعوات إبراهيم عند عمارته للبيت الحرام ﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ هو استجابة لدعوات إبراهيم عند عمارته للبيت الحرام ﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾^(٢).

ويجعل قصة إبراهيم ويعقوب - عليهما السلام - عتدان بسبب إلى قوله: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ [البقرة: ١٢١]. يقول: «ولعل هذه إشارة إلى ذكر الدليل على وجود الصانع على ما ذكره الله تعالى في أول هذه السورة في قوله: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَعْبُدُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ وههنا مرادهم بقولهم: ﴿نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ﴾ [البقرة: ١٣٣]. أي نعبد الإله الذي دل عليه وجودك ووجود آبائك وعلى هذا الطريق يكون ذلك إشارة إلى الاستدلال لا إلى التقليد»^(٣).

وهذا فقه جيد في تحليل النصوص ورد الدلالة إلى عناصر مشابهة بحيث لا يفسر أي عنصر في غياب نظائره، فقول أبناء يعقوب عليه السلام: ﴿نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ﴾ ظاهره يفيد التقليد والسير على هدى السابقين دون اعتبار الدلائل ولكن إجراءها وردها إلى سياق الأمر ورأس الكلام وهو قوله: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ﴾ ألف بين الداليتين وبعث ما في باطن اللغة من معاني ووجه دلالتها إلى الاستدلال بخلقه وخلق آياته على إلهيته سبحانه وعندها استقام الكلام وصحت طريقته.

(١) "التفسير" ٢/ ٣١، ٣٠.

(٢) ينظر السابق ٢/ ٥٨.

(٣) السابق ٢/ ٦٦.

وقد هيات هذه الآيات الدالة على صحة الإسلام إلى ذكر: شبه الطاعنين في الإسلام من قوله: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ [البقرة: ١٣٥]. إلى قوله: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّيْتُمْ عَنْ قِبَلِهِمْ﴾ [البقرة: ١٤٢]. ثم قرر بعدها خيرية أمة محمد ﷺ بقوله: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣] ويمكن له قوله: ﴿قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ [البقرة: ١٤٢]. ف«هذه الجهات بعد استوائها في كونها ملكًا لله وملكًا له، خص بعضها بمزيد التشريف والتكريم بأن جعله قبلة فضلًا منه وإحسانًا فكذلك العباد كلهم مشتركون في العبودية إلا أنه خص هذه الأمة بمزيد الفضل والعبادة فضلًا منه وإحسانًا لا وجوبًا»^(١).

وقد لخص الرازي السياقات السابقة حينما فسر قوله: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥١]. وبين جهات اتصال المعاني بجمع معاقدها وتنظيمها بردها إلى أصل متفق يقول: «أعلم أنا قد بينا أن الله تعالى استدل على صحة دين محمد ﷺ بوجوه بعضها إلزامية: وهو أن هذا الدين دين إبراهيم فوجب قبوله وهو المراد بقوله: ﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مِنْ سَفِهَةِ نَفْسِهِ﴾ [البقرة: ١٣٠]. وبعضها برهانية وهو قوله: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ﴾ [البقرة: ١٣٦]. ثم إنه سبحانه وتعالى عقب هذا الاستدلال بحكاية شبهتين لهم: إحداهما: قوله: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا﴾ [البقرة: ١٣٥] والثانية استدلالهم بإنكار النسخ على القدح في هذه الشريعة، وهو قوله: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّيْتُمْ عَنْ قِبَلِهِمْ إِلَهِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾ [البقرة: ١٤٢]. وأظن الله تعالى في الجواب عن هذه الشبهة وبالحق فعل ذلك، لأن أعظم الشبهة لليهود في إنكار نبوة محمد ﷺ إنكار النسخ، وختم ذلك الجواب بقوله: ﴿وَلَا تَتَمَنَّيَ عَلَيْهِمْ﴾ [البقرة: ١٥٠]. فصار هذا الكلام مع ما فيه من الجواب عن الشبهة تنبيهًا على عظيم نعم الله تعالى، ولا شك أن ذلك أشد استمالة لحصول العز والشرف في الدنيا والتخلص من الدل والمهانة يكون مرغوبًا فيه، وعند اجتماع الأمرين فقد بلغ النهاية في هذا الباب»^(٢).

(١) "التفسير" ٨٤/٢

(٢) السابق ١٢٢/٢

ثم انتقل الكلام إلى جهة أخرى تنمة للإنعام وإن كانت صورة النظم في صورة المنفصل في قوله: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتَ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ * وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٤-١٥٦]. فالسياق الأول كان في الأعمال الروحانية التي يستعين بها العبد على إقامة الدين وهذه فيما يستعين به من الأعمال البدنية بالأموال والأنفس^(١).

وله وجه آخر وهو «أنه تعالى أخبر أن إكمال الشرائع إتمام النعمة، فكان ذلك موجبا للشكر، ثم أخبر أن القيام بتلك الشرائع لا يمكن إلا بتحمل المحن فلا جرم أمر فيها بالصبر. والثاني: أنه تعالى أنعم أولا فأمر بالشكر، ثم ابتلى وأمر بالصبر؛ لينال الرجل درجة الشاكرين والصابرين معاً، فيكمل إيمانه»^(٢). ثم ختم هذا الفصل بمثل ما بدأ به بتقرير التوحيد والحكم بالفردانية والاستدلال عليه بالدلائل وأردفه بالتعريض بالمشركين في قوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ رَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ * إِذْ تَبَرَأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ * وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّنَا كُنَّا كَرَّةً فَنتَّبَرَأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٥ - ١٦٧]. ثم توسط التعريض بطريقة تذكير المشركين بإنعام الله عليهم في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [البقرة: ١٦٨].

واستمر الكلام في ذلك إلى قوله: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَتَّعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بَيْنَكُمْ عَمًى فَهُمْ لَا يَمْلِكُونَ﴾ [البقرة: ١٧١].

(١) "التفسير الكبير" ٢/ ١٢٥.

(٢) السابق، ٢/ ١٢٨.

وهذا التوسط لفائدة وهي كمال إنعام الله وإحسانه «وأن معصية من عصاه وكفر من كفر به لم يؤثر في قطع إحسانه ونعمه عنهم»^(١).

ولاح في خاطري معنى هذاني إليه كلام الرازي، وهو أن الغرض من شرح النعم بداءة للتقرير عليهم والتنبيه على شدة غفلتهم وعنادهم وبيان نقصان المنعم عليهم، ثم ختمها بتقرير ألوهيته ﴿وَاللَّهُ كَمَالُ إِلَهٍ وَجِدُ﴾ [البقرة: ١٦٣]. لبيان كمال المنعم، وهذه مقابلة لطيفة استدعاها التشابه في بناء ترتيب فاتحة الفصل وخاتمته.

وأما قوله ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٢]. فهي فصل وغرض آخر فـ «الله سبحانه وتعالى تكلم من أول السورة إلى ههنا في دلائل التوحيد والنبوة واستقصى في الرد على اليهود والنصارى، ومن هنا شرع في بيان الأحكام»^(٢).

ويجعلها شبيها بقوله: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [البقرة: ١٦٨]^(٣). إلا أن هناك فروقا في الدلالة باعتبار الأغراض واللغة، فالأولى جاء فيها الأمر عاما مسبقا بقوله: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ﴾ لأنه في سياق الإنعام، وفي الثانية خصصت الدلالة بـ ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ لأنه يترتب عليها ذكر الأحكام، ويتفرع عنها، فالأغراض نزلت بالدلالة نحو الخصوص.

والأحكام ليست غرضا مستقلا أو في معزل عن غيره من الأغراض، وإنما تمتد بوشائج وأسباب تصلها بمركز السورة وجذرها فقوله تعالى: ﴿سَلِّ بَنِي إِسْرَءِيلَ كَمَ ءَاتَيْنَاهُم مِّنْ ءَايَمٍ بَيِّنَةٍ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [البقرة: ٢٢١].

(١) "التفسير" ١٨٥ / ٢.

(٢) "التفسير" ١٩٠ / ٢.

(٣) "التفسير" ١٩٠ / ٢.

ليس المقصود به حقيقة السؤال والاستخبار؛ لأنه عليه الصلاة والسلام أطلعه ربه على أحوال بني إسرائيل مما لا يحتاج معه إلى مسألتهم «بل المقصود منه المبالغة في الزجر عن الإعراض عن دلائل الله تعالى، وبيان هذا الكلام أنه تعالى قال: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [البقرة: ٢٠٨]

فأمر بالإسلام ونهى عن الكفر، ثم قال ﴿فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ﴾ [البقرة: ٢٠٩]. «أي فإن أعرضتم عن هذا التكليف صرتم مستحقين للتهديد بقوله: ﴿فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٠٩] ثم بين ذلك التهديد بقوله: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ إِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ [البقرة: ٢١٠].

ثم ثلث ذلك التهديد بقوله: ﴿سَلِّ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ [البقرة: ٢١١] يعني سل هؤلاء الحاضرين أنا لما أتينا أسلافهم آيات بينات فأنكروها لا جرم استوجبوا العقاب من الله تعالى، وذلك تنبيه لهؤلاء الحاضرين على أنهم لو زالوا عن آيات الله لوقعوا في العذاب كما وقع أولئك المتقدمين^(١)

وكان الرازي يريد بقوله: «وبيان هذا الكلام» أن يطمئن القارئ لصحة المعنى المستنبط ويشكل أمامه الهيئة التي تولدت من ترتيب المعاني من بيان التأليفات المعنوية، وهو وصف للمعنى بعد وضعه في حيز معاني سابقة، وكيف اختلفت دلالاته من الإخبار إلى هيئة أخرى وهي المبالغة في التهديد.

ثم جاء في ثنائه معاني تحتاج إلى إشباع فاستمر الكلام في إشباع الدلالة السابقة فجاء قوله: ﴿زَيْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [البقرة: ٢١٢].

(١) "التفسير" ٣٦٥/٢.

وهو تفريع لجملة: ﴿وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١١]. «ف» أتبعه الله بذكر السبب الذي لأجله كانت هذه طريقتهم، فقال: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾. ومحصل هذا الكلام تعريف المؤمنين ضعف عقول الكفار المسرفين في ترجيح الفاني من زينة الدنيا على الباقي من درجات الآخرة^(١)، واستلزم ذلك البيان بياناً آخر وهو «أن هذا المعنى غير مختص بهذا الزمان، بل كان حاصلاً في الأزمنة المتقدمة؛ لأن الناس كانوا أمة واحدة قائمة على الحق، ثم اختلفوا وما كان اختلافهم إلا بسبب البغي والتحاسد والتنازع في طلب الدنيا فهذا هو الكلام في ترتيب النظم»^(٢). ثم يرد هذه الآيات إلى الجذر المتفرعة عنه، وهو قوله: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَآفَّةً﴾ يردها إليه ويجعلها تجري في حيز دلالة^(٣).

ويختم الفصل بقوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ ؕ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤]. ويصله بالغرض الكلي وهو بيان خيرية أمة محمد ﷺ ففائدة الآية: أنكم لا تستحقون الفضيلة والخيرية إلا إذا صبرتم على المحن والبلوى واحتملتم الشدائد في إقامة الدين وصبرتم وصابرتم على الحق^(٤).

وكانت فرساً لما بعدها من الأغراض فقد هيأت النفس لقبول التكاليف والأحكام التي أعقبتها في قوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ فَلِللَّهِ وَلِالَّذِينَ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢١٥].

(١) "التفسير" ٢/ ٣٦٦-٣٦٧.

(٢) ينظر: السابق ٢/ ٣٧٤.

(٣) السابق ٢/ ٣٧٢.

(٤) ينظر: "التفسير" ٢/ ٣٧٧-٣٧٨.

لأنه «لما بالغ في بيان أنه يجب على كل مكلف أن يكون معرضاً عن طلب العاجل، وأن يكون مشتغلاً بطلب الآجل، وأن يكون بحيث يبذل النفس والمال في ذلك، شرع بعد ذلك في بيان الأحكام.. لأن من عادة القرآن أن يكون بيان التوحيد وبيان الوعظ والنصيحة وبيان الأحكام مختلطاً بعضها ببعض؛ ليكون كل واحد منها مقوياً للآخر مؤكداً له»^(١).

وربط هذا التنوع بغرض السورة في موضع آخر يقول: «إنه تعالى مدح المؤمنين في سورة البقرة من أول السورة إلى قوله: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٥]. وضم الكافرين في آيتين: أولهما قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [البقرة: ٦]. إلى قوله: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٨]. ثم ذم المنافقين في ثلاث عشر آية: أولها قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ﴾ [البقرة: ٨]. إلى قوله: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١]. ثم لما مدح المؤمنين وضم الكافرين والمنافقين كأنه قيل: هذا المدح والذم لا يستقيمان إلا بتقديم الدلائل على إثبات التوحيد والنبوة والمعاد، فإن أصول الإسلام هي هذه الثلاثة. فلهذا السبب بين الله تعالى صحة هذه الأصول بالدلائل القاطعة»^(٢).

فالتجاوز ليس رصفاً عربياً عن الفائدة، وإنما تجد الدلالة تدخل في نسيج سابقتها وتغير في مدلولها وتضيف إليها هيئة وخصوصية ما كانت لولا ترتبها عليها وحسن ردها إليها.

ثم انتقل الكلام إلى قصة طالوت بعد الحث على الإنفاق في قوله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقِضُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٥].

مما يوهم ظاهره بالخروج عن نسق المعنى السابق، وبالتأمل في ترتيب المعاني وبناء بعضها على بعض تجد أن السياق يتناوب معنى الجهاد والإنفاق فيأتي الجهاد ثم يردفه بالإنفاق وكأنها معنيان متلازمان، إذا ذكر أحدهما نبه على الآخر واستحضره، يقول: «إنه تعالى أمر بالقتال فيما سبق بقوله: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٤٤]. ثم أعقبه بقوله:

(١) "التفسير" ٣٨١/٢.

(٢) "عجائب القرآن" الرازي ص ٩.

﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ والمقصود منه إنفاق المال في الجهاد ثم إنه مرة ثانية أكد الأمر بالقتال وذكر فيه قصة طالوت ثم أعقبه بالأمر بالإنفاق في الجهاد^(١).

فاقتربان الإنفاق بقصة طالوت حفز الذهن إلى معنى الجهاد رديفه في التركيب فنبه على هيئة القصة وانتزعها من معنى الحكاية إلى تأكيد معنى الجهاد والحث عليه، وهذه خصوصية زائدة على أصل الدلالة شكلها التآلف المعنوي وترتيب المعاني بعضها على بعض.

ولم ينتصر الرازي على ذلك وإنما أكد هذا الوجه بقرينة لفظية تصحح العلاقة، وهي قوله: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٦]. «أي هو عالم بمن ظلم نفسه حين خالف ربه، ولم يف بها قيل من ربه وهذا هو الذي يدل على تعلق هذه الآية بقوله قبل ذلك: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فكانه تعالى أكد وجوب ذلك بأن ذكر قصة بني إسرائيل في الجهاد. رعب ذلك بأن من تقدم على مثله فهو ظالم والله أعلم بما يستحقه الظالم وهذا بين في كونه زجرًا عن مثل ذلك في المستقبل وفي كونه بعثًا على الجهاد^(٢).

وتخلل الكلام آيات في التوحيد وقصص لإثبات العلم بالصانع وإثبات الحشر والبعث وعاد بعدها إلى أحكام الإنفاق في قوله: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١].

وهذه النقلة بين المعاني لم تنفك بها عرى النظم وإنما هي تجري في سياق المعنى السابق وتقويه وتزيد في بيانه يقول: «في كيفية النظم وجوه: الأول: قال القاضي رحمه الله: إنه تعالى لما أجمل في قوله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ فَيُضَاعِفُهُ اللَّهُ أضعافًا كَثِيرَةً﴾ فصل بعد ذلك في هذه الآية تلك الأصناف وإنما ذكر بين الآيتين الأدلة على قدرته بالإحياء والإماتة من حيث لولا ذلك لم يحسن التكليف بالإنفاق؛ لأنه لولا وجود الإله المتيب المعاقب لكان الإنفاق في سائر الطاعات عبثًا، فكانه تعالى قال لمن رغبه في الإنفاق: قد عرفت أنني خلقتك، وأكملت نعمتي عليك بالإحياء، والإقذار وقد علمت قدرتي على المجازاة والإنابة، فليكن

(١) "التفسير" ٢/ ٥٣٠.

(٢) السابق ٢/ ٥٠٣.

علمك بهذه الأحوال داعياً إلى إنفاق المال، فإنه يجازي القليل بالكثير، ثم ضرب لذلك الكثير مثلاً...

الوجه الثاني: في بيان النظم ما ذكره الأصم، وهو أنه تعالى ضرب هذا المثل بعد أن احتج على الكل بما يوجب تصديق النبي ﷺ؛ ليرغبوا في المجاهدة بالنفس والمال في نصرته وإعلاء شريعته^(١).

فالقاضي يجعل إثبات وجود الإله مرغباً في الإنفاق ومقوياً له. ويردها الأصم إلى المعنى الكلي وهو إقامة الحجة والدلالة على نبوة محمد ﷺ؛ ليكون ذلك المثل مرغباً لهم في الجهاد. واستمر المعنى إلى نهاية السورة، وقد وقف الرازي على طريقة التفريع واستمراره، فبداه بتعظيم الإنفاق في سبيل الله من قوله: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يَتَّبِعُونَ مَأْ أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٦٢].. وأتبعه ببيان الأمور التي يجب تحصيلها حتى يبقى ذلك الثواب، منها ترك المن وترك الأذى، وقول المعروف، وذلك في آيات من قوله: ﴿أَيُّدُ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَةٌ ضُعْفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢٦٦]. يقول: «اعلم أنه رغب في الإنفاق، ثم بين أن الإنفاق على قسمين: منه ما يتبعه المن والأذى، ومنه ما لا يتبعه ذلك.

ثم إنه تعالى ذكر ما يتعلق بكل واحد من هذين القسمين، وضرب لكل واحد منهما مثلاً يكشف المعنى ويوضح المقصود منه على أبلغ الوجوه.

ثم إنه تعالى ذكر في هذه الآية أن المال الذي أمر بإنفاقه في سبيل الله كيف ينبغي أن يكون فقال: ﴿أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٦٧]^(٢).

(١) "التفسير" ٣/ ٣٩.

(٢) "التفسير" ٣/ ٥٢.

ثم جاء قوله: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٨]. لأنه لما رغب الإنسان في إنفاق أجود ما يكسبه حذره من اتباع وسوسة الشيطان وما يلقي في نفسه من تخويف الفقر مما قد يضعف عزيمته على الإنفاق^(١).

ولما كان هذا المعنى موضع عناية امتد واستطال وبالغ في الحث على الإنفاق من الأجود الأكمل إلى الآية (٢٧١) في قوله: ﴿إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾

[البقرة: ٢٧١].

ليعيد تشكيل المعاني السابقة ويضع لها هيئة ثانية تتشاكل معه يقول: «اعلم أنه تعالى لما بين أولاً: أن الإنفاق منه ما يتبعه المن والأذى، ومنه ما لا يكون كذلك، وذكر حكم كل واحد من القسمين، ثم ذكر ثانياً: أن الإنفاق قد يكون من جيد ومن رديء، وذكر حكم كل واحد من القسمين، وذكر في هذه الآية أن الإنفاق قد يكون ظاهراً وقد يكون خفياً»^(٢).

والرازي غالباً ما يقف عند آية يعيد بها ترتيب المعاني السابقة ويوجه علاقاتها توجيهاً مختلفاً ويستنبط بها ما في طيات ذلك التجاور من إضافة معاني وزيادة بيان، فالإنفاق من الجيد والرديء لم يكن قسيماً ظاهراً وإنما أبرزه التصنيف الثالث وأخرجه من باطن الكلام إلى ظاهره.

وأظن هذه هي الهيئات التي يشكلها الترتيب والتأليفات بين المعاني بعطف بعضها على بعض فيحصل لها في الذهن هيئة لم يفدها ظاهر الكلام وإنما دل عليها التأليف.

وفرع على الإنفاق ذكر الربا لوجود «مناسبة من جهة التضاد؛ لأن الصدقة عبارة عن تنقيص المال بسبب أمر الله بذلك، والربا عبارة عن طلب الزيادة على المال مع نهي الله عنه، فكانا متضادين»^(٣).

(١) "التفسير" ٥٥/٣.

(٢) "التفسير" ٦١/٣.

(٣) "التفسير" ٧٢/٣.

ثم استأنف حكم الدين لمعنى يتعلق بالأمر بالإنفاق والأمر بترك الربا يقول: «إن الله سبحانه لما ذكر قبل هذا الحكم نوعين من الحكم أحدهما: الإنفاق في سبيل الله وهو يوجب تنقيص المال. والثاني: ترك الربا، وهو أيضًا سبب لتنقيص المال، ثم إنه تعالى ختم ذنبك الحكمين بالتهديد العظيم، فقال: ﴿وَأَتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨١]. والتقوى تسد على الإنسان أكثر أبواب المكاسب والمنافع ذلك بأن ندبه إلى كيفية حفظ المال الحلال وصونه عن الفساد والبوار، فإن القدرة على الإنفاق في سبيل الله، وعلى ترك الربا، وعلى ملازمة التقوى لا تتم ولا تكمل إلا عند حصول المال، ثم إنه تعالى لأجل هذه الدقيقة بالغ في الوصية بحفظ المال الحلال عن وجوه التوى والقلق، فحث على الاحتياط في أمر الأموال؛ لكونها سببًا لمصالح المعاش والمعاد، قال الفقهاء رحمه الله: والذي يدل على ذلك أن ألفاظ القرآن جارية في الأكثر على الاختصار وفي هذه الآية بسط شديد، ألا ترى أنه قال: ﴿إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ﴾ ثم قال: ثانيًا: ﴿وَلْيَكْتُبَ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ﴾ ثم قال ثالثًا: ﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ﴾ فكان هذا كالترار لقوله: ﴿وَلْيَكْتُبَ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ﴾ لأن العدل هو ما علمه الله، ثم قال رابعًا: ﴿فَلْيَكْتُبْ﴾ وهذا إعادة الأمر الأول ثم قال خامسًا: ﴿وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ﴾ وفي قوله: ﴿وَلْيَكْتُبَ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ﴾ كفاية عن قوله: ﴿وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ﴾ لأن الكاتب بالعدل إنما يكتب ما يملى عليه، ثم قال سادسًا: ﴿وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ﴾ وهذا تأكيد. ثم قال سابعًا: ﴿وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا﴾ فهذا كالمستفاد من قوله: ﴿وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ﴾ ثم قال ثامنًا: ﴿وَلَا تَسْقُمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ﴾ وهو أيضًا تأكيد لما مضى، ثم قال تاسعًا: ﴿ذَلِكَ أَنْ أَفْسَطَ عِنْدَ اللَّهِ﴾ فذكر هذه الفوائد الثلاثة لتلك التأكيدات السالفة، وكل ذلك يدل على أنه لما حث على ما يجري مجرى سبب تنقيص المال في الحكمين الأولين بالغ في هذا الحكم في الوصية بحفظ المال الحلال وصونه عن الهلاك والبوار فيتمكن الإنسان بواسطته من الإنفاق في سبيل الله، والإعراض عن مساخط الله من الربا وغيره، والمواظبة على تقوى الله...»^(١).

(١) "التفسير" ٩٠، ٨٩/٣.

فالحث على التقوى في سياق الإنفاق في سبيل الله وترك ما من شأنه أن ينمي المال ويزيده في الظاهر أوهم المخاطب أن التقوى المأمور بها تسد عليه جميع المكاسب والمنافع مما قد يفرض معها الإنسان في حفظ حقوقه، فانتهج ذلك حكم الدين؛ ليفيد أن الأصل هو حفظ المال وصيانتها؛ لأن به يصلح معاش الإنسان ومعااده.

وما ذكره الرازي من قول القفال يقوي به سلامة المعنى من خلال الأبنية اللغوية وأن المبالغة في الحث على حفظ المال جارٍ ومتردد بشكل بالغ في أبنية الآية وبسطها للمعاني في موضع يتأتى معه الاختصار، ولكن التفصيل الشديد أفاد العناية بالمعنى وجاءت هذه المبالغة متناسبة مع السياق السابق الذي قابلها بالتأكيد على الإنفاق.

فالمعاني الفرعية شديدة الملازمة للغرض الأصلي حتى كأنها دعامة له لا تنفك عنه، كما في تعقيب قوله تعالى: ﴿وَإِنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنَصِفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوا الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٣٧]. بالأمر بالصلاة في قوله تعالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨].

فحصل من ترتيبها فائدة «أحدها: أن الصلاة لما فيها من القراءة والقيام والركوع والسجود والخشوع تفيد انكسار القلب من هبة الله تعالى، وزوال التمرد عن الطبع وحصول الانقياد لأوامر الله تعالى والانتهاز عن مناهيه.. والثاني: أن الصلاة تذكر العبد جلاله الربوبية وذلة العبودية وأمر الثواب والعقاب، فعند ذلك يسهل عليه الانقياد للطاعة ولذلك قال: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾. والثالث: أن كل ما تقدم من بيان النكاح والطلاق والعدة اشتغال بمصالح الدنيا، فأتبع ذلك بذكر الصلاة التي هي مصالح الآخرة»^(١).

وقرينة كونها متفرعة من تحت بيان ذلك الغرض رجوع الكلام بعدها ومعانقته للأصل بأسلوب التعميم بعد الخصوص في قوله: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ مَتَّعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢٤١]. فهناك ذكر حكماً خاصاً، وههنا ذكر حكماً عاماً^(٢).

(١) "التفسير" ٢/ ٤٨٢.

(٢) "التفسير" ٢/ ٤٩٤.

ولما أعاد حكم المتعة معمماً زاد في التهيئة بذكر القصص في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَخَذَهَا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٣]. لـ «يحملة ذلك الاعتبار على ترك التمرد والعناد، ومزيد الخضوع والانقياد»^(١)

وبهذا نجد الرازي يجعل سورة «البقرة» قضية واحدة، وكلاماً متفقاً أوله مع آخره يصب في غرض واحد ينميه ويفرع عليه مجارٍ مختلفة تعود لتصب في دلالة وتزيد في أصل بيانه، وهذه منهجية صارمة وفقه واعٍ في تنظيم الدلالات والتأليف بين المعاني وإدارتها حول مقصد كلي هو عمودها الذي عليه المدار وبه الاستقرار، وهذا المقصد هو إثبات خيرية أمة محمد ﷺ، وأن منهج الإسلام هو المنهج الصحيح والصراط المستقيم الموصل إلى رضوان الله وذلك الفلاح، وهذا المعنى ليس ظاهراً وإنما تولد من ترتيب الأغراض وتفرعها فشكل هيئته وأبان عنه بما بث فيها من تفرعات هي مقدمات وتمهيدات ومنها ما هو كاللتميم والتأكيد والتفصيل والبيان وكل ذلك يقرر الأصل ويبينه.

وفي سورة «النمل» يصرح بتقسيم السورة إلى فصول ويديرها على المقصد الجامع لها وهو الرد على عبدة الأوثان ولفتهم إلى دلائل صدق نبوة محمد ﷺ؛ لذلك بدأها بالثناء على من آمن به وصدق واتبع هدى الله الذي جاء به فقال: ﴿طَسَّ تِلْكَ ءَايَتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ * هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [النمل: ١-٣].

وأردفه ببيان ما للكفار المعرضين عن الدلائل من سوء العذاب: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ رَبَّنَا لَهُمْ أَعْمَالُهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ * أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخِرُونَ﴾ [النمل: ٤، ٥]. أما وسط السورة فيشمل «عدة فصول:

الفصل الأول: في الرد على عبدة الأوثان، ومدار هذا الفصل على بيان أنه سبحانه

(١) "التفسير" ٤٩٥/٢.

وتعالى هو الخالق لأصول النعم وفروعها فكيف تحسن عبادة من لا منفعة منه البتة...

تكلم بعده في حال المعاد وذلك لأن الشك في المعاد لا ينشأ إلا من الشك في كمال القدرة، أو في كمال العلم فإذا ثبت كونه تعالى قادرًا على كل الممكنات وعالمًا بكل المعلومات ثبت القول بالحشر...

ولما تم الكلام في إثبات المبدأ أو المعاد ذكر بعد ذلك ما يتعلق بالنبوة ولما كانت العمدة الكبرى في إثبات نبوة محمد ﷺ القرآن لا جرم بين الله تعالى أو لا كونه معجزًا^(١).

وجاء قوله: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَىٰ آلْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ [النمل: ٧٩] تنمية للسياقات السابقة وتأكيدها لظهور حجة رسالته وأن الحق حقيق بنصر الله وتمكينه، وهذا باعث وسبب لتقوية قلب الرسول على التبليغ وإظهار الدين. "ويلاحظ استمرار السورة في بناء الأغراض والفصول بعضها على بعض في نسق متتابع دون تفرع على الفروع إلا ما جاء في نهاية فصل النبوة حيث ارتد الكلام إلى ذكر المعاد وكان ذلك لفائدة بيانية وهي: «أن الله تعالى بين بالدلائل القاهرة كمال القدرة، وكمال العلم، ثم فرع عليها القول بإمكان الحشر، ثم بين الوجه في كون القرآن معجزًا، ثم فرع عليه نبوة محمد ﷺ، ثم تكلم في مقدمات قيام القيامة وإنما آخر تعالى الكلام في هذا الباب عن إثبات النبوة؛ لما أن هذه الأشياء لا يمكن معرفتها إلا بقول النبي الصادق وهذا هو النهاية في وجوه الترتيب»^(٢).

أي أنه لما كانت أحوال القيامة من الأمور الغيبية التي لا يمكن معرفتها إلا بواسطة الرسل قرر أولاً صدق نبوته بالدلائل ثم فرع عليها أحوال القيامة ولم يفرعها على إثبات الحشر رغم أنه يقتضيها وهي تأتي في أكثر القرآن مقترنة به، لأمر يتصل بأجواء السورة وسياقها؛ لأن الخطاب مع المنكرين الطاعنين في نبوته فأثبت وقوع القيامة لا يتم إلا بعد تقرير دلائل صدق نبوته ﷺ.

(١) "التفسير" ٨/ ٥٦٢-٥٦٩-٥٧٠.

(٢) السابق، ينظر: ٨/ ٥٧١.

(٣) "التفسير" ٨/ ٥٧٢.

وسورة «فصلت» أنموذج مكتمل لدراسة بناء الكلام بعضه على بعض، وتعليق جميع عناصرها بجذر واحد ومركز واحد تلتقي عنده الدلالات تتفرع منه وتغذي دلالاته وتستطيل بمعناه في تنام مستمر إلى أن يكتمل، وفي كل نقلة واستمرار ورجوع تتشكل هيئات تزيد في دلالاته وتفصل مجمله، فقلب السورة هو قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِيْ أَكِنَّةٍ مِّمَّا نَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِيْ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَأَعْمَلْ إِنَّا عَمِلُونَا﴾ [فصلت: ٥] يعلق بها جميع المقاطع، ويهتدي ببصيرة نافذة إلى ما خلف مواقع التأليف من معانٍ وأحوال هي بسبب منها.

وبدأ بذلك بتصنيف السورة إلى مقاطع وفصول بحيث لا تجد آية في الفصل التالي يمكن أن تكون فيما قبلها، فكل مقطع يمثل وحدة معنوية صغيرة، هي في ذاتها غرض ولها دلالة ولكن تأليفها وترتيبها على الأصل يوجه دلالتها إلى ما يناسب ذلك الأصل ويقويه؛ لذلك سأعرض تقسيمه للسورة بكاملها وكيف كان يقف عند كل وحدة؛ ليربطها بذلك الجذر.

أولاً: وحدة الافتتاح: من الآية ١ إلى الآية ٨: ﴿حَمْدٌ * تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * كَذَّبُ قُضَيْلَتٌ ءَايَتُهُ، فَزَعَانَا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ * وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا نَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِي ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَأَعْمَلْ إِنَّا عَمِلُونَ * قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مُِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَىٰ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌُ وَاحِدٌ فَاستَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ * الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ * إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [فصلت: ١-٨].

ثانيًا: من الآية ٩ إلى الآية ١٢: ﴿قُلْ أَيْتَكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ * وَجَعَلَ فِيهَا رَواسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلنَّاسِ لِيَوْمٍ * ثُمَّ أَسْرَوْنَاهُ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ أَنْبِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَنْبِئَا طَائِعِينَ * فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾

مماثلة الاستدلال على قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ حَتَّىٰ إِلَىٰ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَحْدٌ ﴿﴾
ف «لما أمر محمداً ﷺ في الآية الأولى أن يقول: ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ﴾» أردفه بما يدل على أنه لا يجوز
إثبات الشراكة بينه تعالى وبين هذه الأصنام في الإلهية والمعبودية، وذلك بأن بين كمال قدرته
وحكمته في خلق السماوات والأرض في مدة قليلة..»^(١)

ثالثاً: من الآية ١٣ إلى الآية ١٨: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ
وَتَمُودَ ﴿﴾ إِذْ جَاءَهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ
رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَأِنَّمَا أُرْسِلَتْكُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿﴾ فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ
وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا
يَحْتَدُونَ ﴿﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لِنَنْذِرَهُمْ عَذَابَ الْآخِرَةِ فِي الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا وَلِعَذَابِ الْآخِرَةِ أَخْرَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿﴾ وَأَمَّا تَمُودُ فَهَدَيْتَهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى
الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمُ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿﴾ وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا
يَنْقُوتُونَ ﴿﴾ [فصلت: ١٣-١٨].

يقول: «اعلم أن الكلام إنما ابتدئ من قوله: ﴿أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَحْدٌ﴾ واحتج عليه
بقوله: ﴿قُلْ أَيُّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾. وحاصله أن الإله الموصوف
بهذه القدرة القاهرة كيف يجوز الكفر به، وكيف يجوز جعل هذه الأجسام الخسيسة شركاء له
في الإلهية؟ ولما تم تلك الحجة قال: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ
وَتَمُودَ﴾. وبيان ذلك لأن وظيفة الحجة قد تمت على أكمل الوجوه، فإن بقوا مصرين على
الجهل لم يبق حينئذ علاج في حقهم إلا إنزال العذاب عليهم، فلهذا السبب قال: ﴿فَإِنْ
أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ﴾^(٢).

ثم استمر المعنى السابق وتشعب عنه العذاب في الدنيا، فجاء المقطع الرابع من الآية ١٩
إلى الآية ٢٤: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿﴾ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءَهُمْ هَاشِدٌ

(١) "التفسير" ٥٤٣/٩.

(٢) "التفسير" ٥٥١/٩.

عَلَيْهِمْ سَمِعْتُمْ وَأَبْصَرْتُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَقَالُوا لَئِنْ جُلُودُهُمْ لَمْ شَهِدْكُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * وَمَا كُنْتُمْ تَنْتَبِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ * وَذَلِكَ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَدْتُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ * فَإِنْ يَصْصِرُوا فَالْتَأَرْ مَتَوَى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤-٢٩﴾ [فصلت: ٢٤-٢٩].
يقول في ذلك: «واعلم أنه تعالى لما بين كيفية عقوبة أولئك الكفار في الدنيا أردفه بكيفية عقوبتهم في الآخرة؛ ليحصل منه تمام الاعتبار في الزجر والتحذير»^(١).

المقطع الخامس: من الآية ٢٥ إلى الآية ٢٩: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أَمْرٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْإِنْسِ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَسِرِينَ * وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْافِ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ * فَلَنَذِقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا سَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَشْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ * ذَلِكَ جَزَاءُ عَادٍ إِذْ كَانُوا هُمْ فِيهَا دَارَ الْخَلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ * وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذِينَ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلُهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ﴾ ﴿٢٩-٢٥﴾ [فصلت: ٢٩-٢٥]. يقول: «اعلم أنه تعالى لما ذكر الوعيد الشديد في الدنيا والآخرة على كفر أولئك أردفه بذكر السبب الذي لأجله وقعوا في ذلك الكفر فقال: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ﴾»^(٢). ثم يرتب المقاطع كلها ويردها إلى جذر الكلام يقول: «واعلم أن الكلام في أول السورة ابتدئ من قوله: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكْثَرِ مِمَّا نَدْعُونَا إِلَيْهِ﴾ إلى قوله: ﴿فَاعْمَلْ إِنَّا عَمِلُونَ﴾. فأجاب الله عن تلك الشبهة بوجه من الأجوبة، واتصل الكلام بعبارة البعض إلى هذا الموضع»^(٣).

المقطع السادس: من الآية ٣٠ إلى الآية ٣٢: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي

(١) "التفسير" ٥٥٥/٩.

(٢) السابق ٥٥٧/٩.

(٣) "التفسير" ٥٥٨/٩.

كُنْتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلَىٰ بِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا
نَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ * نَزَّلْنَا مِنْ عَفْوَ رَحِيمٍ ﴿٣٢-٣٣﴾
ف «لما أظنبت في الوعيد أردفه بهذا الوعد الشريف، وهذا ترتيب لطيف مدار كل القرآن
عليه»^(١).

المقطع السابع: من الآية ٣٣ إلى الآية ٣٦: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ
وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ * وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ
أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلْقِهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا
يُلْقِهَا إِلَّا ذُو حِظٍّ عَظِيمٍ * وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ
الْعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٦-٣٣].

والرازي قبل أن يبين وجه العلاقة يستحضر ترتيب الآيات ثم يصلها برأس الكلام
وجذره فيمكن لها مع ما قبلها ومع أصل الكلام يقول في ذلك «إنا ذكرنا أن الكلام من أول
هذه السورة إنما ابتدئ حيث قالوا للرسول ﷺ: ﴿قُلُوبُنَا فِي أَكْثَرِ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ﴾
ومرادهم ألا نقبل قولك ولا نلتفت إلى دليلك، ثم ذكروا طريقة أخرى في السفاهة، فقالوا:
﴿لَا تَسْمَعُوا هَذَا الْقُرْآنَ وَالْغَوْا فِيهِ﴾ وإنه سبحانه ذكر الأجوبة الشافية والبيانات الكافية في
دفع هذه الشبهات وإزالة هذه الضلالات ثم إنه سبحانه وتعالى بين أن القوم وإن أتوا بهذه
الكلمات الفاسدة، إلا أنه يجب عليك تتابع المواظبة على التبليغ والدعوة، فإن الدعوة إلى
الدين الحق أكمل الطاعات ورأس العبادات.. فقال: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا﴾ فهذا وجه حسن
في نظم آيات هذه السورة، وفيه وجه آخر وهو أن مراتب السعادات اثنان: التام، وفوق التام،
أما التام: فهو أن يكتسب من الصفات الفاضلة ما لأجلها يصير كاملاً في ذاته، فإذا فرغ من
هذه الدرجة اشتغل بعدها بتكميل الناقصين، إذا عرفت هذا فنقول قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا
رَبَّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفْضَمُوا﴾ إشارة إلى المرتبة الأولى.... فإذا حصل الفراغ من هذه المرتبة
وجب الانتقال إلى المرتبة الثانية وهي الانتقال بتكميل الناقصين... وهو المراد من قوله:
﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا﴾^(٢)

(١) السابق ٩/ ٥٦٠.

(٢) "التفسير" ٩/ ٥٦٢.

المقطع الثامن: من الآية ٣٧ إلى الآية ٣٩: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ * فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَرَى الْأَرْضَ خُشْعَةً إِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُجِي الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [انصت: ٣٧-٣٩]. يقول فيها: «اعلم أنه تعالى لما بين في الآية المتقدمة أن أحسن الأعمال والأقوال هو الدعوة إلى الله تعالى أرفده بذكر الدلالة الدالة على وجود الله وقدرته وحكمته، وتبنيها على أن الدعوة إلى الله تعالى عبارة عن تقرير الدلائل الدالة على ذات الله وصفاته، فهذه تنبيهات شريفة مستفادة من تناسق هذه الآيات، فكان العلم بهذه اللطائف أحسن علوم القرآن»^(١).

المقطع التاسع: من الآية ٤٠ إلى الآية ٤٢: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخَفُونَ عَلَيْنَا أَمَّنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِيَ آمِنًا يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ * لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [انصت: ٤٠-٤٢]. ف «لما بين أن الدعوة إلى دين الله تعالى أعظم المناصب وأشرف المراتب ثم بين أن الدعوة إلى دين الله تعالى إنما تحصل بذكر دلائل التوحيد والعدل وصحة البعث والقيامة، عاد إلى تهديد من ينازع في تلك الآيات ويحاول إلقاء الشبهات»^(٢).

المقطع العاشر: من الآية ٤٣ إلى الآية ٤٦: ﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْفِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ * وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ * أَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ * وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَأَخْلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ * مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ، وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَمٍ﴾ [انصت: ٤٣-٤٦].

(١) "التفسير" ٥٦٦، ٥٦٥/٩.

(٢) "التفسير" ٥٦٨/٩.

هذا المقطع «راجع إلى أمر رسول الله بأن يصبر على أدنى قومه وألا يضيق قلبه بسبب ما حكاه عنهم في أول السورة من أنهم ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا نَدْعُونَ إِلَيْهِ﴾ إلى قوله: ﴿فَاعْمَلْ إِنَّا عَمِلُونَ﴾ ﴿فَاعْمَلْ إِنَّا عَمِلُونَ﴾ فقال: ﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ﴾.. أن المراد ما يقول لك كفار قومك إلا مثل ما قد قال للرسل كفار قومهم من الكلمات المؤذية والمطاعن في الكتب المنزلة... ففوض هذا الأمر إلى الله واشتغل بما أمرت به وهو التبليغ والدعوة إلى الله تعالى... وقد ظهر من كلامنا في تفسير هذه السورة أن المقصود من هذه السورة هو ذكر الأجوبة عن قولهم: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ﴾ فتارة ينه على فساد هذه الطريقة، وتارة يذكر الوعد والوعيد لمن لم يؤمن بهذا القرآن ولمن يعرض عنه، وامتد الكلام في هذا الموضع من أول السورة على الترتيب الحسن والنظم الكامل»^(١).

المقطع الحادي عشر: من الآية ٤٧ إلى الآية ٥٤: ﴿إِلَيْهِ يُرْدُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ تَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا يَعْلِمُهُ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ آيُنَ شُرَكَائِي قَالُوا أَدْنَاكَ مَا مَنَّا مِنْ شَهِيدٍ * وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنُوا مَا لَهُمْ مِنْ نَجْصٍ * لَا يَسْمَعُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ * وَلَئِنْ أَدْنَيْتَهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا إِلَى وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لِلْحَسَنِ فَلَنُتِمِّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ * وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَجَّ بَجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ * سَرُّبِهِمْ ءَابِتْنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ * أَلَا إِنَّهُمْ فِي مَرِيبَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ ؕ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُخِيطٌ﴾ (ص ٤٧-٥٤).

وهذه خاتمة السورة، يذكر تعلقها بها قبلها: «اعلم أنه تعالى لما هدد الكفار في الآية المتقدمة بقوله: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ ومعناها أن جزاء كل أحد يصل إليه في يوم القيامة، وكان سائلاً قال: ومتى يكون ذلك اليوم؟ فقال تعالى.... ﴿إِلَيْهِ

يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ ﴿١﴾... ثم إنه تعالى لما ذكر القيامة أردفه بشيء من أحوال يوم القيامة، وهذا الذي ذكره شديد التعلق أيضًا بها وقع الابتداء به في أول السورة يدل على أن شدة نفورهم عن استماع القرآن إنما حصلت من أجل أن محمدًا ﷺ كان يدعوهم إلى التوحيد وإلى البراءة عن الأصنام بدليل أنه قال في أول السورة: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌُ وَاحِدٌ﴾ فذكر في خاتمة السورة وعيد القائلين بالشركاء والأنداد فقال: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَاؤُا۟ي﴾ ﴿١﴾.

وهذا التأمل وهذا النمط من التحليل تظهر وحدة الكلام فالترابط العضوي بين عناصر الكلام لا يتنامى في ظاهر اللغة وإنما وراء مواقع الأبنية تتشكل الوحدة وتكتمل الدلالة، فمتى قبضنا على المعنى الجذر أو الجملة الأم فإن جميع الأغراض تنحدر تبعًا إليه وتنساق بالذهن إلى أوديته فلا تجد شعبًا من شعب الكلام إلا وهو فرع عنه ويثول إليه وإن كان ظاهره مستقلاً. فالمقطع الخامس ليس ظاهرًا في كونه سببًا وعلّة لإصرارهم على التمسك بشبهة ظاهرة في الضعف والوهن وإن ذلك بتزيين وتأيد قرناء ضلوا وأضلوا الناس وصرفوهم عن تأمل الأدلة والبراهين فكانوا كالحجاب المانع لهؤلاء عن النظر والاستدلال، وكيونة المعنى ليست في داخل التراكيب؛ لأن مدلول اللفظ هو ما ذهب إليه الزمخشري «يعني أنه خذلهم ومنعهم التوفيق لتصميمهم على الكفر فلم يبق لهم قرناء سوى الشياطين»^(١). ولكن تعليقه بجذر الدلالة نزع باللغة نحو ذلك المعنى فمنحه خصوصية تناسبه وتألف معه. وكذلك المقطع السابع صورته صورة الخبر ولكن رده إلى قوله: ﴿قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا نَدْعُونَ إِلَيْهِ﴾ وترتيبه عليه أحدث فيه هيئة زائدة وخصوصية بيانية لم تكن لولا ذلك التأليف وهي «المواظبة على التبليغ» وأحسب هذه الزيادات والتشكيلات التي تحدث في الكلام بسبب الترتيب والتي يسميها الرازي تنبيهات هي الهيئات الناتجة عن التأليفات المعنوية التي أشار إليها حازم وجعلها مناط الأسلوب.

(١) "التفسير" ٥٧١/٩.

(٢) "الكشاف" ١٩٦/٤.

وفي «نظم الدرر» نجد الإمام البقاعي يربط عناصر السورة وأغراضها بالمغزى وهو المعنى الذي أنتجه التأليف المعنوي بين الآيات وهو «الإعلام بأن العلم إنما هو ما اختاره المحيط بكل شيء قدرة وعلماً لعباده فشرعه لهم فجاءتهم به عنه رسله، وذلك العلم هو الحامل على الإيمان بالله والاستقامة على طاعته المقترنة بهما»^(١). وهذا بخلاف ما رأيناه عند الرازي، وهو إن خالفه في المنبع إلا أنه يستند في توجيه دلالة الفروع على ما ذكره الرازي ولا يختلف معه إلا في مقطعين في قوله: ﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرَّسُولِ مِنْ قَبْلِكَ﴾ فالرازي يجعله متعلقاً بجذر الدلالة ﴿قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ﴾ ف «كانه تعالى يقول: إن هذا الكلام أرسلته إليكم بلغتكم لا بلغة أجنبية عنكم فلا يمكنكم أن تقولوا: قلوبنا في أكنة منه بسبب جهلنا بهذه اللغة فبقي أن يقال: أن كل من آتاه الله طبعاً مائلاً إلى الحق، وقلباً مائلاً إلى الصدق، وهمة تدعوه إلى بذل الجهد في طلب الدين فإن هذا القرآن يكون في حقه هدى وشفاء... وأما من كان غارقاً في بحر الخذلان وتائها في مفاوز الحرمان ومشغولاً بمتابعة الشيطان كان هذا القرآن في أذنه وقرأ، كما قال: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا نَدْعُونَ إِلَيْهِ فِيْءِءَ أَذَانِنَا وَقُرْ﴾ وكان القرآن عليهم عمى كما قال: ﴿وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ وكل من أنصف ولم يتعسف علم أنا إذا فسرنا هذه الآية على الوجه الذي ذكرناه صارت هذه السورة من أولها إلى آخرها كلاماً واحداً منتظماً مسوقاً نحو غرض واحد»^(٢).

والبقاعي يرده إلى مفتتح السورة ويعلقه بقوله: ﴿كَتَبْتُ فَصَّلْتُ أَيْتُهُ﴾ يقول: «ولما افتتح السورة بأنه أنزل على أحسن الوجوه وأجملها وأعلاها... فقالوا فيه: ما وقعت هذه التسلية لأجله من قولهم: ﴿قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ﴾ إلى آخره، وكان ربما قال قائل: لو كان بلسان غير العربي، وأعطى هذا النبي فهمه والقدرة على تبيينه لكان أقوى في الإعجاز وأجدر بالاتباع، أخبر أن الأمر ليس كذلك؛ لأنهم لم يقولوا هذا لشك حصل لهم في أمره بل عناداً... فقال على سبيل التأكيد، معلماً بأن الأمر على غير ما ظنه الظان، وقال الأصهباني: إنه جواب عن قولهم: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ﴾. والأحسن عندي أن يكون معطوفاً على ﴿فَصَّلْتُ أَيْتُهُ قُرْءَ أَنَا عَرَبِيًّا﴾»^(٣).

(١) «نظم الدرر» ٤٧/٦

(٢) «التفسير» ٧٠/٩

(٣) «نظم الدرر» ٨١/٦

وأيضًا في المقطع الأخير ﴿إِلَيْهِ يُرْدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ حيث جعله الرازي توجيهًا للمشركين للتأمل والبحث عن الأدلة، فليس العلم بكون القرآن باطلًا علمًا بدهيًا فجاء التحذير من الإصرار على دفع الأدلة دون التحقق من صحتها؛ لأن الإصرار على دفعها وهي حق من أعظم موجبات العقاب.^(١)

والبقاعي يربطه بالمغزى وهو العلم، يقول: «لما دل اتباعهم للظن حتى في ذلك اليوم الذي تنكشف فيه الأمور - على أنهم في غاية العراقة في الجهل والرسوخ في العجز أتبع ذلك الدليل على أن ذلك طبع هذا النوع فلا يزال متبدل الأحوال متغير المناهج وإن أحس بخير انتفخ عظمه وتطاول كبرًا، وإن مس بلاء تضائل ذلًا وامتلاً ضعفًا وعجزًا، وذلك ضد مقصود السورة الذي هو العلم؛ بيانًا لأن حال هذا النوع بعيد عن العلم»^(٢).

وأنا أستحسن ما ذهب إليه الرازي؛ لأن ﴿قُلُوبُنَا فِي أَكْثَرِ﴾ هي قلب السورة، فما قبلها من ذكر الكتاب، وتفصيل آياته يمهد لها وما بعدها يجليها ويبينها ومجيئها بعد تفصيل الآيات لا للتأكيد على العلم؛ لأن الدلائل ظاهرة وقوية، وإنما لبيان شريحة من الناس تتجلى أمامهم الحقائق وتقهروهم الدلائل بظهورها وقوتها ثم يجادلون فيها ويعرضون عنها، فدأبهم التشكيك فيها والطعن بأوهي الحجج. وتبين السورة منهج الدعوة إلى الله مع وجود هذا الصنف وكشف دواخلهم والمسيبات التي أنتجت مثل هذا النوع من العقول من قرناء السوء وما جبل عليه الإنسان من التبدل^(٣). ثم ختمها بالتحذير والوعيد من مغبة هذا المنهج وبيان المسلك الصحيح في فحص الأدلة قبل الإصرار على تركها.

والإمام في تحليله للصور السابقة يسعى إلى دمج العناصر الدلالية المتحدرة من فروع مختلفة ويؤلفها بمعنى كلي يجمع أعناقها ويضبط معاقدها، وأما في سورة «النساء» فينبه على

(١) ينظر: «التفسير الكبير» ٥٧٣/٩.

(٢) «نظم الدرر» ٥٨٦/٦.

(٣) «التفسير الكبير» ٥٧٣/٩.

مسلك آخر يقصد فيه الاختلاف والتنوع، ويجعل تمام الدلالة ومقاطعها الخروج عن المقصد؛ لذلك كان يكتفي في دراسته للسورة غالباً بالتنبيه على مواضع القطع والرجوع دون بيان لوجه العلاقة بين الأغراض، فقوله تعالى: ﴿لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ﴾ * وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا ﴿[النساء: ٤٤، ٤٥] يقول: إنه «لما ذكر من أول هذه السورة إلى هذا الموضع أنواعاً كثيرة من التكاليف والأحكام الشرعية، قطع ههنا ببيان الأحكام الشرعية، وذكر أحوال أعداء الدين وأقاصيص المتقدمين؛ لأن البقاء في النوع الواحد من العلم مما يكل الطبع ويكدر الخاطر فأما الانتقال من نوع من العلوم إلى نوع آخر فإنه ينشط الخاطر ويقوي القرينة»^(١).

وهذا وإن كان في أسلوب القرآن وترتيب معانيه، إلا أنه ظاهرة بارزة في سورة «النساء» لأن مدار السورة على تقرير الأحكام لذلك يكثر فيها الخروج وليس لذلك غرض سوى معاضدة تلك الدلالة والتلطف في تقريرها يقول في هذا: «اعلم أن عادة الله في ترتيب هذا الكتاب الكريم وقع على أحسن الوجوه، وهو أن يذكر شيئاً من الأحكام ثم يذكر عقبيه آيات كثيرة في الوعد والوعيد والترغيب والترهيب ويخلط بها آيات دالة على كبرياء الله وجلال قدرته وعظمة الهيبة ثم يعود مرة أخرى إلى بيان الأحكام وهذا أحسن أنواع الترتيب وأقربها إلى التأثير في القلوب؛ لأن التكليف بالأعمال الشاقة لا يقع في موقع القبول إلا إذا كان مقروناً بالوعد والوعيد، والوعد والوعيد لا يؤثر في القلب إلا عند القطع بغاية كمال من صدر عنه الوعد والوعيد، فظهر أن هذا الترتيب أحسن الترتيبات اللاتقة بالدعوة إلى الدين الحق، وإذا عرفت هذا فنقول: أنه سبحانه ذكر في أول هذه السورة أنواعاً كثيرة من الشرائع والتكاليف ثم أتبعها بشرح أحوال الكافرين والمنافقين واستقصى في ذلك ثم ختم تلك الآيات الدالة على عظمة جلال الله وكمال كبريائه، ثم عاد بعد ذلك إلى بيان الأحكام»^(٢).

(١) "التفسير" ٩١/٤.

(٢) "السابق" ٢٣٣، ٢٣٢/٤.

أما السور القصار فالكلام فيها عامد إلى الغرض منصب إليه متجرد له، حالها كالجملية الواحدة التي تتضام ويتصل أولها بآخرها؛ لتفيد معنى واحدًا، كما في سورة «البروج» فـ «المقصود من هذه السورة تسليية النبي وأصحابه عن إيذاء الكفار، وكيفية تلك التسليية هي أنه تعالى بين أن سائر الأمم السالفة كذلك مثل أصحاب الأخدود ومثل فرعون ومثل ثمود، وختم ذلك بأن بين أن كل الكفار كانوا في التكذيب ثم عقب هذا الوجه بوجه آخر، وهو قوله: ﴿وَاللَّهُمِّنْ وَرَأَيْهِمْ مُّحِيطٌ﴾ [البروج: ٢٠]. ذكر وجهًا ثالثًا هو أن هذا شيء مثبت في اللوح المحفوظ ممتنع التغير وهو وقوله: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ﴾ [البروج: ٢١]. فهذا ترتيب السورة»^(١).

فهذا تركيز لدلالة الآيات وتحريكها تجاه مقصد كلي يربط بينها ويجعل منها جملة واحدة، فليست هناك تفرعات أو نقلة وإنما كل آية هي استمرار لما قبلها حتى يكتمل المعنى ويتم.

وسورة «المزمل» يجعلها في مقطعين متقابلين حيث «بدأ في أول السورة بشرح أحوال السعداء، ومعلوم أن أحوالهم قسبان أحدهما: ما يتعلق بالدين والطاعة للمولى فقدم ذلك، والثاني: ما يتعلق بالمعاملة مع الخلق وبين ذلك بقوله: ﴿وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَأَهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ [المزمل: ١٠]. وأما الأشقياء فقد بدأ بتهديدهم على سبيل الإجمال، وهو قوله تعالى: ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ﴾ [المزمل: ١١]. ثم ذكر بعده أنواع عذاب الآخرة ثم ذكر بعده عذاب الدنيا وهو الأخذ الويل في الدنيا، ثم وصف بعده شدة يوم القيامة فعند هذا تم البيان بالكلية فلا جرم ختم ذلك الكلام بقوله: ﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ [المزمل: ١٩]^(٢).

وأحيانًا يداخل أغراضها أصول أخرى فسورة الغاشية مدار آياتها على إثبات يوم القيامة وتأكيد وقوعه، وخالطها النقلة إلى إثبات الإلوهية وذكر الدلائل الدالة على وجود الصانع، وذلك لأن إثبات الحكم بوقوع يوم القيامة مترتب في إثباته على تقرير هذه الدلائل،

(١) "التفسير" ١٠٦/١١.

(٢) السابق ٦٩٣/١٠.

يقول: «اعلم أنه تعالى لما حكم بمجيء يوم القيامة وقسم أهل القيامة إلى قسمين الأشقياء والسعداء، ووصف أحوال الفريقين، وعلم أنه لا سبيل إلى إثبات ذلك إلا بواسطة إثبات الصانع الحكيم، لا جرم أتبع ذلك بذكر هذه الدلالة فقال: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِلَهِ كَيْفَ خَلَقَ﴾ [الغاشية: ١٧]. وجه الاستدلال بذلك على صحة المعاد أنها تدل على وجود الصانع الحكيم، ومتى ثبت ذلك فقد ثبت القول بصحة المعاد.... فثبت أن إقامة الدلالة على الصانع الحكيم توجب القول بصحة البعث والقيامة، فلهذا السبب ذكر الله دلالة التوحيد في آخر هذه السورة.^(١)

وقد لفت الإمام إلى تداخل القصص مع الأغراض في كثير من سور القرآن الكريم، ودل على ما فيه من فوائد وأسرار متنوعة بعضها يمكن أن يقال في سياق كل قصة وهي عدة «أمور: أولها: أن الانتفاع بالدليل العقلي المحض إنما يحصل للإنسان الكامل، وذلك إنما يكون في غاية الندرة، فأما إذا ذكرت الدلائل ثم أكدت بأقاصيص الأولين صار ذكر هذه الأقاصيص كالموصل لتلك الدلائل العقلية إلى العقول.

الوجه الثاني: أنه تعالى خلط بهذه الأقاصيص أنواع الدلائل التي كان الأنبياء -عليهم السلام- يتمسكون بها ويذكر مدافعات الكفار لتلك الدلائل وشبهاتهم في دفعها ثم يذكر عقيبتها أجوبة الأنبياء عنها ثم يذكر عقيبتها أنهم لما أصروا واستكبروا وقعدوا في عذاب الدنيا وبقي عليهم اللعن والعقاب في الدنيا والآخرة، فكان ذكر هذه القصص سبباً لإيصال الدلائل والجوابات عن الشبهات إلى قلوب المنكرين وسبباً لإزالة القسوة والغلظة عن قلوبهم فثبت أن أحسن الطرق في الدعوة إلى الله تعالى ما ذكرناه.

الفائدة الثالثة: أنه عليه السلام كان يذكر هذه القصص من غير مطالعة كتب ولا تلمذة لأحد، وذلك معجزة عظيمة تدل على النبوة كما قررناه.

(١) "التفسير" ١٤٣/١١، ١٤٤.

الفائدة الرابعة: إن الذين يسمعون هذه القصص يتقرر عندهم أن عاقبة الصديق والزنديق والموافق والمتافق إلى ترك الدنيا والخروج عنها، إلا أن المؤمن يخرج من الدنيا مع الشئ الجميل في الدنيا، والثواب الجزيل في الآخرة، والكافر يخرج من الدنيا مع اللعن في الدنيا والعقاب في الآخرة، فإذا تكررت هذه الأقاصيص على السمع فلا بد وأن يلين القلب وتخضع النفس وتزول العداوة ويحصل في القلب خوف يحمله على النظر والاستدلال، فهذا كلام جليل في فوائد ذكر هذه القصص^(١).

فهو عادة مألوفة ومسلك ظاهر في البيان القرآني^(٢)، وبعضها خاص يتشكل باعتبار من الأغراض المحيطة بالقصة فتتزع بالقصة إلى دلالة معينة تخرج بها الحكاية إلى معنى متمم لبيان السورة ومقصودها وجعل هذا الباب من أنفس علوم القرآن يقول في إيراد قصة موسى وفرعون في سورة الزخرف أن المقصود من إعادتها «تقرير الكلام الذي تقدم وذلك لأن كفار قريش طعنوا في نبوة محمد ﷺ بسبب كونه فقيرًا عديم المال والجاه، فبين الله تعالى أن موسى ﷺ بعد أن أورد المعجزات القاهرة... أورد فرعون عليه هذه الشبهة التي ذكرها كفار قريش. فقال: إني غني كثير المال.. وأما موسى فإنه فقير مهين وليس له بيان ولسان، والرجل الفقير كيف يكون رسولاً من الله إلى الملك الكثير الغنى، فثبت أن هذه الشبهة التي ذكرها كفار مكة وهي قوله: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْفَرِثِيِّينَ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]. وقد أوردنا بعينها فرعون على موسى.. وليس المقصود من إعادة هذه القصة عين هذه القصة بل المقصود تقرير الجواب عن الشبهة المذكورة، وعلى هذا فلا يكون هذا تقرير للقصة البتة وهذا من نفائس الأبحاث^(٣).

فالسباق قلل من شأن الحمولة التاريخية؛ لأنها ليست تقريرًا للقصة البتة، وإنما هي صياغة وتصوير للرد على الشبهة المذكورة وتقرير الجواب عنها.

(١) "التفسير" ٦/ ٣٩٥.

(٢) ينظر: "التفسير" ٧/ ٦٤.

(٣) "التفسير" ٩/ ٦٣٦.

وأيضاً قصة إبراهيم في نفس السورة خرجت عن الحكاية وسلك بها مسلك الرد على فساد القائلين بالتقليد يقول: «اعلم أنه تعالى لما بين في الآية المتقدمة أنه ليس لأولئك الكفار داع يدعوهم إلى تلك الأقاويل الباطلة إلا تقليد الآباء والأسلاف، ثم بين أنه طريق باطل ومنهج فاسد،.... أرفده بهذه الآية والمقصود منها ذكر وجه آخر يدل على فساد القول بالتقليد وتقريره من وجهين: الأول: أنه تعالى حكى عن إبراهيم عليه السلام أنه تبرأ عن دين آبائه بناء على الدليل... وإذا كان كذلك وجب تقليده في ترك تقليد الآباء ووجب تقليده في ترجيح الدليل على التقليد... فهذا طريق رقيق في إبطال التقليد وهو المراد بهذه الآية.

الوجه الثاني: في بيان أن ترك التقليد والرجوع إلى متابعة الدليل أولى في الدنيا وفي الدين، أنه تعالى بين أن إبراهيم عليه السلام لما عدل عن طريقة أبيه في متابعة الدليل لا جرم جعل الله دينه ومذهبه باقياً في عقبه إلى يوم القيامة، وأما أديان آبائه فقد اندرست وبطلت، فثبت أن الرجوع إلى متابعة الدليل يبقى محمود الأثر إلى قيام الساعة»^(١).

ونقاسة هذا المبحث جاءت من أن القصة تحيل إلى معاني تتصل بمقاصد السورة وأغراضها ولها مواقع مختلفة، فتارة تكون رمزاً لحوالات دلالية متكاثرة لا يستوعبها اللفظ الصريح فتوضع الحكاية؛ لتومئ إليها وتوحي بتلك المعاني وتحيل الذهن إليها كما في ذكر قصة نوح عليه السلام في سورة يونس عليه السلام يقول: «اعلم أنه تعالى لما حكى الكلمات التي جرت بين نوح وبين أولئك الكفار، ذكر ما إليه رجعت عاقبة تلك الواقعة، أما في حق نوح وأصحابه، فأمران: أحدهما أنه تعالى نجاهم من الكفار.....، والثاني: أنه جعلهم خلائف بمعنى أنهم يخلفون من هلك بالغرق، وأما في حق الكفار فهو أنه تعالى أغرقهم وأهلكهم، وهذه القصة إذا سمعها من صدق الرسول ومن كذب به كانت زجراً للمكلفين من حيث يخافون أن ينزل بهم مثل ما نزل بقوم نوح، وتكون داعية للمؤمنين على الثبات على الإيمان، ليصلوا إلى مثل ما وصل إليه قوم نوح، وهذه الطريقة في الترغيب والتحذير إذا جرت على سبيل الحكاية عمن تقدم كانت أبلغ من الوعيد المبتدأ، وعلى هذا الوجه ذكر تعالى أقاصيص الأنبياء عليهم السلام»^(٢).

(١) "التفسير" ٦٢٩/٩.

(٢) السابق ٢٨٦/٦.

فالأبلغية في الحكاية جاءت من كونها ذات معانٍ متكاثرة ومتضمنة لمقاصد مختلفة ما بين الوعد والوعيد والترغيب والتحذير إلى جانب ما فيها من تنشيط للسامع وخروج به من فن من فنون الكلام إلى آخر فيجد في نفسه رغبة جديدة وقوة حادثة وميلًا قويًا لمتابعة القول^(١) فـ «الحكايات إنما تكون لمقاصد لكنها تنسى لطيب الحكاية»^(٢) أي أنها داخلية في بناء الكلام ونسجه وتقع مواقع معانٍ يعدل عن التصريح بها كما في الوعيد السابق عدل عنه صراحة إلى الرمز بالقصة.

ويبين هذا أيضًا ما ذهب إليه في جعله القصص الثلاث الواردة في سورة «الحاقة» دعامة يرتكز عليها المعنى ويقوم بها فهي مركز الكلام وحلقة الوصل بين طرفيه يقول: «واعلم أنه تعالى لما حكى هذه القصص الثلاث ونبه بها عن ثبوت القدرة والحكمة للصانع فحينئذ ثبت بثبوت القدرة إمكان القيامة، وثبت بثبوت الحكمة إمكان وقوع القيامة، ولما ثبت ذلك شرع سبحانه في تفاصيل أحوال القيامة»^(٣).

فالسورة بدأت بذكر يوم القيامة ووصف أحوالها ثم ختمت بتفاصيل هذه الأحوال ومقدمتها، وتوسطت القصص بين المعنيين وهذا التوسط لفائدة وهي إثبات قدرة الله تعالى وحكمته فإذا تقرر هذا المعنى تأكد إمكانية وقوع القيامة وحسن بعدها ذكر التفاصيل، فتفاصيل أحوال القيامة لا يتمكن إلا بعد ثبوت إمكانية وقوعها.

وتارة تأتي لتقرير معانٍ ذهنية فتكون أشبه بضرب الأمثال كما في قصة عاد في سورة «الأحقاف»، فـ «لما أورد الدلائل على إثبات التوحيد والنبوة وكان أهل مكة بسبب استغراقهم في لذات الدنيا واشتغالهم بطلبها أعرضوا عنها... فلما كان الأمر كذلك بين أن قوم عاد كانوا أكثر أموالاً وقوة وجاهًا منهم، ثم إن الله سلط العذاب عليهم بسبب شؤم كفرهم، فذكر الله تعالى هذه القصة ههنا؛ ليعتبر بها أهل مكة فيتركوا الاغترار بها وجدوه في الدنيا ويقبلوا على طلب الدين، وهو مناسب لما تقدم؛ لأن من أراد تقبيح طريقة عند قوم كان الطريق فيه ضرب الأمثال»^(٤).

(١) "التفسير" ٣٨٢/٦.

(٢) "التفسير" ٣٩/٩.

(٣) السابق ٦٢٤/١٠.

(٤) السابق ٢٤/١.

واعتبار المقاصد في دراسة الحكاية لفت إلى أسرار التصرفات التي تختلف بحسبها القصة الواحدة فكل سورة لها مقصد محدد وهدف خاص، ف«تتأثر في ألفاظها وتراكيبها بروح السورة وجوها الخاص، فيعبر عن المعنى الواحد.. بالألفاظ وتراكيب تختلف قليلاً أو كثيراً عن الألفاظ والتراكيب التي عبر عنها في السورة الأخرى»^(١).

وما يتولد عنها من زيادات وتغيرات في دلالة الكلام يسمى بالمعاني الخادمة فهي ليست المقصود الأصلي ولكن من مكملاته وامتداته^(٢).

فالقصة تذكر ثم تعاد في سورة أخرى وليس ذلك من التكرار وإنما لأن «القصة الواحدة قد ينتفع بها من وجوه، ففي السورة الأولى كان الكفار يستعجلون نزول العذاب فذكر تعالى قصة نوح في بيان أن قومه كانوا يكذبونه بسبب أن العذاب ما كان يظهر ثم في العاقبة ظهر، فكذا في واقعة محمد ﷺ وفي هذه السورة ذكر هذه القصة لأجل أن الكفار كانوا يبالغون في الإيحاء، فذكر الله تعالى هذه القصة لبيان أن إقدام الكفار على الإيذاء والإيحاء كان حاصلاً في زمان نوح، إلا أنه ﷺ لما صبر نال الفتح والظفر، فكن يا محمد كذلك؛ لتنال المقصود، ولما كان وجه الانتفاع بهذه القصة في كل سورة من وجه آخر لم يكن تكريرها خالياً عن الفائدة»^(٣). فاختلف المعنى باختلاف المساق فالأولى كانت في حال تكذيب الكفار واستعجالهم للعذاب، والثانية في حال مبالغتهم في إيذائه وإيحاشه ﷺ. فاختلف وجه الانتفاع بها باختلاف مقصد السورة.

وقصة آدم ذكر أنها تكررت في القرآن في ست سور في كل لها معنى بحسب مغزى السورة والغرض فيها، ونبه على تصنيفها باعتبار المقاصد وما يتولد عن هذا الاعتبار من توجيهات مختلفة تنزع بالحكاية إلى تقرير مضامين السورة وتقويتها، أو يردها إلى آيات محددة تعطي خصوصية للقصة وزيادات تشيع تلك الجمل وتبين عنها.

(١) «التناسب البياني» أبو زيد ١٧١.

(٢) «الموافقات» الشاطبي ١٠٦/٢.

(٣) ينظر: «الموافقات» ١٠٦/٢.

ففي سورة «الحجر» يربطها بما قبلها ويفرعاها عليه، ويقول: «اعلم أنه تعالى لما ذكر حدوث الإنسان الأول، واستدل بذكره على وجود الإله القادر المختار - ذكر بعده واقعته وهو أنه تعالى أمر الملائكة بالسجود له فأطاعوه إلا إبليس أبى وتمرد»^(١).

وأما سورة «ص» فالقصة مقطع مستأنف يستقل بالفائدة في وجه ويرتد إلى مغزى ما قبلها ليقرره. يقول فيها: «المقصود من ذكر هذه القصة المنع من الحسد والكبر، وذلك لأن إبليس، إنما وقع فيما وقع فيه بسبب الحسد والكبر، والكفار إنما نازعوا محمداً ﷺ بسبب الحسد والكبر، فالله تعالى ذكر هذه القصة ههنا؛ ليصير سماعها زاجراً لهم عن هاتين الخصلتين المذمومتين، والحاصل أنه تعالى رغب المكلفين في النظر والاستدلال، ومنعهم عن الإصرار والتقليد»^(٢).

فخصوصية المعنى جاءت من الزيادة في تصريف الحكاية فأشبع القول في أنفة إبليس من السجود لآدم والتصريح باستكباره والتقرير عليه بالاستفهام ثم تصريح إبليس بالمانع له من السجود، فعمود القصة ومدارها بيان المانع من السجود؛ ليصير مرغباً للمكلفين في النظر والاجتهاد ومانعاً من التقليد. بينها أوجزه في «الحجر» ودل عليه بقوله: ﴿أَبَى﴾ [الحجر: ٣١].

وفي سورة «الإسراء» يوزع القصة على دلالات مختلفة في السورة ويعلق نظمها بها ذكر ذلك في قوله: «في كيفية النظم وجوه: الأول: اعلم أنه تعالى لما ذكر أن رسول الله ﷺ كان في محنة عظيمة من قومه وأهل زمانه بين أن حال الأنبياء مع أهل زمانهم كذلك. ألا ترى أن أول الأولياء هو آدم، ثم إنه كان في محنة شديدة من إبليس. الثاني: أن القوم إنما نازعوا رسول الله ﷺ وعاندوه واقترحوا عليه الاقتراحات الباطلة لأمرين الكبر والحسد، أما الكبر فلأن تكبيرهم كان يمنعهم من الانقياد، وأما الحسد فلأنهم كانوا يحسدونه على ما آتاه الله من النبوة والدرجة العالية، فبين تعالى أن هذا الكبر والحسد هما اللذان حملا إبليس على الخروج من

(١) «التفسير» الرازي ١٣٩/٧.

(٢) السابق ٤٠٩/٩.

الإيمان والدخول في الكفر، فهذه بلية قديمة ومحنة عظيمة للمخلوق. والثالث: أنه تعالى لما وصفهم بقوله ﴿فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٦٠]. بين ما هو السبب لحصول هذا الطغيان وهو قول إبليس ﴿لَا خَسِرْتُمْ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٢]. «فلاجل هذا المقصود ذكر الله تعالى قصة إبليس وآدم فهذا هو الكلام في كيفية النظم »^(١).

وفي الوجه الثالث يجعلها منجرة من تحت فاصلة الآية قبلها فتمكنت فيها تمكن السبب من المسبب، فجعل عمود القصة ومقصودها قوله: ﴿لَا خَسِرْتُمْ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

وكذلك في سورة «طه» سدت مداخل متعددة في الآية السابقة لها فهي تجري في أبنية تلك الجمل وتداخل بيانها قال فيها: «اعلم أن هذا هي المرة السادسة من قصة آدم عليه السلام في القرآن: أولها في سورة «البقرة» ثم في «الأعراف» ثم في «الحجر» ثم في «الإسراء» ثم في «الكهف»، ثم ههنا. واعلم أن في تعلق هذه الآية بما قبلها وجوه: أحدها: أنه تعالى لما قال: "كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق" ثم إنه عظم أمر القرآن وبالع في ذكر هذه القصة إنجازاً للوعد في قوله: ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءٍ مَا قَدْ سَبَقَ﴾ [طه: ٩٩]. ثانيها: أنه لما قال: ﴿وَصَرَفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ [طه: ١١٣]. أردفه بقصة آدم عليه السلام كأنه قال: إن طاعة بني آدم للشيطان وتركهم التحفظ من وسوسه أمر قديم فإنا قد عهدنا إلى آدم من قبل أي من قبل هؤلاء الذين صرفنا لهم الوعيد وبالغنا في تنبيهه حيث قلنا: ﴿إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِرَوْحِكَ﴾ [طه: ١١٧]. ثم إنه مع ذلك نسي وترك ذلك العهد فأمر البشر في ترك التحفظ من الشيطان أمر قديم. وثالثها: أنه لما قال لمحمد ﷺ: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]. ذكر بعد قصة آدم عليه السلام فإنه بعدما عهد الله إليه وبالع في تجديد العهد وتحذيره من العدو نسي، فقد دل ذلك على ضعف القوة البشرية على التحفظ فيحتاج حينئذ إلى الاستعانة بربه في أن يوفقه لتحصيل العلم ويجنبه عن السهو والنسيان. ورابعها: أن محمداً ﷺ لما قيل له: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ [طه: ١١٤]. دل على أنه كان في الجد في أمر الدين بحيث زاد على قدر الواجب فلما وصفه بالإفراط وصف

(١) "التفسير" ٣٦٥/٧.

آدم بالتفريط في ذلك، فإنه تساهل في ذلك ولم يتحفظ حتى نسي فوصف الأول بالتفريط والآخر بالإفراط؛ ليعلم أن البشر لا ينفك عن نوع زلة. وخامسها: أن محمدًا ﷺ لما قيل له: ﴿وَلَا تَعْجَلْ﴾ ضاق قلبه وقال في نفسه: لولا أني أقدمت على ما لا ينبغي وإلا لما نهيت عنه فقليل له: إن كنت فعلت ما نهيت عنه فإنما فعلته حرصًا منك على العبادة، وحفظًا لأداء الوحي وإن أباك أقدم على ما لا ينبغي؛ للتساهل وترك التحفظ فكان أمرك أحسن من أمره^(١).

وحينما يأتي إلى تحليل المقطع الأخير من القصة يقوي تعلقها وتفرعها عن قوله: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ [طه: ١١٤]. فتكون «هذه القصة كالتنبيه على أنه لا دافع لقضاء الله ولا مانع منه، وأن الدليل وإن كان في غاية الظهور ونهاية القوة فإنه لا يحصل النفع به إلا إذا قضى الله تعالى ذلك وقدره»^(٢).

فكل سورة تذكر من القصة ما يتلاءم مع مغزاها كما في قصة موسى ﷺ، في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا * فَقُلْنَا أَذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٥، ٣٦]. فاكتمى بأحداث معينة من القصة «فذكر حاشيتها أولها وآخرها؛ لأنها المقصود من القصة بطولها أعني إلزام الحجة ببعثة الرسل واستحقاق التدمير بتكذيبهم»^(٣).

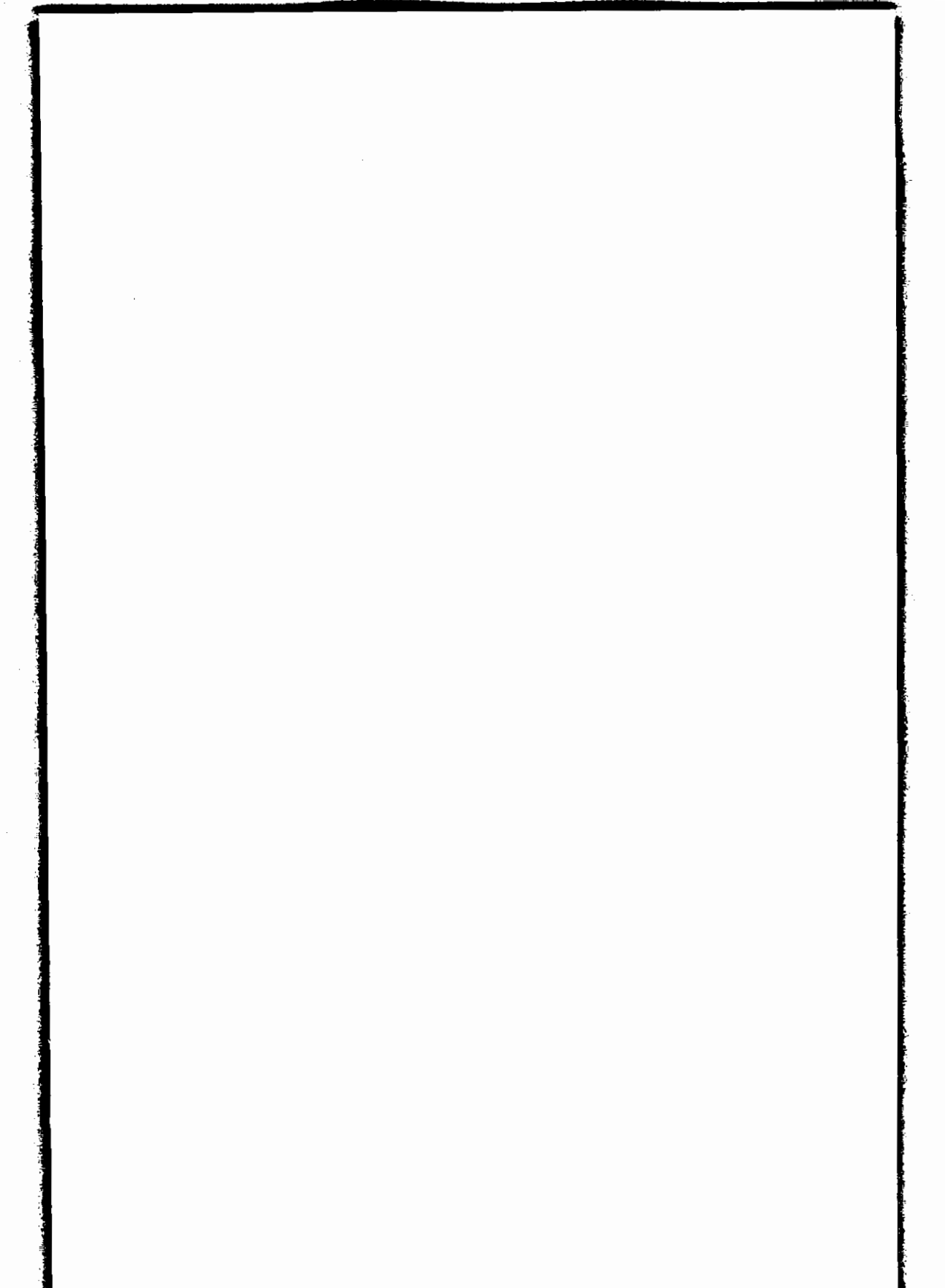
فهذه الدراسة توجه النظر إلى ما في بناء الكلام من إحكام وتماسك ووصل حلقاته المتفرعة؛ لتصبح كيانًا متفقًا لا اختلاف فيه ولا تباعد ولا تدابر وإنما يصفاح المعنى، فكل غرض يضطلع بوظيفة خاصة ضمن المجموعة؛ لذلك كان تتبع توزيع الأغراض داخل السورة هو المدخل لوصف المقصد الكلي لكل سورة.



(١) "التفسير" ٨/ ١٠٥.

(٢) السابق ٨/ ١٠٧.

(٣) "التفسير" ٨/ ٤٥٩.



الباب الثاني

التناسب بين السور.

وفيه ثلاثة فصول

التناسب في ترتيب السور.

الفصل الأول

التناسب بين السور المتشابهة المطالع.

الفصل الثاني

التناسب على مستوى السياق العام للقرآن.

الفصل الثالث

الفصل الأول

التناسب في ترتيب السور

الفصل الأول

التناسب في ترتيب السور

يعد هذا الباب من فرائد الإمام التي لم يسبق إليها المفسرون من قبله على الوجه الذي جاء عليه الباب في «تفسيره»، وإنما هداه بيان القرآن إلى هذا اللون من التناسب المعجز بين السور المتتالية، ومكان كل سورة من السورة السابقة لها، وما بينهما من وشائج تنظم السورة في بيان ما قبلها وتدل على حسن تجاوزها وصحة ترتيبها عليها وأنه ليس بالإمكان وضع غيرها موضعها. وقد تخلل التراث الذي بين يديه نصوصًا تحمل مضامين تومئ إلى ما في الباب من خصب وسعة لكنها ظلت ساكنة حتى ضرب الرازي في مجهولها وفتح غيبتها بملاحظة عملها في بعض سور القرآن الكريم فكان دليلاً على صحتها وتعميقاً لأصولها فتجاوز بها مستوى الفكرة إلى مساحات أرحب وأغزر في العطاء، فمن ذلك ما ذكره الزرخري في فضل تفصيل القرآن وتقطيعه سوراً: «التفصيل يسبب تلاحق الأشكال والنظائر وملاءمة بعضها لبعض، وبذلك تتلاحظ المعاني والنظم إلى غير ذلك من الفوائد»^(١).

هذا النص يؤكد أن القرآن كلام واحد يتصل بعضه ببعض وأن البسملة الفاصلة بين كل سورة وأخرى ليست حائلاً دون التقاء المعاني بل هي حافز على ملاحظة وجوه الاتصال بين أغراض السور وما بينها من تشاكل وائتلاف؛ لأن النفس تنشط إذا كان الكلامان مختلفين لعقد الائتلاف وتتبع التشابه وتأنس بذلك الائتقاء أكثر منها لو كان كلاماً واحداً.

وقد تتبع الإمام الرازي نبج كل سورة في بيان ما قبلها وكيف تولدت منها ونتجت عنها. ولما كان هذا النوع من الإبانة لا تنصوره العقول في كلام البشر ولا تدركه الأفهام في القرآن إلا بعد المحاولة والمزاولة، لم يظهر بصورة مكتملة إلا في الأجزاء الأخيرة من التفسير بعد أن كان تنبيهات وومضات خاطفة هيأت للتأصيل له فيما بعد بأصول محكمة ومعايير ثابتة قوية، وأثار هذا اللون وابتدأه في نفسه حديثه عن الاختلاف بين العلماء حول سورة التوبة والأنفال في كونها سورة واحدة أو أن كلا منهما سورة مستقلة بذاتها، فذكر ما قيل في

(١) «البرهان» الزركشي ١/ ٣٣٤، ٣٣٥.

ذلك من وجوه وكان منها ما يتعلق بما بين معانيها من تداخل وتعلق، يقول في ذلك: «ختم سورة «الأنفال» بإيجاب أن يوالي المؤمنون بعضهم بعضًا وأن يكونوا منقطعين عن الكفار بالكلية، ثم إنه تعالى صرح بهذا المعنى في قوله: ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [التوبة: ١]. فلما كان هذا عين ذلك الكلام وتأكيده له وتقريراً له، لزم وقوع الفاصل بينهما، فكان إيقاع الفاصل بينهما تنبيهاً على كونها سورتين متغايرتين، وترك كتب «بسم الله الرحمن الرحيم» بينهما تنبيهاً على أن هذا المعنى هو عين ذلك المعنى»^(١).

وزاد في موضع آخر بيان الخصوصية التي نزعت بسورة «التوبة» إلى الاستقلال فهي وإن التقت مع «الأنفال» في جانب إلا أنها بيان مقابل لما جاء فيها، فـ«الأنفال» بيان لموالاته الله للمؤمنين وخطاب منه سبحانه بإيجاب أن يوالي المسلمون بعضهم بعضًا ونهت بفحوى الخطاب على أنه يجب عليهم التبرؤ من الكفار. أما «التوبة» فقد اختلفت جهة الخطاب فجاءت إخباراً بأن الله يتولى المؤمنين ويتبرأ من المشركين تحذيراً منه عز وجل، وبني على هذا البيان ذكر التوبة المزيلة لهذا الإثم يقول في ذلك: «والمقصود أنه تعالى أمر في آخر سورة الأنفال المسلمين بأن يوالي بعضهم بعضًا ونه به على أنه يجب عليهم ألا يوالوا الكفار وأن يتبرءوا منهم، فهنا بين أنه كما يتولى المؤمنين فهو يتبرأ عن المشركين ويلعنهم، وكذلك الرسول، ولذلك أتبعه بذكر التوبة المزيلة للبراءة»^(٢). فاختلاف الخطابين نحا بالكلام نحو الاستقلال وأعطى له سمتاً خاصاً مكن لانفراده عن سلك سابقه وإن كان موصولاً به متسقاً معه.

وفي موضوع ثانٍ لفت إلى السرّ البياني في تقديم سورة «الإسراء» على «الكهف» وحسن الترتيب فيها فانجر القول إلى ذكر التناسب بين مقاصد السورتين يقول: «ذكر التسبيح عندما أخبر أنه أسرى بمحمد ﷺ فقال: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ [الإسراء: ١]. وذكر التحميد عندما قال أنه أنزل الكتاب على محمد ﷺ فقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ

(١) "التفسير" ٥/ ٥٢٢.

(٢) السابق ٥/ ٥٢٦.

﴿الْكِتَابَ﴾ [الكهف: ١]. التسييح أول الأمر؛ لأنه عبارة عن تنزيه الله عما لا ينبغي وهو إشارة إلى كونه كاملاً في ذاته، والتحميد عبارة عن كونه مكملاً لغيره، ولا شك أن أول الأمر هو كونه كاملاً في ذاته ونهاية الأمر كونه مكملاً لغيره، فلا جرم وقع الابتداء بقولنا: «سبحان الله» ثم ذكر بعده «الحمد لله» تنبيهاً على أن التسييح مبدأ ومقام التحميد نهاية. إذا عرفت هذا فنقول: ذكر عند الإسراء لفظ التسييح وعند إنزال الكتاب لفظ التحميد، وهذا تنبيه على أن الإسراء به أول درجات كماله وإنزال الكتاب غاية درجات كماله^(١).

وفي سوى هذين الموضعين تختفي الإشارة إلى التعالق بين السور بعضها ببعض ولا تظهر إلا عند عناصر يحتاج فهمها إلى استحضار ما قبلها للكشف عن نواحي الإجمال فيها، كما في بيان المراد من لفظة: «الضالين» في سورة «الفاتحة» فيتجاوز المعنى الوضعي بإجرائها في سياق نظائرها في سورة أخرى. فقد تتبع الأصناف الثلاثة الواردة في سورة «الفاتحة» في سورة «البقرة» فوجد أنها تحتل معنى المنافقين «وذلك لأنه تعالى بدأ بذكر المؤمنين والثناء عليهم في خمس آيات من أول «البقرة»، ثم أتبعه بذكر الكفار وهو قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [البقرة: ٦] ثم أتبعه بذكر المنافقين وهو قوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا﴾ [البقرة: ٨] فكذا ههنا بدأ بذكر المؤمنين وهو قوله: ﴿أَنفَسَتْ عَلَيْهِمْ﴾ ثم أتبعه بذكر الكفار وهو قوله: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧] ثم أتبعه بذكر المنافقين وهو قوله: ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾^(٢). فحمل الإجمال في بعض ألفاظ سورة «الفاتحة» على السورة التالية لها وفصل دلالتهما بردها إليها.

وأيضاً وقوفه عند تقديم السؤال عن الكيفية في سورة «طه» يقول: «حكى عنه في هذه السورة أنه قال: ﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَمُوسَى﴾ [طه: ٤٩]. وقال في سورة «الشعراء» ﴿وَمَارَبُ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣]. فالسؤال ههنا بـ «من» وهو عن الكيفية، وفي سورة «الشعراء» بـ «ما» وهو عن الماهية، وهما سؤالان مختلفان والواقعة واحدة والأقرب أن يقال: سؤال «من»

(١) "التفسير" ٤٢١/٧.

(٢) السابق ٢٢٣/١.

كان مقدمًا على سؤال «ما»؛ لأنه كان يقول: إني أنا الله والرب. فقال: فمن ربكما؟ فلما أقام موسى الدلالة على الوجود وعرف أنه لا يمكنه أن يقاومه في هذا المقام؛ لظهوره وجلائه عدل إلى المقام الثاني وهو طلب الماهية، وهذا أيضًا مما ينبه على أنه كان عالمًا بالله؛ لأنه ترك المنازعة في هذا المقام لعلمه بغاية ظهوره وشرع في المقام الصعب لأن العلم بماهية الله تعالى غير حاصل للبشر^(١).

فتقديم السؤال بـ «من» اقتضاه حال فرعون ابتداء قبل إقامة البينة فجاء السؤال عن الكيفية، فلما تمكن في نفسه قوة دلائل موسى ولم يستطع منازعته حاول تعجيزه بما لا يحيط بعلمه البشر فسأله عن الماهية. فالتقديم والتأخير يلتفت إليه في الجملة الواحدة أما ملاحظته فيما بين كلام متباعد فيندر التنبيه إلى ما يترتب عليه من معانٍ. وكأن الخصوصيات التي تدرس في الجملة الواحدة قائمة في نظم القرآن بأكمله فتقدم سورة على أخرى رعاية لتلك الخصوصيات والأحوال.

وبهذا الفقه يكشف عن المدى الذي حازه نظم القرآن حتى أصبح الكتاب على تعدد سوره واختلاف مقاصده كالسورة الواحدة يراعى فيه اتساق العناصر اللغوية واثلاف الأغراض فلا توضع فيه عبارة إلا باعتبارات تلتئم فيها مع نظائرها في الكتاب.

والرازي يحلل مباني كل سورة في ضوء سابقتها فيلج بالقارئ إلى مسارب مجهولة ومطارح بعيدة امتدت بالدرس البلاغي إلى أفق أرحب من حدود نظم الجملة إلى النظم بمفهومه الأوسع؛ ليتنظم جميع ما يصدر عن المتكلم وجعله سياقًا واحدًا ونسقًا متفقًا يرد بعضه على بعض.

وأبعد من ذلك رده التغيرات في استعمال الصيغ الصرفية للفظة الواحدة واختلافها في السور المتتالية إلى حسن الترتيب ورعايته، فيقدم الأصل في السورة التي هي أصل لما بعدها كما في لفظة «معدودة» فقد ذكر أنها جاءت في «البقرة» بزنة ثم جاءت في «آل عمران» بزنة

(١) "التفسير" ٥٧/٨.

أخرى، يقول فيها: «ذكر ههنا: ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَقْدُودَةً﴾ [البقرة: ٨٠]. وفي «آل عمران»: ﴿إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ﴾ [آل عمران: ٢٤]. «ولقائل أن يقول: لم كان الأولى معدودة والثانية معدودات والموصوف في المكانين موصوف واحد وهو ﴿أَيَّامًا﴾؟ والجواب: أن الاسم إن كان مذكراً فالأصل في صفة جمعه التاء، يقال: كوز وكيزان مكسورة... وإن كان مؤنثاً كان الأصل في صفة جمعه الألف والتاء يقال: جرة وجرار مكسورات... إلا أنه قد يوجد الجمع بالألف والتاء فيما واحده مذكر في بعض الصور نادراً نحو حمام وحمامات... وعلى هذا ورد في قوله تعالى: ﴿فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ﴾... فالله تعالى تكلم في سورة «البقرة» بما هو الأصل وهو قوله: ﴿أَيَّامًا مَقْدُودَةً﴾ وفي «آل عمران» بما هو فرع»^(١).

وعند سورة «محمد» تتخذ الدراسة مساراً واضحاً وتتحد العلاقة بصورة جلية تتجاوز الاستدعاء في التحليل إلى التدقيق والتفتيش عن روابط وأصلة بين السورتين وتدرج في الكشف عن وجود انتساب السور بعضها ببعض، فذكر بعض الوجوه دون بعض فنبه أولاً على أظهرها وهو التعلق بين أول السورة وآخر السورة التي قبلها فنبه في سورة «محمد» على هذا الوجه دون أن يذكر ما بين مقاصدهما من تناسب واستمر في ذلك إلى سورة «الذاريات» وزاد فيها تنبيهاً خفياً على اتصال المقاصد بين السورتين، وجاء هذا الوجه عرضاً حيث قال: «أول هذه السورة مناسب لآخر ما قبلها، وذلك لأنه تعالى لما بين الخشر بدلائله وقال: ﴿يَوْمَ تَشَقُّ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ [ق: ٤٤]. ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ﴾ [ق: ٤٥]. إشارة إلى إصرارهم على الكفر بعد إقامة البرهان وتلاوة القرآن عليهم لم يبق إلا اليمين فقال: ﴿وَالَّذِينَ ذَرَوْا * فَالْحَمِلَتِ وِقْرًا * فَالْجَنَّةِ يَسْرًا * فَالْمَقِصَتِ أَمْرًا * إِنَّمَا نَعِدُّونَ لَصَادِقٍ﴾ [الذاريات: ١-٥]^(٢).

(١) «التفسير» ٥٦٧/١.

(٢) السابق ١٠٩/١٠.

فآخر سورة «ق» استحضر ما انعقد عليه من معانٍ ومقاصد فأشار إليها وقررها، فالسورة بينت الحشر وأقامت عليه البراهين والأدلة القاطعة للظنون وجاءت الخاتمة ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ﴾ لتؤكد إصرارهم على الكفر وتلييس ما لا يلتبس، ثم جاءت «الذاريات» تكميلًا للاحتجاج وتقريرًا له باليمين بعد البرهان. وكأن هذه الإلماحة فتحت للإمام نافذة على علاقات المقاصد بين السور، فتبعها فيما بعد بين السور المتتابعة ونبه على المعاني الكلية الناطمة لما تجاور فنجد في سورة «الطور» يذكر أن وجه المناسبة بينها وبين ما قبلها أي الذاريات.. «من حيث الافتتاح وبيان الحشر فيها»^(١).

ثم أخذت المناسبات من سورة «الرحمن» تتخذ عمقًا وبعدًا تجاوز المعنى الكلي إلى مضامين تدق وتغفى مما استلزم معه التفتيش في عناصر السورة السابقة وجس زواياها ومكاشفة بواطنها للكشف عن العلاقات والنسب المؤلفة بين ما اختلف من السورتين والمنبه على سبب تجاورهما واقترائهما، ولما وقعت تلك السورة تالية لما قبلها وبهذا الوعي تعمق هذا المبحث وقويت أركانه؛ لأنه يستند على أسس ومعايير ملموسة يشار إليها فقد ذكر أن المناسبة بين سورة الرحمن والقمر من وجهين: «أحدهما: أن الله تعالى افتتح السورة المقدمة بذكر معجزة تدل على العزة والجبروت والهيبة وهو انشقاق القمر.. وافتتح هذه السورة بذكر معجزة تدل على الرحمة والرحموت وهو القرآن الكريم... ثانيهما: أنه تعالى ذكر في السورة المقدمة: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِي﴾ غير مرة، وذكر في السورة ﴿فَيَأْتِيءَ الْآءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ مرة بعد مرة لما بينا أن تلك السورة سورة إظهار الهيبة، وهذه سورة إظهار الرحمة»^(٢).

فهو يجعل سورة «الرحمن» معنى مقابلًا لما جاء في سورة «القمر»، ف«القمر» مدارها على إثبات معجزة تدل على الهيبة والجبروت فجاءت آيات «الرحمن» بمعنى مقابل لذلك وهو إثبات الدلائل بذكر معجزة تدل على الرحمة فهما معنيان يقرران غرضًا كليًا يتجاذبانه تارة

(١) السابق ١٠/١٩٨.

(٢) «التفسير» ١٠/٣٣٥.

بالوعيد وأخرى بالوعد، وهذا منهج عام في ترتيب آيات القرآن فحيثما ذكر الوعيد أرفده بالوعد، فامتد بها إلى ما بين السورتين، فقارب بذلك بينهما وبعث التناسب بين أغراضهما بإجرائها على ذلك المنهج في وضع المعاني وترتيبها.

فاستقام له الوصل ووضح ما بينهما من تعالق وتشابه بعد ظاهر يوهم بالاختلاف والتدابير، وطفقت الأساليب بعد هذه الشريحة تلتقي وتتعلق مع عناصر السورة السابقة وتتقاطع معها، فوجه حذف المفعول الثاني في قوله تعالى: ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ [الرحمن: ٢] بها يلائم المعنى المقابل لسورة «القمر» يقول فيها: «قوله تعالى: ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ لا بد له من مفعول ثانٍ فما ذلك؟ نقول: الجواب عنه.. علم بمعنى جعله علامة أي هو علامة النبوة ومعجزة، وهذا يناسب قوله تعالى: ﴿وَأَشَقُّ الْقَمَرُ﴾ [القمر: ١] على ما بينا أنه ذكر في أول تلك السورة معجزة من باب الهيثة وهو أنه شق ما لا يشقه أحد غيره، وذكر في هذه السورة معجزة من باب الرحمة، وهو أنه نشر من العلوم ما لا ينشره غيره، وهو ما في القرآن»^(١).

وأيضاً تغير الإسناد في قوله: ﴿فَيَأْتِيءَ الْآءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ونزوعه عن التكلم الذي غلب في سورة القمر فـ «قال: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ﴾ [القمر: ٢٣] و ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ﴾ [القمر: ٢٣] وقال: ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ [القمر: ٤٢] وقال: ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ﴾ وقال: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِي﴾ «كلها بالاستناد إلى ضمير المتكلم حيث كان ذلك للتخويف فالله تعالى أعظم من أن يخشى فلو قال: أخذهم القادر أو المهلك لما كان في التعظيم مثل قوله: ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ﴾ وهذا كما أن المشهور بالقوة يقول: أنا الذي تعرفني فيكون في إثبات الوعيد فوق قوله: أنا المعذب، فلما كان الإسناد إلى النفس مستعملاً في تلك السورة عند الإهلاك والتعذيب ذكر في هذه السورة عند باب الرحمة لفظ يزيل الهيثة وهو لفظ الرب، فكانه تعالى قال: ﴿فَيَأْتِيءَ الْآءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ وهو رباكما»^(٢).

(١) السابق ٣٣٧/١٠.

(٢) "التفسير" ٣٤٧/١٠.

وهذا يقوي الإمام ما ابتدأه حول ترتيب سورة «الرحمن» على ما قبلها واقتراها بها من خلال أثر التقابل على مكونات السورة وملاحظة ما يعتري أساليبها من توجيهات أفادتها من عطفها على سابقتها وهو ملحظ دقيق في تحليل أساليب السور المتلاحقة.

وقد فتح للرازي هذا الباب ولعه الشديد بالتفتيش عن علائق الائتلاف الوادعة في قوالب الكلم، وملاحظة منازل بعضها من بعض، فتتبع قنواتها فيما بين سور القرآن ومنزلة كل سورة ومكانها من سابقتها، ثم تجاوز ذلك في بعض المواضع إلى الكشف عن المناسبة في كل ما تفرع عن منظومة القرآن وانسل بيانه من بيانه، كما نجد في تحليله لدلالات الذكر المشهور: «سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم». وتفصيل معانيه، وتصوير النمو الدلالي الذي تكتنزه هذه المفردات بردها إلى أصولها في القرآن فحركها نحو البيان المتنامي، فترتيب مفردات الذكر متفرع عن مراتب الأسماء الخمسة الواردة في سورة «الفاتحة» يقول في ذلك: «فقولنا: الله مبدأ لقولنا: سبحان الله، وقولنا: رب مبدأ لقولنا: الحمد لله، وقولنا: الرحمن مبدأ لقولنا: لا إله إلا الله، فإن قولنا: لا إله إلا الله إنما يليق بمن يحصل له كمال القدرة وكمال الرحمة وذلك هو الرحمن. وقولنا: الرحيم: مبدأ لقولنا: الله أكبر ومعناه أنه أكبر من ألا يرحم عباده الضعفاء. وقولنا: مالك يوم الدين: مبدأ لقولنا: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم؛ لأن الملك والمالك هو الذي لا يقدر عبده على أن يعملوا شيئاً على خلاف إرادته والله أعلم»^(١).

فكان هذه الأذكار حادثة عن هذه الأسماء ومتدفقة من تحت بيانها، فالله استلزم تعظيمه وتنزيهه بالتسبيح، والرب اقتضى حمداً للإنعام والتربية فكان التحميد، وهكذا في جميع ما ذكر يتمكن الذكر بترتيبه وتفريعه على تلك الأسماء. وقد أحسن الإمام حينما جعل الأسماء في سورة «الفاتحة» مبادئ وأصولاً شكلت مفردات الذكر وقوت دلالاته وضاعفت بيانه، ونهت على حسن تجاورها وانتظامها فنقلتها من كونها سرد ألفاظ إلى بيان متكامل.

(١) "التفسير" ٢٤٣/١.

وبذلك أبعد الشأو وتجاوز مساحة الجدل والخلاف حول كون الترتيب توقيفًا أو اجتهادًا^(١) إلى ما يتول إليه النظر والفحص لأسرار الترتيب والاقتران بين السور فمتى تكاثرت الدقائق ولطفت النكات دلّ على أن وراء ذلك إعجازًا إلهيًا لا يصل إليه اجتهاد المجتهدين في إدراك الوشائج الخفية في لحمة السور فلا يند موضع سورة في منظومة ما قبلها؛ لذلك لم يكتف بتحقيق التشابه بأي وجه من الوجوه الظاهرة كاشتراكهما في مكان النزول أو تجانسهما في الأغراض العامة، وإنما توغل في عمق المقاصد وعني بما خلف الكلام من تشابه واتلاف وفحص لمعاني القرآن وأصوله ثم تتبع ذلك تحت كل لفظة وعبرة لأن «القرآن كله كالسورة الواحدة والآية الواحدة يصدق بعضه بعضًا ويبين بعضه معنى بعض»^(٢) فكشف بهذا عن التآخي بين سور القرآن وانتساب بعضه إلى بعض ورد كل سورة إلى أصولها في سابقتها، فالسورة تجري فيها مقاصد ما قبلها وتندس في أغراضها وتمتجج بها وتداخل معانيها فهي بناء على ما قبلها وبيان لها.

وغاية هذا الفصل تكمن في معرفة نهج الرازي وتحليله للتناسب في ترتيب السور ووجه تعلق كل سورة بسابقتها، وغالبًا ما ينيطها بالمقاصد فينبه على مجرى السورة في محيط ما قبلها والمسارات الدلالية السابقة التي ترفدها وتصب فيها، وتشكلت دراسته للعلاقات في ثلاثة مستويات هي كالآتي:

أولاً: التناسب بين أول السورة وآخر ما قبلها.

ثانيًا: التناسب بين مقاصد السورة و السورة السابقة.

ثالثًا: تناسب السورة مع أكثر من سورة.

وسنقف عند كل مستوى بالتحليل والاستشهاد.

(١) ينظر: "البرهان" الزركشي ٦٤/١.

(٢) "التفسير" ٢٩٥/١١.

أولاً: التناسب بين أول السورة وآخر ما قبلها

وهذا الضرب أكد فيه الإمام على أن التناسب بين السور تضبطه علاقات محكمة، وأن الالتقاء عند المقاصد لا يعني الانفصال التام بين نظم الجمل وإنما يتحدر الكلام ويظل متصلًا يبنى بعضه على بعض، فإذا قدمت سورة على أخرى اختل النظام وفسد الكلام، نبه على ذلك قبله ابن الأنباري حيث قال: «فانساق السور كانساق الآيات والحروف كله عن النبي ﷺ، فمن قدم سورة أو آخرها فقد أفسد نظم الآيات»^(١).

وتأمل قوله: «فقد أفسد نظم الآيات» ولم يقل أفسد نظم القرآن؛ لأن المعبر عنه أن رأس كل سورة متعلق بفاصلة خاتمة ما قبلها، فإذا وضعت سورة أخرى مكانها اختل النظام وعريت عن الفائدة التي توشتها بحسن تجاوزها مع ما قبلها وذلك لأن آخر كل سورة يحمل تنبيهات تحيل إلى مقاصد تبنى وتركب عليها السورة التالية، ومتى وضعنا غيرها مكانها بترنا تلك التنبيهات وأصبحت فجوة بين بيانها وبيان ما قبلها، فكل سورة تحمل أمشاجًا من سابقتها تتداخل مع مكوناتها وإن صورها النظم بهيئة جديدة وصورة أخرى إلا أنه تظل هناك قسما ملامح تنسبها إلى أصولها وتنادي على ما بينهما من تشابه وتقارب. وأحيانًا تكون الصلة ظاهرة وذلك بتكرار ألفاظ من مقطع السورة في مطلع ما بعدها وهذا قريب لم يقف عنده الإمام إلا في سور معدودة، ذكر ذلك في تحليله لسورة «الطور» حيث قال فيها: «وأول هذه السورة مناسب لآخر ما قبلها؛ لأن في آخرها قوله تعالى: ﴿قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٦٠]. وهذه السورة في أولها ﴿قَوْلٌ يَوْمِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ [الطور: ١١]. وفي آخر تلك قال: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا مِثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ [الذاريات: ٥٩] إشارة إلى العذاب، وقال ههنا: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوْ فَعٌ﴾ [الطور: ٧]^(٢).

وأيضًا مطلع سورة «القمر» «مناسب لآخر ما قبلها، وهو قوله: ﴿أَزِفَتِ الْأَرِفَةُ﴾

(١) «البرهان» الزركشي ١/ ٣٢٩.

(٢) «التفسير» ١٠/ ١٩٨.

فكانه أعاد ذلك مع الدليل، وقال قلت: «أزفت الأزفة» وهو حق، إذا انشق القمر^(١).
فكان ما بين قوله: ﴿أَزَفَتِ الْأَرْفَةُ﴾ وقوله: ﴿وَأَنشَقَّ الْقَمَرُ﴾ «استطراد أستاذف بعده الكلام لإشباع ذلك المعنى وتحقيقه مع الدليل.

وأكثر ما عني به التأمل في أحوال الكلام، فيتدبر جملة المطلع يبحث فيها عن غيمة تشي بمعانٍ تلتقي فيها مع مقطع سابقتها، أو عن جهة جامعة بينهما وما انداح فيهما من معانٍ تشربتها من تلك الجملة فـ «يحدد الخيط الرفيع الغائر في ضمير الكلام، فيجمع أوله وآخره، وهل انخرط في هذا الخيط حبات من أجناس متباعدة وهل وقع هذا البعيد في سياقه موقع القريب المأنوس فقبله السياق وتشربه النص»^(٢). فضبط بهذا صلات الجمل في سياقاتها المتباعدة برد كل جملة إلى أصلها وجذرها المتفرعة عنه، والتنبيه على موقعها في بيان ما قبلها سواء بطريق العبارة أو الفحوى واللزوم.

فمطلع سورة «محمد» ﷺ ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَلُهُمْ﴾ [محمد: ١] «مناسب لآخر السورة المقدمة، فإن آخرها قوله تعالى: ﴿فَهَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الْفَاسِقُونَ﴾ [الاحقاف: ٣٥]. فإن قال قائل: كيف يهلك الفاسق وله أعمال صالحة كإطعام الطعام وصلة الأرحام وغير ذلك؟ مما لا يخلو عنه الإنسان في طول عمره فيكون في إهلاكه إهدار عمله، وقد قال الله تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧] وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَلُهُمْ﴾ أي لم يبق لهم عمل ولم يوجد فلم يمتنع الإهلاك»^(٣).

فالعموم في جملة ﴿فَهَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الْفَاسِقُونَ﴾ أثار في النفس وسوسة خفية وهاجسًا ملحًا حول مصير حسنات الفاسق ومآل صالح الأعمال التي كان يعمل من إطعام

(١) "التفسير" ٢٨٨/١٠، وينظر: ٢٣١/١٠.

(٢) "دلالات التراكيب" دكتور: محمد أبو موسى ص ٢٦٨.

(٣) "التفسير" ٣٢/١٠.

وصلة، وسكتت السورة عند هذا المقطع الحافل بالهواجس المليء بالتوقعات، فجاءت السورة التالية لها مركبة على دلالتها ومرتبة على بيانها، وأعني بتركيبها على دلالة ما قبلها كونها جواباً على تساؤل همست به الجملة السابقة، وبياناً لمصير أعمالهم وأنها إلى الضلال والخسران، وأما كونها ترتيباً على بيانها فمجيئها بعد الاستفهام تحقيقاً في صورة ما وقع وانقضى أمره.

فبناء جملة الافتتاح في سورة «محمد» جاء متسقاً مع مقطع «الأحقاف» داخلًا في نسيجه متحدثاً من لفته، وقد نبه على ذلك الإمام في قوله: «أي لم يبق لهم عمل ولم يوجد فلم يمتنع الإهلاك». فالإمام يدخل عدم امتناع الإهلاك في حيز جملة الافتتاح وهو معنى جرى في محيط السورة السابقة، فلم يجعل ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ إخباراً مقطوعاً عما هم به الاستفهام، وإنما هي إشباع لحاجة الهاجس النفسي في مقطع «الأحقاف».

وأحياناً تتضمن الخاتمة قضايا كلية فتأتي جملة الافتتاح في السورة التالية بمعنى جزئي يقع موقع الاستدلال على ذلك المعنى الكلي كما في تحليله للمناسبة بين أول الطلاق وآخر «التغابن» يقول فيها: «فلأنه تعالى أشار في آخر تلك السورة إلى كمال علمه بقوله: ﴿عَلِمَ أَلْغَيْبِ﴾ [التغابن: ١٨]. وفي أول هذه السورة إلى كمال علمه بمصالح النساء والأحكام المخصوصة بطلاقهن، فكانه بين ذلك الكلي هذه الجزئيات»^(١).

وقد زاد عليه الغرناطي بيان سبب تخصيص ذلك الكلي بأحكام النساء دون غيرها مما هو داخل في محيط كمال علمه سبحانه، وذلك لأنه «لما ختمت «التغابن» بأنه تعالى شكور حلیم عزيز حكيم مع تمام العلم وشمول القدرة، بعد التحذير من النساء بالعداوة، وكانت العداوة تجر إلى الفراق افتتح هذه بزم الأنفس عند ثوران الحظوظ بزمم التقوى»^(٢).

وأخرى يكون أول السورة تفصيلاً وإشباعاً لآخر ما قبلها كما في سورة «الرحمن»، يقول

(١) «التفسير» ١٠/ ٥٥٨.

(٢) «البرهان في ترتيب سور القرآن» ص ٣٣٩

في ذلك: «أول هذه السورة مناسب لآخر ما قبلها حيث قال في آخر تلك السورة ﴿عِنْدَ مُلِكِ مُقَدِّرٍ﴾ [القمر: ٥٥]. والافتقار إشارة إلى الهيبة والعظمة، وقال ههنا: ﴿الرَّحْمَنِ﴾ [الرحمن: ١]. أي عزيز شديد منتقم مقتدر بالنسبة إلى الكفار والفجار، رحمن منعم غافر للأبرار»^(١).

فالملك في آخر «القمر» يكتنفه أجواء السياق وما فيها من دلالة الجبروت والانتقام؛ لأن قوله: ﴿مُقَدِّرٍ﴾ قيدت دلالاته مما يداخلها من معاني أخرى، فجرد دلالتها بما يناسب مقصد السورة وهو إظهار الهيبة «لأن القربة من الملوك لذينة كلما كان الملك أشد اقتداراً كان المقرب منه أشد التذاداً، وفيه إشارة إلى مخالفة معنى القرب منه من معنى القرب من الملوك، فإن الملوك يقربون من يكون ممن يحبونه ومن يرهبونه؛ مخافة أن يعصوا عليه وينحازوا إلى عدوه فيغلبونه، والله تعالى ﴿مُقَدِّرٍ﴾ لا يقرب أحد إلا بفضله»^(٢).

وكمال الملك لا يكون إلا مع الفضل والإنعام فجاءت سورة «الرحمن» مكملة لذلك، وكان اختيار اسم ﴿الرَّحْمَنِ﴾ تهيئة وتلطفاً في الانتقال من جو سورة «القمر» وما فيه من المبالغة في الوعيد بذكر آياته الدالة على جبروته وعظيم اقتداره إلى سياق الإنعام والرحمة فأزال بذلك التباعد والتنافر، فقرر معاني الهيبة وجسر لمعاني الرحمة.

بينما يجعل البقاعي سورة «الرحمن» تجاذب مقطعين من آخر «القمر» وأن ما فيها من معاني تفصيل وتفريع وتحليل لها يقول: «ولما ختم سبحانه «القمر» بتعظيم الملك وبلغ القدرة، وكان الملك القادر لا يكمل إلا بالرحمة، وكانت الرحمة لا تتم إلا بعمومها قصر هذه السورة على تعداد نعمه على خلقه في الدارين وذلك من آثار الملك، وفصل فيها ما أجمل في آخر «القمر» من مقر الأولياء والأعداء في الآخرة»^(٣).

(١) «التفسير» ٣٣٥/١٠.

(٢) السابق ٣٣٤/١٠.

(٣) «نظم الدرر» ٣٧١/٧.

وتأمل قوله: «وذلك من آثار» وكأنني بالبقاعي يقتص آثار معاني «القمر» في بناء بيان سورة «الرحمن» وكيف تشكل منها وانشعب من محيطها. فنبه على ما بين السورتين من قبض وبسط، ووضع لفئات نافذة وصل فيها الفروع بالأصول وحدد أقسام سورة «الرحمن» وردها إلى نظائرها في مقطع «القمر» فكان «الرحمن» نشر لما لف وطوى من معاني في تلك الجملة.

وهذا المسلك ابتدأه الإمام الرازي في توجيه العلاقة بين أول «الزلزلة» وآخر «البينة» حيث ذكر: «أنه تعالى لما ذكر في السورة المتقدمة وعيد الكافر ووعد المؤمن أراد أن يزيد في وعيد الكافر، فقال: أجازيه حين يقول الكافر السابق ذكره: ما للأرض تزلزل، نظيره قوله: «يوم تبيض وجوه وتسود وجوه» ثم ذكر الطائفتين فقال: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ * وَأَمَّا الَّذِينَ أبيضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَبِإِذْنِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿[ال عمران: ١٠٦، ١٠٧] ثم جمع بينهما في آخر السورة فذكر الذرة من الخير والشر»^(١)

فسورة «البينة» أجملت وعيد الكافر في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ [البينة: ٦]. وفصلت جزاء المؤمن ثم كرت «الزلزلة» على ما أجملته «البينة» فنشرته وفصلته ثم جمعت ما تفرق بين سورتي البينة وأول «الزلزلة» لتلتقي حلقتا الكلام عند هذا المقطع ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿[الزلزلة: ٧-٨].

واللف والنشر ضرب من ضروب بناء العبارة وتنظيم معانيها، والتنظيم فيه يترك جانباً منه ليقظة النفس وقرائن الكلام^(٢)، هذا فيما بين العبارة الواحدة؛ لأن المعاني تتوزع في مساحة محدودة بين طرفي الجملة أما فيما بين السور فإن المعاني تختلف صورتها بالتفصيل والتفسير فيكون ردها إلى مبادئها وجذورها فيه شوب غموض وخفاء فيتطلب ذلك يقظة حس وزياة تأمل للعناصر وتحديد المشترك منه ورده إلى نظيره المجمل.

(١) «التفسير» ١١/ ٢٥٣.

(٢) «دراسة في علم البديع» دكتور: محمد أبو موسى ص ٣٣.

وأحياناً يأتي افتتاح السورة بصريح معاني تضمنتها السورة السابقة فيكون كالمؤكد لها كما في وجه تعلق سورة «لقمان» بسورة «الروم»، ف«وجه ارتباط أول هذه السورة بآخر ما قبلها هو أن الله تعالى لما قال: ﴿وَلَقَدْ صَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ [الروم: ٥٨]. إشارة إلى كونه معجزة، وقال: ﴿وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ﴾ إشارة إلى أنهم يكفرون بالآيات بين ذلك بقوله ﴿الْعَذَابُ﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ [لقمان: ٢١]. ولم يؤمنوا بها، وإلى هذا أشار بعد هذا بقوله: ﴿وَإِذَا نُنزلُ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَن فِي أُذُنِهِ وَقْرًا فَبَشَّرَهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [لقمان: ٧].^(١)

وسورة «المطففين» يجعلها معاني حامت حولها عبارة «الانفطار» واستغنت بالتلميح عن التصريح فجاء مفتتح ما بعدها مصرحاً بها وماطلاً لإيجائها، فالرازي يرتب ﴿وَبَلِّغْ لِلْمُطَفِّفِينَ﴾ [المطففين: ١] على قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ [الانفطار: ١٩]. يقول في وجه تعلقه به: «اعلم أن اتصال أول هذه السورة بآخر السورة المتقدمة ظاهر؛ لأنه تعالى بين في آخر تلك السورة أن يوم القيامة يوم من صفته أنه لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر كله لله، وذلك يقتضي تهديداً عظيماً للعصاة، فلهذا أتبعه بقوله: ﴿وَبَلِّغْ لِلْمُطَفِّفِينَ﴾ والمراد الزجر عن التطفيف وهو البخس في المكيال والميزان بالشيء القليل على سبيل الخفية»^(٢).

فوصف اليوم استلزم تهديداً صرحت به جملة الافتتاح. بينما يجعل الإمام الغرناطي ﴿وَبَلِّغْ لِلْمُطَفِّفِينَ﴾ معنى اقتضاه قوله: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ﴾ [الانفطار: ١٠] لأنه مشعر بوقوع الجزاء على جزئيات الأعمال وأنه لا يغادر منها شيئاً فعقبه بذكر التطفيف وما لمرتكبه من الجزاء^(٣).

(١) «التفسير» الرازي ٩/ ١١٤.

(٢) السابق ١١/ ٨٢.

(٣) «البرهان» ص ٣٥٨ بتصرف.

ويتبعه في ذلك السيوطي إلا أنه لا يعلق سورة «الانفطار» برأس «المطففين» وافتتاحها بالوعيد، وإنما يجعل ما ذكر فيها من حال ما يكتبه الحافظون تفصيلاً لقوله: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ﴾ فـ «ذكر في هذه السورة حال ما يكتبه الحافظون وهو: كتاب مرقوم، يجعل في عليين أو في سجين... عقب الكتابة إما في يومه أو بعد الموت والبرزخ كما في الآثار»^(١).

وسورة «القارعة» يجعلها تحليلاً وتفصيلاً للإجمال في سورة «العاديات» في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾ [العاديات: ١١]. فهي ابتداء جواب عن سؤال مقدر أثاره ذلك الخطاب، «فكأنه قيل: وما ذلك اليوم؟ فقيل: هي القارعة»^(٢). ويوجه جميع آياتها تجاه هذا المقصد فيتنزل منزلة الجملة من الجملة، وقد نبه على ذلك في بيان سر اختيار التعبير بقوله: ﴿وَمَا أَدْرَنَكَ مَا هِيَ﴾ [القارعة: ١٠] دون «وما أدراك ما هاوية» ولم يجزها على نظم الافتتاح في قوله: ﴿وَمَا أَدْرَنَكَ مَا الْقَارِعَةُ﴾ [القارعة: ٣] مطابقة لأولها في النظم والمعنى أي المبالغة في التهويل «لأنها في الشدة بحيث لا يبلغها وهم أحد ولا فهمه... كأنه تعالى قال: قوارع الدنيا في جنب تلك القارعة كأنها ليست بقوارع، ونار الدنيا في جنب نار الآخرة كأنها ليست بنار»^(٣).

وفي سورة «المتحنة» يبني افتتاحها على الصفات القدسية التي ختمت بها «الحشر» دون أن يذكر سبب توسط جملة الأوصاف بين غرضين متصلين؛ لأن «الحشر» في بيان حال النبي مع المتعاهدين من اليهود والنصارى و«المتحنة» في المتعاهدين من المشركين^(٤)، وإنما اكتفى بقوله: «أما تعلق الأول بالآخر فظاهر لما أن آخر تلك السورة يشتمل على الصفات الحميدة لحضرة الله تعالى من الوحدانية وغيرها، وأول هذه السورة مشتمل على حرمة الاختلاط مع من لم يعترف بتلك الصفات»^(٥). وخالفه من جاء بعده في نسبة هذه السورة إلى ما قبلها

(١) «تناسق الدرر» ص ١٥٩.

(٢) «التفسير» ١١/ ٢٦٥.

(٣) السابق ١١/ ٢٦٦.

(٤) ينظر: السابق ١٠/ ٥١٥.

(٥) السابق نفسه.

فالغرياني لا يرتبها على «الحشر» بل يردّها على سورة «المجادلة»، ويجعل «الحشر» معترضة بين النهيين في آخر سورة «المجادلة» ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢]. وأول «المتحنة»: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تَلْقَوْنَ فِيهِمُ بِالْمُودَةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمُ بِالْمُودَةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [المتحنة: ١]. لغرض يقول فيه: «وكان سورة الحشر وردت مورد الاعتراض المقصود بها تمهيد الكلام وتنبيه السامع على ما به تمام الفائدة، لما ذكر أن شأن المؤمنين أنهم لا يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا أقرب الناس إليهم، اعترض بتنزيهه عن مرتكبائهم ثم أتبع ذلك ما عجله لهم من النعمة والنكال، ثم عاد الأمر إلى النهي عن موالاة الأعداء جملة له»^(١).

أما السيوطي فيعلقها بمقصد السورة وغرضها العام ويجعلها بسطاً وتفصيلاً لمعنى ذكر في «الحشر» هو نهى المؤمنين عن موالاة الذين نافقوا الكفار، فكررت «المتحنة» هذا المعنى وبسطته^(٢).

وتنبه البقاعي إلى دققة في كلام الإمام الرازي كشفت له عن خصوصية غرض «المتحنة» وأن تعلقها بمقاصد ما قبلها ليس بسطاً وتكراراً وإنما لزيادة فائدة؛ لذلك لم يعول الرازي على المقصد وإنما قال: «من جملة ما يتحقق به التعلق»^(٣) أي أن مضامين السورة تحمل تفاصيل أخرى وتقاسيم جديدة غير التي في سياق «الحشر» وهذه الخصوصية نبعت من تحت

(١) «البرهان» ص ٣٣٣

(٢) «تناسق الدرر» ص ١٣٣.

(٣) «التفسير» ١٠ / ٥١٥.

بيان مقطع «الحشر» والاستطالة في ذكر الصفات المجيدة، وقد التقط البقاعي هذا الخيط وكشف به عن التناسب بين السور المتتالية وكيف نزع تلك الصفات بالمعنى وجعلت له سمًا آخر وشقت مجرى لدلالة أضافتها في سورة «المتحنة»، يقول: «ولما كان قد تم في «المجادلة» النهي الشديد عن إظهار مطلق المادة للكفار، وفي «الحشر» الزجر العظيم عن إبطان ذلك فتكلفت السورتان بالمنع من مصاحبة ودهم ظاهرًا أو باطنًا، بكت هنا من اتصف بالإيمان وقرعه ووبخه على السعي في موادتهم والتكلف لتحصيلها؛ فإن ذلك قادح في اعتقاد تفرد سبحانه بالعزة والحكمة»^(١).

وفي سورة «الجمعة» يمكن لتعلق أولها بآخر ما قبلها عن طريق ربط مطلع سورة «الصف» بمطلعها يقول فيها: «وجه تعلق هذه السورة بما قبلها هو أنه تعالى قال في أول تلك السورة: ﴿سَبِّحْ لِلَّهِ﴾ بلفظ الماضي وذلك لا يدل على التسييح في المستقبل، فقال في أول هذه السورة بلفظ المستقبل؛ ليدل على التسييح في زمني الحاضر والمستقبل، وأما تعلق الأول بالآخر، فلأنه تعالى ذكر في آخر تلك السورة أنه كان يؤيد أهل الإيمان حتى صاروا عاقلين على الكفار، وذلك على وفق الحكمة لا للحاجة إليه؛ إذ هو غني عن الإطلاق، ومنزه عما يخطر ببال الجهلة في الآفاق، وفي أول هذه السورة ما يدل على كونه مقدسًا ومنزهًا عما لا يليق بحضرة العلية بالاتفاق ثم إذا كان خلق السماوات والأرض بأجمعهم في تسييح حضرة الله تعالى فله الملك»^(٢).

فخاتمة السورة هيأت لمطل دلالة التسييح في المطلع وحركت الفعل من المضي إلى الاستقبال؛ لتزيل ما في معنى التسييح من التقييد وتجعله تسييحًا مطلقًا لا يحده زمن، والذي أسبغ عليه معنى الاستقبال ما تضمنته الخاتمة من معنى تأييد الله لأهل الإيمان وإظهارهم على الكفار فاقتضى ذلك التعظيم لشأنه؛ لأنه الغني عن الإطلاق، واستلزم الإنعام مطلق التنزيه

(١) "نظم الدرر" ٥٤٨/٧.

(٢) "التفسير" ٥٣٧/١٠.

من المنعم عليهم، وهذا قريب من الوجه الذي ذكره الواحدي في تفسيره للآية حيث قال: «قال أهل المعاني: إنما أعيد ذكر التسبيح في هذه السورة لاستفتاح السورة بتعظيم الله من جهة ما يسبح له كما يستفتح بـ «بسم الله الرحمن الرحيم» وإذا جعل المعنى في تعظيم الله حسن الاستفتاح به».

فقوله: «تعظيم الله من جهة ما يسبح له» هي الوشيجة الممتدة من نسيج خاتمة سورة «الصف» والباعثة لمعاني ومقاصد سورة «الجمعة»، فكأن اختيار صيغة المضارع تصوير لحال تلك الفئة في ثنائها المطلق على الله. وبذلك تكون السورة بناء على مقاصد السورة قبلها وإثارة لمعاني في أبنيتها اللغوية. وهذا يحتاج إلى تدسس في تلك الأبنية وتفتيش في خباياها عما استكن وأضمر في غيبها فيمتد به ويبعثه نحو الظهور والإبانة في بيان السورة بعدها، ثم زاد على استحضر المعنى السابق بوصف وجه الزيادة في مطلع «الجمعة» وتوجيه ذلك نحو المقاصد، وذلك في قوله: ﴿الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ﴾ [الجمعة: ١]. وهذا الوصف إشباع لبقايا مقاصد جرت فيها قبلها وقد جلى هذه الفكرة والمغزى من الوصف ابن الزبير فقال: «لما ختمت سورة «الصف» بالثناء على الحواريين في حسن استجابتهم وجميل إيمانهم، وقد أمر المؤمنين بالتشبه بهم في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ فَأَمَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ [الصف: ١٤]. كان ذلك مما يوهم فضل أتباع عيسى ﷺ على أتباع محمد ﷺ فأتبع بذكر هذه الأمة والثناء عليها، فافتتحت السورة بالتنزيه عما أشار إليه قوله: ﴿وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ﴾^(١).

فالثناء على الله بما ينبغي وتنزيهه عما لا ينبغي تضمن معنى التعريف بكفر طائفة من النصاري وهياً لمدح أمة محمد ﷺ فجاءت السورة مدحاً لهم.

(١) «البرهان» ص ٣٣٥، ٣٣٦.

ودراسة التناسب فيما بين مطلع السورة ومقطع ما قبلها كشفت عن جانب وضيء في إعجاز الجملة القرآنية وما يراعى فيها من خصوصيات بيانية تمكن للسياق السابق وتداخله بها ثم تهيئ لمعنى جديد، وذلك يتطلب براعة في التأليف وخصوصية في البناء، فالجملة تتصور ابتداء في صورة المنفصل وكأنها مقطع مستقل لكن بصيرة الإمام استطاعت أن تنفذ إلى ما وراء ذلك الفصل من وصل وائتلاف فنبه عليه وكشف عن أسرار بلاغته. وهذا يحتاج إلى مزيد بحث وعناية في الدراسات البلاغية؛ لأنه باب لم يفتح وإنما طرقات ابتدأها الإمام تنتظر المتابعة حتى يكشف عن معالمه.



ثانياً: التناسب بين مقاصد السورة والسورة السابقة

لم يكتف الإمام بالتناسب بين السورتين باعتبار الثام جملتي مطلع السورة ومقطع السابقة لها من غير أن يكون هناك إيدان من المقاصد والأغراض تتحقق معها المناسبة وتقوى به المصاهرة، فنشأ هذا اللون من الدراسة عنده وهو أعم من سابقه ويدخله شيء من الغموض ؛ لأن الناظر فيما بين السورتين لا يراوح النظر بين الآية والآية أو جملة آيات، وإنما يستبطن عمق المقاصد ويلحظ ما بينها من روابط وعلاقات يحسن معها التجاور ويستقيم معها الترتيب، ولو كان الأمر مجرد وجه يكفي لحفظ التناسب والتشاكل بين السورتين لوقف الإمام عند التعلق بين جملتي المطلع والمقطع، ولكن كانت غايته الاستدلال على تماسك أجزاء الكتاب العزيز وتداخل آياته وسوره وبلوغه في ذلك مبلغ الإعجاز الذي تنقطع عنده الأطماع، فالترتيب قد يتأني في البيان الإنساني في الكلام الواحد، وربما يتفق بين كلامين مختلفين زمنياً لكن تكون العلاقة باهتة وخافتة تتمحلها الأذهان، أما في القرآن فتجد ضرباً مختلفاً من التأليف تتفرع وتتكاثر وتتداخل حتى تظن أن هذه قطعة من تلك وأن ما بينهما من فاصل هو استرواح لتجديد نشاط القارئ أو مناقلة للمقاصد وإعادة تصريف بيانها بأفانين مختلفة تعجب المتأمل وتجلي له عطاء الكلمة الإلهية وما يمدّها من خزائن علم الله.

فاللحمة بين السور تجاوزت ذلك إلى مساحات أوسع في هيكله السورة كلها، فأخذت تستشرف إيهامات وتنبهات تحيل إلى مقاصد ما قبلها، والعلاقة بين مطلع السورة ومقطع ما قبلها لا يكتمل بمعزل عن الأغراض والمعاني. فكل سورة تحمل مضامين تنسل من معاني تحت أبنية ما قبلها وتمتد بدلالات جرت في سياق أخيتها. وهذا المعنى قائم في المبنى اللغوي للفظه السورة فهي تعني «قطعة وطائفة من القرآن كالسورة التي هي البقية من الشيء والفضلة منه»^(١). أي أن هناك بقايا من معاني سابقة لم تشبعها تلك السورة فجاءت ما بعدها تفصيلاً لها فخالطت محتواها، ومازجت عناصرها وذابت في أغراض السورة التالية وكونت مقاصدها، فكل سورة بوضعها المستقل لها فائدة ثم إذا اعتبرت مع ما قبلها كانت تفصيلاً لما

(١) "التفسير" الرازي ٣٤٩/١.

أجل في تلك السورة من معاني وتفرعاً لأغراض وتنبهات تضمنتها وطويت في أبينتها اللغوية، فلما رتبت وركبت عليها انبعثت منها ولائد هي نتاج لدلالة السورة السابقة ومعانيها. لكن التفصيل بين السورتين ليس كالتفصيل في حيز السورة الواحدة؛ لأن المعنى يتجاذبه سياقان مختلفان فتغير صورته باعتبار الأجواء المحيطة به أي أغراض كل سورة، فتكتنف العلاقة شوب من الخفاء لا يزول إلا بملاحقته في نظم ما قبلها وترتيبه عليها، فتتلاحظ الأشباه وتتجاوب الأشكال وتتجاذب فتسفر العلاقة عن صبح.

فغالبًا ما يفتش في أبنية السورة السابقة عن جهات انتساب مقاصد السور التالية إليها وما استتار فيها من معاني توقدت تحت بيان ما قبلها، من ذلك ما ذكره في وجه العلاقة بين سورتي «الطلاق» و«التغابن»: «أما التعلق بما قبلها فذلك أنه تعالى قال في أول تلك السورة: ﴿لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التغابن: ١]. والمملك يفتقر إلى التصرف على وجه يحصل معه نظام الملك، والحمد يفتقر إلى أن ذلك التصرف بطريق العدل والإحسان في حق المتصرف فيه وبالقدر على من يمنعه عن التصرف، وتقرير الأحكام في هذه السورة متضمن لهذه الأمور المفتقرة إليها تضمناً لا يفتقر إلى التأمل فيه، فيكون لهذه السورة نسبة إلى تلك السورة»^(١).

فسورة «الطلاق» سدت مدخلاً في بيان جملة افتتاح «التغابن»، ف«التغابن» أثبتت صفتي الملك والحمد في سياق التهديد والوعيد البالغ للفرق الضالة من اليهود والنصارى وأهل النفاق، فجاءت «الطلاق» إشباعاً للإثبات وتقريره بالدليل والبرهان فكانت كالدعامة والركيزة التي مكنت لتلك الجملة فتضمنت تقرير الأحكام الدالة على تصرفه سبحانه وتنظيمه لأحوال ملكه بالعدل والإحسان.

وأما سورة «الحجرات» فلها أصداء متعددة في سورة «الفتح» فهي تتعلق بمعاني مختلفة جرت في سياقها يقول فيها: «في بيان حسن الترتيب وجوه، أحدها: أن في السورة المتقدمة لما جرى منهم ميل إلى الامتناع مما أجاز النبي ﷺ من الصلح وترك آية التسمية والرسالة

(١) «التفسير» ١٠/ ٥٥٨.

والزهم كلمة التقوى كأن رسول الله ﷺ قال لهم على سبيل العموم: لا تقدموا بين يدي الله ورسوله، ولا تتجاوزوا ما يأمر الله تعالى ورسوله. الثاني: هو أن الله تعالى لما بين محل النبي ﷺ وعلو درجته بكونه رسوله الذي يظهر دينه، وذكره بأنه رحيم بالمؤمنين بقوله: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]. قال: لا تركوا من احترامه شيئاً لا بالفعل ولا بالقول، ولا تغتروا برأفته، وانظروا إلى رفعة درجته.

الثالث: هو أن الله تعالى وصف المؤمنين بكونهم أشداء ورحماء فيما بينهم راعين ساجدين نظراً إلى جانب الله تعالى، وذكر أن لهم من الحرمة عند الله ما أورثهم حسن الثناء في الكتب المتقدمة بقوله: ﴿ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ﴾ [الفتح: ٢٩]. فإن الملك العظيم لا يذكر أحداً في غيبته إلا إذا كان عنده محترماً، ووعدهم بالأجر العظيم، فقال في هذه السورة لا تفعلوا ما يوجب انحطاط درجاتكم وإحباط حسناتكم ولا تقدموا^(١).

فالوجه الأول استحضار وأبرز معنى مكنوناً جيء به في تلك السورة متمماً لغرض أصل وهو قوله: ﴿قُلِ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سُدُّ عَوْنٍ إِلَى قَوْمٍ أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤَيِّدْكُمْ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا﴾ [الفتح: ١٦]. وقوله: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يَدْخُلْهُ جَنَّتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يَْعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح: ١٧]. فنبهت الآيات على الترغيب في الطاعة لله ولرسوله ﷺ، فجاء قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدِمُوا﴾ [الحجرات: ١] مطلاً للدلالة وإشباعاً لمعنى الترغيب وتأكيذاً له بصورة الأمر والإيجاب.

والوجه الثاني والثالث جعله مرتباً على قوله: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ

مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيُغَيِّظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ [الفتح: ٢٩]. فهي إما أن تكون تخلصاً لوصف الرسول عليه الصلاة والسلام بالرحمة من أي توهم يؤدي إلى مجاوزة الحد أو الاغترار بذلك، لأن الآية السابقة وضعته في قدم مساواة مع الذين آمنوا فقال: ﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ فقد يظن معها أن طريقة تعاملهم مع رسول الله ﷺ كالتعامل بينهم، فجاءت هذه الآية دفعا للتوهم وبيانا لمكانته ﷺ وخصوصية محله ورفعة درجته.

ومعاني «الكوثر» كانت مفهومات تحت منطوق سورة «الماعون»، فدم صفة يستلزم الثناء على ضدها فتحركت الدلالة نحو الإيابة فجاءت معاني «الكوثر» مرتبة على هيئة ما قبلها، يقول فيها: «اعلم أن هذه السورة كالمقابلة للسورة المتقدمة، وذلك لأن في السورة المتقدمة وصف الله تعالى المنافق بأمر أربعة: أولها: البخل، وهو المراد من قوله: ﴿فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ أَلَيْتِي﴾ * وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ [الماعون: ٣، ٢]. والثاني: ترك الصلاة، وهو المراد من قوله: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [الماعون: ٥].، الثالث: المراءاة في الصلاة وهو المراد من قوله: ﴿الَّذِينَ هُمْ يُرَاءَوْنَ﴾ [الماعون: ٦]. والرابع: المنع من الزكاة وهو المراد من قوله: ﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ [الماعون: ٧]. فذكر في هذه السورة في مقابلة تلك الصفات الأربع صفات أربعة، فذكر في مقابلة البخل قوله: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ [الكوثر: ١]. أي أنا أعطيناك الكثير فأعط أنت الكثير ولا تبخل وذكر في مقابلة ﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ قوله: ﴿فَصَلِّ﴾ أي دم على الصلاة، وذكر في مقابلة ﴿الَّذِينَ هُمْ يُرَاءَوْنَ﴾ [الماعون: ٦] قوله: ﴿لِرَبِّكَ﴾ أي أنت بالصلاة لرضا ربك لا لمراءاة الناس، وذكر في مقابلة ﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ [الماعون: ٧]. قوله: ﴿وَأَنْحَرْ﴾ وأراد به التصديق بلحم الأضاحي، فاعتبر هذه المناسبة العجيبة، ثم ختم السورة بقوله: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ أي المنافق الذي يأتي بتلك الأفعال القبيحة

المذكورة في تلك السورة سيموت ولا يبقى من دنياه أثر ولا خبر، وأما أنت فيبقى لك في الدنيا الذكر الجميل، وفي الآخرة الثواب الجزيل»^(١).

فتجاوز بها السياق الخارجي وركب بيانها على تراكيب ما قبلها وأجراها في نظمها فاستقام له المعنى وتكامل، وزاد مقطعها في الالتئام حيث عاد آخر «الكوثر» بالمذمة على ذلك الصنف الذي يكذب بالدين ويأتي بالأفعال القبيحة وبيان ما آل إليه حاله من الخسران والخذلان.

وكذلك في المقابلة بين سورتي «الناس» و«الفلق» فـ «المستعاذ به في السورة الأولى مذكور بصفة واحدة وهي أنه رب الفلق، والمستعاذ منه ثلاثة أنواع من الآفات: وهي الغاسق، والنفاثات، والحاسد، وأما في هذه السورة فالمستعاذ به مذكور بصفات ثلاث وهي: الرب، والمملك، والإله، والمستعاذ منه آفة واحدة وهي الوسوسة، والفرق بين الموضعين أن الشاء يجب أن يتقدر بقدر المطلوب، فالمطلوب في السورة الأولى سلامة النفس والبدن، والمطلوب في السورة الثانية سلامة الدين، وهذا تنبيه على أن مضررة الدين وإن قلت أعظم من مضرار الدنيا وإن عظمت، والله سبحانه وتعالى أعلم»^(٢).

فاختلاف توزيع المعاني والمقابلة في تصريحها حيث جعل للمستعاذ به في الثاني ثلاث صفات بينما كان هناك وصف واحد، وجعل المستعاذ منه في الثاني نوعاً واحداً بينما كان في الأولى ثلاثة أنواع، أثار بياناً وراء تغاير البناء ومناقلة الترتيب مع تشابه شيات المعاني في السورتين فنبه ذلك على عظمة الدين وضرورة التحذير التام من أجل سلامته.

وهذا المعنى تشكلت هيئته بترتيبه على السورة السابقة، فكل سورة مشحونة بأصداء المقاصد السابقة لها فبمجرد النظر إليها في سياق ما قبلها يثير هواجس معانيها ويبعث ولائند أنتجتها ما قبلها، وهي مع هذا لا تتقاطع معها وإنما تزيد في بيانها وتتمه. فسورة «المتحنة»

(١) «التفسير» ٣٠٧/١١.

(٢) السابق ٣٧٨/١١.

أوجبت البراءة عن المشركين ووصفت العباد بالتزهر عن موالاتهم^(١)، وهيأت للأمر بالجهاد وقدمت لبيان بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَآيَاتِي مَرْضَاتِي تُسْرِخُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [المتحنة: ١]. فجاءت «الصف» للحث على الخروج للجهاد «وبيان ما يحمل أهل الإيمان على الجهاد»^(٢)، وليس لبسط ذكر الجهاد كما ذكر السيوطي^(٣).

ثم أدار سورة «الصف» على تلك الآية في «المتحنة» لإشباع هذا المقصد وبسطه وبعث مغزى السورة، وهو الحث من خلال مراوحة أساليبها بين الترغيب والترهيب، فرهبت من تركه في قوله تعالى: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٣]. ورغبت فيه في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانَهُمْ بُنِينَ مَرْصُورِينَ﴾ [الصف: ٤]. ف « تلك الآية مذمة المخالفين في القتال وهم الذين وعدوا بالقتال ولم يقاتلوا. وهذه الآية محمودة الموافقين في القتال وهم الذين قاتلوا في سبيل الله وبالفوا فيه»^(٤).

وفي قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى بَعْزَةِ نَجِيحِكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الصف: ١٠، ١١]. مبالغة في الجهاد وذلك بمجيء الجهاد بعد ﴿تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ فقوى معنى الجهاد وشعبه، فأفاد ثلاثة معاني يقول: «والجهاد بعد هذين الوجهين ثلاثة: جهاد فيما بينه وبين نفسه، وهو قهر

(١) "البرهان" الغرناطي ٣٣٣.

(٢) "التفسير" ٥٢٦/١٠.

(٣) "تناسق الدرر" ص ١٣٤.

(٤) السابق ٥٢٨، ٥٢٧/١٠.

النفس ومنعها عن اللذات والشهوات، وجهاد فيما بينه وبين الخلق، وهو أن يدع الطمع منهم، ويشفق عليهم ويرحمهم، وجهاد فيما بينه وبين الدنيا وهو أن يتخذها زادًا لمعاده»^(١).

ونوع آخر تجد فيه سورة أم تتوالى بعدها عدة سور تتفرع عنها وكل سورة تشيع زاوية مجملة في تلك السورة فتكون هي المركز الذي تتجاذبه وتلتف حوله، ذكر ذلك في تفسيره لسورة «المنافقون» و«التغابن»، يقول في مناسبة «المنافقون» لسورة «الجمعة»: «وجه تعلق هذه السورة بما قبلها هو أن تلك السورة مشتملة على ذكر بعثة الرسول ﷺ وذكر من كان يكذبه قلبًا ولسانًا بضرب المثل كما قال: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا الثَّورَةَ﴾ [الجمعة: ٥]. وهذه السورة على ذكر من كان يكذبه قلبًا دون اللسان ويصدق لسانًا دون القلب»^(٢). ثم جاءت التغابن مقابلة لما قبلها ومتممة لما جاء في «الجمعة» يقول: «وجه التعلق بما قبلها ظاهر لما أن تلك السورة للمنافقين الكاذبين وهذه السورة للمؤمنين الصادقين وأيضًا تلك السورة مشتملة على بطلان أهل النفاق سرًا وعلانية، وهذه السورة على ما هو التهديد البالغ لهم»^(٣).

فسورة «الجمعة» جاءت لبيان بعثة النبي ﷺ وأحوال الخلق مع ما أنزل الله على رسوله ففصلت حال المؤمنين المصدقين وعرضت ضمناً لموقف صنفين من المكذبين، الأول: أهل الكتاب وموقفهم من مبعثه عليه السلام، وإنكارهم لما جاء به مع زعمهم أنهم مهتدون فألمح لهذا الفريق بضرب المثل في قوله: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا الثَّورَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا يَتَسَاءَلُونَ الْقَوْمَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الجمعة: ٥].

والثاني: من صدق به لسانًا وكذبه اعتقادًا ووجدانًا، وجاء ذلك في سياق الأمر بتعظيم مكانه عليه الصلاة والسلام في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهِوِ وَمِنَ النَّجْوَى وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّزِقِينَ﴾ [الجمعة: ١١]. فكانت «تنبيهًا

(١) "التفسير" ١٠/ ٥٣١.

(٢) "التفسير" ١٠/ ٥٤٥.

(٣) السابق ١٠/ ٥٥١.

«اعلم أن من جملة ما يتحقق به التعلق بما قبلها هو أنها يشتركان في بيان حال الرسول ﷺ مع الحاضرين في زمانه من اليهود والنصارى وغيرهم»^(١).

أما الاشتراك في الخطاب أو التناسب بين الافتتاح فلا يكون علة للمناسبة والتعلق فيما بين السورتين ما لم يكن باعتبار من المعاني وملاءمة بين الأغراض، كما في سورة «الطور» حيث ذكر فيها: «هذه السورة مناسبة للسورة المتقدمة من حيث الافتتاح وبيان الحشر فيها»^(٢).

وكذلك سورة «التحریم» وتعلقها «بما قبلها فذلك لاشتراكهما في الأحكام المخصوصة بالنساء واشتراك الخطاب بالطلاق في أول تلك السورة مع الخطاب بالتحریم في أول هذه السورة لما كان الطلاق في الأكثر من الصور أو في الكل كما هو مذهب البعض مشتملاً على تحریم ما أحل الله»^(٣).



(١) «التفسير» ١٠/ ٥١٥.

(٢) السابق ١٠/ ١٩٨.

(٣) السابق ١٠/ ٥٦٨.

ثالثاً: تناسب السورة مع أكثر من سورة

وهو نوع يظهر في «تفسير الرازي» بصورة لم أعرف أن غيره دخل فيه كما دخل الرازي فليس له نظائر في التفاسير المتقدمة أو المتأخرة عنه، وجاءت ندرته من غموض مسلكه وحاجته إلى تلميح لمعرفة مداخل السورة في السورة السابقة، وكيف تلاقت أطرافها، وانسلت من نسيجها في تتبع محكم لتوالي المعاني ونبعها من تحت لغة البيان السابق وكيف يفضي غرض إلى غرض وبيان إلى بيان. وهذه اللفتة وإن لم تكن في جميع السور إلا أن ما ذكره يمكن أن يكون منهجاً ينهج في كل سورة، وقد ذكر ذلك في تفسير سورة «الكوثر» وظني أن الذي فجر في نفسه ﷺ كل هذه المعاني محاولة دفع ما شاع حول أن التحدي وقع بالسور الطوال وأن الإعجاز يتفاوت وليس واحداً في جميع السور؛ لذلك كانت هذه السور موضع عناية علماء البيان للكشف عن وجه الإعجاز فيها وأن التحدي واقع بها كالتحدي بأطول سورة، فأفرد الزمخشري رسالة حول الإعجاز في بيانها، وغزارة المعاني تحت ألفاظها، وما يحويها محارها من لآلئ البلاغة وأسرارها، وما تكتنزه من المحاسن والدقائق.

وقد ذكر الرازي ملخص هذه الرسالة في كتابه «نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز» وزاد في «تفسيره» بيان الإعجاز المتعلق بترتيبها وعلاقتها بما قبلها من السور وما بعدها. فجعل منها حلقة وصل بين السور السابقة لها واللاحقة يقول: «إن هذه السورة كالتتمة لما قبلها من السور، وكالأصل لما بعدها من السور. أما أنها كالتتمة لما قبلها من السور، فلأن الله تعالى جعل سورة «الضحى» في مدح محمد عليه الصلاة والسلام وتفصيل أحواله، فذكر في أول السورة ثلاثة أشياء تتعلق بنبوته أولها: قوله ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ [الضحى: ٣]. وثانيها قوله: ﴿وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى﴾ [الضحى: ٤]. وثالثها: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ [الضحى: ٥]. ثم ختم هذه السورة بذكر ثلاثة أحوال من أحواله ﷺ فيما يتعلق بالدنيا وهي قوله: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى * وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى * وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾

ثم ذكر في سورة: «ألم نشرح» أنه شرفه بثلاثة أشياء، أولها: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح: ١]. وثانيها: ﴿وَوَضَعْنَا عَنَتَكَ وَزَرَكْ * الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ﴾ [الشرح: ٢، ٣]. وثالثها: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ٤].

ثم إنه تعالى شرفه في سورة «التين» بثلاثة أنواع من التشريفات، أولها: أنه أقسم ببلده، وهو قوله: ﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ [التين: ٣]. وثانيها: أنه أخبر عن خلاص أمته من النار، وهو قوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [التين: ٦]. وثالثها: وصولهم إلى الثواب وهو قوله: ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [التين: ٦].

ثم شرفه في سورة «اقرأ» بثلاثة أنواع من التشريفات، أولها: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ [العلق: ١].

أي اقرأ القرآن على الحق مستعيناً باسم ربك. وثانيها: أنه قهر خصمه بقوله: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ * سَنَدْعُ الزَّبَانَةَ﴾ [العلق: ١٨، ١٧]. وثالثها: أنه خصه بالقربة التامة، وهو ﴿وَأَسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ [العلق: ١٩].

وشرفه في سورة «القدر» ببليلة القدر التي لها ثلاثة أنواع من الفضيلة، أولها: كونها ﴿خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ [القدر: ٣]. وثانيها: ﴿نَزَّلُ الْمَلَائِكَةَ وَالرُّوحَ فِيهَا﴾ [القدر: ٤]. وثالثها: كونها ﴿سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾ [القدر: ٥].

وشرفه في سورة «لم يكن» بأن شرف أمته بثلاثة تشريفات أولها: أنهم خير البرية. وثانيها: ﴿جَزَاءُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ﴾ [البينة: ٨]. وثالثها: رضا الله عنهم. وشرفه في سورة «إذا زلزلت» بثلاثة تشريفات، أولها: قوله ﴿يَوْمَ يُنَادِي بُرْهَانَ أَخْبَارَهَا﴾ [الزلزلة: ٤]. وذلك يقتضي أن الأرض تشهد يوم القيامة لأمتها بالطاعة والعبودية. والثاني: قوله: ﴿يَوْمَ يُنَادِي بُرْهَانَ النَّاسِ أَشْنَاءًا لِّسِرِّهِمْ أَعْمَلْتُمْ﴾ [الزلزلة: ٦]. وذلك يدل على أنه تعرض عليهم طاعاتهم فيحصل لهم الفرح والسرور. وثالثها: قوله: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧]. ومعرفة الله لا شك أنها أعظم من كل عظيم فلا بد وأن يصلوا إلى ثوابها.

ثم شرفه في سورة «العاديات» بأن أقسم بخيل الغزاة من أمته فوصف تلك الخيل بصفات ثلاث: ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾ ﴿وَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا﴾ ﴿وَالْمَغِيرَاتِ صُبحًا﴾ [العاديات: ١-٣]. ثم شرف أمته في سورة «القارعة» بأمر ثلاثة، أولها: ﴿فَمَنْ ثَقَلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ [القارعة: ٦]. وثانيها: أنهم في ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ [القارعة: ٧]. وثالثها: أنهم يرون أعداءهم في نار خامية.

ثم شرفه في سورة «أهالك» بأن بين أن المعرضين عن دينه وشرعه يصيرون معذيين من ثلاثة أوجه، أولها: أنهم يرون الجحيم. وثانيها: أنهم يرونها عين اليقين. وثالثها: أنهم يسألون عن النعيم.

ثم شرف أمته في سورة «العصر» بأمر ثلاثة، أولها: الإيذان ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [العصر: ٣]. وثانيها: ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [العصر: ٣]. وثالثها: إرشاد الخلق إلى الأعمال الصالحة، وهو التواصي بالحق، والتواصي بالصبر.

ثم شرفه في سورة «الهمزة» بأن ذكر أن من همز ولمز فله ثلاثة أنواع من العذاب، أولها لا ينتفع بدينه البتة، وهو قوله: ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾ [الهمزة: ٣]. وثانيها: أن ينبذ في الخطمة. وثالثها: أن يغلق عليه تلك الأبواب حتى لا يبقى له رجاء في الخروج، وهو قوله: ﴿إِنَّمَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّدَةٌ﴾ [الهمزة: ٨].

ثم شرفه في سورة «الفيل» بأن رد كيد أعدائه في نحرهم من ثلاثة أوجه، أولها: جعل كيدهم في تضليل. وثانيها: أرسل عليهم طيرًا أبابيل. وثالثها: جعلهم كعصف مأكول.

وشرفه في سورة «قريش» بأنه راعي مصلحة أسلافه من ثلاثة أوجه، أولها: جعلهم مؤلفين متوافقين لإيلاف قريش. وثانيها: أطعمهم من جوع. وثالثها: أنه آمنهم من خوف.

وشرفه في سورة «الماعون» بأن وصف المكذبين بدينه بثلاثة أنواع من الصفات المذمومة، أولها: الدناءة واللؤم، وهو قوله: ﴿يَدْعُ الْيَنبَغَ﴾ ﴿وَلَا يُحِصُّ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ﴾ [الماعون: ٢، ٣]. وثانيها: ترك تعظيم الخالق، وهو قوله: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [الماعون: ٤]. وثالثها: ترك انتفاع الخلق، وهو قوله: ﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ [الماعون: ٧].

ثم إنه سبحانه وتعالى لما شرفه في هذه السور من هذه الوجوه العظيمة قال بعدها: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ [الكوثر: ١]. أي إنا أعطيناك هذه المناقب المتكاثرة المذكورة في السور المتقدمة التي كل واحدة منها أعظم من ملك الدنيا بحذاقيرها، فاشتغل أنت بعبادة هذا الرب وبارشاد عباده إلى ما هو الأصلح لهم، أما عبادة الرب فيما بالنفس وهو قوله: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾ [الكوثر: ٢]. وإما بالمال وهو قوله: ﴿وَأَنْحَرْ﴾ [الكوثر: ٢]. وما إرشاد عباده إلى ما هو الأصلح لهم في دينهم ودنياهم فهو قوله: ﴿يَتَأْتِيهَا الْكُفْرُوتُ * لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ [الكافرون: ٢، ١]. فثبت أن هذا السورة كالتممة لما قبلها من السور، وأما أنها كالأصل لما بعدها فهو أنه تعالى يأمره بعد هذه السورة بأن يكفر جميع أهل الدنيا بقوله: ﴿قُلْ يَتَأْتِيهَا الْكُفْرُوتُ * لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾. ومعلوم أن عسف الناس على مذاهبهم وأديانهم أشد من عسفهم على أرواحهم وأموالهم، وذلك أنهم يبذلون أموالهم وأرواحهم في نصرة أديانهم، فلا جرم كان الطعن في مذهب الناس يثير من العداوة والغضب ما لا يثير سائر المطاعن، فلما أمره بأن يكفر جميع أهل الدنيا، ويبطل أديانهم لزم أن يصير جميع أهل الدنيا في غاية العداوة له، وذلك مما يحترف عنه كل أحد من الخلق فلا يكاد يقدم عليه، وانظر إلى موسى عليه السلام كيف كان يخاف من فرعون وعسكره. وأما ههنا فإن محمداً ﷺ لما كان مبعوثاً إلى جميع أهل الدنيا، كان كل واحد من الخلق كفرعون بالنسبة إليه، فدبر تعالى في إزالة هذا الخوف الشديد تدبيراً لطيفاً، وهو أنه قدم على تلك السورة هذه السورة، فإن قوله: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ يزيل عنه ذلك الخوف^(١).

فردها إلى جذر الدلالة الذي نمت منه وتفرعت عنه وهو سورة «الضحى»، ف«الضحى» قررت معنى، وهو مدح النبي ﷺ ثم تضمنت معنى مجملاً وهو قوله: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ [الضحى: ٥].

ونؤكد هذا المعنى بذكر أحواله قبل اصطفاؤه واجتباؤه لتلك المنزلة الشريفة، وكيف آواه وهدهد وأغناه ثم أجملت معنى وهو أن هذه العطايا ممتدة لا تنقطع، فتوالت السور بعدها تغذي المعنى وتزيد في الإبانة عنه وتفصيله متدرجة بالمنح الإلهية، منها ما يختص بذاته

الطاهرة ﷺ من شرح الصدر وإعلاء الذكر، وتأيده بالقرآن واختصاصه بالقربة التامة، وغير ذلك، ومنها ما هو عام في أمته فقد شرفها بالخلاص من النار، والثواب غير المنقطع، وليلة القدر، وجعلهم خير أمة، وهذا غاية في بابه. وكل ذلك لتحقيق معنى ﴿فَرَضَى﴾ وتصوير كيف تكون العطايا مرضياً عنها.

وجاءت «الكوثر» لتجمل جميع العطايا السابقة وتقررهما فقال: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ أي المناقب المتكاثرة، وأضافت معنى امتداد هذه المنح إلى آجلها في الآخرة، وهو نهر في الجنة، وتناوب المعاني بين الإجمال تارة والتفصيل أخرى مسلك ظاهر في إشباع دلالة الآيات داخل السورة الواحدة، وقد استثمره الإمام للكشف عن خبايا التناسب والتعلق بين السور المتجاورة والتدليل على كونها معنى متكاملًا، فقوله: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ وهي إعادة واستحضار للجملة: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَرَضَى﴾ وهذا تفتيش دقيق في أبنية الكلام لتجلية أصول المعاني بعضها من بعض، والمقاربة بين متشابهها وإن تباعد واختلف.

فالرازي لا يعلق السورة بما قبلها دون اعتبار لنسب توجب الانتساب إليها وإنما يعتمد في ذلك على الفحص لمباني الجملة وخصوصيات الأداء، فلام العهد في كلمة «الكوثر» جاءت ولم يكن ثمة معهود سابق في الجملة تعود عليه أحوال إلى سياقات سابقة تتبعها فانتظمت جميع ما يمكن دخوله في حيز عموم العطاء، فاستحضرت ثلاث عشرة سورة وهي مجموع ما بين سورتي «الضحى» و«الكوثر»، ثم حارت دلالتها لتلتقي مع رأس المعنى وهو ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَرَضَى﴾ فالكوثر هو المناقب الكثيرة التي جرت في السياقات السابقة على اختلاف مقصد كل سورة. فكان ذلك هو الخيط الناظم للسور التي توسطت بين الوعد بالعطاء في قوله: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ﴾ وإنجاز الموعود في قوله: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾.

وأيضاً رجوع المعنى مجملًا بعد تفصيله سدى لحمه الكلام وعانق بين أجزائه وجعله منصباً في حاق المعنى السابق، وهو ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ﴾ فقال: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ﴾ هي

واقع عملي للعتاء الذى وعد به عليه الصلاة والسلام من ربه فقرره ورتب عليه ما ينبغي تجاه ذلك الإنعاف من شكر النعم والاشتغال بالعبادة.

أما كونها أصلاً لما بعدها فلأنه أخبر بنقصان من شأ مسلكه عليه الصلاة والسلام وحاد عن نهجه فجاءت ﴿قُلْ يَتَّابِهَا الْكُفْرُوت﴾ لبيان أن الكمال لا يكون إلا بالتبرؤ من الشرك والمشركون.

ولما كان عسف الناس وقيادتهم في أديانهم ومذاهبهم من أشد الأمور إثارة للعداوة والبغضاء قدمت سورة «الكوثر» إزالة لدواعي الخوف والخشية التي قد تساور فؤاده الشريف، وتثبيتاً لنفسه ﷺ لمجابهة أئمة الكفر ومشافهتهم بإظهار الدين ونبد جميع ما يدعون من دون الله، وقد أحسن الرازي حينما نبه إلى منبع هذه الفكرة وأن الذي أثارها في نفسه هو سمت بيان القرآن فليست غريبة عنه، ولا مستقاهها الفكر المجرد وإنما جرت في سياق آخر شبيه بهذا السياق، فلما اختار الله موسى للتكليف بدعوة فرعون كلمه وناجاه «فهذا يقوم مقام قوله: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤]. بل هذا أشرف؛ لأن المولى إذا شافه عبده بالتزام التربية والإحسان كان ذلك أعلى مما إذا شافه في غير هذا المعنى بل يفيد قوة في القلب ويزيل الجبن عن النفس، فثبت أن مخاطبة الله إياه بقوله: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ مما يزيل المخاوف عن القلب والجبن عن النفس»^(١).

وفي قوله: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ﴾ ردها إلى رأس الكلام وجذره وهو الوعد بالتربية العظيمة بقوله: «لما وعد محمداً بالتربية العظيمة بقوله: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ وقوله: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ لا جرم كان يزداد كل يوم أمره، كأنه تعالى قال: يا محمد لم يضيق قلبك؟ ألسنت حين لم تكن مبعوثاً لم أضيعك، بل نصرتك بالطير الأبايل؟ وفي أول الرسالة زدت فجعلت الطير ملائكة ﴿أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ﴾ [آل عمران: ١٢٤]. ثم الآن أزيد فأقول إني أكون ناصراً لك بذاتي: ﴿إِذَا جَاءَ

(١) "التفسير" ٣١٠/١١.

نَصْرُ اللَّهِ ﴿١﴾ فقال: إلهي، إنما تتم النعمة إذا فتحت لي دار مولدي ومسكني، فقال: ﴿وَالْفَتْحُ﴾ ﴿٢﴾ فقال: إلهي، لكن القوم إذا خرجوا فإي لذة في ذلك؟ فقال: ﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ ﴿٣﴾ ثم كأنه قال: هل تعلم يا محمد بأي سبب وجدت هذه التشريفات الثلاثة؟ إنما وجدتها؛ لأنك قلت في السورة المتقدمة: ﴿قُلْ يَتَأَيَّهَا الْكَافِرُونَ﴾ ﴿٤﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٥﴾.

وهي وإن كانت تجري في دلالة العطاء إلا أن توسط سورة ﴿قُلْ يَتَأَيَّهَا الْكَافِرُونَ﴾ ﴿٦﴾ أضاف خصوصية زائدة للمناقب التي جاءت بها سورة «النصر» وضاعفت من كونها نعمًا ومناقب إلى جعلها متممات ومكملات لجميع النعم، فجاءت بأفضل التشريفات وأحبها على قلبه عليه الصلاة والسلام وهي فتح مكة وإعادة الإلف بينه وبين قومه بدخولهم في دين الله بعد أن نابذوه العداوة ونابذهم البراءة من شركهم.

فسورة «الكوثر» كالشريان الذي تلتقي عنده جزئيات المعاني ليصلها بقلب الدلالة ومركزها وهو سورة «الكافرون»؛ لأن جميع المناقب السابقة من قبيل التهيئة والتلطيف لإلزامه بعد ذلك بالأمر الشاق؛ لذلك قدم «هذه السورة على سورة «قل يا أيها الكافرون» حتى يمكنه الاشتغال بذلك التكليف الشاق والإقدام على تكفيره جميع العالم، وإظهار البراءة عن معبودهم، فلما امتثلت أمري، فانظر كيف أنجزت لك الوعد، وأعطيتك كثرة الأتباع والأشياء، إن أهل الدنيا يدخلون في دين الله أفواجًا»^(١).

وبعد أن بين وجه تعلقها بما قبلها فرع ما بعدها عليها ف«لما قال في آخر السورة المتقدمة ﴿لَكَرِّدِينَكَرُوْا لِي دِينَ﴾ ﴿٧﴾ فكأنه قال: إلهي، وما جزائي؟ فقال: نصر الله. فيقول: وما جزاء عمي حين دعاني إلى عبادة الأصنام؟ فقال: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾ ﴿٨﴾. فإن قيل: فلم بدأ بالوعد قبل الوعيد؟ قلنا: لوجوه، أحدها: لأن رحمته سبقت غضبه. والثاني: ليكون الجنس متصلًا بالجنس فإنه قال: ﴿وَلِي دِينَ﴾ وهو النصر كقوله: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾ ﴿٩﴾ [آل عمران: ١٠٦]. وثالثها: الوفاء بالوعد أهم في الكرم من

الوفاء بالانتقام، فتأمل في هذه المجانسات الحاصلة بين هذه السور مع أن هذه السورة من أواخر ما نزل بالمدينة وتلك السورة من أوائل ما نزل بمكة؛ ليعلم أن ترتيب هذه السور من الله وبأمره^(١).

وهذا الفهم يحكم بناء الكلام ويصوره بياناً متفقاً يأخذ بعضه بحجزة بعض، فتجد السورة تداخل بيان سابقتها وتولد من بعض عناصرها فتتسع وتتكاثر بدلالاتها ثم تنشق عن بيان آخر تبني عليه سورة أخرى فتداخل حلقات الكلام وتشتد أواصره ويفرغ إفراغاً واحداً ثم يجعل سورة «إنا أعطيناك الكوثر» وما يحيط بها من سور داخلية في جملتها كلاماً واحداً يقابل به منظومة من السور يجعلها قسيماً للمعنى الأول فسورة «قل هو الله أحد» وهي في شرح صفات الله وما تفرع عنها من ذكر مخلوقاته في سورة «الفلق» ومراتب النفس الإنسانية وترقيتها في معرفة الله، وكل هذا «في حق الله مثل سورة «الكوثر» في حق الرسول لكن الطعن في حق الرسول كان بسبب أنهم قالوا: إنه أبتر ولا ولد له، وههنا الطعن بسبب أنهم أثبتوا الله ولداً، وذلك لأن عدم الولد في حق الإنسان عيب ووجود الولد عيب في حق الله تعالى، فلهذا السبب قال ههنا: ﴿قُلْ﴾ حتى تكون ذائباً عني، وفي سورة «إنا أعطيناك» أنا أقول ذلك الكلام حتى أكون أنا ذائباً عنك^(٢).

وهذا ضرب لطيف من المقابلة قارب أطراف الكلام وجمع منه ما تشابه على تباعد مطارحه ومنازله، ودركه لا يكون إلا بزيادة فطنة وبصر بمداخل الكلام بعضه في بعض، وحسن التأتي بملاحظة اللغة وما وراء التراكيب من تنبيهات وتلوحيات إتحيل إلى أشباه ونظائر لها، فتعيدها إلى الذهن وتنبيه إلى ما بينها من تأخ، فتتجاوب المعاني وتتلاقى؛ لتكون بياناً مكتملاً لا يغني فيه جزء عن جزء، فسورة «الإخلاص» أمر من الله عز وجل لنبيه عليه الصلاة والسلام بدفع مقالة من أثبت له سبحانه الولد، وهذا المعنى أعاد نظيره في سورة «الكوثر» في دفاع الله عن نبيه وتسليته حينما عاب عليه المشركون ألا ولد له، فانعطف آخر

(١) "التفسير" ٣٣٥/١١.

(٢) السابق ٣٦٦/١١.

الكلام على أوله، وكون من مجموع السور وتتابعها بهذا النسق والترتيب هيئة لمعنى كلي احتوى ما بعدها وانتظمه على اختلاف أغراضه فوحد ما تفرق وجعل منه بياناً مكتملاً؛ لأنه - وإن تشعبت أفانينه - يلتقي عند غرض أصل ومعنى جذر يؤلف ذلك كله وينحو به منحى واضحاً ويؤم به مقصدًا محددًا.

وكانت هذه الصفحات موضع عناية العلماء بعده فاستوقفهم منهج تحليل الرازي لتتابع السور وتعليق بعضها ببعض فتبعه البقاعي في أكثر ذلك فقد علق «الإخلاص» بسورة «الكوثر» وجعل ما بينهما من سور مبنية ومركبة على «الكوثر»؛ لأن هذه السورة أثارت تساؤلات عما يفعله ﷺ مع الشائئين من معاركة أو متاركة فجاءت «الكافرون» إشباعاً لمعنى المشاركة والبراءة من دينهم «النصر» فرعت معنى المعاركة وما يترتب عليها من قهر الشائئين بالفعل، فلما نبهت «النصر» على التوبة على من آمن بعد الفتح أثارت تساؤلات حول حال من لم يؤمن فجاءت «تبت» لفصل ما لهم من الخذلان بذكر مصير أشقائهم فاستحضرت حال أشدهم عنادًا وأعتاهم في مواجهة دين الحق والاجتهاد في كل ما يصاد أشرف العباد مع قرابته للرسول عليه الصلاة والسلام فذكرت مصيره وماله من الخذلان والذل يوم المعاد^(١). إلا أنه لم يجعل «الإخلاص» معنى مقابلًا لـ «الكوثر» وإنما معنى أنتجته السور السابقة فقد أثارت في النفس تشوقًا واستشرافًا لمعرفة ما هية هذا المولى فـ «جاءت «الإخلاص» كاشفة لما ثبت من العظمة لولي النبي سبحانه وتعالى الذي أمره بهذا الدين وفعل له هذه الأمور العظيمة الموجبة.... لئلا يستبعد عليه سبحانه وتعالى شيئًا من ذلك»^(٢).

وامتد البقاعي بهذه الفكرة إلى ملاحظة التشابه في بناء المعاني من سورة «الفيل» إلى نهاية القرآن، وأن ذلك إعادة تشكيل لأصول المعاني الممتدة من «الفاتحة» إلى آية الكرسي، فعانق مقطع الكتاب مطلعته والتحم مفصله بموصله أشد التحام، يقول في ذلك «من أعظم المناسبات في ذلك بالنظر إلى الآيات أنه سبحانه شرح بـ «الفيل» وما بعدها من السور آيات

(١) ينظر: "نظم الدرر" ٥٧٦/٨.

(٢) "نظم الدرر" ٥٨٦/٨.

«الفاحة» كلها ثم من أول «البقرة» إلى آية التوحيد، فأشار بـ«الفيل» إلى استجماعه لصفات الكمال بأن له الحمد بما حرس به بيته من الملوك وحماه من كيد الجبابرة، وأحسن التربية لقريش الذين هم أشرف العالمين وبصلاحهم صلاح بلدتهم أم القرى... فدل ذلك على أنه يدين العباد يوم التناد، ولذلك أعطى رأس الهداة الدين الذي أفرد بالعبادة والاستعانة بـ«الكوثر»، وهداه إلى الصراط المستقيم وأعاده من طريق الكافرين المعاندين والضالين، وأشار أول «البقرة» إلى دخول المتقين - الذين الكتاب هدى لهم - في الدين أفواجًا، وإن أغنى أهل الكفر وأعتاهم سواء عليهم الإنذار وعدمه في أنه لا يؤمن وهو أبو لهب ومن سار بسيره من مجاهر ومساير ويعمهم الخسار ويشملهم الهلاك والتبار بحكم الواحد القهار، المأمور بعبادته وتوحيده في الآية الجامعة لدعوات التوحيد ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: ٢١]. المتصف بما في سورة «الصمد» التي لم ينزل في وصفه مثلها، فتم الدين عند ذلك بما له سبحانه من كمال الأوصاف وجلال النعوت بالجبروت والإلطاف، فلم يبق إلا تعويد أهل الدين من أن يدخل عليهم خلل أو يلحقهم نزع أو زلل فختم بالمعوذتين لذلك»^(١).

وردها الإمام السيوطي إلى سورة «الكافرون» لاشتغالها على غرض واحد وهو التوحيد، يقول: «إن هذه السورة أي «الإخلاص» متصلة بـ«قل يا أيها الكافرون» في المعنى، ولذلك من أسماؤها «الإخلاص»، وقد قالوا: إنها اشتملت على التوحيد وهذه أيضًا اشتملت عليه...، وذلك أنه لما نفى عبادة ما يعبدون، صرح هنا بلازم ذلك وهو أن معبودهم واحد، وأقام الدليل عليه بأنه «صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد» ولا يستحق العبادة إلا من كان كذلك وليس في معبوداتهم من هو كذلك»^(٢).

وأحكم المتأخرون بعد الرازي هذا الباب بما لا مزيد عليه فقلبوا جهات التماسك بين السور المتتابعة، وفصلوا القول في وجوه انتساب كل سورة وموقعها في بيان ما قبلها وكيف تناسب أغراضها وتناسجت من جمل وآيات هيأت لمقاصدها ومكنت لموقعها وحسن

(١) "نظم الدرر" ٨/ ٥٧٦، ٥٧٧.

(٢) "تناسق الدرر" ص ١٨٧.

تجاورها وانتظامها من السورة قبلها، ودلوا في ذلك كله على مداخل السورة في السورة في مقاصدها وأبنيتها ومكوناتها، ومجاذبة ذلك برد الكلام بعضه على بعض فتتعلق السور وتتلاقى عناصرها وتتلاقح فينمو المعنى ويتسع ويشمر في بيان السور التالية، ويظل ما بين أصله مجملًا وموقعه مفصلًا إحياءات تحيل إليه وتحفز الذهن لإعماله في ذلك السياق ورده عليه. ثم تترك السورة في ثناياها بذورًا لمعنى آخر تجاذبه السورة بعدها وهكذا تنام مستمر تحرك السورة في أحشاء ما قبلها وتتناسل منها.

والأصل الضابط هو أن السورة تطوي في أبنيتها معاني مجملة تقتص السورة التالية آثارها فتشرها وتبني عليها مقاصدها ذكره السيوطي في قوله: «إن القاعدة التي استقرأتها من القرآن: كل سورة تفصيل لإجمال ما قبلها، وشرح له، وإطناج لإيجازه، وقد استمر معنى ذلك في غالب سور القرآن طویلها وقصیرها»^(١).

والإبانة بالمجمل داعية ومحرك للنفس على الاستفسار والطلب والتأمل فيتجاوز العبارة للكشف عن حقائقها المستترة بقرينة نص آخر يجاذب به دلالتها ويمتد بها نحو التفصيل والتفسير؛ لذلك عول العلماء في بيان وجه تماسك السور والتحام بعضها ببعض على تتبع عناصر السورة السابقة ومكوناتها في تأليفها وما داخلها من الزيادة والتغيير، فلم يشكل استقلال السورة حاجزًا يعزلها عما جاورها أو يحول دون الالتفات إلى ما تحدر إليها من نظم سابقاتها ومعانيها، فقد تأتي السورة بناء على آيات محدودة في بيان ما قبلها، كما في موقع «الأعراف» في سورة «الأنعام» ف «سورة الأنعام» لما كانت لبيان الخلق قال فيها: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ﴾ [الأنعام: ٢]. وقال في بيان القرون: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ﴾ [الأنعام: ٦]. وأشار فيها إلى ذكر المرسلين وتعداد كثير منهم، وكانت الأمور الثلاثة على وجه الإجمال لا التفصيل، ذكرت هذه السورة عقبها؛ لأنها مشتملة على شرح الأمور الثلاثة وتفصيلها فبسط فيها قصة خلق آدم أبلغ بسط بحيث لم تبسط في سورة ما بسطت فيها وذلك

(١) "تناسق الدرر" ص ٤١.

تفصيل إجمال قوله: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ﴾. ثم فصلت قصص المرسلين وأممهم وكيف هلاكهم تفصيلاً تاماً شافياً مستوعباً لم يقع نظيره في سورة غيرها، وذلك بسط حال القرون المهلكة ورسلمهم، فكانت هذه السورة شرحاً لتلك الأمور الثلاثة.

وأيضاً فذلك تفصيل قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١٦٥]. ولهذا صدر السورة بخلق آدم الذي جعله الله في الأرض خليفة، وقال في قصة عاد: ﴿جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ [الأعراف: ٦٩]. وفي قصة ثمود: ﴿جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ﴾ [الأعراف: ٧٤]^(١).

ويقوي هذا الوجه ما لحظه الغرناطي من إحالة آي «الأنعام» إلى الاعتبار بالأمم السالفة وتكراره ولم يجر ذلك من قبل في السور السابقة لها فاقتضى وضعها عقيها «لأنها بسط وإتباع لبعض عناصرها»^(٢).

والسيوطي يجعل السياق متلاحماً بتتبع لفظة الخلافة المتحدرة من تحت أغراض «الأنعام» التي جاءت لبيان الخلق وامتزاجها بذكر الأمم السالفة في «الأعراف».

وأحياناً تقتص السورة المعاني المجملة في السورة قبلها فتزيدها إيابة وتفصيلاً حتى تكاد لا تغادر منها شيئاً، كما في منزلة «آل عمران» من «البقرة» «فإن أول «البقرة» افتتح بوصف الكتاب بأنه ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ وقيل في «آل عمران»: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾. وذلك بسط وإطناب لنفي الريب عنه.

ومنها: أنه ذكر في «البقرة» إنزال الكتاب مجملاً وقسمه هنا: إلى آيات محكمات ومتشابهات.. ومنها أنه أوجز في «البقرة» ذكر المقتولين في سبيل الله بقوله: ﴿أَحْيَاءُ﴾ [البقرة: ١٥٤]. وزاد هنا: ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٩، ١٧٠]. وذلك إطناب عظيم.

(١) "تناسق الدرر" ص ٧١، ٧٠.

(٢) ينظر: "البرهان" ص ٢١١.

ومنها: أنه قال في «البقرة»: ﴿وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٤٧] وقال هنا: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنَزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ﴾ [آل عمران: ٢٦] فزاد إطنابًا وتفصيلًا.

ولم يكتف بملاحظة التشابه في المباني وتتبع كل لفظة انجرت في سياق «آل عمران» وما داخلها من زيادات، وإنما رد ذلك إلى تكامل مقاصدهما وترتب كل منهما على الآخر، ذكر: «أن بين هذه السورة وسورة «البقرة» اتحاد شديد وتلاحم متأكد؛ لما تقدم من أن «البقرة» بمنزلة إقامة الحجة، وهذه بمنزلة إزالة الشبهة، ولهذا تكرر ما يتعلق بالمقصود الذي هو بيان حقيقة الكتاب من إنزال الكتاب وتصديقه للكتب من قبله، والهدى إلى الصراط المستقيم»^(١).

ونوع آخر من مواقع السور في السر تكون فيه السورة استدارة على مضامين ما قبلها تبرز ما دفن واستكن وتضم ما ظهر منها وفصل، فتصبح السورة في قلب الأخرى وهذه روعة الإعجاز وتسامق بيانه وتشعب أفانيته في تصريح المعاني وتقليبها ظاهرًا وباطنًا نحو موقع أغراض «النساء» في «آل عمران» وما طوته من مفصلها وما نشرته من مجملها.

ومنها: أنه لما قال في «آل عمران» في المتشابه: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾ [آل عمران: ٧] قال هنا: ﴿لَكِنَّ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ [النساء: ١٦٢]. ومنها: أنه لما قال في «آل عمران»: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [آل عمران: ١٤] فصل هذه الأشياء في السورة التي بعدها على نسق ما وقعت في الآية؛ ليعلم ما أحل من ذلك فيقتصر عليه وما حرم فلا يتعدى إليه لميل النفس إليه، ففصل في هذه السورة أحكام النساء.

ثم فصل فيها ذكر البنين أيضًا؛ لأنه لما أخبر بحب الناس لهم وكان من ذلك إثارة لهم على البنات في الميراث وتخصيصهم به دونهن، تولى قسمة الميراث بنفسه، وقال: ﴿يُوصِيكُمُ

اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلَّذِ كَرِ مِثْلَ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ ﴿١١﴾ [النساء: ١١]. فكان ذلك تفصيلاً لما يحل ويجرم من إثارة البنين اللّازم عن الحب، وفي ضمن ذلك تفصيل لما يحل للذكور أخذه من الذهب والفضة وما يجرم^(١).

فهذه العناصر أجملت فصيها التفصيل من كونها فروغاً إلى أغراض وقضايا تدور عليها مقاصد «النساء»، وبعض آيا طي وقبض لمقاطع من «آل عمران» اكتفي بالإشارة إليها فـ «سورة آل عمران» ذكرت فيها قصة أحد مستوفاة، وذكر في هذه السورة ذيلها وهو قوله: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَفِقِينَ فِتْنَةٍ﴾ [النساء: ٨٨]. ومنها التي بعد أحد في قوله: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ﴾ [آل عمران: ١٧٢]. وأشير إليها هنا بقوله: ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ﴾ [النساء: ١٠٤].

وكذلك القصص بين ثلاث سور هي: «مريم»، و«طه»، و«الأنبياء»، والمراوحة فيها بين القبض والبسط؛ رعاية لما ذكر منها في الأخرى وما طوي فـ «لما ذكر في سورة «مريم» قصص عدة من الأنبياء وهم: زكريا، ويحيى، وعيسى، والثلاثة مبسوطة، وإبراهيم وهي بين البسط والإيجاز، وموسى وهي موجزة مجملة، وأشار إلى بقية النبيين في الآية الأخيرة إجمالاً - ذكر في هذه السورة شرح قصة موسى التي أجملها هناك فاستوعبها غاية الاستيعاب، وبسطها أبلغ بسط.

ثم أشار إلى تفصيل قصة آدم الذي وقع في «مريم» مجرد ذكر اسمه هناك.

ثم أورد في سورة «الأنبياء» بقية قصص من لم يذكر قصته في «مريم»، كنوح، ولوط، وداود، وسليمان، وأيوب، واليسع، وذو الكفل، وذو النون.

وأشير فيها إلى قصة من ذكرت قصته إشارة وجيزة كموسى وهارون، وإسماعيل، وزكريا ومريم؛ لتكون السورتان كالتقابلتين.

(١) «تناسق الدرر» السيوطي ص ٥٧-٥٩.

وبسطت فيها قصة إبراهيم البسط التام فيما يتعلق به مع قومه، ولم يذكر حاله مع أبيه إلا إشارة، كما أنه في سورة «مريم» ذكر حاله مع قومه إشارة، ومع أبيه مبسوطاً فانظر إلى عجيب هذا الأسلوب وبديع هذا الترتيب»^(١)؟

أو تتفرع السورة من تحت بعض كلمات السورة السابقة أو جمل محده فتعمل على تشكيل مقاطعها وتدير أغراضها فتتفرق وتتوزع ثم تعود لتجتمع عند الكلمة الأم كما في سورة «البقرة» حيث تأتلف أغراضها المتنوعة في مجموعات تتحدر إلى أصولها في «الفاتحة» وتصب في دلالتها ف «قوله: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾» قد أوماً إليه في قصة توبة آدم.. وفي قصة إبراهيم لما سأل الرزق للمؤمنين خاصة.. وما وقع من قصص بني إسرائيل.. وذكر آية الدين إرشاداً لعباده، ورحمة بهم ووضع عنهم الخطأ والنسيان والإصر.. وقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ مجمل شامل لجميع أبواب الشريعة الفروعية.. وقوله: ﴿وإِيَّاكَ نَسْتَعِيذُ﴾ تفصيله شامل لعلم الأخلاق، وقد ذكر منها في هذه السورة الجمل الغفير من التوبة والصبر والشكر والرضى.. وقوله: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ما وقع في السورة من ذكر سيرة الأنبياء، ومن خادعهم من اليهود والنصارى..»^(٢).

وسورة «يوسف» ترتد إلى أربع آيات في «هود» تتفرع عنها مقاطعها، وهي: «قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: ١١٤]. وقوله: ﴿وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [هود: ١١٥]. وقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [هود: ١١٨]. وقوله: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَمِلُونَ﴾ [هود: ١٢١]. فتدبر ذلك.

أما نسبتها للآية الأولى فإن ندم أخوة يوسف واعترافهم بخطأ فعلهم وفضل يوسف عليهم وعفوه عنهم ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ [يوسف: ٩٢]. وندم امرأة العزيز وقولها:

(١) "تناسق الدرر" ص ٩٥، ٩٤.

(٢) "تناسق الدرر" ص ٤٣، ٤٢.

﴿الَّذِينَ حَصَّصَ الْحَقُّ أَنَارُودُ نَفْسِهِ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [يوسف: ٥١]. كل هذا من باب إذهاب الحسنة السيئة، وكان ذلك مثال لما عرف المؤمنون من إذهاب الحسنة السيئة، وأما نسبة السورة لقوله تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [هود: ١١٥]. فإن هذا أمر منه سبحانه لنبيه ﷺ بالصبر على قومه، فأتبع بحال يعقوب ويوسف عليهما السلام، وما كان من صبرهما مع طول المدة وتوالي امتحان يوسف ﷺ بالجلب ومفارقة الأب والسجن حتى خلصه الله أجمل خلاص بعد طول تلك المشقات.

ويوضح ما ذكرناه ختم السورة بقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا﴾ [يوسف: ١١٠]. فحاصل هذا كله الأمر بالصبر وحسن عاقبة أولياء الله فيه، وأما النسبة لقوله ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾. فلا أنسب لهذا ولا أعجب من حال إخوة فضلاء لأب واحد من أنبياء الله وصالحى عباده جرى بينهم من التشتت ما جعله الله عبرة لأولي الأبواب، وأما النسبة لآية التهديد فيبينة وكأن الكلام في قوة اعملوا على مكانتكم وانتظروا، فلن نصبر عليكم مدة صبر يعقوب ويوسف عليهما السلام وقد وضع بفضل الله وجه ورود هذه السورة عقب سورة «هود»، والله أعلم. ^(١)

وتتنوع العلاقات فتقع بعض السور موقعاً غير التفصيل فتجري بجرى التكميل لما قبلها، كما في سورة «الزمر» والتحامها بسورة «ص» حتى أنه «لو سقطت البسملة لالتأم الكلام كالأية الواحدة ولم يتأفر».

ثم إنه تعالى لما ذكر في آخر «ص» قصة خلق آدم ذكر في صدر هذه قصة خلق زوجه منه وخلق الناس كلهم منه، وذكر خلقهم في بطون أمهاتهم خلقاً من بعد خلق ثم ذكر بأنهم ميتون ثم ذكر وفاة النوم والموت ثم ذكر القيامة والحساب والجزاء والنار والجنة...

فذكر أحوال الخلق من المبتدأ إلى آخر المعاد متصلاً بالخلق المذكور في السورة التي قبلها. ^(٢)

(١) «البرهان» الغرناطي ص ٢٢٩-٢٣١.

(٢) «تناسق الدرر» السيوطي ص ١١٧.

أو نكون في حكم الجملة المقابلة لأختها في التركيب الواحد فيراعى في ترتيبها الخصوصيات المرعية في أحوال الجمل الواحدة، كما في ترتيب أغراض سورة «الواقعة» وتنزيلها وفقاً لمنازل المعاني في سورة «الرحمن» ذكر ذلك السيوطي يقول: «وانظر إلى اتصال قوله هنا: ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ [الواقعة: ١] بقوله هناك: ﴿فَإِذَا أَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ﴾ [الرحمن: ٣٧]. ولهذا اقتصر في «الرحمن» على ذكر انشقاق السماء وفي «الواقعة» على ذكر رج الأرض، فكان السورتين لتلازمهما واتحادهما سورة واحدة فذكر في كل شق، ولهذا عكس في الترتيب فذكر في أول هذه السورة ما ذكره في آخر تلك، وفي آخر هذه ما في أول تلك، كما أشرت إليه في سورة «آل عمران» مع «البقرة»، فافتتح في سورة «الرحمن» بذكر القرآن، ثم ذكر الشمس والقمر، ثم ذكر النبات، ثم خلق الإنسان والجان من نار، ثم صفة يوم القيامة، ثم صفة النار، ثم صفة الجنة وهذه ابتداءها بذكر القيامة ثم صفة الجنة، ثم صفة النار، ثم خلق الإنسان ثم النبات، ثم الماء، ثم النار، ثم ذكر النجوم ولم يذكرها في «الرحمن» كما لم يذكر هنا الشمس والقمر ثم ذكر القرآن. فكانت هذه السورة كالمقابلة لتلك وكرد العجز على الصدر»^(١).

وعلماء المناسبات لفتوا من خلال تفتيشهم فيما انجر من أغراض السورة السابقة وما استطال من بيانها في السورة المجاورة إلى وظيفة تلك الأغراض في تكوين مقاصدها وسياقها الخاص، فسورة «الأنبياء» لما افتتحت بقوله تعالى: ﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ وتكرر فيها التهديد في مواضع منها: ﴿وَلَكِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ﴾، ﴿وَهُمْ مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾، ﴿وَأَقْرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ﴾، ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾، إلى ما تحلل هذه الآي من التهديد وتشديد الوعيد حتى لا تكاد تجد أمثال هذه الآي في الوعيد والإنذار بها في الساعة وما بعدها وما بين يديها في نظائر هذه السورة.. اتصل بذلك ما يناسبه من الإعلام بهول الساعة وعظيم أمرها فقال تعالى:

(١) "تناسق الدرر" ص ١٢٩

﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَنْفِقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ يَوْمَ تَرْوُنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿الحج: ٢٠١﴾ ثم أتبع ببسط الدلالات على البعث الأخير وإقامة البرهان^(١).

أي أن هناك معاني فرعية تلح وتصبح هاجساً تشوف النفس وتستشرف بيانه، فتأتي التالية إشباعاً للمعنى فيصبح مقصداً تؤممه السورة.

وتتعدد العلاقة وتدق حينها تشابك مجموع آيات لتنتج دلالة ومقصد السورة التالية فيتطلب الأمر يقظة شديدة وحساً متقدماً يلامس الخيوط والوشائج، ويتبع أصولها الغائرة في مقاطع السورة السابقة فهي لا تتعلق بآية أو معنى مجمل تفصله وإنما إيجاءات تتولد من تناسج آياتها وتنسبط على مساحة كبيرة وتظل تلح عليها حتى تمتد من ضمير تلك السورة؛ لتتحول إلى معنى صريح تقصده السورة التالية وتجليه في بيانها مثل ما ذكره الغرناطي في موقع سورة «يونس» عليه السلام من «التوبة»، يقول: «لما تضمنت سورة «براءة» قوله تعالى: ﴿إِلَّا نُنْصِرُهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ﴾ [التوبة: ٤٠]. وقوله: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٣]. وقوله: ﴿وَرَحْمَةُ اللَّهِ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: ٦١]. وقوله: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]. إلى آخر السورة، إلى ما تحلله أثناء أي هذه السورة الكريمة مما شهد لرَسُولِ اللَّهِ ﷺ بتخصيصه بمزايا السبق والقرب والاختصاص والملاطفة في الخطاب، ووصفه بالرفقة والرحمة، هذا مع ما انطوت عليه هي والأنفال من قهره أعداءه وتأنيده ونصره عليهم وظهور دينه وعلو دعوته وإعلاء لكلمته، إلى غير هذا من نعم الله سبحانه عليه، كان ذلك كله مظنة لتعجب المرتاب وتوقف الشاك ومثيراً لتحرك ساكن الحسد من العدو لعظيم ما منحه عليه السلام، قال تعالى في هذه السورة: ﴿أَكَا لِلنَّاسِ عَجَبٌ أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَنُفِّرِ الْبَاسَ﴾ [التوبة: ١٢٨]. ثم

(١) «البرهان» الغرناطي ص ٢٥٦.

قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ﴾ [يونس: ٣]. فبين انفراده تعالى بالربوبية والخلق والاختراع والتدبير، فكيف تعترض أفعاله أو يطلع البشر على وجه الحكمة في كل ما يفعله ويبيديه^(١).

على أن هذه المعاني والأغراض المتحدرة من أبنية السورة السابقة لم تأت عفواً وإنما قصد إليها وروعي فيها خصوصيات لغوية تنسق بها المباني وتتنظم فتحكم الربط وتبني المعنى على المعنى، فسورة «الرحمن» ارتدت على آيات «القمر» ففصلت مجملها على الترتيب الوارد في الإجمال، فبدأ بوصف مرارة الساعة، والإشارة إلى إذهابها ثم وصف النار وأهلها، ولذا قال: ﴿يُعْرِفُ الْمَعْجَمُونَ بِسَمْتِهِمْ﴾ [الرحمن: ٤١]. فلم يقل: الكافرون أو نحوه لاتصاله بقوله هناك: ﴿إِنَّ الْمَعْجَمِينَ﴾ [القمر: ٤٧]. ثم وصف الجنة وأهلها وكذا قال فيهم: ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾ [الرحمن: ٤٦]. وذلك هو عين التقوى، ولذلك لم يقل: ولمن آمن أو أطاع، أو نحوه؛ لتوافق الألفاظ في التفصيل والمفصل، وعرف بذلك أن هذه السورة بأسرها شرح لآخر السورة التي قبلها^(٢).

وتأمل قوله: «لتتوافق الألفاظ في التفصيل والمفصل» وما فيها من التنبيه على القصد، وأن السورة بناء على نسق ما قبلها، ويهيئ لذلك اختيار ألفاظ مكنت لموقعها في بيان ما قبلها ونسجتها في نسيجها.

وسورة «المؤمنون» لما كانت تفصيلاً لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمُ وَأَفْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الحج: ٧٧]. رتب عليها وعلقت بها فأحدث ذلك تغيرات في النظم للوصول فألفت بين السورتين وجعلتها أشبه بالسياق الواحد ذكر ذلك الغرناطي في قوله: «وللتحام الكلامين أورد الأول أمراً والثاني في مدحه وتعريفاً بما به كمال الحال، وكأنه لما أمر المؤمنين وأطمع بالفلاح جزاء لامتناله كان مظنة لسؤاله عن تفصيل ما أمر به من العباد وفعل الخير الذي به يكمل فلاحه فقليل له: المفلح من التزم بكذا...»^(٣).

(١) «البرهان» الغرناطي ص ٢٢١، ٢٢٢.

(٢) «ناسق الدرر» السيوطي ص ١٢٨.

(٣) «البرهان» ص ٢٥٧، ٢٥٨.

وكذلك سورة «الملك» لما افتتحت بتبارك مكنت لحضور السياقات السابقة؛ لأن التنزيه لا يأتي إلا متصلًا بأمر سابق وعقيب إيراد عجائب ودفع شبهات يقول: «ورود ما افتتحت بهذه السورة من التنزيه وصفات التعالي إنها يكون عقيب تفصيل وإيراد عجائب من صنعه سبحانه»^(١).

وحرصهم على الوحدة وتماسك النظام بين السورتين لا يلغي خصوصية كل سورة ومقاصدها بل نبهوا على ما يدخل البناء اللغوي من ألفاظ تحول مسار السياق وتشق مجرى لمقاصد جديدة تضيفها السورة التالية على مقاصد ما قبلها. مثل ما جاء في «البقرة» ﴿وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [البقرة: ٤]. مجملًا، وقال هنا: ﴿وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ * مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ ﴿[آل عمران: ٤٠٣]. مفصلًا وصرح بذكر «الإنجيل» هنا؛ لأن السورة خطاب للنصارى، ولم يقع التصريح به في سورة «البقرة» بطولها، وإنما صرح فيها بذكر «التوراة» خاصة؛ لأنها خطاب لليهود»^(٢).

فقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ * مِنْ قَبْلُ ﴿امتدت من مقاصد «البقرة»؛ لتعاقب بين السورتين ثم نبذ فيها بلفظة «الإنجيل» تهيئة للخطاب مع النصارى وإعلامًا بمقاصد السورة.

وسورة «النحل» قررت وعيد المستهزئين المذكورين في آخر سورة «الحجر» في قوله: ﴿قَوْلِكَ لَنْسَأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٩٢]. و«أعقب هذا بيان تعجيل الأمر فقال تعالى: ﴿إِنَّ أَمْرَ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١]. وزاد هذا بيانًا قوله سبحانه وتعالى: ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ فنزه نفسه عما فاهوا به في استهزائهم وشركهم وعظيم بهتهم وأتبع ذلك تنبيهًا وتعظيمًا فقال: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ٣] ثم أتبع ذلك بذكر ابتداء خلق الإنسان»^(٣).

(١) «البرهان» ص ٣٤١.

(٢) «تناسق الدرر» السيوطي ص ٤٩، ٤٨.

(٣) «البرهان» الغرناطي ص ٢٤٢.

فقوله: ﴿سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ قناة فتحت مجرى آيات التنزيه وكانت مداراً لأغراض السورة، والتنزيه استلزم تقريراً لألوهية ودلائل صنعه فانجر الكلام إلى ذكر خلق السماوات والأرض وابتداء خلق الإنسان، ثم ألقى في سياق الخلق وصفاً أحال إلى مقاصد سابقتها وأحكم لحمة السياقين بقوله: ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ [النحل: ٤]. وهذا الوصف استدار بفصول سورة «النحل» إلى أجواء آيات وعيد المستهزئين في سورة «الحجر» وصب في بيانها ونمى معانيها وإن اتخذ هيئة أخرى ومسلكتاً مختلفاً في صورة عرض الدلائل إلا أنه يجاذب المقاصد السابقة وينقل مضامينها ويعالج ما فيها من دخل، وقد نبه الغرناطي على أن عرض الدلائل منزل على تلك المقاصد واقع فيها فجاء «بذكر ابتداء خلق الإنسان وضعف جبلته» ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ [النحل: ٤]. ثم أبلغه تعالى حدّاً يكون فيه الخصام والمحاجة، وأعقب هذا بذكر بعض ألطافه سبحانه في خلق الأنعام وما جعل فيها من المنافع المختلفة، وما هو سبحانه عليه من الرأفة والرحمة اللتين بهما آخر العقوبة عن مستوجبها، وهدى من لم يستحق الهداية بذاته بل كل هداية فبرأفة الخالق ورحمته، ثم أعقب ما ذكره بعد من خلق الخيل والبغال والحمير وما في ذلك كله بقوله ﴿وَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْنَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [النحل: ٩]. فبين أن كل الواقع من هداية وضلال خلقه وفعله وإنه وجد الكل من واحد وابتدأهم ابتداء واحداً ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ فلا بعد في اختلاف غاياتهم بعد ذلك^(١).

أي هي فذلّة لذلك الوعيد منحه أجواء السورة تأنيًا وسمتًا هادئًا أشاعته جملة: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾.

ولما تشابهت «الأحقاف» مع «الجاثية» نبه المطلع على ذلك التشابه وقرره بقوله: ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الأحقاف: ٣]. ثم شعب غرضاً خاصاً وفتح قناته بزيادة لفظة «الأجل» ذكر ذلك البقاعي في قوله: «ولما ثبت في «الجاثية» مضمون قوله تعالى في «الدخان»: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعَيْنٍ﴾ بها ذكر

فيها من الآيات والمنافع والحكم، أثبت هنا مضمون ما بعد ذلك بزيادة الأجل... ولما كان من المقاصد هنا الرد على المجوس وغيرهم ممن ثبت خلقاً لغير الله قال: ﴿وَمَا يَنْتَهُمَا﴾^(١).

أو تتكاثر آيات معينة تلح على مضمون كلي يكون مداراً لآياتها مع ندرة حضورها فيما سبقه من السور فيكون ذلك بمثابة منارة تهدي إلى القصد وتنبيه المخاطب وتحفزه لتتبع خصوصية تلك الآيات مثل ما جرى في سورة «الشورى» وتحديد مقصدها من تلاحق آيات أحكمت وصلها بمقاصد سورتي «غافر» و«السجدة»، يقول: «لما تضمنت سورة «غافر» ما تقدم من بيان حال المعاندين والجاحدين، وأعقبت سورة «السجدة» بياناً أن حال كفار العرب في ذلك كحال من تقدمهم، وإيضاحاً لآيات الكتاب العزيز وعظيم برهانه، ومع ذلك فلم يجد على من قضى عليه تعالى بالكفر، أتبع السورتان بما اشتملت عليه سورة «الشورى» من أن ذلك كله إنما جرى على ما سبق في علمه تعالى بحكم المشيئة الأزلية: ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧] ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ [الشورى: ٦]. ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [الشورى: ٨] ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾ [الشورى: ١٤] ﴿لَنَأْخُذَنَّكُمْ أَعْمَلُكُمْ﴾ [الشورى: ١٥] ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ الْفَصْلُ لَقَضَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٢١] ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: ٢٩] ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٣١] ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ﴾ [الشورى: ٤٦] ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ [الشورى: ٤٨] ﴿تَهْدِي بِهِ مِنْ نَشَاءٍ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢].

فتأمل هذه الآي وما التحم بها مما لم يجر في السورة المتقدمة منه إلا النادر ومحكم ما استجره وبناء هذه السورة على ذلك ومدار آيها - يلح لك وجه اتصالها بما قبلها واتحامها بما جاورها^(٢).

ولما كان غاية علماء المناسبات البحث في العناصر المؤثرة في تكوين مقصد السورة لم يقصروا النظر على الوشائج النازمة للسورتين المتعاقبتين كتشابه الافتتاح أو تعلق مطلع

(١) "نظم الدرر" ١١٥/٧.

(٢) "البرهان" الغرناطي ص ٢٩٨، ٢٩٩ يقصد بـ «السجدة» هنا سورة «فصلت».

السورة بمقطع ما قبلها، وإنما تتبعوا منابع المعاني في أصول السور البعيدة وما انساب منها في بيان تلك السورة وهذا يتطلب لطف وبصيرة في تصنيف المعاني أصولها وفروعها ورد كل فرع إلى أصله ثم القبض على نقطة التقاء الأصول عند معنى جامع يؤلف ما يختلف ويصيره بياناً متفقاً ومقصداً مكتملاً، هذا المعنى هو مناط نظرهم فيه تتبين منازل ورتب السور بعضها من بعض وسبب أن زادت تلك وأخرت الأخرى وتوسطت الثالثة، نحو موقع «الأنعام» فيما تقدمها من السور فهي «بأسرها متعلقة بـ» الفاتحة من وجه كونها شارحة لإجمال ﴿رَبِّ الْفَلَكَيْنِ﴾ وبـ«البقرة» من حيث كونها شرحاً لإجمال قوله: ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة: ٢١]. وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً﴾ [البقرة: ٢٩]. وبـ«آل عمران» من جهة تفصيلها لقوله: ﴿وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ﴾ [آل عمران: ١٤]. وقوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

وبـ«النساء» من جهة ما فيها من بدء الخلق والتفويض لما حرموه على أزواجهم، وقتل البنات بالوؤاد. وبـ«المائدة» من حيث اشتغالها على الأطعمة بأنواعها^(١).

فتتبع أغراض «الأنعام» في السور الخمس المتقدمة وجاذب نظائرها في تلك السورة ومدى صلتها بالمقصد الأم، فـ«البقرة» التقت معها في معنى أصل وهو ذكر الخلق وتضمن ذكر الخلق معنى الملك، ثم توزعت السور بعدها مضامين «البقرة» وانحدر إليها هذان الأصلان: فـ«آل عمران» جرى فيها أمر الخالق فذكر: ﴿وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ﴾ و«النساء» عاجلت خلق الإنسان وما يتعلق به و«المائدة» جاءت بما يتعلق بالطيبات من الأطعمة وغيرها. فلما تفرقت تلك الأصناف تطلبت مقصداً جامعاً يعانق بين أصلي الملك والخلق ويعيد تأليفها، فقصدت «الأنعام» ذلك وهياً لذلك وضعها بعد سورة «المائدة» لتضمنها قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرِمُوا طَبِيبَتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَسْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [المائدة: ٨٧]. وقوله: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٣]. وأخبر فيها عن

(١) «تناسق الدرر» السيوطي ص ٦٨، ٦٧.

تحريم الكفار لأشياء افترأ على الله للتشنيع عليهم ولتحذير المؤمنين أن يحرموا ما أحل الله ^(١) فـ «الإذن فيها.. مسبب عما ثبت له من الفلق والتفرد بالخلق، وتضمن باقي ذكرها إبطال ما اتخذوه من أمرها ديناً؛ لأنه لم يأذن فيه، ولا أذن لأحد معه؛ لأنه المتوحد بالإلهية، لا شريك له، وحصر المحرمات من المطاعم التي هي جلها في هذا الدين وغيره، فدل ذلك على إحاطة علمه» ^(٢).

لذلك لم يحسن تقديمها بعد «الفتحة» رغم أن جميع معانيها متحدرة من تحت لفظ «رب العالمين» وقدمت «البقرة» مع أن التبعيدات والأحكام متأخرة عن أمر الخالق لفائدة وأصل بياني من رعاية الأهم «بالإشارة إلى مصالح الدين والآخرة مقدمة على مصالح المعاش والدنيا، ولأن المقصود من الخلق إنما هو العبادة فقدم ما هو الأهم في نظر الشرع» ^(٣).

أو يتأخر ترتيبها عن الأصل الذي تفرعت عنه لتصعيد المعنى، فتمهد له السورة ثم تتلاحق السور بعدها تحمل شياته وأحواله فتضمنه إيجاء دون التصريح فتتنامى تلك الإيضاحات وتتصاعد من عمق التراكيب ليمتخض عنها مقصد تؤمه السورة، كما في معنى المبالغة في توبيخ المشركين وزجرهم الذي دارت عليه آي «القمر» ونموه من سورة «ص»، ذكر ذلك الغرناطي في قوله: «أعلمهم سبحانه بقرب ذلك وحسابه؛ ليزدجر من وفقه للزبدجار، فقال تعالى: ﴿أَقْرَبَ السَّاعَةُ وَأَنْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ [القمر: ١]. ثم إن سورة «ص» تضمنت من عناد المشركين وسوء حالهم وتوبيخهم في عبادتهم ما لا يضر ولا ينفع ما لا يكاد يوجد في غيرها مما تقدمها.

و انبنت السور بعد على تمهيد ما تضمنته سورة «ص» فلم تخل سورة منها من توبيخهم وتقريعهم، كقوله في «الزمر»: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا

(١) "تناسق الدرر" السيوطي ص ٦٦، ٦٧.

(٢) "نظم الدرر" البقاعي ٥٧٨/٢.

(٣) "تناسق الدرر" السيوطي ص ٦٦.

لِيَقْرَبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴿٣﴾ [الزمر: ٣]. وقوله في سورة «غافر»: ﴿مَا يَجْدِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْزِرُكَ ثَقَلُهمْ فِي الْإِلَادِ﴾ [غافر: ٤].... إلى ما تخلل هذه الآي، كقوله: ﴿فَاعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [فصلت: ٤]. وقوله في «الشورى»: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيفٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ [الشورى: ٦]. إلى ما تردد في هذه السورة مما قرعوا به أشد التقريع، وتكرر في آيات كثيرة فتأملها، وقوله في «الدخان»: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾ إلى قوله: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْقِمُونَ﴾ [الدخان: ٩-١٦]. وقوله في «الشريعة»: ﴿فَإِنِّي حَدِيثٌ بَعْدَ اللَّهِ وَأَيْنِيهِ يُؤْمِنُونَ﴾ إلى قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَائِبَتِ رَبِّهِمْ هُمْ عَذَابٌ مِّن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾ [الحج: ٦-١١]. وقوله في «الأحقاف»: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُذِرُوا مُعْرِضُونَ﴾ [الأحقاف: ٣]. ومعظم آي هذه السورة لم يخرج عن هذا إلى خاتمها...

وكذا سورة «الحجرات» لتضمنه من الأمر بتعزيز النبي ﷺ وإجلاله ما يقر عين المؤمن ويقتل العدو الحاسد، وما فيها أيضًا من ائتلاف أمر المؤمنين وجمع كلمتهم وتآخيهم وموقع هذا من العدو بحيث لا يخفى على أحد، وأما سورة «الذاريات»، و«الطور»، و«النجم»، فما تضمنته مما ذكرناه قبل أوضح شيء، وبذلك افتتحت كل سورة منها، فتأمل مطالعها، ففي ذلك كفاية في الغرض، فلما انتهى ما قصد من تقريع مكذبي رسول الله ﷺ وبلغت الآي في هذه السور من ذلك أقصى غاية وتمحض باطلهم وانقطع دابرهم ولم يجدوا جوابًا، عرض عليهم سبحانه في سورة «القمر» أحوال الأمم مع أنبيائهم وكان القصد (من ذلك) - والله أعلم - مجرد التعريف بأنهم ذكروا فكذبوا فأخذوا ليتبين هؤلاء ألا فرق بينهم وبين غيرهم وألا يغرم عظيم حلمه سبحانه عنهم، فهذه السورة إغذار عند تبكيتهم وانقطاع حجتهم بما تقدم، وبعد أن انتهى الأمر في وعظهم وتنبيههم بكل آية إلى غاية يعجز عنها البشر، لهذا افتتح سبحانه هذه السورة بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ * حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ الْأُنذُرُ﴾. وختمها بقوله: ﴿أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَئِكَ أَمْ لَهُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾ وهذا ما قدمناه وكان قد قيل: أي فرق بينكم وبين من تقدم حتى تركبوا

مرتكبهم وتظنون أنكم ستفوزون بعظيم جراتكم، فذكر سبحانه لهم قصة كل أمة وهلاكها عند تكذيبها بأعظم إيجاز، وأجزل إيراد، وأفحم عبارة، وألطف إشارة^(١).

وهنا يوظف الغرناطي مسلك الاقتصار ليكشف عن مغزى السورة من خلال انعكاسات المعنى في مواقع متفرقة، وحقيقة هذا المسلك «أن يكون الكلام في سورة مقروناً بلام الذكر، فيقتصر العالم ذلك من كلام آخر ما في تلك السورة وأول ما في سورة أخرى»^(٢).

فاللام في قوله: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُرْدَجَرٌ﴾ لفت سياقات متباعدة ونسجتها في نسج السورة فداخلت أغراضها وانغلت في تراكيبها وجعلتها جزءاً من بنائها حتى أصبح تحديد المقصد في غياب تلك المواقع لا ينهض بدلالة كاملة.

فلام الذكر ولا مذكور سابق في التراكيب حفز الذهن للخروج إلى دائرة منفصلة وسياقات خارجة باقتصاص آثار المعنى في السورة السابقة ورحلته في قلب الأبنية الممتدة؛ ليمد الإجمال ويحركه نحو التفصيل المنتج للسياق الخاص لسورة «القمر» فتعدت الدلالة أسوار السورة؛ لتعانق نظائرها في الكتاب؛ لتثير نصوصاً متعددة ذابت في بنائها واختلطت بأغراضها فانبعثت فيها إشعاعات لمقاصد أخرى أشرقت بها تقلبات المعنى ومراحلته في السياقات السابقة من بدء كونه إبلاغاً متلطفاً مرغباً إلى إنذار مرهب إلى مرحلة التقريع حتى انتهت إلى التبكيت وقطع الحجة. فمعنى التبكيت لا يأتي مجرداً عن تلك المقدمات، وتفسير قوله: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُرْدَجَرٌ﴾ [القمر: ٤] على أنها تقريع إجهاض للدلالة وإخلال بمقاصد المتكلم من حيث أبان؛ لأن وضع اللام ولا عائد هو تأسيس لمعنى مطوي رفعت عليه دعائم السورة.

وقد تقدم السورة؛ لأنها مكتملة لما قبلها ثم تعلق السورة بعدها بالسورة الأم وتبنى عليها، كما في سورة «تبارك» ناسب مطلعها مقطع «التحريم» وتعلقت مضامينها بسورة

(١) «البرهان» ص ٢١٩-٢٢٢.

(٢) «تيسير البيان» ١/ ١٥٨.

«الطلاق» فجاءت موصولة بقوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِيعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢]. فزاد ذلك بسطاً في هذه بقوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَطَبَقًا مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوُّتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ﴾ [الملك: ٣-٥]. «وإنما فصلت بسورة «التحريم»؛ لأنها كالقطعة من سورة «الطلاق» والتممة لها»^(١).

وسورة «مريم» أصل تفرعت عنه «طه» و«الأنبياء» ومكن لموقعها قوله: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ يُحِشُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ [مريم: ٩٨].

ف «استدعت هذه الجملة بسط حال فابتدئت بتأنيسه ﷺ وتسليته حتى لا يشق عليه لددهم، فتضمنت سورة «طه» من هذا الغرض بشارته بقوله: ﴿مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ [طه: ٢]. وتأنيسه بقصة موسى ﷺ وما كان من حال بني إسرائيل وانتهاء أمر فرعون ومكابدة موسى ﷺ لدد فرعون ومرتكبه إلى أن وقصه الله وأهلكه وأورث عباده أرضهم وديارهم ثم أتبع بقصة آدم ﷺ؛ ليرى نبيه ﷺ سنه في عباده حتى أن آدم ﷺ وإن لم يكن امتحانه بذريته ولا مكابدته من أبناء جنسه فقد كابد من إبليس ما قصه الله في كتابه، وكل هذا تأنيس للنبي ﷺ فإنه إذا تقرر لديه أنها سنة الله تعالى في عباده هان عليه لدد قريش ومكابدتهم ثم ابتدأت سورة «الأنبياء» ببقية هذا التأنيس فينبى اقتراب الحساب ووقع يوم الفصل المحمود فيه ثمرة ما كابد في ذات الله والمتمنى فيه أن لو كان ذلك أكثر والمشقة أصعب لجليل الثمرة وجليل الجزاء، ثم أتبع سبحانه ذلك بعظات ودلائل ويسط آيات، وأعلم أنه سبحانه قد سبقت سنته فأهلك من لم يكن منه الإيمان من متقدمي القرون وسالفي الأمم ﴿مَاءَ أَمْنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرِيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾ [الأنبياء: ٦٠]. وفي قوله: ﴿أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ تعزية لرسول الله ﷺ في أمر قريش ومن قبيل ما الكلام بسبيله»^(٢).

(١) «تناسق الدرر» السيوطي ص ١٤١.

(٢) «البرهان» الغرناطي ص ٢٥٤، ٢٥٥.

فالآية سكنت فيها دلالات متزاحمة ما بين الإنذار والتأنيس فتحلقت السورتان حولها لتغذيتهما وبسط لوازمها ومقتضياتها فأنسل من أغراضها البشارة له ﷺ الذي تضمنته سورة «طه» مع تأنيسه بالقصص لتقرير أنها سنة الله في عباده، فإذا علم ذلك هان عليه إعراض قومه وشقاقهم فلما تم ذلك الغرض حارت سورة «الأنبياء» على أصل الكلام لتزيد جهة أخرى في التأنيس فأسس لمعنى آخر بذكر مكابדתه ﷺ فانساق الكلام لبيان يوم الحساب وانجر إلى العظات والدلائل ثم تشبي الكلام وتعطف عليه منبعه فأعاد المعنى بقوله: ﴿مَاءَ أَمْنَتِ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرِيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾. فعانق بين الفرع وأصله وطوى بذلك الأغراض المختلفة داخل السورتين وجمعها في عنق الآية وهذا أشبه بما يحدثه رد الأعجاز على الصدور في أحكام التناسك بين الشطرين.

وقد تقع السورة موقع الجملة المعترضة بين متصلين كما هو حال سورة «الحشر» وتوسطها بين غرض واحد توزعته سورة «المجادلة» و«المتحنة»، فسورة «المتحنة»: «افتتحت بوصية المؤمنين على ترك موالة أعدائهم ونبيهم عن ذلك، وأمرهم بالتبري منهم وهو المعنى الوارد في قوله خاتمة «المجادلة»: ﴿لَا يَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢]. وقد حصل منها أن أسنى أحوال أهل الإيمان، وأعلى مناصبهم ﴿أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ﴾ فوصى عباده في افتتاح «المتحنة» بالتنزه عن موالة الأعداء ووعظهم بقصة إبراهيم والذين معه في تبرئهم من قومهم ومعاداتهم والاتصال في هذا بين، وكان سورة «الحشر» وردت مورد الاعتراض المقصود بها تمهيد الكلام وتنبيه السامع على ما به تمام الفائدة لما ذكر أن شأن المؤمنين أنهم لا يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا أقرب الناس إليهم، اعترض بتنزيهه عن مرتكباتهم، ثم أتبع ذلك ما عجله لهم من النعمة والنكال، ثم عاد الأمر إلى النهي عن موالة الأعداء جملة»^(١).

(١) «البرهان» الفرناطي ص ٣٣٣.

فـ«المتحنة» وإن رجعت غرض «المجادلة» إلا أن تنزيلها بعد «الحشر» هياً المعنى بهيئة أخرى وزاد فيه فائدة ماكانت لولا ذلك التوسط الذي جاء بتنزيه الله عن اعتدائهم وعصيانهم ونقمته عليهم، فلما كانت التبرئة تتعلق بأولي القربى والنفوس تجدد مشقة في ذلك مهد للأمر بذكر ما من شأنه إزالة هذه المشقة بذكر أفعالهم وعصيانهم حتى إذا استبشعته النفوس واستقبحته مكن لصريح الأمر.

وتأمل حال المعنى قبل مجيء سورة «الحشر» وصورته بعد التحامه به، وكيف جسرت لانتقال المعنى من الخبر والوصية إلى الإلزام والتأكيد، وكذلك يكون حال الجمل الاعتراضية «تشبه في الكلام الثمرة الكريمة التي تسقط فور نضجها لا تبالي في أي موقع سقطت، ولو أن المتكلم هياً لها مكاناً غير الاعتراض لما التفت السامع إليها إلا بقدر ما يلتفت لغيرها من الجمل»^(١).

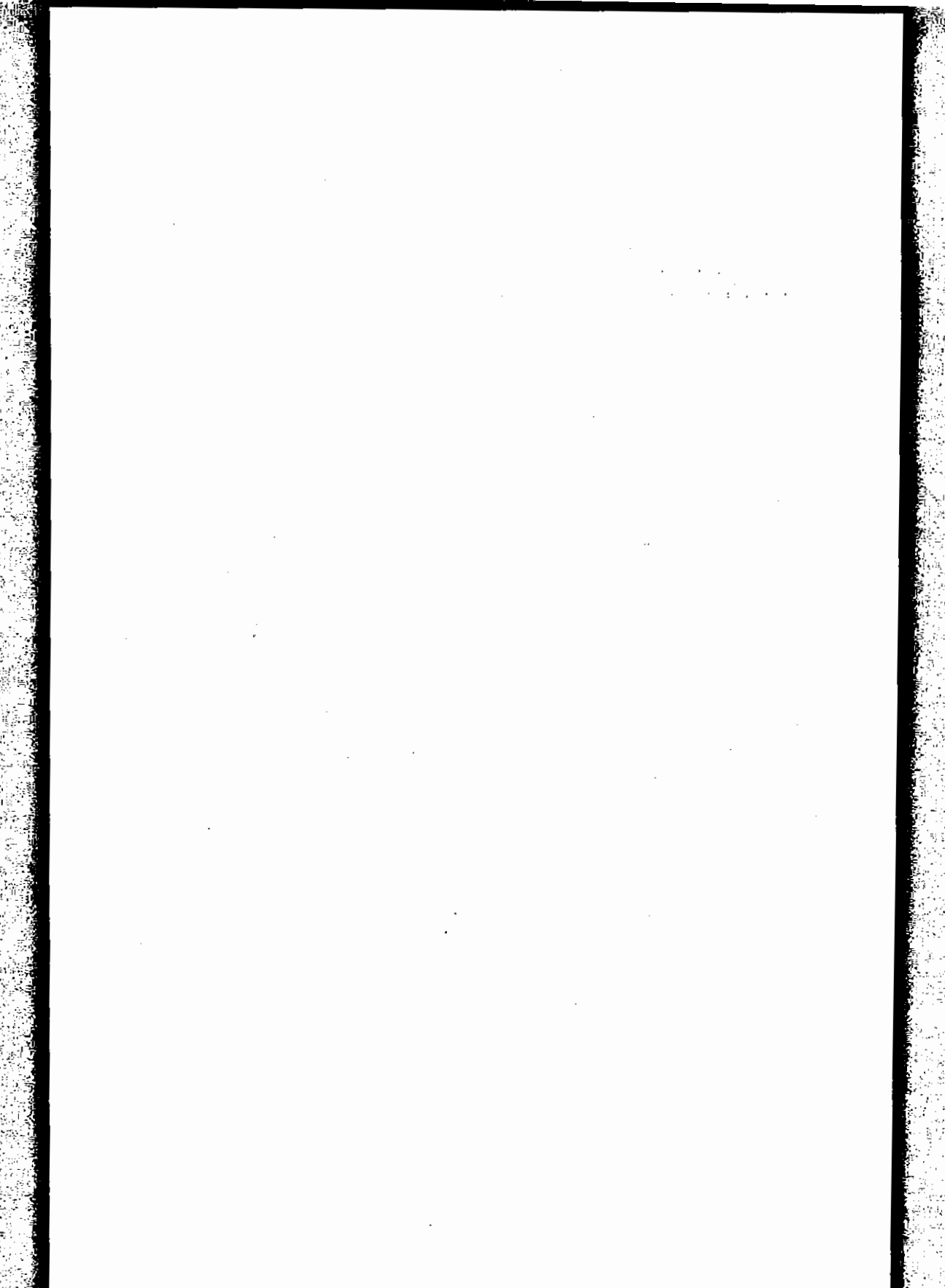


(١) «المراجعات» دكتور محمد أبو موسى ص ١٢٧ .

الفصل الثاني

التناسب بين

السور المتشابهة المطالع



الفصل الثاني

التناسب بين السور المتشابهة المطالع

أبان الفصل السابق عن التحام الكلام من خلال ما يحدثه الترتيب والتوالي بين السور من فوائد قياساً على الترتيب بين الجمل والأغراض داخل السورة، فما دام الترتيب في بنية السورة تنتج عنه فوائد وتنبهات ويحكم تماسك الكلام، فكذلك بين السور المتوالية تلتحم به المقاصد وتتكامل فتأتي السورة بناء على ما قبلها تبعث أغراضها من بقايا معاني اندست في بيان سابقتها فتنسل في بيان ما بعدها.

وهذا الفصل يتجاوز حدود الوحدة المتولدة من التجاور والتوالي إلى تلاحظ السورة مع السور المشابهة لها، وذلك من خلال إعادة عناصر من السورة السابقة وغرسها في لحمه بيان تلك، ووقف علماء المناسبات عند المطالع المتشابهة التي تتنازعها عدة سور وشأنها في وحدة الكلام وجمع أطرافه، وكان اختيار المطالع؛ لأنها أبرز المكونات التي تشكل مقاصد السورة وأغراضها. فتكرار عناصرها في افتتاح سورة أخرى مهمي لوصلها وترتيبها على السورة المتقدمة، فتجاذبها بالتأكيد لتشابهها معها، وتستقل بزوائد تؤسس بها لمعاني مستقلة عنها. فالتشابه ضابط لحركة مقاصد تلك السورة في الأخرى ومدى تدخلها في بنائها بمقدار ما أعيد فيها من عناصر.

وهو نوع من الروابط عمله يتجاوز حدود السورة مع الجهات المحيطة بها للتنقيب والتفتيش عما وراء المعالم المتشابهة من إيماءات وفوائد. وهذا مسلك من مسالك العربية في الإبانة نجده في الشعر يحتال به المتكلم لإدخال سياقات أخرى في كلامه؛ ليشابك بين نصوصه ويفرع بعضها من بعض، وفق ضوابط مقننة من قبل المتكلم يثبت فيها العناصر بنسب مقدرة تناسب السياق الآخر ويطوي ما لا يتلاءم معه؛ مما يجعل طرح هذا المسلك من الترتيب في معالجة البيان وتحليله يخل بمقاصد المتكلم وما تجشمه من خصوصيات؛ ليحدث

بها دمج السياقات والمقاربة بينها. ويصبح معه الوعي بالنص منفرداً غير كافٍ للإحاطة بحقائقه في غياب السياق الأم، وإنما تظل الحاجة بالغة لاستدعاء التشابه وضمه إليه.

قد لفت الإمام إلى أن التشابه بين المطالع ليس من التكرار بل هو ضرب من التصرفات يقصد إليه المتكلم، ويخضع لاعتبارات من الاختيار والترتيب للإبانة عن أحوال وأغراض لا تتأني إلا بالتشابه ولا يصل الدارس إلى ما تحتها إلا ببعث ما وراء الائتلاف من اختلاف وإن جاءت صورته صورة الإعادة والتكرار. وذلك من خلال تحليله لفائدة التشابه بين مطالع خمس سور من القرآن وهي: «الفاتحة» في قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]. و«الأنعام» في قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١]. و«الكهف» في قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا﴾ [الكهف: ١]. و«سبأ» في قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [سبأ: ١]. و«فاطر» في قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَكِ رُسُلًا أُولَئِكَ أَجْنَحٌ مِثْنَى وَثُلُثٌ وَرُبُّعٌ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فاطر: ١]. ذكر «أن الحمد يكون على النعمة في أكثر الأمر، ونعم الله قسيان: عاجلة وآجلة، والعاجلة وجود وبقاء، والآجلة كذلك إيجاد مرة وإبقاء أخرى، وقوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ إشارة إلى النعمة العاجلة التي هي الإيجاد، واستدلنا عليه بقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا﴾ [الأنعام: ٢]. وقوله في «الكهف»: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ إشارة إلى النعمة العاجلة التي هي الإبقاء فإن البقاء والصلاح بالشرع والكتاب، ولولاه لوقعت المنازعة والمخاصمة بين الناس ولا يفصل بينهم، فكان يفضي ذلك إلى التقاتل والتفاني، فإنزال الكتاب نعمة يتعلق بها البقاء العاجل، وفي قوله في سورة «سبأ»: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ﴾ إشارة إلى نعمة الإيجاد الثاني بالخش، واستدلنا عليه بقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ﴾ من الأجسام ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ من الأرواح

﴿وَمَا يَعْزِجُ فِيهَا﴾ [سبأ: ٢]. وقوله عن الكافرين: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي﴾ [سبأ: ٣]. وههنا الحمد إشارة إلى نعمة البقاء في الآخرة، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿جَاعِلِ الْمَلَكِ رُسُلًا﴾ أي يجعلهم رسلًا يتلقون عباد الله، كما قال تعالى: ﴿وَنُنَلِّقُهُمُ الْمَلَكُ﴾ [الأنبياء: ١٠٣]. وعلى هذا، فقوله تعالى: ﴿فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يحتمل وجهين، الأول: معناه مبدعها كما نقل عن ابن عباس، والثاني: ﴿فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي شاقهما لنزول الأرواح من السماء وخروج الأجساد من الأرض، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿جَاعِلِ الْمَلَكِ رُسُلًا﴾ فإن في ذلك اليوم تكون الملائكة رسلًا، وعلى هذا فأول هذه السورة متصل بآخر ما مضى؛ لأن قوله: ﴿كَمَا فَعَلَ بِأَشْيَاءِهِمْ﴾ [سبأ: ٥٤] بيان لانقطاع رجاء من كان في شك مريب وتيقنه بالأ قبول لتوبته ولا فائدة لقوله: آمنت. كما قال تعالى عنهم: ﴿وَقَالُوا ءَامَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاطُشُ﴾ [سبأ: ٥٢]. فلما ذكر حالهم بين حال الموقن وبشره بإرسال الملائكة إليهم مبشرين، وبين أنه يفتح لهم أبواب الرحمة^(١).

فحضور ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ وتكراره بعد تصديره لفاتحة الكتاب أحال إلى ذلك الموقع، وحرك النفس وبعثها على اقتصاص الأصل الجامع واستكشاف موضع الالتقاء بين السور الخمس التي تجتمع في كلمة ثم تتوزع في مواقع متباعدة، فالحمد لما اقترن وجوده ابتداء بالنعم لزم عنه أن يكون ما بعدها داخل في ذلك المعنى ومتفرع عنه، وصف هذا في قوله عن الكلمة الأم في سورة «الفاحة»: «هذه السورة مسماة بأمر القرآن فوجب كونها كالأصل والمعدن، وأن يكون غيرها كالجدول المتشعبة منه، فقوله: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ تنبيه على أن كل موجود سواه فإنه دليل على إلهيته. ثم إنه تعالى افتتح سورًا أربعة بعد هذه السورة بقوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾... وهذه أسرار عجيبة ولطائف عالية إلا أنها بأسرها تجري مجرى الأنواع الداخلة تحت البحر الأعظم المذكور في قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. فهذا هو التنبيه على أن قوله: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ يجري مجرى ذكر الدليل على وجود الإله القديم^(٢).

(١) "التفسير" ٢٢١/٩.

(٢) "التفسير" ١٦٢/١.

فكان ملازمة «الحمد» واقتراها ابتداء مع لفظة «رب العالمين» استلزم حضور ذلك المعنى معها ومصاحبتها لها في تحولاتها وتقلباتها في مختلف السياقات، وقد وجد أن تحت كل قيد من القيود المتنوعة التي أضيف إليها «الحمد» في تلك السور عنصر من عناصرها وجزء من أجزائها، فكانت كلمة «رب العالمين» أصلاً وجه تلك القيود وشق جدواؤها وشعبها من نبعها، فتلك الكلمة أحاطت في مبناها بجميع أنواع النعم العاجلة والآجلة وطوت أقسام كلا النوعين من حيث الوجود والإبقاء فلما نشرتها السور وفصلتها انسلت منها على نفس النظام والترتيب في وضع الكلمة الأم، فقدم النعم العاجلة وبدأ بما كان منها بغير واسطة ممثلة في نعمة الإيجاد والتربية في سورة «الأنعام» ثم عقبها بنعمة الإبقاء وهي ما كانت حاصلة بواسطة الرسل وذلك بإنزال الكتاب والشرائع التي بها صلاح أحوال الناس ومعاشهم. فلما تم ذلك القسم بنى عليه قسيمه المقابل ونسقه على منهاجه في الترتيب فقدم نعمة الإيجاد في الآجلة وتلاها بنعمة الإبقاء في الآخرة.

ورعاية الخذو في تنظيم الكلام وتنسيقه على نسق ما قبله نبه على القصد في توزيع التشابهات وحفز الذهن لتصنيفها وضم بعضها إلى بعض واستثارة ما وراءها من أسرار تتعلق بمقاصد السور وتحدّر بها إلى أصل متفق. فقارب الخذو بين السياقات المتباعدة وجمع بينها في ربة. وزاد في المعانقة بين الكلامين عطف الفرع الأول من القسم الثاني ورده على الفرع الأول من القسم الأول بإعادته ومداخلته به للبناء عليه، فقال في «سبأ»: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾؛ لأن «نعم الآخرة غير مرئية فذكر الله النعم المرئية وهي ما في السماوات وما في الأرض، ثم قال: ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ﴾ ليقاس نعم الآخرة بنعم الدنيا ويعلم فضلها بدوامها وفناء العاجلة، ولهذا قال: ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ إشارة إلى أن خلق هذه الأشياء بالحكمة والخبر، والحكمة صفة ثابتة لا يمكن زوالها فيمكن منه إيجاد أمثال هذه مرة أخرى في الآخرة»^(١).

ويزاد على ما ذكره الإمام في تناسب السور وتنسيقها أنه لما أُنشئ في تفریع النعمة العاجلة ما يكون منها بواسطة راعي ذلك في القسم الثاني، فجاءت نعمة البقاء في الآخرة بشرى من الملائكة لمن آمن بها أعد لهم في الآخرة من رحمة.

فالتكلم سبحانه بهذا التشابه يدل على السياقات المتفقة في كلامه ويقارب بينهما ويجعلها نسقاً واحداً تدرج فيه أحوال المعنى حتى يصل إلى التكامل ويصير معه تحليل السورة منفردة مثل الوقوف عند الكلمة من النظم تؤدي مقصداً مجرداً دون بيان الخصوصية؛ لذلك حينما وجه الإمام العلاقة بين المطالع ابتداء ذكر تناسبها في المعنى المجرد حيث قال «فيين في أول سورة «الأنعام» أن السماوات والأرض له، ويين في أول سورة «سبا» أن الأشياء الحاصلة في السماوات والأرض له، وهذا أيضاً قسم من الأقسام الداخلة تحت قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْفَلَكِ وَالْأَرْضِ وَالْأَنْعَامِ وَالْأَنْسَامِ﴾^(١) فلما تتبع مراتب المعاني وترتيبها لاحت له الخصوصية؛ لأن جمع عناصر الكلام واقتنائها ورد آخرها على أولها يحدث زيادات في أصولها وينمي معانيها وذلك نحو الفائدة التي يؤديها الترتيب في الجمل المتقابلة «فيعطي أول الكلام ما يليق به أولاً، وآخره ما يليق به آخرًا»^(٢) وفق نسب تقتضي تعلق أحدهما بالآخر ينتج من مجموعها حكم كلي هو صورة وهيئة للمعنى الذي أراده المتكلم والذي من أجله أورد العبارة هذا الإيراد ورتبها على هذا الترتيب.

وقد نتج من ترتيبها على هذا الخصوص معنى كلي هو انعكاس ضمني لما صرح به في الجملة الأم «الحمد لله رب العالمين» فالتقت حلقتا الكلام واجتمعت أجزاءه عند النبع الأول الذي تحدرت جداولها من تحت بيانه، يقول في هذا المعنى: «فظهر أن الكلام الكلي التام هو التحميد المذكور في أول الفاتحة... أما التحميدات المذكورة في أوائل السور فكان كل واحد قسم من أقسام ذلك التحميد ونوع من أنواعه»^(٣).

(١) "التفسير" ١/ ١٦٢.

(٢) "العمدة" ابن رشيقي ١٥/ ٢.

(٣) "التفسير" ٤/ ٤٧٤.

وأخذ عنه السعد وجه التناسب بين هذه التحميدات في السور الأربع وتعليقها بـ«الفاتحة»، إلا أنه وزع المطالع على آيات «الفاتحة» وقابلها بها على الترتيب، نقل هذا الرأي البقاعي في قوله: «وقد أشير في «أم الكتاب» - كما قال العلامة سعد الدين مسعود الفتازاني الشافعي - إلى جميع النعم فإنها ترجع إلى إيجاد وإبقاء أولاً وإلى إيجاد وإبقاء ثانياً في دار الفناء، أما الإيجاد الأول فبقوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فإن الإخراج من العدم إلى الوجود أعظم تربية، وأما الإبقاء الأول فبقوله: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ أي المنعم بجلال النعم ودقائقها التي بها البقاء، وأما الإيجاد الثاني فبقوله: ﴿مَلِكٌ يَوْمَ الدِّينِ﴾ وهو ظاهر، وأما الإبقاء الثاني فبقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ إلى آخرها، فإن منافع ذلك تعود إلى الآخرة.

ثم جاء التصدير بالحمد بعد «الفاتحة» في أربع سور أشير في كل سورة منها إلى نعمة من هذه النعم على ترتيبها^(١).

واستحسن مذهب الرازي في رد الإبانة في تحميدات تلك السور إلى كلمة «رب العالمين» فتسميتها بالبحر الأعظم تصوير لحركة المعاني وتدافعها وازدحامها تحت لجة بيانها واختلاط بعضها ببعض وتشابكها في المضافين، فتكررت الحمد كقناة تفتح مجرى لتدفق تلك المعاني من تحتها، وتشق جداولها وتوزع مجملاتها وقد فصل الإمام إجمالها بقوله: «فهذا يقتضي كونه رباً للعالمين، وإهاً للسموات والأرض ومدبراً لكل الخلائق أجمعين، ولما تقرر هذا المعنى ظهر أن الموجود الذي يخلق هذه العوالم على عظمتها... لا بد وأن يكون قادراً على إهلاكها، ولا بد أن يكون غنياً عنها، وحينئذ يقع في قلب العبد أي مع نهاية ذلتي وحقارتي كيف يمكنني أن أتقرب إليه، وبأي طريق أتوسل إليه، فعند هذا ذكر ما يجري مجرى العلاج الموافق لهذا المرض^(٢)».

(١) "نظم الدرر" ٢٠ / ١.

(٢) "التفسير" ١٦٥ / ١.

فهذا التداخل يصعب معه تعليق افتتاح «الأنعام» بقوله: ﴿تَبِ الْأَعْمِيَّتُ﴾ ؛ لأنها لم تنجرد للنعم العاجلة، وكذلك ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِيْثُ﴾ معنى صريح في بيان طريق العبودية الذي هو نعمة البقاء في الدار الأخرى فليس ثمة مناسبة بينه وبين مطلع «فاطر».

وسورتا «لقمان» و«السجدة» تجاذبان سياق «البقرة» باستدعاء عناصر المطلع وتصديرها لمقاصدهما للتنبيه على تداخلها والتقائهما معها بمقدار تلك العناصر المستدعاة فتتبع الإمام ما تكرر وما أضيف من مكونات جديدة شقت مجرى لمقاصد وأغراض كل سورة ويظهر بجلاء في تحليله لافتتاح «لقمان» في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ * ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [لقمان: ١-٥]. ومقابلة كل عنصر من عناصره بمطلع «البقرة»، حيث قال: «قال في سورة «البقرة»: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ ولم يقل الحكيم، وههنا قال «الحكيم» فلما زاد ذكر وصف الكتاب زاد ذكر أمر في أحواله فقال: ﴿وَهْدًى وَرَحْمَةً﴾ وقال هناك ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ فقوله: ﴿هُدًى﴾ في مقابلة قوله: ﴿الْكِتَابُ﴾ وقوله: ﴿وَرَحْمَةً﴾ في مقابلة قوله: ﴿الْحَكِيمُ﴾ ووصف الكتاب بالحكيم على معنى ذي الحكم كقوله تعالى: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ [القارعة: ٧]. أي ذات رضا.

قال هناك: ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ وقال ههنا: ﴿لِّلْمُحْسِنِينَ﴾ لأنه لما ذكر أنه هدى ولم يذكر شيئاً آخر قال: ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أي يهتدي به من يتقي الشرك والعناد والتعصب، وينظر فيه من غير عناد، ولما زاد ههنا: ﴿وَرَحْمَةً﴾ قال: ﴿لِّلْمُحْسِنِينَ﴾ أي المتقين الشرك والعناد الآتين بكلمة الإحسان، فالمحسن هو الآتي بالإيمان، والمتقي هو التارك للكفر، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٨] ومن جانب الكفر كان متقياً وله الجنة، ومن أتى بحقيقة الإيمان كان محسناً وله الزيادة، لقوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]. ولأنه لما ذكر أنه رحمة قال: ﴿لِّلْمُحْسِنِينَ﴾ لأن رحمة الله قريب من المحسنين.

قال هناك: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ [البقرة: ٣]. وقال ههنا: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾. ولم يقل: يؤمنون لما بينا أن المتقي هو التارك للكفر ويلزمه أن يكون مؤمناً، والمحسن هو الآتي بحق الإيمان ويلزمه ألا يكون كافراً، فلما كان المتقي دالاً على المؤمن في الالتزام صرح بالإيمان هناك تبييناً، ولما كان المحسن دالاً على الإيمان بالتنصيص لم يصرح بالإيمان^(١).

فنه على التشابه في كونها يتعلقان بوصف الكتاب ثم حرك العبارة نحو الاختلاف بمواقع الزيادة، فقوله: ﴿الْحَكِيمُ﴾ زيادة انسحب أثرها على ما بعدها فتابعت نسقاً متداخلاً من الكلمة الجذر، فتبدل منهاج العبارة يزيد فيها ما تقتضيه تلك الكلمة ويحذف منها ما لا يتناسب معها ولا تستدعيه ويستغنى عنه ويطوي تحقيقاً لغرضها، فلفظ «الحكيم» اقتضى تعقيب قوله: ﴿هُدًى﴾ وأردفه بوصف آخر يلائم «الحكيم» ويشيع أصداءه في العبارة فقال: ﴿وَرَحْمَةً﴾، واستلزم مجموع الإضافة تنمية وصف المتقين إلى رتبة أعلى فقال: ﴿لِلْمُحْسِنِينَ﴾. والتقى هو ترك الكفر، أما الإحسان فمعناه الإتيان بحق الإيمان ولا يأتي إلا من المؤمن، فنه ذلك على حال فئة خاصة مع الآيات، ولما كانت الآيات لمن آمن ناسبه طي ذكر الإيمان بالغيب والاستغناء عنه ظاهراً؛ لأن وصف الإحسان صريح في الإيمان متضمن للإيمان بالغيب وزيادة. بينما صرح به في «البقرة» بعد وصف المتقين وقدم على سائر الأوصاف وتصديرها للعناية والاهتمام، فقال: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُقِفُونَ﴾ [البقرة: ٣]. لأن أول درجات التقى ترك الكفر والإيمان بالغيب فناسبه التصريح به، ولما كان الإحسان نهاية طرح أحوال الابتداء فأسقط الإيمان بالغيب وأكد بقوله: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [لقمان: ٤]. وانجر الحذف إلى كل ما يتعلق به فأسقط وصف ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ٤]. لأنها تفرع على تلك الجملة وهذا غاية في إحكام البناء على المعنى ومجاذبته من سياقه البعيد

وتوجيهه نحو التخصيص غير المنقطع عن الأصل، وإنما تظل الدلالة تلاحظ جذورها في ذلك السياق وترتد إليها وتلتقي عند عمومها ثم تشق مجرى للمعنى الخاص المتولد من تحويرات العبارة فلفظ «الحكيم» خلص مقصد سورة «لقمان» من كل ما يتعلق بذكر أهل الكتاب وجردها لتفصيل خيرية أمة محمد ﷺ، وأفاد الإمام معنى الخصوصية من تفسير ابن عباس لقوله: ﴿هُدًى وَرَحْمَةً﴾ أي: «بيان من الضلالة ورحمة من العذاب للموحدين من أمة محمد ﷺ»^(١). فبذ هذه الزيادات في العبارة المتحدرة من مطلع البقرة تنبيه على أنها بناء وتفرع عليها، فاستحضرت بالتشابه أصل تلك السورة؛ لأن المطلع من كل سورة صفة مقاصدها وجذر بيانها، فلما كرر العبارة تحدت بعض المقاصد إلى سورة «لقمان» وكادت تنزع بها إلى الأصل لولا الخصوصية التي أحدثتها الزيادات فغذت بيانها وأسست لمقاصد وسيق خاص يتناسب معها، فكانت آية «البقرة بداية، وهذه نهاية»^(٢).

فلفظ «الحكيم» وإن كان وصفًا خاصًا غير مسار السورة وأسس لأغراضها إلا أنه داخل في جملة ﴿لَارْتَبَ فِيهِ﴾ وملتف في بيانها فقد ذكر الإمام في تفسيرها أن «المراد منها نفي كونه مظنة للريب بوجه من الوجوه والمقصود أنه لا شبهة في صحته، ولا في كونه من عند الله، ولا في كونه معجزًا»^(٣).

فكان سورة «لقمان» تفصيل لجانب آخر من نفي الريب عن الكتاب وهو تقرير كونه معجزًا وهياً لذلك ترتيب السورة وتنزيلها بعد سورة «الروم» ف «لما قال: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ [الروم: ٥٨]. إشارة إلى كونه معجزة، وقال: ﴿وَلَيْنَ جَنَّتْهُمْ بِثَابِتٍ﴾ إشارة إلى أنهم يكفرون بالآيات - بين ذلك بقوله: ﴿اللَّهُ * تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ [لقمان: ٢١، ٢٢]^(٤).

(١) "الوسيط" الراحي ٤٤٠/٣.

(٢) "نظم الدرر" البقاعي ٥/٦٥.

(٣) "التفسير" ٢٦٥/١.

(٤) "التفسير" ١١٤/٩.

وجاءت عقبيها سورة «السجدة» لنفي حالة أخرى من أحوال الريب وهو نفي ما ذكره المشركون من كونه افتراء من عند الرسول ﷺ بإثبات منزله ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَأَرِيَبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [السجدة: ٢]. وأعادها بلفظها هنا لاشتراكهما في الخطاب.

فتحلقت السورتان والتفتا على مركز الدلالة وأصلها، فتلاقتا في ﴿لَأَرِيَبَ فِيهِ﴾ ثم انشقت عن فرع آخر يناسب وصفها بعد «لقمان» وهو: «لما ذكر الله تعالى في السورة المتقدمة دليل الوحدانية وذكر الأصل وهو الحشر وختم السورة بهما بدأ ببيان الرسالة في هذه السورة فقال: ﴿الْمَ﴾ ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَأَرِيَبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [السجدة: ٢٠١]. وقد علم ما في قوله: ﴿الْمَ﴾ وفي قوله: ﴿لَأَرِيَبَ فِيهِ﴾ من سورة «البقرة» وغيرها غير أن ههنا قال: ﴿مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وقال من قبل: ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ﴾ [لقمان: ٣] وقال في «البقرة»: ﴿هُدًى لِّلشَّاقِينَ﴾. وذلك لأن من يرى كتاباً عند غره فأول ما تصير النفس طالبة تطلب ما في الكتاب فتقول: ما هذا الكتاب؟ فإذا قيل: هذا فقه أو تفسير. فتقول بعد ذلك: تصنيف من هو؟ ولا يقال أولاً: هذا الكتاب تصنيف من؟ ثم تقول في ماذا هو؟ فإذا علم هذا فقال أولاً: هذا الكتاب هدى ورحمة، ثم قال ههنا: هو كتاب الله تعالى وذكره بلفظ «رب العالمين» لأن كتاب من يكون رب العالمين يكون فيه عجائب العالمين فتدعو النفس إلى مطالعته^(١).

فقوله: ﴿مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قيد حول مسار العموم إلى غرض محدد أخذت الآيات داخل السورة بحجزته وعاضدت دلالاته. وبهذا يحكم التناسك بين السور ويجعلها سياقاً متكاملًا لا توضع فيه كلمة إلا باعتبار ما وضع أولاً، وهذا يشبه أن يكون وصفاً محللاً لما ذكره الإمام عبد القاهر في التنظيم الذي يتحد في الوضع ويدق في الصنع حيث قال: «واعلم أن مما هو أصل في أن يدق النظر، ويغمض المسلك، في توخي المعاني التي عرفت أن تتحد أجزاء الكلام ويدخل بعضها في بعض، ويشتد ارتباط ثانٍ منها بأول، وأن تحتاج في الجملة إلى

(١) «التفسير» ١٣٥/٩.

أن تضعها في النفس وضعا واحداً، وأن يكون حالك فيها حال الباني يضع يمينه ههنا في حال ما يضع بيساره هناك، نعم وفي حال ما يصير مكان ثالث ورابع يضعهما بعد الأولين^(١).

فوضعت المعاني وضعا واحداً ابتداء في قوله: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ وتداخلت أجزاؤها في هذه الجملة ثم انسلت وتفرعت عنها فيما بعد من السور، وتقاذفت في مواقع متباعدة ولم يحل ذلك دون الالتقاء حيث هيأ الإجمال للبناء على المعنى.

ويتبع الإمام أصداء الزيادة داخل الأغراض وسط سورة «لقمان» وكأن مدارها إشباع المكونات الإضافية الزائدة على ما قررته «البقرة» وهما: ﴿الْحَكِيمُ﴾ ﴿وَرَحْمَةٌ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ فالحكيم تفرع عنها ذكر حال الكفار مع الآيات في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [لقمان: ٦].

وحكاية لقمان والاستدلال بالآفاق من جنس الآيات المحكمة وظيفتها زيادة تقرير إحكام آياته سبحانه يقول: «لما استدلل بقوله تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ﴾ [لقمان: ١٠]. على الوجدانية وبين بحكاية لقمان أن معرفة ذلك غير مختصة بالنبوة بل ذلك موافق للحكمة وما جاء به النبي ﷺ من التوحيد والصلاة ومكارم الأخلاق كلها حكمة بالغة، ولو كان تعبداً محضاً للزم قبوله، فضلاً عن أنه على وفق الحكمة^(٢).

وفصل الوعد بالرحمة في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ * خَالِدِينَ فِيهَا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [لقمان: ٩، ٨]. يقول: «لما بين حال من إذا تتلى عليه الآيات ولي، بين حال من يقبل على تلك الآيات ويقبلها، وكما أن ذلك له مراتب من التولية والاستكبار، فهذا له مراتب من الإقبال والعمل به، فإن من سمع شيئاً وقبله قد

(١) "دلائل الإعجاز" ص ٩٣.

(٢) "التفسير" ٩/ ١٢٣، ١٢٤.

لا يعمل به فلا تكون درجته مثل من يسمع ويطيع ثم إن هذا له جنات النعيم ولذلك عذاب مهين^(١).

وهذا إن جاء تاليًا لذكر الكفار ومتابلاً له إلا أنه ليس أصلاً له، وإنما يرتد إلى قوله: ﴿وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ﴾. ونبه على هذه الصلة المبالغة في وصف الرحمة من جهات: «إحداها: توحيد العذاب وجمع الجنات إشارة إلى أن الرحمة واسعة أكثر من الغضب. الثانية: تنكير العذاب وتعريف الجنة بالإضافة إلى المعرفة إشارة إلى أن الرحيم يبين النعمة ويعرفها إيصالاً للراحة إلى القلب، ولا يبين النقمة، وإنما ينبه عليها تنبيهاً. الثالثة: قال: ﴿عَذَابٌ﴾، ولم يصرح بأنهم فيه خالدون، وإنما أشار إلى الخلود بقوله: ﴿مُهِينٌ﴾ وصرح في الثواب بالخلود بقوله: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾. الرابعة: أكد ذلك بقوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا﴾ ولم يذكره هناك. الخامسة: قال هناك لغيره: ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ﴾. وقال ههنا بنفسه: ﴿وَعَدَ اللَّهُ﴾^(٢).

وقرينة ذلك وضع الكلام في صورة المنقطع؛ ليتمكن من إجرائها وعطفها على الافتتاح مع عدم انقطاعها كلياً عن الكلام قبلها. وزاد في الثام الجملتين الإحالة إلى الوعد المذكور سالفًا بقوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا﴾ فردت الكلام وعادت به إلى نبعه تحت كلمة ﴿وَرَحْمَةً﴾.

وإذا لم يجر ظاهر الكلام على المبالغة عطفها على الغرض فهيج خفي الإيحاء تحت اللغة ونزع بها إلى قوة التصريح، فتألف المعاني ظاهراً وباطناً، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَنَقَبَةُ الْأُمُورِ﴾ [لقمان: ٢٢].

حيث ذكر أنه قال: «قال ههنا: ﴿وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ﴾ وقال في سورة البقرة: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١١٢]. فعدى ههنا بـ«إلى» وهناك بـ«اللام»، قال الزمخشري: معنى قوله: ﴿أَسْلَمَ لِلَّهِ﴾ أي جعل نفسه لله سالماً أي خالصاً، والوجه

(١) «التفسير» ١١٦/٩.

(٢) السابق نفسه.

بمعنى النفس والذات، ومعنى قوله: ﴿يُسَلِّمُ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ﴾: يسلم نفسه إلى الله كما يسلم واحد متاعاً إلى غيره ولم يزد على هذا، ويمكن أن يزداد عليه ويقال: من أسلم لله أعلى درجة ممن يسلم إلى الله؛ لأن «إلى» للغاية و«اللام» للاختصاص، يقول القائل: أسلمت وجهي إليك أي توجهت نحوك، وينبئ هذا عن عدم الوصول؛ لأن التوجه إلى الشيء قبل الوصول، وقوله: أسلمت وجهي لك يفيد الاختصاص ولا ينبئ عن الغاية التي تدل على المسافة وقطعها للوصول، إذا علم هذا فنقول في «البقرة» قالت اليهود والنصارى: ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَى﴾ [البقرة: ١١١]. فقال الله ردّاً عليهم: ﴿بَلَى بَلَى أَتَيْنَاهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ [البقرة: ١١١]. ثم بين فساد قولهم بقوله تعالى: ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾ أي أنتم مع أنكم تتركون الله لدنيا وتولون عنه للباطل وتشتركون بآياته ثمناً قليلاً تدخلون الجنة^(١)، ومن كان بكليته لله لا يدخلها؟! هذا كلام باطل فأورد عليهم من أسلم لله ولا شك أن النقض بالصورة التي هي ألزم أولى فأورد عليهم المخلص الذي ليس له أمر إلا الله وقال: أنتم تدخلون الجنة وهذا لا يدخلها؟! ثم بين كذبهم وقال: ﴿بَلَى﴾ وبين أن له فوق الجنة درجة وهي العندية بقوله: ﴿فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾. وأما ههنا أراد وعد المحسن بالثواب والوصول إلى الدرجة العالية فوعد من هو دونه ليدخل فيه من هو فوقه بالطريق الأولى ويعم الوعد وهذا من الفوائد الجلية^(٢).

أي أن اتصالها بسياق الوعد للمحسنين تحول باللغة من المبالغة الظاهرة التي أثارها وضع اللام في سورة «البقرة» في قوله: ﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾ بعد سياق قطع اليهود والنصارى بعدم دخول من آمن الجنة، فناسبه النقض عليهم بالتصريح بوعد من أخلص وكان بكليته لله تعريضاً بحالهم واستبطن المبالغة بذكر المنزل الأدنى في سورة «لقمان» بوضع «إلى» موضع «اللام»؛ لأنه لما كان وعد المحسنين مقصداً أصلياً فيها اكتفى بالمعنى الأدنى تصعيداً للوعد؛ لأنه متى كان هذا حال من هو دونه فكيف بها أعد للمحسنين منهم.

(١) في «التفسير»: «النار». والسياق يقتضي «الجنة».

(٢) «التفسير» ١٢٥/٩.

وكذلك «السجدة» يجمع معاقد آياتها في عنق كلمة «من رب العالمين». فتقرير الرسالة وسط السورة للدلالة على كونه مبلغاً عن ربه وإثبات أن آيات الكتاب تنزل من لدن رب العالمين يقول في ذلك: «لما ذكر الرسالة ذكر من قبل دليلها وهو التنزيل الذي لا ريب فيه»^(١). وكرر ذلك في تفسيره لقوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِّنْ لِّقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ [السجدة: ٢٣]. قال: «لما قرر الأصول الثلاثة... عاد إلى الأصل الذي بدأ به وهو الرسالة في قوله: ﴿لِنُنْذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ مِّنْ نَّذِيرٍ﴾ [السجدة: ٣]».

ولم يقف بفائدة التشابه على المقاصد فحسب، وإنما نبه على أنها إحدى دلائل إعجاز القرآن التي بها يدرك حسن نظمه وصحة ترتيبها، فالسورة تنزل في مكانها ليس كيفما اتفق بل وفق اعتبارات توجب تلك الرتبة تقدماً وتأخيراً، وهذه صورة من صور صحة معانيه في العقول التي كررها دارسو الإعجاز، أوضح الإمام هذا ذكره حول ترتيب سورة «الحج» على «النساء» ومقابلتها لها، وشيعة ذلك تشابه المطلع فجاء مطلع «النساء» بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]. ومطلع سورة «الحج» بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج: ١]. قال: «جعل هذا المطلع مطلعاً لسورتين في القرآن: إحداهما: هذه السورة وهي السورة الرابعة من النصف الأول من القرآن. والثانية: سورة «الحج»، وهي أيضاً السورة الرابعة من النصف الثاني من القرآن، ثم إنه تعالى علل الأمر بالتقوى في هذه السورة بما يدل على معرفة المبدأ، وهو أنه تعالى خلق الخلق من نفس واحدة، وهذا يدل على كمال قدرة الخالق وكمال علمه وكمال حكمته وجلاله، وعلل الأمر بالتقوى في سورة «الحج» بما يدل على كمال معرفة المعاد، وهو قوله: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ فجعل صدر هاتين السورتين دلالة على معرفة المبدأ ومعرفة المعاد، ثم قد استور الدالة على المبدأ على السورة الدالة على المعاد، وتحت هذا البحث أسرار كثيرة»^(٢).

(١) «التفسير» ١٤٣/٩.

(٢) «التفسير» ٤٧٦/٣.

وأما الفواتح المبدوءة بحروف مقطعة فيكتنفها كثير من الغموض أحجم بعض الأئمة عن القطع بدلالاتها فوكلوا علمها إلى الله، وصنفوها في باب المتشابه المكنون علمه في ودائع خزائنه عز وجل.

وإن كان هذا الوجه لا يسد السبيل تمامًا، وإنما يسلك طريقًا إلى اقتناص فوائد الخطاب به، فجعلوا الغموض رائدًا للذهن يحثه على التفكير والتدبر لتجلية سره وقص آثاره في كلام الله فيحصل له بذلك فائدة بقاء الذهن ملتفتًا، والخاطر مشغولًا بذكر الله، والتفكير في مراده لأن «الإنسان إذا وقف على المعنى وأحاط به سقط وقعه عن القلب وإذا لم يقف على المقصود مع قطعه بأن المتكلم بذلك أحكم الحاكمين فإنه يبقى قلبه ملتفتًا إليه أبدًا ومتفكرًا فيه أبدًا»^(١).

واختار البعض الآخر تجاوز التدبر والتفكير إلى البحث في مدلولات الحروف وما تحمله من معاني ووجوه، فشقوا مجرى للدخول إلى أعماقها لبعث غيبتها وإذاعة سرها، فجاءت أوجه متكاثرة تختلف في مغزاها وتتسع في مؤادها، وقد عد الرازي منها واحدًا وعشرين وجهًا وقد رد سبب التنوع إلى كونها أصواتًا مجردة خالية من أي معنى فتقبلت مختلف التصورات، لذلك درج المفسرون على تصدير حديثهم عنها بعرض هذه المباحثات المتعددة وحملها على أحد الوجوه المظنون رجحانها دون الحمل على جميعها لتعذر ذلك.

واختار الرازي منها وجهين وناصرهما بالأدلة وهما:

١- ما اختاره الخليل وسيبويه من أنها أسماء للصور وعليه أكثر المتكلمين.^(٢)

٢- ما ذكره ابن روق وقطرب من أنها تنبيهات لإلزام الكفار الإنصات لكلام الله، ف«الكفار لما قالوا: ﴿لَا تَسْمَعُوا هَذَا الْقُرْآنَ وَالْقَوَافِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾» [فصلت: ٢٦] وتواصوا بالإعراض عنه أورد الله عليهم ما لا يعرفونه؛ ليكون سببًا لإسكان شغبيهم، وإخراص

(١) "التفسير" ٢٥٥/١.

(٢) "التفسير" ٢٥٢/١.

لغوهم، ملزماً لأسماهم على الإصغاء والتفكر فيما يرد عليهم من الآي، فكانوا إذا سمعوها قالوا متعجبين: اسمعوا إلى ما يجيء به محمد ﷺ، فإذا أصغوا هجم عليهم القرآن^(١).

ثم رد ما عداهما من الأقوال؛ لأن الحمل على المعنى بناء على أصوات الحروف من غير أن تكون اللفظة موضوعة في اللغة لذلك المعنى يفتح طريقة الباطنية في تفسير سائر ألفاظ القرآن بما يشاكل هذا الطريق.^(٢)

وإن استحسنت بعض الأئمة ومنهم ابن قتيبة هذه التفسيرات وخرجها على مذاهب العرب وطرائقها في الإبانة الموجزة للمعاني الكثيرة في مباني معدودة يقول: «ولكل مذهب من هذه المذاهب وجه حسن، ونرجو ألا يكون ما أريد بالحروف خارجاً منها إن شاء الله»^(٣).

وفي موضع آخر يبين شيوع الخوض فيها على ألسنة الجمهور، يقول: «ولم نزل نسمع على ألسنة الناس: الألف آلاء الله، والباء بهاء الله، والجيم جمال الله، والميم مجد الله، فكأننا إذا قلنا: ﴿حَمَّ﴾ دللنا بالحاء على حلیم، ودللنا بالميم على مجيد، وهذا تمثيل أردت أن أريك به مكان الإمكان»^(٤).

فلما كان مكان الإمكان فيها متسعاً وليس بعضها أولى من بعض أرتج مداخل المذاهب المختلفة بضبط دلالتها باعتبار الوضع، فإذا كان لها ما يصدقها أخذ بالمعنى وإن كان لا فلا. وهذه نظرة سديدة من الإمام وفقه جيد للمدى الذي تجرى فيه الدلالة من الألفاظ وذلك باعتبار الوضع أو ضميمة قرائن تفتح معاني آخر للفظ. أما التعويل على التصورات الذهنية البعيدة عن أصل الوضع بصير اللغة لاجاجة تحمل فيها اللفظة معاني فردية متدافعة تختلف باختلاف الأهواء والتصورات فيضيع معها الإفهام. فمتى امتنع هذا التأويل في الحروف

(١) السابق ٢٥٣/١ بتصريف.

(٢) السابق ١٩٤/٥.

(٣) "تاويل مشكل القرآن" ص ٢٩٩، ٣٠٠.

(٤) السابق ص ٣٠٩.

المجردة والمفرغة من باب أولى أن يسد مسلكه في الألفاظ ذات الحمولة الدلالية المستمدة من الوضع أو السياق.

لذلك لم يجعلها أسماء معاني وإنما جعلها أسماء ألقاب لأن «أسماء الألقاب لا تفيد فائدة في المسميات بل هي قائمة مقام الإشارات»^(١).

فهذه الأفكار التي استقرت عند المفسرين نجدها تحظى عند الرازي بالتأمل العميق الذي ارتقى بها إلى مستوى الإبداع لما كشف عن حقائقها وأصولها وأجناسها في الإبانة. فخرج بها عن أن تكون أسماء معاني وألقابها بجنس الإشارات المهيئ للمعاني؛ لأنها لا تفيد معنى في المسميات وإنما هي إلماحة وتنبيه وإيقاظ للمخاطب يلزمه على العناية بما بعدها من الكلام. فوجه عنايته إليه وفعل بيانها من خلال اللواحق التي تقترن بها وتجري في سياقها.

فهذه الأدوات وإن التقت مع غيرها من أدوات التنبيه الأخرى كالاستفهام والنداء في تصدرها لكل معنى ذي بال يقصد المتكلم لفت الألفهام إليه لتقريره في النفوس إلا أنها تنفرد بخصوصية بيانية جاءت من تجردها للتنبيه، فخلوها من أي معنى آخر محض دلالتها للتنبيه فاختصت بالمواقع التي تشتد فيها غفلة المخاطب أو يكون المعنى من المهمات الكبرى مما يتطلب زيادة إيقاظ وتنبيه يقول: «الحكيم إذا خاطب من يكون محله الغفلة أو من يكون مشغول البال بشغل من الأشغال يقدم على الكلام المقصود شيئاً غيره؛ ليلفت المخاطب بسببه إليه فيقبل عليه، ثم يشرع في المقصود... ثم إن موقع الغفلة كلما كان أتم والكلام أهم كان المقدم على المقصود أكثر فكان يحسن من الحكيم أن يقدم على الكلام المقصود حروفاً هي كالمنبهات، ثم إن تلك الحروف إذا لم تكن بحيث يفهم معناها تكون أتم في إفادة المقصود الذي هو التنبيه من تقديم الحروف التي لها معنى»^(٢).

(١) "التفسير" ٥/ ١٩٤، ٧/ ٥٠٦.

(٢) السابق ٩/ ٢٣-٢٤.

والحكمة في اختيار حروف مجردة من المعاني لفعليها في النفوس وتأثيرها في التنبيه حتى يصغى المستمع بقلبه وعقله فلا يقطع نظره ولا ينصرف بقلبه حتى يدرك ما وراءها من أغراض ومرادات. يقول: «إذا سمع منه صوتًا بلا معنى يقبل عليه ولا يقطع نظره عنه مالم يسمع غيره لجزمه بأن ما سمعه ليس هو المقصود»^(١). وهذا بخلاف إذا كانت حروفًا متواضعًا على دلالتها فإنه «إذا سمعه ربما يظن أنه كل المقصود ولا كلام بعده فيقطع الالتفات عنه»^(٢).

وعبارته «لجزمه بأن ما سمعه ليس هو المقصود» يداخل بها نفس المخاطب فالنفس تتوزعها شواغل مختلفة تصرفها عن إصابة عين القول فإذا أورد عليها ما تجهله هزّ انتباهها وشحذ خاطرها لارتياذ غوامضه فتتنفض عنه الشواغل؛ ليقبل على الكلام منتظرًا لما بعدها من القول ولو كان تنبيهًا مفهوميًا لفقد الخاطر لحظة التوقع والتحفز لما بعد هذه الحروف.

فالتنبيه في الأدوات الأخرى يستصحب معه المعنى المقصود فلا نجد تلك الفترة الممتدة بين التنبيه وبين المعنى التي يتخللها توقعات المخاطب لما سيرد عليه، وأما الحروف المقطعة فيظل الفكر مترددًا بين دلالة الحروف وما بعدها من معنى. فالمخاطب يعلم بأن الحروف ليست غرض المتكلم فتهيأ نفسه ويثار حسه لاستقبال ما بعدها من الكلام مما يجعله يتمكن في النفس أيًا تمكن. فهي نوع من الإبانة التي تحاثل النفس فتظن أنها لم تفدها شيئًا وقد فتها إياها وزيادة^(٣).

إذن العناية بمداخل الكلام يقابله مزيد حفاوة بالأغراض والمعاني؛ لذلك رفض الرازي أي تفسير للحروف المقطعة مكتفيًا بكونها مدخل لنوع من الأغراض والمقاصد التي تشتد عناية المتكلم بها وتكون عنده من المبهات الكبرى، فيتخذ نوعًا من الإبانة يعمل في النفوس عمل السحر يجذبها إلى الإنصات وتفرغها لمراد المتكلم، فلا ينصرف خاطره عن شيء من الكلام.

(١) "التفسير" ٢٤/٩.

(٢) السابق نفسه.

(٣) "أسرار البلاغة" عبد القاهر ص ٨.

وهذا وإن كان في فقه المناسبة بين أوائل السور والمقاصد إلا أننا أثّرنا بحثه في المطالع المتشابهة؛ لأن خلف الافتتاح بالحروف علامات تنبه وتدل على اتفاق أغراض تلك السور، فالمطالع ليست كلها تلخيصًا للمقاصد أو تأسيسًا لها، بل هناك فواتح وظيفتها التهيئة والتنبيه دون فائدة إخبارية تفيدها المخاطب من ذاتها؛ لذلك عدّ الزركشي هذه الحروف «كالعلائم، مبيّنة أن هذه السورة من قبيل تلك السورة التي أنزلت من عشر سنين مثلاً حتى كأنها تمة لها، وإن كان بينهما مدة»^(١).

فاقتران الحروف المقطعة بجنس معين من السور للإعلام عن تشابه المقاصد.

وقد تتبع الرازي السياقات التي تعقب هذا النوع من التنبيه فوجد أنها تتميز بخصيصتين هما:

١- أنه يتبعها ذكر ما هو معجز فغالبًا ما يردفها الحديث عن التنزيل والكتاب والقرآن إلا في سورة «الروم» و«مريم» حيث جرى فيها ذكر الإعجاز بالإخبار عن الأمور الغيبية يقول: «إن السورة التي في أوائلها التنزيل والكتاب والقرآن في أوائلها ذكر ما هو معجزة، فقدمت عليها الحروف ... وهذه ذكر في أولها ما هو معجزة وهو الإخبار عن الغيب، فقدمت الحروف التي لا يعلم معناها؛ ليتنبه السامع فيقبل بقلبه على الاستماع، ثم ترد عليه المعجزة وتقرع الأسعاع»^(٢).

وهذا الوجه أفاده من الباقلاني حيث صرح أن كثيرًا من هذه السور إذا تأملته فهو من أوله إلى آخره مبني على لزوم حجة القرآن والتنبيه على وجه معجزته «^(٣)».

٢- ثقل ما بعدها من التكاليف والمعاني، فالقرآن وإن كانت جميع معانيه لها عبء وثقل إلا أنه في السور المفتحة بالحروف أشد، وجاء ذلك من كونها تستحضر جميع معاني القرآن

(١) «البرهان» ٢٢٧/١.

(٢) «التفسير» ٨٠، ٧٩/٩.

(٣) «اعجاز القرآن» ص ٩.

وتنبه عليها وتؤكد لها مع تضمنها معاني تستقل بها، يقول: «لا ريب في أن كل سورة من القرآن، لكن السورة التي فيها ذكر القرآن والكتاب مع أنها من القرآن تنبه على كل القرآن، فإن قوله تعالى: ﴿طه * مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ [طه: ١٠٢]. مع أنها بعض القرآن فيها ذكر جميع القرآن، فيصير مثاله مثال كتاب يرد من ملك على مملوكه فيه شغل ما، وكتاب آخر يرد منه عليه فيه: إنا كتبنا إليك كتباً فيها أوامرنا فامثلها، لا شك أن عبء الكتاب الآخر أكثر من ثقل الأول»^(١).

وهذا الملحظ كشف به عن سر افتتاح سورة «العنكبوت» بالحروف ولم يجز في أوائلها ذكر الكتاب أو القرآن، ولكن لما تناولت السورة حقائق تغفل عنها الأنفس حتى تصبح في انشغالها عن الالتفات إليها كالمنكرة لها، تطلب ذلك مزيد إيقاظ وتنبيه. فالقرآن بسط حقيقة الإيثار وأزال جميع ما يناقضه حتى يمكنه في النفوس، فلما كان له هذا الثقل في ميزان مقاصد القرآن مما قد يظن معه ظان أنه لا مطلب بعده ولا غاية سواه، جاءت السورة لتقلب الاعتقاد وتزيل ما استقر من أن الإيثار متى أقر به اللسان وصدقه الاعتقاد كان كافياً في النجاة يوم الحساب، فقررت مقصداً آخر وهو ﴿أَحْسِبَ النَّاسَ أَنْ يَبْرُكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ ليدفع به هذا الوهم وليؤكد سنة الابتلاء والتمحيص بفرض التكليف، واختبارهم بالسراء والضراء لتمييز المجاهدين الصابرين من الذين أثقلتهم التكالييف فاطمأنوا بزينة الحياة الدنيا، وفتنهم واقعهم المادي فلم يعالجوا نفوسهم بالمصابرة؛ لأن الإيثار لا يطمئن في القلوب حتى يصدق العمل بالجوارح وتشهد عليه الأعضاء فلن «تقبل منهم دعواهم بلا شهود وشهودهم بلا مزكبين، بل لا بد من ذلك جميعه»^(٢).

والسورة وإن لم تصرح بالفرائض والتكاليف إلا أنها أحالت بهذا الإجمال على جميع سياقات الأوامر والنواهي في جميع القرآن، بل وأغلظت في الخطاب بتأكيد المراقبة والمحاسبة، فشابهت في ثقل معانيها السور التي تنبه على القرآن جميعه، مما ناسبه افتتاحها بالحروف ويقول الرازي: «وأما هذه السورة افتتحت بالحروف وليس فيها الابتداء بالكتاب والقرآن، وذلك

(١) "التفسير" ٢٤/٩.

(٢) السابق، ٢٦/٩.

لأن القرآن ثقله وعبه بما فيه من التكليف والمعاني، وهذه السورة فيها ذكر جميع التكليف، فوجد المعنى الذي في السور التي فيها ذكر القرآن المشتمل على الأوامر والنواهي^(١).

فهي خطاب عام يشمل الابتلاء بجميع التكليف والفرائض البدنية والمالية، وقد امتدت مساحة هذا المعنى في السورة مع تقاطعه مع معاني تغاير دلالاته، وتصعد من ثقل ومشتقة الإلزام وأنه لا بد فيه من عزم قوي وجلد يصور ذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ يَقُولُ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوْلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت: ١٠].

ونارة يلين الخطاب بالترغيب كما في قوله: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩]. ثم تصور قصص الأنبياء المنهج الأقوم في المصابرة والمجاهدة للنفس ولأهل الباطل وصبرهم في تبليغ ما أوحى إليهم، ثم تعضي في بيان مصير من نكص على عقبيه وتمرد على حقائق التوحيد، ورد يديه في أفواه المبلغين عن ربهم وصورته في أعنى بيان وأشدّه، ويقول سبحانه: ﴿فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّبْحَةُ وَمِنْهُمْ مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾ [العنكبوت: ٤٠].

فمفهوم الثقل والعبء الذي أجمله الرازي يفصله إرهاف الحس أمام بيان السور المفتحة بالحروف وملاحظة وطأة القول وتصاعد الترهيب والوعيد مما يجعل لها أجواء ذات خصوصية بيانية تنفرد بها عن غيرها من سور القرآن.

وهناك من اكتفى في عرض رأي الرازي بالأمر الثاني وهو ثقل الكتاب وعبء التنزيل وأغفل ما ورد في سورة «الروم»، فبنى عليه حكماً خاطئاً وهو أن الزركشي كان أوضح مسلماً وأنأى عن تكلف إذا اكتفى بقوله «واعلم أن عادة القرآن العظيم في ذكر هذه الحروف أن يذكر بعدها ما يتعلق بالقرآن ... وقد جاء بخلاف ذلك في «العنكبوت» و«الروم» فيسأل عن حكمة ذلك»^(٢).

(١) "التفسير" ٢٥/٩.

(٢) "الإعجاز البياني للقرآن" دكتورة عائشة بنت عبد الرحمن ص ١٦٦.

والحق بخلاف ذلك فقد أخل نقل الزركشي عن الرازي بكثير من الأسرار البيانة التي قدمها نص الرازي، إضافة إلى الإجمال المعتم حول السؤال عن حكمه خلو سورتي «الروم» و«العنكبوت» من ذكر التنزيل وقد كشف عنها «التفسير الكبير» .

ورعاية التشابه يمكن تعديتها إلى الخواتيم والنظر فيما اعتبر فيها من خصوصيات كيما تتلاءم مع نظم خواتيم ما قبلها وما بعدها من السور، ذكر ذلك في موضع واحد حينما بين كيفية انتظام مقطع «الرحمن» قوله تعالى: ﴿ نَبِّرَكَ أَتَمَّ رَيْكَ ذِي الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن: ٧٨] . مع الآية قبلها: ﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضِرَ وَعَبَقَرِيَّ حِسَانٍ ﴾ [الرحمن: ٧٦] . يقول: «في الترتيب وفيه وجوه أحدها: أنه تعالى لما ختم نعم الدنيا بقوله تعالى: ﴿ وَسَيَعْلَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن: ٢٧] ختم نعم الآخرة بقوله: ﴿ نَبِّرَكَ أَتَمَّ رَيْكَ ذِي الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ إشارة إلى أن الباقي والدائم لذاته هو الله تعالى لا غير والدنيا فانية، والآخرة وإن كانت باقية لكن بقاؤها بإبقاء الله تعالى . ثانيها: هو أنه تعالى في أواخر هذه السورة كلها ذكر اسم الله فقال في السورة التي قبل هذه: ﴿ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقَدِّرٍ ﴾ [القمر: ٥٥] . وكون العبد عند الله من أتم النعم كذلك ههنا بعد ذكر الجنات وما فيها من النعم قال: ﴿ نَبِّرَكَ أَتَمَّ رَيْكَ ذِي الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ إشارة إلى أن أتم النعم عند الله تعالى، وأكمل اللذات ذكر الله تعالى، وقال في السورة التي بعد هذه: ﴿ فَرُوحٌ وَرِيحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴾ [الواقعة: ٨٩] . ثم قال تعالى في آخر السورة: ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ [الواقعة: ٩٦] .

فالوجه الأول جعلها ترجيعاً لعناصر من نظم معاني مشابهة لها داخل السورة ذاتها، فكان التصريح باسم الله في المقطع منعطفاً على الوسط، ومعانفاً له؛ لما بينهما من اشتراك في أصل المعنى وهو ذكر الإنعام، وهذا وإن كان شافياً في تمكين وضع الآية ونسجها في لحمية بيان الأغراض داخل السورة، إلا أنه تجاوزه ليزيد في تمكينها بتنسيقها مع خواتم السورة السابقة واللاحقة لها حيث ختمت كلتاهما بذكر تمام نعم الآخرة واقتران ذلك المعنى بالتصريح باسمه تعالى إشعاراً بكمالها .

فتناسب الآية داخل دائرة السورة لا يحول دون ملاحظة مناسبتها بآيات خارج أسوارها وترتيبها عليها للكشف عن أسرار تنظيم عناصرها من خلال نظائر المعنى الواحد في سياقات متتابعة .

الفصل الثالث

التناسب على مستوى

السياق العام للقرآن

الفصل الثالث

التناسب على مستوى السياق العام للقرآن

أبان الفصلان المتقدمان عن مستوى من الوحدة تنتج خصوصيات الترتيب بالتوالي والتتابع بين السور أو ترجيع أصول مقاصد بعض السور بمدخلة عناصر ومكونات من بيانها في سورة بعيدة؛ ليحث التشابه الذهن على الجمع بين السياقات والمقاربة بين المتباعدات، وانحصر ذلك في المناسبة بين ما تشابهت فيه المطالع .

وهذا الفصل يلفت إلى إجراءات يتخذها المفسر في تحليله للآيات تلتقي مع مباحث التناسب في أنها تتبع وجوه الترتيب في النظم القرآني على مستوى السياق العام من خلال عمل بعض العناصر والمكونات في الإحالة على مواقع مشابهة ورصد ما ثبت واطرد وما تغير منها وافترق، وما وراء ذلك من أسرار يتشربها النظم من السياق الخاص، وليس القصد بالضم والاستدعاء لتلك المواقع طلب التألف، وإنما هو مسلك من مسالك فتح الدلالة بوضعها في نطاقات بيانية مشتركة ما ينتج من الموازنة بين ما تشابه من فوائد وتنبهات تكشف عن أحوال مستترة في النظم لا يحركها إلا ملاحظة تصرفات وترتيبات أخرى فتحلل الأسرار وتدلل عليها . لذلك حرص علماؤنا القدماء على استصحاب جميع مكونات القرآن وعناصره في تفسيرهم حتى موقع الكلمة لا يحلل في غياب مواقع مشابهة وسواء كان مرد هذا الحرص الأمانة وإدخال الطمأنينة على القارئ لقبول رأي المفسر أو إظهار ثقافة المفسر وقدرته على استيعاب بيان المتكلم كله إلا أنه أصبح منهجًا شائعًا في كتب التفسير صح معه عده ضابطًا من ضوابط فقه الدلالة وبيان المقاصد .

ولما كان مدار القرآن على مقاصد معدودة وأغراض متفقة أنتج ذلك تشابهًا في بعض آياته ؛ فجاءت أبحاث المتشابه للكشف عن الجانب الآخر في تشابه السياق القرآني وتناسبه على المستوى الكلي للقرآن مقاصده وأساليبه، وبحث المتشابه باب من أبواب علوم القرآن دارت حوله تصانيف متعددة أشهرها: «درة التنزيل وغرة التأويل» للخطيب الإسكافي [ت ٤٢٠هـ]، و «البرهان في توجيه متشابه القرآن» للكرماني [ت ٥٠٥هـ]، و «ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظي من آي التنزيل لابن الزبير الغرناطي [ت ٧٠٨هـ].

وقد تعددت الأقوال في تحديد المراد بالمتشابه ، وقد جعله أكثر الأصوليين نوعين، النوع الأول: ما استأثر الله تعالى بعلمه ولم يطلع عليه أحد من خلقه وكلفهم الإيذان به، مثل الحروف المقطعة في أوائل السور، وهي من أسرار الله التي استأثر الله تعالى بعلمها^(١).

والنوع الثاني: يكون فيه التشابه بين شيئين فأكثر يتوقف فهم أحدهما على تحصيل الآخر الذي لا يتبين المراد به من لفظه وكان مما يدرك مثله بالبحث والنظر أم لا^(٢).

فالخفاء صادر من دخول «شبه بعضه في بعض»^(٣) مما لا يتأتى الاطلاع على المعنى بذات اللفظ، ولما كان المراد يتجلى بالقرائن الخارجية جعله البعض داخلاً في المجمل، نقل ذلك الشيرازي في قوله: «وأما التشابه فاختلف أصحابنا فيه، فمنهم من قال: هو والمجمل واحد، ومنهم من قال: التشابه ما استأثر الله تعالى بعلمه، وما لم يطلع عليه أحد من خلقه، ومن الناس من قال: التشابه هو القص والأمثال، والمحكم الحلال والحرام، ومنهم من قال: التشابه: الحروف المجموعة في أوائل السور كـ «المص» وغير ذلك، والصحيح الأول؛ لأن حقيقة التشابه: ما اشتبه معناه، وأما ما ذكره فلا يوصف بذلك»^(٤).

فالشيرازي يرجح دخوله في المجمل، ومناطق ذلك الرأي الأصل اللغوي لكلمة التشابه، فالتشابه اللفظي يتداخل مع المجمل؛ لأن الآية تؤدي المعنى الكلي الذي يفاد من سابقتها، فإذا ما رتبت عليها وردت إليها اتجهت معانيها نحو التفصيل والبيان.

ومن جعله قسماً بذاته عول على قوة وجه الخفاء وشدته في التشابه عنه في المجمل^(٥)، وسبب ذلك حاجته لقريته أوسع مترددة بين عناصر تركيبية في سياقات خارجية؛ وهذه أعلى منازل الاجتهاد وأرقاها ولا يستطيعها إلا الراسخون في العلم.

(١) "قراطع الأدلة" السمعاني ١/ ٢٦٥. و"التقرير والتجوير" ابن أمير الحاج ١/ ٢٠٦.

(٢) "الموافقات" الشاطبي ٣/ ٣٠٥.

(٣) "البرهان" الإمام الجويني ٢/ ٨٦.

(٤) "اللمع" ص ٥٢.

(٥) "التقرير والتجوير" ابن أمير الحاج ١/ ٢٠٦.

أما القول بالتوقيف في تأويل المتشابه فيتعاند مع أصل من أصول الاستنباط وهو الاجتهاد في محل الاجتهاد وتحريك القرائن ومجاذبة اللغة للمقاصد؛ لأن الأصل في اللغة الإفادة^(١)، وإن اختلفت درجات القرائن قوة وضعفاً في الدلالة على المراد تظل الإفادة حاضرة في الخطاب تستثيرها الأذهان وتحركها نحو التفصيل.

وضابط المتشابه اللفظي أن يكون الكلام متساوي الأبنية والمعاني في الظاهر مع بعض التغيرات في المباني بزيادة أو حذف أو تقديم أو تأخير فيدرس «الفائدة في إعادتها، وما الموجب للزيادة والنقصان، والتقديم والتأخير، والإبدال؟ وما الحكمة في تخصيص الآية بذلك دون الآية الأخرى؟ وهل كان يصلح ما في هذه السورة مكان ما في السورة التي تشاكلها»^(٢).

ومن هذا يتبين أن تداخل المتشابه مع المجلد لوجهين، الأول: أن فهم المراد منه لا يقع دفعة في نفس المخاطب وإنما يجعلك تنوهم أن المعنى المراد هو بذاته ما جاء سابقاً ثم تجد اللغة بثت تفصيلاً آخر دلالة بعد دلالة حتى تصل إلى فائدة أخرى غير ما ظفرت به من تلك فـ «تري بالنظر الأول الوصف على الجملة ثم ترى التفصيل عند إعادة النظر ... كذلك تجد الجملة أبداً هي التي تسبق إلى الأوهام وتقع في الخاطر أولاً، وتجد التفاصيل مغمورة فيها بينها وتراها لا تحضر إلا بعد إعمال الروية واستعانة بالتذكر»^(٣).

فالتشابه لا يعني التماثل التام بين التركيبين وإنما يشتركان في الغرض الكلي أو المعنى العام ويستقل كل منهما بجزئيات تنسل من التغيرات وخصوصيات التصرف في تعليق الألفاظ وتأليفها، وهذه التغيرات آثار يتركها المتكلم؛ ليهتدي بها البصير إلى المعاني الإضافية وتدل على مواقع الزيادة.

(١) «المحصول» الرازي ١/ ٣٠٨.

(٢) «البرهان» ص ٦٤.

(٣) «أسرار البلاغة» عبد القاهر ص ١٣٧.

والثاني: يرجع إلى افتقارهما إلى القرينة؛ لأن «المتشابه ما لم يحكم المراد بظاهره، بل يحتاج في ذلك إلى القرينة»^(١). فالمتشابه لا تستقل اللغة بالإبانة عن معناه بل تحتاج في معرفته إلى رده إلى عناصر أخرى من السياق التركيبي أو إحالته إلى سياق ثانٍ مشابه وإعمال ذلك التركيب في الكشف عن العناصر المجملة فيه واستنباطها.

فتتسع القرينة في إجمال التشابه ويمتد نطاقها وتتجاوز الكلمة والصيغة إلى مسافات أرحب وتراكيب تتصل بها وتنفصل عنها، وهذه المراوحة بين الالتلاف والاختلاف لون من ألوان الإبانة الباعثة على الاجتهاد والحافزة «على البحث والتنقيب ثم ارتياد الآفاق وراء المعاني المنقبة»^(٢)، والامتداد بها إلى بيان تفصيلي، فتؤكد أصل المعنى في الآيات المتشابهة ثم تلحظ امتداد فروعها وأفنانها وموضع الفرع من الأصل حتى تحكم المراد من وضع كل آية، ثم تدير الألفاظ باعتبار مواقعها من المقاصد فتجد الحرف غير الحرف والمعنى غير المعنى وإن أوهمك ظاهره بتطابق الصورة وتشاكلها، فإذا علمت مواقع اللغة من المقاصد وتأثيرها في تشعيب المعاني تجل لك الإعجاز في الفروق وفتح لك ما تحت التشابه من معاني متزاحمة.

ومباحث المتشابه فرع عن علم المناسبات؛ لأن إحراز العلم بمقاصد كل آية من الآيات المتشابهة لا يكون إلا بعد إتقان العلم بمناسبتها للسياق الذي يكتنفها والمقاصد التي جرت فيها وملاحظة التراكيب السابقة لها وكيف غدت لغتها فتزعت بها إلى تلك الأغراض ووجهت دلالتها بها يلائم ذلك المعنى ويوافقه ف «تخصيص كل آية من تلك الآيات بالوردة.. لسبب تقتضيه وداع من المعنى يطلبه ويستدعيه،... من محرزات المعاني عند ذوي الأفهام ومقتضيات من لوازم جليل التراكيب من ذلك المعجز العلي من النظام، فلا يليق بكل من تلك المواضع إلا الوارد فيه وأن تقرير وقوع آية منها في موضع نظيرتها ينافي مقصود ذلك الموضع»^(٣).

(١) «متشابه القرآن» القاضي عبد الجبار ص ٢٠، ١٩.

(٢) «أثر القرآن في تطور النقد» زغلول ص ١٢١.

(٣) «ملاك التأويل» الفرناطي ١٤٥/١.

فالآية تتداخل وتتمازج بعناصر سياقية وتركيبية ينتج عنها مستتبعات خاصة ودلالات فارقة تختلف وتأتلف ويظل التشابه ظاهرياً لا يصل إلى حد التماثل . وإنما وسيلة لاستدراج الذهن لينفذ إلى باطن اللغة وإجراء السياق من أجل ترجيح المراد، فالفروق والخصائص المائزة بين لفظة ولفظة وبين تركيب وآخر «وعناصر كثيرة في الأسلوب بينها فروق ترتبط بالسياق ارتباطاً بالغ الدقة والرهافة»^(١).

وكثيراً ما تأتي توجيهات الإمام للمتشابه متداخلة مع فن المناسبات مؤسسة على أصوله مراعية لضوابطه وقوانينه ؛ فالآية التي يداخلها مشابهة تميز خصوصيتها باعتبار سياقها وما اقترن بها من تراكيب سابقة ولا حقة، ورعاية ذلك كله في تمييز معناها وتوجيه الفروق اللفظية وما يحدث فيها من شيآت توشتها من الأغراض ومن محيط الملابس فيكتسي المعنى هيئة أخرى تلائم مجراه .

وهذا أصل في دراسة علاقات الآيات داخل السورة وحسن اقترانها وتجاورها، إلا أن العناية به أظهر في باب المتشابه حيث نجد الإمام ينيط ما يحدث من تغيرات بالسياق الكلي ويرتبطها على الأغراض فيربط حركة اللغة بحركة المعنى كما في تفسيره، لقوله تعالى:

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَتُعَزُّوهَ وَتُوقِرُوهُ وَنُسَيِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ [الفتح: ٩، ٨]. وقال في الأحزاب: ﴿ يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ، وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٤٥، ٤٦].

قال فيها: «ههنا اقتصر على الثلاثة من الخمسة فما الحكمة فيه ؟ نقول: الجواب عنه من وجهين، أحدهما: أن ذلك المقام كان مقام ذكره؛ لأن أكثر السورة في ذكر الرسول ﷺ وأحواله وما تقدمه من المباينة والوعد والدخول ففصل هنالك، ولم يفصل ههنا. ثانيهما: أن نقول الكلام مذكور ههنا؛ لأن قوله: ﴿ شَهِيدًا ﴾ لما لم يقتض أن يكون داعياً لجواز أن يقول مع نفسه: أشهد أن لا إله إلا الله، ولا يدعو الناس قال هناك: «وداعياً» لذلك، وههنا لما لم

(١) "دلالات التراكيب" دكتور أبو موسى ص ٣٣٨ .

يكن كونه «شاهدًا» منبئًا عن كونه داعيًا، قال: ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفتح: ٩] دليل على كونه سراجًا؛ لأنه أتى بها يجب من التعظيم والاجتناب عما يحرم من سوء والفحشاء بالتنزيه وهو التسبيح»^(١).

فمقصد «الأحزاب» حرك الأوصاف نحو الامتداد والبسط؛ لأن مدارها حول الرسول عليه الصلاة والسلام والآداب.

بينما قبص الأوصاف في سورة «الفتح» وأجملها؛ لأنها لا تعلق لها بالغرض وإنما جاء وصف الرسول مهينًا لوصف المؤمنين فـ «أصل الإرسال مرتب على أصل الإيذان ووصف الرسول يترتب عليه وصف المؤمنين»^(٢)، فمدار السورة على «البشارة للمجاهدين من أهل هذا الدين بالفوز والنصر والظفر على كل من كفر»^(٣).

أما الوجه الثاني فيجعل مجيء قوله: ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ﴾ إعلامًا وإنباء بما تتضمنه كلمة «شاهد» من الشهادة على الوجدانية لتجرد سياقها من القرينة المرجحة فصرح بجملة ﴿لِتُؤْمِنُوا﴾ لهذه النكتة البديعة. بينما جاء الوصف «داعيًا» في «الأحزاب» لأن شاهدًا هناك لما كانت في سياق الثناء على الرسول ﷺ أفادت معنى إثبات توحيده لله لخصوصية السياق دون أن تقتضي معنى الدعوة فجاءت «داعيًا» لتفيد ذلك وتقوي الثناء عليه ﷺ.

وهذا الوجه يعضد ما ذهب إليه الإمام من أن الشهادة في سورة «الفتح» بمعنى قوله: لا إله إلا الله ويرد بذلك ما ذهب إليه المفسرون من أنها بمعنى الشهادة على الأمة.^(٤)

وكذلك اختلاف الترتيب واستعمال صيغة مغايرة لما اضطر في مواضع مشابهة يكون بموجب من المقاصد واتساقًا مع حركة السياق داخل السورة، كما في قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ

(١) «التفسير» ٧٢/١٠.

(٢) السابق نفسه.

(٣) «نظم الدرر» البقاعي ١٨٣/٧.

(٤) «التفسير» ٧٢/١٠.

اللَّتْ وَالْعُزَّى ﴿النجم: ١٩﴾. وقد استعمل في مواضع بغير الفاء في قوله: ﴿أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [الأحقاف: ٤]. وقوله: ﴿أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمْ﴾ [فاطر: ٤٤]. يقول: «لما قدم من عظمة آيات الله في ملكوته أن رسول الله إلى الرسل الذي يسد الآفاق ببعض أجنحته ويهلك المدائن بشدته وقوته لا يمكنه أن يتعدى السدرة في مقام جلال الله وعزته، قال: أفرأيت هذه الأصنام مع ذلتها وحقارتها شركاء الله مع ما تقدم، فقال بالفاء أي عقيب ما سمعتم من عظمة آيات الله تعالى الكبرى، ونفاذ أمره في الملأ الأعلى وما تحت الثرى، فانظروا إلى اللات والعزى تعلموا فساد ما ذهبتم إليه وعولتم عليه»^(١).

فترتيب الرؤية على ما قبلها وجه دلالتها باعتبار حركة المقاصد السابقة فجاء اختيار الفاء في النجم للتهويل والتعظيم، بينما تركها في سياق «الأحقاف» و«فاطر» للإلزام والتقرير عليهم؛ لأنها مجال للدعوى والتدليل لذلك تضمنت الرؤية معنى «أخبروني»^(٢) أما سياق «النجم» فلإبطال دعواهم ضلال الرسول ﷺ وغوايته فجاءت الفاء بعد عرض الآيات؛ لتدل على أن ما رآه سبباً للاهتداء كما أن رؤيتهم لما يعبدون من دون الله مجالاً للعلم بأنها لا تصلح للألوهية، فالفاء ردت دعواهم عليهم بالدليل؛ لأن الرسول ﷺ توصل بالرؤية إلى الهداية والاستقامة، وضللتهم بها فعميت أبصاركم، فكان «أفرأيتم» جاءت لتحقيق الرؤية ولفت لهم للمراجعة والتبصر بأهنتهم وأن مجرد الرؤية تكفي لإبطال دعواهم دون اللجاجة معه والخصومة، كما أن مجرد الرؤية تكفي لليقين التام بتفرده سبحانه بالوهيته على ما في السماوات وما في الأرض؛ لذلك لم تصلح لمعنى «أخبروني» وإنما بمعنى «هل رأيتم هذه حق الرؤية، فإن رأيتموها علمتم أنها لا تصلح شركاء»^(٣).

وكذلك العدول بالاسم في قوله تعالى: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ﴾ [البروج: ١٩] بعد مجيئها سابقاً بالفعل في قوله: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكْذِبُونَ﴾ [الانشقاق: ٢٢]. فذكر في الأولى «أنه

(١) "التفسير" ٢٤٨/١٠.

(٢) السابق ٢٤٤/٩.

(٣) "السابق" ٢٤٨/١٠.

تعالى لما بين حال أصحاب الأخدود في تأذي المؤمنين بالكفار، بين أن الذين كانوا قبلهم كانوا أيضاً كذلك ... فذكر تعالى من المتأخرين فرعون ومن المتقدمين ثمود، والمقصود بيان أن حال المؤمنين مع الكفار في جميع الأزمنة مستمرة على هذا النهج^(١).

وأما الثانية «فالمعنى أن الدلائل الموجبة للإيمان، وإن كانت جلية ظاهرة لكن الكفار يكذبون بها، إما لتقليد الأسلاف، وإما للحسد، وإما للخوف من أنهم لو أظهروا الإيمان لفاتتهم مناصب الدنيا ومنافعها»^(٢).

فكان الرازي يجعل خلو سورة «الانشقاق» من ذكر الأمم السالفة وتكذيبهم هياً لاختيار الفعل ليدل على أن هذا دأب فئة تتقلب بها الأهواء وتتجدد بها النوازع فتعمى عن قوة البراهين الموجبة للتصديق والإيمان . واستخدام الفعل يناسب القسم «لأنه سبحانه أقسم بتغيرات واقعة في الأفلاك والعناصر، فإن الشفق حالة مخالفة لما قبلها وهو ضوء النهار، ولما بعدها وهو ظلمة الليل، وكذا قوله: ﴿وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾ [الانشقاق: ١٧]. فإنه يدل على حدوث ظلمة بعد نور، وعلى تغير أحوال الحيوانات من اليقظة إلى النوم، وكذا قوله: ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ﴾ [الانشقاق: ١٨]. فإنه يدل على حصول كمال القمر بعد أن كان ناقصاً»^(٣).

أما «البروج» فالسورة «وردت في تثبيت المؤمنين وتبصيرهم على أذى أهل مكة وتذكيرهم بها جرى على من تقدمهم من التعذيب على الإيمان حتى يقتلوا بهم»^(٤).

وابن الزبير الغرناطي يجعل مجيء الإخبار عن الوعيد الأخروي ولما لم يقع بعد وحالهم التكذيب بجميعة مكن للفظ بالمستقبل ليطابق الإخبار؛ لأنه عما يأتي ولم يقع بعد، فجاء بها

(١) "التفسير" ١١/ ١١٥، ١١٦.

(٢) السابق ١١/ ١٠٤.

(٣) السابق ١١/ ١٠٣.

(٤) السابق ١١/ ١٠٩.

يطابقه في استقبال، وأما آية «البروج» فقد تقدمها ﴿هَلْ أُنْتُكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ * فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ﴾ [البروج: ١٧، ١٨]. «وحديث هؤلاء وأخذهم بتكذيبهم قد تقدم ومضى زمانه، وهؤلاء مستمرون على تكذيبهم فقال: ﴿فِي تَكْذِيبٍ﴾ وجيء بالمصدر؛ ليحرز تماذيه، وأن ذلك شأنهم أبداً»^(١).

فبحث المتشابه ليس لتفضيل أحد التركيبين على الآخر وإنما بحث في مزيتين وما عرض لهما من معانٍ إضافية زائدة على أصل المعنى بسبب من المعاني والأغراض التي اكتنفتهما فتكيفاً بكيفيات تلاءم سياقهما وتناسبه. ويظهر ذلك بجلاء في تغير المنهاج فيما اطرده واستمر فيه ترتيب واحد، كما في محاجة إبراهيم للنمرود في قوله: ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُعْجِي وَيُعِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٨]. قال الإمام: «لقائل أن يقول: إنه تعالى قدم الموت على الحياة في آيات منها قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أََمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨].

وقال: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾ [الملك: ٢]. وحكى عن إبراهيم أنه قال في ثنائه على الله تعالى: ﴿وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِي﴾ [الشعراء: ٨١]. فلا ي سبب قدم في هذه الآية ذكر الحياة على الموت حيث قال: ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُعْجِي وَيُعِيمُ﴾.

والجواب: لأن المقصود من ذكر الدليل إذا كان هو الدعوة إلى الله تعالى وجب أن يكون الدليل في غاية الوضوح، ولا شك أن عجائب الخلقة حال الحياة أكثر، وإطلاع الإنسان عليها أتم، فلا جرم وجب تقديم الحياة ههنا في الذكر^(٢).

ومن ذلك رده التغيرات في وضع صفة مكان أخرى إلى المقاصد والأغراض، كما في سورة «آل عمران» في قوله تعالى: ﴿مِنْ قَبْلُ هُدىً لِلنَّاسِ﴾ بعد قوله في «البقرة»: ﴿هُدىً لِلثَّقَلَيْنِ﴾ ذكر أن: «فيه لطيفة وذلك لأننا ذكرنا في سورة «البقرة» أنها إنما قال: ﴿هُدىً لِلثَّقَلَيْنِ﴾ لأنهم هم المتفعون به، فصار من الوجه هدى لهم لا غيرهم، أما ههنا فالمنظرة كانت مع

(١) «ملاك التأويل» ٢/ ١١٤١، ١١٤٢ بتصرف.

(٢) «التفسير» ٣/ ٢٢.

النصارى، وهم لا يهتدون بالقرآن فلا جرم لم يقل ههنا في القرآن أنه هدى بل قال: إنه حق في نفسه سواء قبلوه أو لم يقبلوه، وأما «التوراة» و«الإنجيل» فهم يعتقدون في صحتها ويدعون بأننا إنما نتقول في ديننا عليهما فلا جرم وصفهما الله تعالى لأجل هذا التأويل بأنها هدى»^(١).

وتأمل دقة اللفظ القرآني وأن منبع ذلك كله ملائمة الأغراض ومطابقتها، فلما كانت «آل عمران» في محاجة النصارى ومناظرتهم نزعت بخصوصية الوصف الذي جاءت به «البقرة» إلى العموم؛ ليدل على أنه حق في نفسه سواء اهتمدوا به أم لم يهتمدوا.

وتارة تتقارب الأغراض وتكاد تتحد فتأتي اللفظة لتنبه على المفارقة وتضع شارة تمايز بين السياقين، كما في قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ مَا عَرَفَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّدَكَ فَعَدَّلَكَ * فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار: ٦ - ٨]. اعلم أنه سبحانه لما أخبر في الآية الأولى عن وقوع الحشر والنشر^(٢) ذكر في هذه الآية ما يدل عقلاً على إمكانه أو على وقوعه، وذلك من وجهين، الأول: أن الإله الكريم الذي لا يجوز من كرمه أن يقطع موائد نعمه عن المذنبين، كيف يجوز في كرمه ألا ينتقم للمظلوم من الظالم؟ الثاني: أن القادر الذي خلق هذه البنية الإنسانية ثم سواها وعدلها إما أن يقال: إنه خلقها لا لحكمة أو لحكمة.. وهو أنه خلق الخلق لحكمة عائدة إلى العبد... فثبت أن الاعتراف بوجود الإله الكريم الذي يقدر على الخلق والتسوية والتعديل يوجب على العاقل أن يقطع بأنه سبحانه يبعث الأموات ويحشرهم، وذلك يمنعهم من الاعتراف بعدم الحشر والنشر، وهذا الاستدلال هو الذي ذكر بعينه في سورة «التين» حيث قال: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ إلى أن قال: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدَ بِالْدِينِ﴾ [التين: ٤-٧]. وهذه المحاجة تصلح مع العرب الذين كانوا مقرين بالصانع وينكرون الإعادة، وتصلح أيضاً مع من ينفي الابتداء والإعادة معاً؛ لأن الخلق المعدل يدل على الصانع وبواسطته يدل على صحة القول بالحشر والنشر، فإن قيل: بناء هذا

(١) التفسير " ١٣٣ / ٣ .

(٢) أي قوله: ﴿عَلِمْتَ نَفْسَ تَأَفَّدَتْ وَلَحَرَّتْ﴾.

الاستدلال على أنه تعالى حكيم، ولذلك قال في سورة «التين» بعد هذا الاستدلال: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ الْخَافِينَ﴾ فكان يجب أن يقول في هذه السورة: «ما غرك بربك الحكيم» الجواب: أن الكريم يجب أن يكون حكيماً؛ لأن إيصال النعمة إلى الغير لو لم يكن مبنياً على داعية الحكمة لكان ذلك تذبذباً لا كرمًا. أما إذا كان مبنياً على داعية الحكمة فحينئذ يسمى كرمًا، إذا ثبت هذا فنقول: كونه كريماً يدل على وقوع الحشر من وجهين كما قررناه، أما كونه حكيماً فإنه يدل على وقوع الحشر من هذا الوجه الثاني، فكان ذكر الكريم ههنا أولى من ذكر الحكيم، هذا هو تمام الكلام في كيفية النظم^(١).

فبنى الاستدلال في الآيتين على كونه تعالى حكيماً ولكن وصف الكريم نبه على خصوصية زائدة في سياق «الانفطار» فهي وإن اتفقت مع «التين» في إثبات وقوع الحشر والنشر والاستدلال عليه بقدرته تعالى على الخلق والتسوية والتعديل إلا أنه داخلها معنى آخر اقتضى اختيار وصف الكريم دون الحكيم، وهذا المعنى هو ما تضمنته السورة من الوعد والوعيد الأخروي.

وفي سياق آخر يحيل اطراد الأسلوب على اتفاق المعاني والأغراض، كما في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى﴾ [النجم: ٣٠]. يقول فيها: «قدم العلم بمن ضل على العلم بالمهتدي في كثير من المواضع، منها في سورة «الأنعام»، ومنها في سورة «ن»، ومنها هذه السورة؛ لأن في المواضع كلها المذكور نبيه ﷺ والمعادون، فذكرهم أولاً تهديداً لهم وتسلياً لقلب نبيه عليه الصلاة والسلام^(٢).

فاختلاف وجوه التصرف في الألفاظ صورة لاختلاف المقاصد، فالمقاصد والأغراض تنزع بالألفاظ نحو الثبات أو التغير، وتعمل على توجيه اللغة بما يوافق تلك الأغراض المتوخاة، وهذا أصل الدرس البلاغي ومذاق أسرارهِ ولطائفهِ، فأقدار المعاني تختلف باختلاف المقامات؛ لأن اختلافها يسترعي أوصافاً وخصوصيات ينجر إليها النظم ويتأثر بها.

(١) "التفسير" ٧٤/١١.

(٢) "التفسير" ٢٦٧/١٠.

ونوع ثالث يعول في تأويل تغيرات النظم على ترتيب السور ويجعل التغير مناسباً لوقوعها متأخرة عن تلك الآية، فتقديم السورة يوجب اعتبارات نظامية تناسب كونها ابتداء فيتكيف النظم بكيفيات تلائم ذلك الموقع وتأتي الجملة المتشابهة بناءً عليها وامتداداً لها، ويتم ذلك من خلال تحولات تطرأ على نظم الجملة الأولى فتعيد أصل المعنى وتنبه على الزيادة من خلال بعض التحويلات التي تحفز الذهن للتأمل والارتداد على الأصل؛ ليتبين حسن موقعها في تلك، فكان علم التشابه بمثابة كشف لقصة المعنى داخل النظم ومراحل نموه من خلال تغيرات الألفاظ والتراكيب، وكل ذلك عمل في نسيج اللغة، ويوضح ما ذكرت تحليله للتشابه بين قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ * فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ يَمَّا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [البقرة: ٥٨، ٥٩]. وقوله: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ * فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ يَمَّا كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ١٦١، ١٦٢].

ذكر «أن فيها سؤالات، السؤال الأول: لم قال في سورة «البقرة»: ﴿وَإِذْ قُلْنَا﴾ وقال في «الأعراف»: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ﴾؟ الجواب: أن الله تعالى صرح في أول القرآن بأن قائل هذا القول هو الله تعالى؛ إزالة للإبهام ولأنه ذكر في أول الكلام: ﴿أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ ثم أخذ يعدد نعمه نعمة نعمة فاللائق بهذا المقام أن يقول: ﴿وَإِذْ قُلْنَا﴾ أما في سورة «الأعراف» فلا يبقى في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ﴾ إبهام بعد تقديم التصريح به في سورة «البقرة».

السؤال الثاني: لم قال في «البقرة»: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا﴾ وفي «الأعراف»: ﴿اسْكُنُوا﴾ الجواب: الدخول مقدم على السكون ولا بد منهما فلا جرم ذكر الدخول في السورة المتقدمة والسكون في السورة المتأخرة.

السؤال الثالث: لم قال في «البقرة»: ﴿فَكُلُوا﴾ بالفاء وفي «الأعراف»: ﴿وَكُلُوا﴾ بالواو؟ والجواب ههنا: هو الذي ذكرناه في قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَكَلَّا مِنْهَا رَعْدًا﴾ وفي «الأعراف»: ﴿فَكَلَّا﴾.

السؤال الرابع: لم قال في «البقرة»: ﴿تَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ﴾ وفي «الأعراف»: ﴿تَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ﴾؟ الجواب: الخطايا جمع الكثرة والخطيئات جمع السلامة فهو للقلة، وفي سورة «البقرة» لما أضاف ذلك القول إلى نفسه فقال: ﴿وَإِذْ قُلْنَا أَذْخُلُوا هَذِهِ الْآفِرِيَّةَ﴾ لا جرم قرن به ما يليق جوده وكرمه وهو غفران الذنوب الكثيرة فذكر بلفظ الجمع الدال على الكثرة، وفي «الأعراف» لما لم يصف ذلك إلى نفسه بل قال: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ﴾ لا جرم ذكر ذلك بجمع القلة، فالحاصل أنه لما ذكر الفاعل ذكر ما يليق بكرمه من غفران الخطايا الكثيرة وفي «الأعراف» لما لم يسم الفاعل لم يذكر اللفظ الدال على الكثرة.

السؤال الخامس: لم ذكر قوله: ﴿رَعْدًا﴾ في «البقرة» وحذفه في «الأعراف»؟ الجواب عن هذا السؤال كالجواب في الخطايا والخطيئات؛ لأنه لما أسند الفعل إلى نفسه لا جرم ذكر معه الإنعام الأعظم وهو أن يأكلوا رعدًا، وفي «الأعراف» لما لم يسند الفعل إلى نفسه لم يذكر الإنعام الأعظم فيه.

السؤال السادس: لم ذكر في «البقرة»: ﴿وَأَدْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ وفي «الأعراف»: ﴿وَأَدْخُلُوا﴾؟ الجواب: الواو للجمع المطلق فالمخاطبون بقوله: ﴿وَأَدْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ يحتمل أن يقال: إن بعضهم كانوا مذبذبين والبعض الآخر ما كانوا مذبذبين، فالمذنب لابد أن يكون اشتغاله بحط الذنوب مقدمًا على الاشتغال بالعبادة؛ لأن التوبة عن الذنب مقدمة على الاشتغال بالعبادة المستقبلية لا محالة، فلا جرم كان تكليف هؤلاء أن يقولوا أولًا: ﴿حِطَّةٌ﴾ ثم ﴿وَأَدْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾، وأما الذي لا يكون مذبذبًا فالأولى به أن يشتغل أولًا بالعبادة ثم يذكر التوبة، ثانيًا: على سبيل هضم النفس وإزالة العجب في فعل تلك العبادة فهؤلاء يجب أن يدخلوا الباب سجدًا أولًا ثم يقولوا: حطة ثانيًا، فلما احتمل كون أولئك المخاطبين منقسمين إلى هذين القسمين لا جرم ذكر الله تعالى حكم كل واحد منهما في سورة أخرى.

السؤال السابع: لم قال: ﴿وَسَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ في «البقرة» مع الواو، وفي «الأعراف»: ﴿سَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ من غير الواو؟ الجواب: أما في «الأعراف» فذكر فيه أمرين: أحدهما: قول الحطة وهو إشارة إلى التوبة، وثانيها: دخول الباب سجداً وهو إشارة إلى العبادة، ثم ذكر جزأين: أحدهما قوله تعالى: ﴿تَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ﴾ وهو واقع في مقابلة ﴿وَقُولُوا حِطَّةً﴾، والآخر قوله: ﴿سَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ وهو واقع في مقابلة دخول الباب سجداً فترك الواو يفيد توزع كل واحد من الجزأين على كل واحد من الشرطين. وأما في سورة «البقرة» فيفيد كون مجموع المغفرة والزيادة جزاءً واحداً لمجموع الفعلين أعني دخول الباب وقول الحطة.

السؤال الثامن: قال الله تعالى في سورة «البقرة» ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا﴾ وفي «الأعراف»: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا﴾ فما الفائدة في زيادة كلمة «منهم» في «الأعراف»؟ الجواب: سبب زيادة هذه اللفظة في سورة «الأعراف» أن أول القصة ههنا مبني على التخصيص بلفظ «من» لأنه تعالى قال: ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٩]. فذكر أن منهم من يفعل ذلك ثم عدد صنوف إنعامه عليهم وأوامره لهم فلما انتهت القصة قال الله تعالى: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ فذكر لفظه «منهم» في آخر القصة كما ذكرها في أول القصة؛ ليكون آخر الكلام مطابقاً لأوله فيكون الظالمون من قوم موسى بإزاء المهادين منهم فهناك ذكر أمة عادلة، وههنا ذكر أمة جابرة، وكلتاها من قوم موسى، فهذا هو السبب في ذكر هذه الكلمة في سورة «الأعراف»، وأما في سورة «البقرة» فإنه لم يذكر في الآيات التي قبل قوله: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ تمييزاً وتخصيصاً حتى يلزم في آخر القصة ذكر ذلك التخصيص فظهر الفرق.

السؤال التاسع: لم قال في «البقرة»: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا﴾ وقال في «الأعراف»: ﴿فَأَرْسَلْنَا﴾ الجواب: الإنزال يفيد حدوثه في أول الأمر والإرسال يفيد تسلطه عليهم واستنصاله لهم بالكلية، وذلك إنما يحدث بالآخرة.

السؤال العاشر: لم قال في «البقرة»: ﴿يَمَّا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ وفي «الأعراف»: ﴿يَمَّا كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾؟ الجواب: أنه تعالى لما بين في سورة «البقرة» كون ذلك الظلم فسقاً اكتفى بلفظ الظلم في سورة «الأعراف» لأجل ما تقدم من البيان في سورة «البقرة»، والله أعلم^(١).

وفي هذا النص يكشف الرازي ما وراء الفروق من خصوصيات يتعلق بعضها بالجملة والبناء عليها، وبعضها بالبناء على المعنى بين سور متباعدة يجمعها نطاق دلالي مشترك والقسم الخاص بتناسب الكلمات داخل الجملة أفاد في أكثره من علماء المتشابه^(٢) قبله وكرر ما ذكره مع بيان شارح لما أجملته عباراتهم ولا يخلو الأخذ من توجيهه يضيفه الإمام بالنظر إلى جانب آخر من جوانب النظم، نحو ما جاء عند الكرمانى في قوله: «وفي هذه السورة: ﴿وَسَنَزِيدُ﴾ وفي «الأعراف» ﴿سَنَزِيدُ﴾ بغير واو؛ لأن اتصالها في هذه السورة أشد؛ لاتفاق اللفظين، واختلفا في الإعراب؛ لأن اللاتق «سنزيد» محذوف الواو؛ ليكون استئنافاً للكلام.

وفي هذه السورة: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا﴾ وفي «الأعراف»: ﴿ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾؛ لأن في «الأعراف»: ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى﴾ ولقوله: ﴿مِنْهُمْ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ﴾^(٣).

فخالف الكرمانى في عده لها لفظين متفقين وجعل طرح الواو لأجل الترتيب فمكن لتوزيع كل لفظ ورده إلى ما يناسبه: فالتوبة قابليها بالغفران والعبادة بالإحسان، أما في سورة «البقرة» فلما كان دخول الباب سجداً لبيان الكيفية لم يترتب عليه الجزء منفرداً وإنما تعلق الجزء بمجموع الفعلين لترتب أحدهما على الآخر بخلاف «الأعراف».

(١) "التفسير" ٥٢٦/١ - ٥٢٧.

(٢) ينظر: "درة التنزيل" الاسكافي ٢٣٣-٢٤٥، "البرهان" والكرمانى ٢٨-٣٠.

(٣) "البرهان" ص ٢٩، ٣٠.

وما ذكره في سبب زيادة «من» في قوله: ﴿ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ فقه واع لما أجمله الكرمانى واكتفى بالدلالة عليه بوضع الشاهد ففتح وجه المناسبة بين الموقعين فبناء القصة ابتداء على التخصيص نزع بالآخر إلى استدعاء تلك الزيادة لتحقيق مضمون أول الكلام .

بينما نجد بعض التوجيهات تفرد بها الإمام وعول فيها على اعتبار موقع الآيات المتشابهة فتقديم آية «البقرة» لخصوصيات في نظمها أوجبت ذلك الترتيب وتأخير آية «الأعراف» استلزم نوعاً من التأليف يقارب أصل المعنى في «البقرة» ويتعد بمسافات بموجب مجيئها تالية لها، فبناء الفعل للمجهول في «الأعراف» بعد إسناده لذات الله في «البقرة» نوعاً من الإحالة على ذلك السياق ومبنيّاً عليه.

واختيار ﴿أَسْكُنُوا﴾ بعد ﴿أَدْخُلُوا﴾؛ لأن الأصل أن السكنى تالية للدخول ومرتبة عليه، وتقديم المؤخر في سورة «الأعراف» ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ و﴿وَأَدْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ خرج في تأويلها عن سياق الجملة التي جرى فيها التقديم إلى تعليقها بنظيرتها وإجرائها عليها فأفاد تصوير حالتين من أحوال بني إسرائيل فمنهم مقترف للآثم ومنهم مجانبه، فمقارب الآثم ينبغي عليه التوبة ثم الدخول فقدم قول الحطة لذلك، والمجانب أردف الإنعام عليه بقول الحطة إزالة لبوادر العجب في نفسه فيزاد بذلك على ما ذكره العلماء قبله من أن تقديم الدخول على قول الحطة في سورة «البقرة» لأن السابق فيها ﴿أَدْخُلُوا﴾ فيبين كيفية الدخول^(١) فترتيبها على ما قبلها يمكن للاختيار ويكشف عن حسن موقعها من النظم، بينما ضمها إلى أصلها في سورة «البقرة» يزيد في معناه وتكتمل عنده الدلالة، وزاد البقاعي اعتبار حال الأغراض في التقديم فسياق الإنذار الذي هو مقصود «الأعراف» زحزح ﴿قُولُوا حِطَّةٌ﴾ وأزاحها عن مستقرها في آية «البقرة»؛ ليناسب ما ذكره من مثالب بني إسرائيل ويقوي الإنذار و «ليكون أول قارع للسمع مما أمروا به من العبادة مشعراً بعظيم ما تحملوه من الآثام»^(٢). وفي سورة «البقرة» جاءت في سياق تعداد النعم للامتنان والاستعطاف فجاءت

(١) «البرهان» الكرمانى ٢٩، ٢٨ .

(٢) «نظم الدرر» ١٣٩/٣ .

على الأصل حيث قدم نعمة الدخول ورتب عليها طلب المغفرة فلما أعيدت القصة وداخلها معنى الإنذار والتقدير عليهم قدم طلب المغفرة؛ ليتبين ما آل إليه حالهم من الطغيان والجبروت.

وترتيب الإرسال في سورة «الأعراف» على الإنزال في سورة «البقرة» أفاد معنى زائداً على مجرد حدوث العذاب وهو تصوير التدرج فيه يقول فيها: «فلأن الإنزال لا يشعر بالكثرة والإرسال يشعر بها، فكانه تعالى بدأ بإنزال العذاب القليل ثم جعله كثيراً»^(١) فتسلط العذاب عليهم بالكلية مرحلة تالية تناسب مع نمو اللغة والتراكيب في الآية وتطورها من الامتنان إلى التهديد والإنذار.

وصورة أخرى لهذا النوع في سورة «النحل» في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل: ١٨]. بعد أن جاء ذات المعنى في «إبراهيم» بقوله: ﴿وَأَتْنِكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤]. وذلك لـ «أنه لما بين أن الإنسان لا يمكنه القيام بأداء الشكر على سبيل التفصيل قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي غفور للتقصير الصادر عنكم في القيام بشكر نعمه، رحيم بكم حيث لم يقطع نعمه عليكم بسبب تقصيركم»^(٢).

فالنص توزيع لما جاء في «النحل» من أوصاف الإلهية على ما جرى في «إبراهيم» من أوصاف الإنسان، فالظلم قابله بالغفور، والكفار قابله بالرحيم فتولد من بين الفاصلتين معنى متكاملًا وهو «إن كنت ظلوماً فأنا غفور، وإن كنت كفاراً فأنا رحيم أعلم عجزك وقصورك فلا أقابل تقصيرك إلا بالتوفير ولا أجازي جفاء إلا بالوفاء»^(٣).

(١) "التفسير" ٣٩٠/٥.

(٢) "التفسير" ١٩٥/٧.

(٣) السابق ١٠٠/٧.

وهذا النمط من التحليل يكشف عن الزيادات التي تحصل في أصول المعاني، وأن سبيل الوصول إليها يكون برد التغيرات وعطفها على أصولها في السياق السابق وملاحظة ما وراء العدول من تطور في المعنى ونمو للدلالة فالبناء على المعنى يخرج الألفاظ من التكرار إلى التكامل.

والجمع بين المعنيين لا يقتضي في كل سياق زيادة وإنهاء للمعنى الآخر بل يأتي أحياناً قسمياً مكتملاً لذلك المعنى كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأحقاف: ١٣]. قال فيها: «وقد ذكرنا تفسير هذه الكلمة في سورة «السجدة» والفرق بين الموضعين أن في سورة «السجدة» ذكر أن الملائكة ينزلون ويقولون: ﴿أَلَا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾ وههنا رفع الواسطة من البين وذكر أنه ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ فإذا جمعنا بين الآيتين حصل من مجموعهما أن الملائكة يبلغون إليهم هذه البشارة، وأن الحق سبحانه يسمعهم هذه البشارة من غير واسطة»^(١).

فلم يجعلها إحالة إلى بشرى الملائكة؛ لأنه جاء قبلها: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأحقاف: ١٠]. فتناسب تهديد الظالمين إسناد بشرى المؤمنين إلى ذاته العلية تعظيماً لهم.

وذلك من خلال وجوه مختلفة في تصريف الكلام تنبه على سياقات أخرى إليها وتستحضرها، ويبيء لذلك بناء الجملة وتأسيسها فتوضع وضعاً تفتقر فيه إلى غيرها، مما يحرك الذهن إلى استدعاء سياقات مماثلة لبيان وجه الكلام وإيضاح معناه، كما في قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ يُخَيِّبُكُمْ ثُمَّ يُبْسِتُكُمْ﴾. قال فيها: «فإن قيل: هذا الكلام مذكور لأجل جواب من يقول: فهذا القاتل كان منكراً لوجود الإله ولوجود يوم القيامة، فكيف يجوز إبطال كلامه بقوله: ﴿قُلِ اللَّهُ يُخَيِّبُكُمْ ثُمَّ يُبْسِتُكُمْ﴾ وهل هذا إلا إثبات للشيء بنفسه وهو باطل، قلنا: إنه تعالى ذكر الاستدلال بحدوث الحيوان والإنسان على وجود الفاعل الحكيم في القرآن مراراً

(١) "التفسير" ١٠/١٣ يقصد به «السجدة»: «حم السجدة»، وهي سورة «فصلت».

وأطوارًا، فقلوه ههنا: ﴿قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ﴾ ﴿إشارة إلى تلك الدلائل التي بينها وأوضحها مرارًا وليس المقصود من ذكر هذا الكلام إثبات الإله بقول الإله، بل المقصود منه التنبيه على ما هو الدليل الحق القاطع في نفس الأمر﴾.

ولما ثبت أن الإحياء من الله تعالى، وثبت أن الإعادة مثل الإحياء الأول، وثبت أن القادر على الشيء قادر على مثله، ثبت أنه تعالى قادر على الإعادة، وثبت أن الإعادة ممكنة في نفسها، وثبت أن القادر الحكيم أخبر عن وقت وقوعها فوجب القطع بكونها حقة^(١).

فالرازي يجعلها جوابًا مرتبًا على قولهم: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ [الجن: ٢٤]. بينما ردها الزمخشري إلى ما قبلها وجعلها جوابًا لها، فجاء إثبات الإحياء لله تبكيًا لذلك القول؛ لأنهم «لما أنكروا البعث وكذبوا الرسل وحسبوا أن ما قالوه قول مبكت، ألزموا ما هم مقرون به: من أن الله عز وجل هو الذي يحييهم ثم يميتهم، وضم إلى إلزام ذلك إلزام ما هو واجب الإقرار به، أنصفوا وأصغروا إلى داعي الحق، وهو جمعهم إلى يوم القيامة، ومن كان قادرًا على ذلك كان قادرًا على الإتيان بآبائهم وكان أهون شيء عليه^(٢)».

فالابتداء بإثبات الخلق الأول لله مع إقرارهم به وثبوتهم لديهم تهيئة واستدراج للإلزامهم بما ينكرونه مع أن الواجب الإقرار به، وضم هذا الأمر إلى ما هم مقرون به حرك دواعي التأمل والتدبر لديهم؛ ليعلموا أن من كان قادرًا على ذلك ابتداء كان بعثهم وبعث آبائهم أهون شيء عليه.

وتعليقها بما قبلها وإن كان فيه تبكيك لقولهم إلا أنه يعطل الفائدة في دلالة الإثبات التي ينميها رد الجملة إلى رأس الكلام في قوله: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾. وبحول دون استيعاب ما تشريته الآية من مقاصد باعتبار موقعها من الآيات السابقة؛ لأن قطعها عن تلك الجمل وحصر دلالتها في الرد على إنكار البعث يحول دون اكتمال الدلالة واستخراج ما تحت الإثبات

(١) "التفسير" ٦٧٩/٩.

(٢) "الكشاف" ٢٩٢/٤.

من مضامين بقوله: ﴿اللَّهُ يُحْيِيكُمْ﴾ [الجاثية: ٢٦]. وإن كان توطئة لإثبات اليوم الآخر إلا أن الإثبات بهذه الصورة أعاد للذهن سياق الإنكار في قولهم: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤]. فالتفت الكلام إليه وأثبت الإلهية مع الدليل القاطع وهو النشأة الأولى استدلالاً بها على وجود الفاعل ثم بنى عليها الرد على منكري يوم القيامة في قوله: ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [الجاثية: ٢٦]. لذلك كان حصر دلالتها وتوجيهها للرد على قولهم: ﴿قَالُوا أَتُؤْتُوا بَابِنَا﴾ [الجاثية: ٢٥] فحسب يخل بالاحتجاج عليهم.

وأشار الإمام إلى أن غياب الاستدلال والتعويل على الإثبات المجرد مع قائل حاله الإنكار لوجود الإله أحدث تبايناً استدعى التأمل والتفكير وأعاد للذهن نمط الرد في سياقات مشابهة ويؤكد ما ذكرت قوله: «فقوله ههنا: ﴿قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ﴾ [الجاثية: ٢٦] إشارة إلى تجريد الإثبات عن الدلائل في مقام الإنكار ليس المقصود منه توافر الكلام على الإثبات وإنما للتنبيه على الدليل وكأن الإثبات نتيجة قاطعة لتلك السياقات.

ونحو ذلك جاء في بيان موقع قوله تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ﴾ [النحل: ٢٥]، بعد قوله: ﴿قَالُوا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ فانجر الكلام بعدها إلى التهديد والوعيد وصرف إليه وأعرض عن الشبهة والرد عليها، فأحال ذلك القطع إلى استحضر نظائرها في مواقع أخرى من الكتاب. ذكر ذلك في قوله: «فإن قيل: إنه تعالى لما حكى عن القوم هذه الشبهة لم يجب عنها بل اقتصر على محض الوعيد فما السبب فيه؟

قلنا: السبب فيه أنه تعالى بين كون القرآن معجزاً بطريقين، الأول: أنه ﷺ تحداهم بكل القرآن، وتارة بعشر سور، وتارة بسورة واحدة، وتارة بحديث واحد، وعجزوا عن المعارضة، وذلك يدل على كونه معجزاً. الثاني: أنه تعالى حكى هذه الشبهة بعينها في آية أخرى وهو قوله: ﴿اٰكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمَلَّى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَاٰصِيْلًا﴾ [الفرقان: ٥]. وأبطلها بقوله: ﴿قُلْ اَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ الْغَيْبَ فِي السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ﴾ [الفرقان: ٦]. ومعناه أن القرآن مشتمل

على الإخبار بهذين الطريقتين وتكرر شرح هذين الطريقتين مراراً كثيرة لا جرم اقتصر في هذه الآية على مجرد الوعيد ولم يذكر ما يجري مجرى الجواب على هذه الشبهة، والله أعلم^(١).

ويجعل البقاعي قوله: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ﴾ من تمام ما قبلها؛ لأن صدهم بيان عن ضلالتهم، و«ليحملوا» بيان آخر لصدهم عن الهدى وهو أن ذلك الصد تعدد على غيرهم فأضلّوهم ومن أضل كان عليه وزر من ضل^(٢).

وزاد الرازي في عنايته بتشابه القرآن وإبراز ما تحت نظمه من تألف وتوافق حرصه على اطراد أساليبه ولغته فلا يضم فيه شيء من خارج وإنما يلاحظ ما اعتيد مثله وجرى عليه نظم القرآن، كما في توجيه موقع «إذ» في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾ [البقرة: ٣٠] يقول: «في» «إذ» قولان، أحدهما: أنه صلة زائدة إلا أن العرب يعتادون التكلم بها والقرآن نزل بلغة العرب. الثاني: وهو الحق: أنه ليس في القرآن مالا معنى له وهو نصب بإضمار «اذكر»، والمعنى: اذكر لهم إذ قال ربك للملائكة، فأضمر هذا لأمرين، أحدهما: أن المعنى معروف، والثاني: أن الله تعالى قد كشف ذلك في كثير من المواضع كقوله: ﴿وَأَذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ﴾ [الأحقاف: ٢١]. وقال: ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ﴾ [ص: ١٧] و﴿وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ [إذ أرسلنا إليهم اثنين] [يس: ١٣، ١٤]. والقرآن كله كالكلمة الواحدة ولا يبعد أن تكون هذه المواضع المصروفة نزلت قبل هذه السورة فلا جرم ترك ذلك ههنا اكتفاء بذلك المصريح^(٣).

وزاد في بيانه في إنكاره على الزمخشري تأويله وجه النصب والجر في قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَنْرِبِ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الزخرف: ٨٨]. قال صاحب «الكشاف»: ... أن يكون النصب والجر على إضمار حرف القسم وحذفه، والرفع على قولهم: أيمن الله وأمانة الله

(١) "التفسير" ١٩٨/٧.

(٢) "نظم الدرر" ٢٥٨/٤.

(٣) "التفسير" ٣٨٤، ٣٨٣/١.

ويمين الله، يكون قوله: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ جواب القسم كأنه قيل: وأقسم بقبيله: يا رب أو قبيله: يا رب قسمي، وأقول: هذا الذي ذكره صاحب «الكشاف» متكلف أيضاً وههنا إضمار امتلاء القرآن منه وهو إضمار «اذكر»، والتقدير: واذكر قبيله: يا رب، وأما القراءة بالجر، فالتقدير: واذكر وقت قبيله: يا رب، وإذا وجب التزام الإضمار فلأن يضمن شيئاً جرت العادة في القرآن بالتزام إضماره أولى من غيره، وعن ابن عباس أنه قال في تفسير قوله: ﴿وَقِيلَ يَكْرَبُ﴾: المراد وقيل: يا رب، والهاء زيادة^(١).

وهنا أبعد الإمام الشاؤ في دراسته لبيان المتكلم و جعله سياقاً واحداً في تناسب معانيه وتنظيم عناصره، وفي وحدة تأليفه واتساق ألفاظه، فإذا حذفته منه كلمة لا يقدرها الدارس بتأويله، وإنما يعود إلى فلي ألفاظ المتكلم وتتبع السياقات المتشابهة فينظر ما أظهر هناك ويضمّره في هذا السياق، ولا يقدر من معجم اللغة؛ لأن كل لفظة لم تجر في بيان ذلك المبين تعد دخيلة عليه وغريبة في أرضه فأنس الألفاظ المضمرة وتمكنها يكون بأخية نظائرها.

وهذا الجانب وإن كان نبهه من المحافظة على لغة الإعجاز حتى لا يدخلها بيان بشري فطلب سلامة اللغة وبيان استقامتها بالتأويلات التي يلجأ إليها أصحاب المعاني والنحاة لا بد أن يضبطها سياق القرآن، إلا أنه يعود بفائدة كبيرة على دراسة الشعر والبيان عامة ويضبط حركة ما طوي من معاني وأضمر من ألفاظ بها ظهر في كلام المتكلم وبهذا نسلم قيادة اللغة وزمامها إلى صاحب البيان، ويصبح بياناً متفقاً متناسباً له خصوصية واحدة وسمناً متشاكلاً وهذا توجيه بالغ من الإمام يحدد به مدى تدخل القارئ في تأويل الكلام وأن الذي يناط بالدارس ليس السلامة اللغوية؛ لأن المعهود في كلام المبين رعايتها، وإنما يراد منه الخصوصية في تلك السلامة التي توحد بين سياقات المتكلم وتحفظ تناسب نظمته وتأليفه.

وحرك الرازي بعلم المناسبة قضية مرتبطة بالإعجاز جفت، الأقلام في تتبعها وتساعدت النصوص في التنبيه على أهميتها وأنه لا سبيل إلى دركها وإحاطة العلم بها ومزاولتها ولم يحل

(١) "التفسير" ٦٥٠/٩.

ما يكتنف غيبها من غموض لتشعث مسالكها والتباس نهجها دون الإلحاح على مدارستها، وهذه القضية هي التوصل بالكلام إلى أقدار المتكلمين؛ لأن منازلهم في البلاغة «من حيث ما نطقوا وأبانوا».

فالأبنية اللغوية لها زوايا متعددة في كل منها خبايا تسكن فيها أحوال مختلفة ومتنوعة وتحريك هذه الخبايا واستثارها ينبه على مستويين للبيان مستوى يتوصل به الوصول إلى الدلالة، وآخر يقف عند تصريف اللغة وطرائق تأليف نظومها واقتفاء آثار المتكلم في نظمها، والمستوى الثاني أي الذي تتجلى فيه صورة قائله في الترتيب والتأليف هو مناط الإعجاز والأصل فيه، فإذا حاد الدارس عن هذا المدخل حارت عليه السبل وتاه في محيط البيان ولججه المتداخلة. وقد أشار الخطابي إلى أن تداخل هذين المستويين سبب في تحير بعض الدارسين في وصف البلاغة المعجزة وأي شيء داخلها حتى أعجزت وقهرت الأطماع؟ «ولذلك صاروا إذا سئلوا عن تحديد هذه البلاغة التي اختص بها القرآن الفائقة في وصفها سائر البلاغات، وعن المعنى الذي يتميز به عن سائر أنواع الكلام الموصوف بالبلاغة قالوا: إنه لا يمكننا تصويره»^(١). فجاذب الباقلاني ذلك التساؤل وفتح باب البلاغة الخاصة التي تنعكس فيها صورة قائلها وملاحه وسماته من خلال تصريفه للغة؛ لأن التصريف ينزع باللغة من الخطاب الجمهوري إلى الخصوصية فتتشيع الدلالة بأنفاس قائلها وتحوم أحواله وخصوصياته في أبنية التراكيب فتستدل بالبيان على المبين «كما أنه إذا عرف خط رجل لم يشبهه عليه خطه حيث رآه بين الخطوط»^(٢)، وكذلك التأليف والترتيب يحمل هوية قائله ينسبه إذا اشتبه نسبه بغيره»^(٣).

(١) "بيان إعجاز القرآن" ص ٢٤.

(٢) "إعجاز القرآن" الباقلاني ص ١٢٠.

(٣) ينظر: "مراجعات بلاعية" دكتور أبو موسى ٢٢٦، و"الإعجاز البلاغي" ص ٤٣.

وزاد الرازي في هذا الباب وامتد به إلى ما خلف العادات الكلامية أو الأساليب المطردة من إحالة إلى قائلها ووجه تعلقها به، وما في ذلك من فوائد وأسرار لا تحصل صورتها مجتمعة في عبارة واحدة ولا يتفق للغة الإحاطة بها دفعة لاختلافها وتنوعها وإنما سبيلها انتهاج المتكلم لمسلك يستمر ويطرد فيكون بمثابة منارة تهدي إلى تلك المعاني المتكاثرة وتحفز الذهن إلى ارتياد ما يستتر في ضميرها من أحوال تدل على قائلها وتحيل عليه. وقد فتح ذلك في نص يدل على فقه واع بطرائق الإبانة، وأن حصر ذلك في حدود اللغة والتصرف فيها يحول دون استيعاب جميع مقاصد المتكلم وأغراضه، وأن الوصول إلى معرفة المبين وخصوصيته لا يكون إلا بتتبع سياقات كلامه وترتيب معانيه واستقراء كامل لمسلكه.

فشيوع نوع من التأليف ينبه على منزع أسلوبه وخصوصية بيانية تنطوي تحتها مقاصد لا تتناهى، فقد ذكر أن استمرار القرآن في تعقيب الوعيد بالوعد إذا كان السياق لمحض ذلك فإنه يتبع أحدهما بالآخر، أما إذا تضمن معنى آخر وجرى في تكميل سياق سابق لا يلتزم الإراداف كما في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ يَأْتِيَتِ اللَّهَ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ وَهُمْ لَا يَتَذَكَّرُونَ﴾ [آل عمران: ٢١] فالآية جاءت وصفاً لمن تولى وأعرض بعد إقامة الحجة في قوله: ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاءُ وَاللَّهُ بِصِيرِ الْإِبَادِ﴾ [آل عمران: ٢٠] (١).

ووراء الاستمرار في الاقتران بين الوعيد والوعد معانٍ وفوائد متكاثرة يقول فيها: «اعلم أنه سبحانه وتعالى ما ذكر في القرآن آية في الوعيد إلا وذكر بجانبها آية في الوعد، وذلك لفوائد، أحدها: ليظهر بذلك عدله سبحانه؛ لأنه لما حكم بالعذاب الدائم على المصيرين على الكفر وجب أن يحكم بالنعيم الدائم على المصيرين على الإيمان. وثانيها: أن المؤمن لا بد وأن يعتدل خوفه ورجاؤه على ما قال ﷺ: «لو وزن خوف المؤمن ورجاؤه لاعتدلا». وذلك

(١) ينظر: "التفسير" ١٧٦/٣.

الاعتدال لا يحصل إلا بهذا الطريق. وثالثها: أنه يظهر بوعده كمال رحمته وبوعيده كمال حكمته^(١).

فتأمل تراحم المعاني وتدققها من تحت تكرار هذا اللون واستمراره، وما في ذلك من إحياءات بمقاصد تتصل بالمبين وأحواله فهي تنبيه على عدله سبحانه وعلى كمال رحمته وكمال حكمته، وأحالت أيضًا إلى معاني إحصائية خلف تداخل الوعد والوعيد، وأنه سبيل لتحقيق التوازن والاعتدال النفسي للمؤمن فتكامل بذلك المقاصد وتتألف سياقات التشريع لتؤدي بيانًا متفقًا يصدق بعضه بعضًا.

والنص يؤكد على أن هذا الاقتران بينهما صار عادة مستمرة ونهجًا متكررًا ذكر ذلك في أكثر من موضع منها قوله: «اعلم أن عادة الله إذا ذكر وعدًا أو وعيدًا عقبه بها يضاده»^(٢). وفي آخر: «وهذا الترتيب مدار كل القرآن عليه»^(٣). وكونه عادة للمتكلم يوجب على المفسر أن يلحظ ما تحت الخطاب فليحق النظر بالنظر ولا يخرج الكلام مخرجًا بعيدًا عن المقابلة، كما جاء في تفسيره لقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُكُمْ خَزَنَتُ لَكُمْ فَاَنُؤَا خَزَنَتُكُمْ اَنِّي سِئْتُمْ وَقَدِمْوْا لَانْفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا اَنَّكُمْ مُلْكُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٣]. ذكر فيها أن «قوله: ﴿وَعْلَمُوا اَنَّكُمْ مُلْكُوهُ﴾ وفيه إشارة إلى أني إنما كلفتم بتحمل المشقة في فعل الطاعات وترك المحظورات لأجل يوم البعث والنشور والحساب، فلولا ذلك اليوم لكان تحمل المشقة في فعل الطاعات وترك المحظورات عبثًا وما أحسن هذا الترتيب، ثم قال: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ والمراد منه رعاية الترتيب المعبر في القرآن وهو أن يجعل مع كل وعيد وعدًا أو المعنى: وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلًا كبيرًا» [الأحزاب: ٤٧]^(٤).

(١) "التفسير" ١/ ٥٨٤.

(٢) السابق ١/ ٥٣٥.

(٣) السابق ٩/ ٥٦١.

(٤) السابق ٢/ ٤٢٤.

فجملته ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ نبهت على معنى الوعد وفتحت مجالاً دلاليّاً لحضور ذلك السياق ومداخلته بنقيضه فمجيئها جملة مصغرة في ساقه معنى التهديد والوعيد الذي تلاحت الجملة لتنمية دلالاته وإشباع سياقه فقد جاء النهي في قوله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَى فَأَعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢] ثم تابعت الجملة الثلاث وهي: ﴿وَقَدِّمُوا لِنَفْسِكُمْ﴾ و ﴿وَأَتَّقُوا اللَّهَ﴾ و ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلْكُوهُ﴾ لتبين قوة الإلزام وعظم الخطيئة على من أعرض عن التكليف وتعداه^(١)، ثم جاءت: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قبضاً وإيجازاً بما للمطيع من أجر وثواب، فكان هذه التهديدات تآرز بالدلالة نحو الإيجاز فضيقت مساحتها للتناسب مع ما قبلها من تصعيد لمعنى التهديد فاكتفى بالإيجاء إلى سياقات معهودة في الوعد لتكميل الدلالة. أو يكون الإيجاز مناسباً للمبالغة في التهديد لما في الإيجاء من فتح الدلالة أمام الذهن لتذهب النفس كل مذهب في تصور البشرى وما للمؤمن من عطاء ثواب لا تحيط به العبارة. لذلك جعلها كقوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾ أي أن الإيجاء جاء لذات الفائدة التي تولدت عن مطل البشرى في سورة «الأحزاب».

ومن العادات الأسلوبية تقديم الرحمة على الغضب والعذاب حيث قال: «ثم إنه تعالى افتتح هذه التكاليف بمحض اللطف وهو قوله: ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ﴾ [طه: ١٢] واختتمها بمحض القهر وهو ﴿فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى﴾ [طه: ١٦] تنبيهاً على أن رحمته سبقت غضبه، وإشارة إلى أن العبد لا بد له في العبودية من الرغبة والرغبة والرجاء والخوف، وعند الوقوف على هذه الجملة تعرف أن هذا الترتيب هو النهاية في الحسن والجودة، وأن ذلك لا يتأتى إلا من عالم بكل المعلومات»^(٢).

(١) "التفسير" ٢/ ٤٢٤.

(٢) "التفسير" ٨/ ٢٤٠، ٢٤١.

فاستدل بالترتيب على أن هذا الكلام لا يصدر إلا عن الإلهية الكاملة في علمها وإحاطتها بأحوال الإنسان ومداخل نفسه فيقدم ويؤخر رعاية لتلك 'اعتبارات فيوقع الكلام موقعًا يزيل ذلك الإيجاش فتتقاد للتكاليف راضية مقررة بعظمة منزلها.

وزاد في موضع آخر بيان تناسب هذا الترتيب مع المقاصد - «أن المقصود من الخلق إيصال الرحمة لا إيصال العذاب، قال عليه الصلاة والسلام حاكمًا عن رب العزة سبحانه: «خلقتهم ليربحوا على لا لأربح عليهم» وإذا كان كذلك فهو تعالى ابتداء بذكر أهل الثواب... لأن تقديم الأشرف على الأخسر في الذكر أحسن... تنبيهًا على أن إرادة الرحمة أكثر من إرادة الغضب»^(١).

فتقديم الرحمة للعناية ولكونها جارية على مقصد أصل حكاه الله عن نفسه وأن الأصل في الخلق إرادة الرحمة بهم والربح لهم، وأن الغضب عارض استلزمه إعراضهم وتمردهم على الحق لما جاءهم.

والإمام يستند في استنباطه تلك المعاني التي وراء عادات الترتيب على مواقعها في الأحاديث المنقولة عن الرسول عليه الصلاة والسلام والاستدلال بها على الخصائص الإلهية في النظم، وقد أحسن في إعمال السنة في نظم القرآن فأخرج ما ذكره من معاني من حدود الوهم إلى الحقيقة والحس، وجلاها بعبارات منطوقة وصريحة في الحديث فقوله: رحمته سبقت غضبه نبه على سر تقديم الرحمة وأن هذا الترتيب تجلية للطائف ربوبيته سبحانه، وأن خلقه للناس لينعم عليهم ويحسن إليهم لا لفائدة تنجي من ذلك الخلق وهذا كمال الربوبية. وهذا المسلك في دراسة الأساليب باب لطيف يحتاج إلى فطنة وحذق في ملاحظة انتساب معاني السنة في وصف أحوال الإلهية إلى التنبيهات المتولدة من أنماط ترتيب المعاني في القرآن وأحوال تنظيمها وما وراء ذلك من أوصاف تختص بقائلها وتدل عليه.

(١) "التفسير" ٣/٣١٩.

فالسنة ليست بيانًا مكملًا للتشريع فحسب، وإنما هي منطوق صريح لما تحت النظم من أحوال وخصوصيات، وبهذا يزيد في مدى التداخل بين الكتاب والسنة، وأن هذا التداخل يتعدى المعاني والمقاصد إلى أنها تشربت خصوصياته وفصلت ما أجمل من أسرار في تأليفه وترتيبه فأبانت عن إعجازه وشقت طريقًا أمام السالكين إليه فدلّت على أحوال الإلهوية التي تحللت نظمه واندست في تصريف تراكيبه. فالارتداد إلى السنة عضد ما نبه عليه العلماء من أن الإعجاز حادث عن المتزع الإلهي في تأليفه وتصريف نظمه؛ فالسنة تقع من القرآن موقع القرينة في السياق الواحد: لتداخل مقاصدها مع مقاصده وتشابه أحوالها مع أحواله فيصدق النص النص، ويقوى دلالته، فـ «كل حديث في القرآن أصله قرب أو بعد»^(١).

وهذا الضرب من الإبانة يسمى بالقرائن الخارجية وهي: ضرب من الدلالة المتفصلة حده التلمساني بـ «موافقة أحد المعنيين لدليل منفصل من نص أو قياس أو عمل»^(٢) أي أنها مسلك قائم على الاقتران والتضام بين نصوص من خارج يجمعها نطاق دلالي مشترك. وهذا يعمل على توسيع دلالة الخطاب مثلها في ذلك مثل دلالة الإشارة والإيحاء مسلك من مسالك الوصول إلى المعاني المستكنة في أعماق النصوص، فالسنة تمد دلالة القرآن وتجليها بعد الخفاء «وهذا عجيب في فهم القرآن لا يتنبه له إلا النادر من أهل العلم، فإن الذهن قد لا يشعر بارتباط هذا بهذا وتعلقه به»^(٣). وهذا مرتبة عليا في فهم النصوص تستخرج قدرًا زائدًا على ما تحمله الألفاظ بأعمال سياقات خارجية تحرك الدلالة وتبعثها من بواطن التراكيب فيجاذب البيان النبوي العناصر المجملة في الجملة القرآنية ويفصل ما تحويه من معان متشابهة فتكشف النسبة والمشاكلة بين وصف النبي ﷺ لأحوال الإلهوية وجريان تلك الأحوال في سمت كلامه ونمط ترتيبه وتأليفه.

(١) "البحر المحيط" الزركشي ١٦٦/٤.

(٢) "مفتاح الوصول" ص ٥٣.

(٣) "إعلام الموقعين" ابن القيم ٢٦٧/١.

واستدل به أيضًا في تفسيره لقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسِفُهُمْ كَمَا نَسَوُا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا رِمًا كَانُوا يَتَّيْنُنَا يَمْحَدُونَ﴾ [الأعراف: ٥١]. إذ قال: «وهذه الآية لطيفة عجبية وذلك لأنه تعالى وصفهم بكونهم كانوا كافرين ثم بين من حالهم أنهم اتخذوا دينهم لهواً أولاً، ثم لعباً ثانياً، ثم غرتهم الحياة الدنيا ثالثاً، ثم صار عاقبة هذه الأحوال والدرجات أنهم جحدوا بآيات الله، وذلك يدل على أن حب الدنيا مبدأ كل آفة كما قال ﷺ: «حب الدنيا رأس كل خطيئة». وقد يؤدي حب الدنيا إلى الكفر والضلال»^(١).

فتأخير ﴿وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ [الأعراف: ٥١]. وما آل إليه حالهم بعدها من جحد بآيات الله والكفر به على أن حب الدنيا هو أصل كل ضلالة، وصدق خفي التنبيه صريح ما جاء في السنة عنه ﷺ.

وكذلك إرداف القضايا الكلية ببعض أجزائها عادة ومسلك بياني مطرد في تقرير المعاني وتفريعها، نحو ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ [الكهف: ٤]. «معطوف على قوله: ﴿لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ﴾ [الكهف: ٢]..... فالأول عام في حق كل من استحق العذاب، والثاني خاص بمن أثبت لله ولداً، وعادة القرآن جارية بأنه إذا ذكر قضية كلية عطف عليها بعض جزئياتها تنبيهاً على كونه أعظم جزئيات ذلك الكلي كقوله تعالى: ﴿وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجَبْرِيلَ وَمِيكَالَ﴾. فكذا ههنا العطف يدل على أن أقبح الكفر والمعصية إثبات الولد لله تعالى»^(٢).

فهو لم يطرح ثمرة عطف القضية الخاصة على معنى الكلي ويدل على أن المعنى في الآية أن أقبح الكفر إثبات الولد لله تعالى إلا بعد تتبع دقيق لمعاني القرآن وملاحظة مواقع المعاني

(١) "التفسير الكبير" ٢٥٣/٥.

(٢) السابق ٤٢٤/٧.

الجزئية التي تقادفت في رتبة خاصة واستقلت من قضايا كلية سابقة حتى إذا اطمأن إلى كونها نمطاً عاماً وعادة جارية مكن لما وراء ذلك من خصوصيات وفوائد.

ويندرج فيها أيضاً استمرار إيراد المعنى بمسلك محدد وضرب واحد من التصريف وأن تنوع الصياغة كما في منهج القرآن في دفع شبهة الولد وتنزيهه عن ذلك تعالى عما يصفون بالاستدلال بملكه للسموات والأرض ونبه على ذلك في قوله: «واعلم أنه سبحانه في كل موضع نزه نفسه عن الولد ذكر كونه ملكاً ومالكاً لما في السموات وما في الأرض، فقال في مريم: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣]. والمعنى: من كان مالكا لكل السموات والأرض ولكل ما فيها كان مالكا لعيسى وللمريم؛ لأنها كانا في السموات وفي الأرض، وما كانا أعظم من غيرهما في الذات والصفات، وإذا كان مالكا لما هو أعظم منهما فبأن يكون مالكا لهما أولى، وإذا كانا مملوكين له فكيف يعقل مع هذا توهم كونهما له ولداً وزوجة؟^(١)

ولا يكاد يأتي موضع تردف فيه دلائل الآفاق من خلق السموات والأرض عقيب نفى الولد عنه سبحانه إلا نبه على تلك المناسبة ووجه تلك الدلائل تجاه ذلك الغرض وألحقها به ونسبها إليه، فجاء في تفسيره لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِينَ﴾ * سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ * فَذَرَهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ * وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ * [الزخرف: ٨١-٨٤]. يقول: «فلما كان إلهاً للأرض مع أنه غير مستقر فيها فكذلك يجب أن يكون إلهاً للسماء مع أنه لا يكون مستقراً فيها، فإن قيل: وأي تعلق لهذا الكلام بنفي الولد عن الله تعالى؟ قلنا: تعلقه به أنه تعالى خلق عيسى بمحض «كن فيكون» من غير واسطة النطفة والأب، فكأنه قيل: إن هذا القدر لا يوجب كون عيسى ولداً لله سبحانه؛ لأن هذا المعنى حاصل في تخليق السموات والأرض وما بينهما مع انتفاء حصول الولدية هناك»^(٢).

(١) "التفسير" ٢٧٢/٤.

(٢) "التفسير" ٦٤٨/٩، وينظر: ٢٣/٢.

وكذلك تتبعه بعض الصيغ وثبات استعمالها في معنى وملازمتها، كما في العدول إلى المضارع بعد الماضي في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْتَبُونَ كَيْدَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجْنَةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوْا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ [النجم: ٢٦]. قال فيها الإمام: «إذا كان بدلاً عن الذين أحسنوا فلم خالف ما بعده بالماضي والاستقبال حيث قال تعالى: ﴿الَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾». وقال: ﴿الَّذِينَ يَحْتَبُونَ﴾ ولم يقل: اجتنبوا؟ نقول: هو كما يقول القائل: الذين سألوني أعطيتهم، الذين يترددون إلى سائلين أي الذين عادتهم التردد والسؤال سألوني وأعطيتهم فكذلك ههنا قال: ﴿الَّذِينَ يَحْتَبُونَ﴾ أي الذين عادتهم ودأبهم الاجتناب لا الذين اجتنبوا مرة وقدموا عليها أخرى، فإن قيل: في كثير من المواضع قال في الكبائر: ﴿الَّذِينَ يَحْتَبُونَ كَيْدَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٧]. وقال في عباد الطاغوت: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ﴾ [الزمر: ١٧]. فما الفرق؟ نقول: عبادة الطاغوت راجعة إلى الاعتقاد، والاعتقاد إذا وجد دام ظاهراً فمن اجتنبها اعتقد بطلانها فيستمر، وأما مثل الشرب والزنا أمر يختلف أحوال الناس فيه فيتركه زماناً ويعود إليه ولهذا يستبرأ الفاسق إذا تاب، ولا يستبرأ الكافر إذا أسلم، فقال في الآثام: ﴿الَّذِينَ يَحْتَبُونَ﴾ دائماً، ويشابرون على الترك أبداً، وفي عبادة الأصنام: ﴿اجْتَنَبُوا﴾ بصيغة الماضي؛ ليكون أدل على الحصول، ولأن كبائر الإثم لها عدد أنواع فينبغي أن يحجب عن نوع ويحجب عن آخر ويحجب عن ثالث ففيه تكرار وتجدد فاستعمل فيه صيغة الاستقبال، وعبادة الصنم أمر واحد متحد، فترك فيه ذلك الاستعمال وأتى بصيغة الماضي الدالة على وقوع الاجتناب لها دفعة^(١).

فالرازي لم يقصر حديثه على فائدة استخدام الفعل المضارع ودلالته على ما جرى عليه البلاغيون وإنما تجاوزه إلى الالتفات لنمط الاستمرار والتلازم الدائم بين الصيغة والموقع دل عليه قوله: «فقال في الآثام: ﴿الَّذِينَ يَحْتَبُونَ﴾ دائماً، فكان وظيفة الدرس البلاغي ليس الوقوف على أسرار اللغة في مقامات محددة بل التتبع واستقصاء المقامات المطلقة التي جرت

(١) "التفسير" ١٠/٢٦٩.

فيها الصيغة ورصد التغير والثبات وما وراءه من أحوال سياقية اندست في قلبها فأصبحت جزءاً من بنائها ومكوناً لبيانها لا تنفك عنها حتى أنها إذا جرت في سياق مخالف كسياق الصيغة السابقة نزعته بها عن التشابه مع ما قبلها من الكلام والعدول عن الجريان في سلك النظام واتصلت بالسياق العام لنظائرها في ذات المعنى، ويمكن نقل العادات الكلامية إلى حقل الشعر وتبعية كل ظاهرة اطردت واستمرت في شعر الشاعر حتى أصبحت عادة جارية وطبعاً في بيانه يسم قائله ويدل عليه، ووصل تلك العادات بالسياق وهذا ليس خارجاً عن أصول دراسة الشعر أو مستحدثاً وإنما له جذوره الممتدة في قراءة العلماء بالشعر وشروحهم عليه، فهذا ابن فورجة يدفع ما عابه ابن جني على شعر المتنبي في قوله: «وإني لمن قوم كأن نفوسنا» فأعاد المذكور على لفظ الخطاب والواجب أن يأتي به على الغيبة يقول: «كَلَّمْتُهُ في هذا فاعتصم بأنه إذا أعاد الذكر على لفظ الخطاب كان أبلغ وأمدح من أن يرده على لفظ الغيبة... ولعمري إنه لكما ذكر، ولكن الحمل على المعنى عندنا لا يسوغ في كل موضع ولا يحسن» فاستقرأ ابن فورجة كل شعر المتنبي فيجده مذهباً يستمر في سياق المدح، أما في الذم فيجري الكلام على حال الغائب ويجعل «هذا من أدق ما في شعره من الخبث وأدله على حكمته واستيلائه على قصب السبق في شعره»^(١).

فابن فورجة راجع كلمة المتنبي وأن ذلك أبلغ في المدح في شعره فوجده مذهباً يستمر في ذلك الغرض، ويطرّحه في الهجاء ويأتي بالكلام فيه على الأصل، فأكد تخليه معنى المبالغة، ودل على قصد الشاعر إلى المعنى وسوغ له الاطراد والاستمرار مع الغرض فدل على اقتدار الشاعر وضبطه لبيانه وتصريفه للغة وحسن توجيهها وفق المقامات التي ينتهجها. فلا يضع العبارة إلا وقد راعى ائتلافها وتناسبها مع ما جرى في معناها حتى يصبح بياناً متفقاً متماسكاً مع سياقاته البعيدة.

فلما كان ظاهرة شائعة ومذهباً يؤمه الشاعر ويقصد إليه أخرجه ابن فورجة من المذمة والعيب إلى قوة المنّة وشدة احتيال الشاعر ومكره في أداء المعاني وتقريرها، وكأن الاستمرار

(١) "تاريخ النقد" إحسان عباس ص ٣٩٤.

يصحح بعض الظواهر ويخرجها من حيز الضرورة إلى البلاغة والاقتدار إذا ترتب عليه نوع من الإفادة.

ومن وجوه تناسب السياق القرآني ما لفت إليه من تلازم بعض المعاني واقتنائها في بناء بيانه فلا يكاد يأتي أحدهما منفرداً عن الآخر فاستقصى معاني الكتاب وأصول دلالاته وما يجتمع منها ويتلازم وما يأتي بعضه منفرداً دون بعض، فوجد أن هناك معاني يقترن بعضها ببعض في كثير من المواقع وصار حضور أحدهما مقتضياً للآخر مصرحاً أو مكنياً يثول إليه التركيب ويوجب طول الصحبة، فالمعنى أحياناً يتصور في التركيب بصورة أخرى ويستبطن المعنى المواخي لما قبله، فإذا رتب عليه ورد إليه تعطف على إلفه وانتسب إليه وكأن المعاني لما تلازمت وتصاحبت جرت طبائعها فيما صحبته من معاني فمجرد اقتنائها تتلامح النسب وتشاكل فيجري المؤول منه مجرى الصريح.

ومن ذلك اقتران معنى التعامل مع الله وتعظيمه بالتعامل مع الخلق والشفقة عليهم والإحسان إليهم وتنبع هذا التجاور على مستوى الجملة الواحدة مثل قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ، وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْحَجِيمِ﴾ [غافر: ٧]. قال فيها: «اعلم أنه ثبت أن كمال السعادة مربوط بأمرين: التعظيم لأمر الله، والشفقة على خلق الله، ويجب أن يكون التعظيم لأمر الله مقدماً على الشفقة على خلق الله فقوله: ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ «مشعر بالتعظيم لأمر الله، وقوله: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ مشعر بالشفقة على خلق الله»^(١).

وجعل الزمخشري جملة ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بعد وصف الملائكة بالإيمان تنبيهاً على أن الأجناس وإن تفاوتت واختلفت إلا أن جامع الإيمان أزال هذا التباعد وأحاله إلى تجانس كلي وتناسب حقيقي، فلاشتراك في الإيمان داعٍ إلى النصيحة والشفقة^(٢).

(١) "التفسير" ٩/٤٨٨، ٤٨٩.

(٢) "الكشاف" ٤/١٥٢، ١٥٣.

أي أنه يجعل هذه الجملة معنى إضافيًا زائدًا في معنى «يؤمنون به» وأن الإيمان يؤدي إلى التجانس التام وأن تباعدت الأجناس، أما الرازي فيحتفي بكمال الدلالة فالإيمان يستلزم كماله حضور طرفيه، وهما: تعظيم الله، والشفقة على خلق الله، فحرص الملائكة - وقد بلغوا من درجات الإيمان مبلغًا عظيمًا عند الله - على استكمال أعلى الخصال بالاستغفار للمؤمنين إحسانًا منهم وتزويهاً لله، ينمي معنى الإيمان ويستكمل عناصره.

أو يكون الاقتران بينهما في آيتين متجاورتين، مثل قوله تعالى: ﴿وَيُطِيعُونَ أَلْطَّعَامَ عَلَىٰ حَيِّهِمْ وَسَكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ [الإنسان: ٨] يقول فيها: «اعلم أن مجامع الطاعات محصورة في أمرين التعظيم لأمر الله تعالى، وإليه الإشارة بقوله: ﴿يُؤْتُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ [الإنسان: ٧] والشفقة على خلق الله، وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَيُطِيعُونَ أَلْطَّعَامَ﴾»^(١).

وبالتأمل نجد أن هذا المعنى ليس منطوقًا صريحًا من النظم وإنما هي إشارات وتنبهات أشعرت بها اللغة وحركها التجاور تجاه ذلك المعنى بينما جعلها البقاعي معنى مقابلًا لقوله: ﴿يُؤْتُونَ بِالنَّذْرِ﴾ فالوفاء بالنذر فيه معنى الإلزام البالغ فـ «من وفي بما أوجبه على نفسه كان بما أوجبه الله من غير واسطة أوفى.... وكان قد ذكر تذرعههم بالواجب، أتبعه المندوب دلالة على أنهم لا ركون لهم إلى الدنيا ولا وثوق بها»^(٢).

وخالف من قبله من المفسرين في تأويل بعض الآيات من أجل الحفاظ على سمت البيان القرآني بإجرائه على ما اطرده وشاع في تناول المعاني، كما في توجيه الزكاة في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ [فصلت: ٧]. فابن عباس والجمهور على أن الزكاة بمعنى: لا إله إلا الله أي التوحيد؛ لأن ما قبلها ﴿وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ [فصلت: ٦]. فناسب ذلك أن تكون بمعنى تركية القلب وتطهيره من الشرك.

(١) "التفسير" ٧٤٦/١.

(٢) "نظم الدرر" ٢٦٧/٨، وينظر: الكشاف ٦٦٨/٤.

ورجحه ابن عطية بقرينة السياق؛ لأن الآية مكية وزكاة المال فرضت بالمدينة^(١).

بينما يوجه الرازي دلالتها باعتبار السياق الترتيبي لمعاني القرآن، فاقتران معنى توحيد الله مع الإحسان إلى الخلق أسلوب يكاد يكون مطردًا، فحملها على معنى الإشفاق على الخلق أولى لما في ذلك من تنويع للمعاني وخروج عن نمط التكرار والإعادة إلى الزيادة والإفادة؛ لأن القول بأنها بمعنى التوحيد هو ذاته معنى ﴿وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ فالتهديد على الشرك أمر ضمني بالتوحيد.

يقول في ذلك: «أثبت الويل لمن كان موصوفًا بصفات ثلاثة أولها: أن يكون مشركًا وهو ضد التوحيد، وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ﴾. وثانيها: كونه ممتنعًا عن الزكاة وهو ضد الشفقة على خلق الله، وإليه الإشارة بقوله: ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾. وثالثها: كونه منكراً للقيامه مستغرقًا في طلب الدنيا ولذاتها، وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾. وتغام الكلام في أنه لا زيادة على هذه المراتب الثلاثة أن الإنسان له ثلاثة أيام: الأمس واليوم والغد. أما معرفة أنه كيف كانت أحوال الأمس في الأزل فهو بمعرفة الله تعالى الأزلي الخالق لهذا العالم. وأما معرفة أنه كيف ينبغي وقوع الأحوال في اليوم الحاضر فهو بالإحسان إلى أهل العالم بقدر الطاقة، وأما معرفة الأحوال في اليوم المستقبل فهو الإقرار بالبعث والقيامة، وإذا كان الإنسان على ضد الحق في هذه المراتب الثلاثة كان في نهاية الجهل والضلال، فلهذا حكم الله عليه بالويل، فقال: ﴿وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ * الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ وهذا ترتيب في غاية الحسن^(٢).

فنقص بذلك كلام ابن عطية وأخرج دلالة «يؤتون الزكاة» من حيز التأكيد إلى التأسيس؛ فالجمل الثلاثة استوعبت مراحل الإنسان المختلفة وإجراؤها على التأكيد يقضي على ذلك التنوع والتكامل. ففصل الإمام دلالتها وبين خصائص كل منها وأن تجاورها وتقاربها لا يعني الاتفاق التام وإنما لكل مؤاده وغايته ومعاني تؤسسها، فتأكيدا للتوحيد

(١) "المحرر الوجيز" ٥/٥.

(٢) "التفسير" ٥٤٢/٩.

لا يلغى خصوصية كل جملة وإمكانية حملها على معالجة أحوال مختلفة من أحوال الإنسان فمعرفة ماضيه بمعرفة خالقه، وحصول العلم بمستقبله بتقرير اليوم الآخر، وتوسط الزكاة أفاد المعاملة مع الخلق الموجبة لمعرفة حاضره. واستحسنه البقاعي وتابعه في ذلك^(١).

أو يتوزع في مساحات مختلفة من السورة، كما في سورة «المزل» أشبعت معنى التعظيم ابتداءً ثم جاء قوله: ﴿وَأَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَأَهْجِرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ [المزل: ١٠]. مهيناً للمعنى الإحسان إلى الخلق، فالأمر بالصبر وإن كان من لوازم معنى ﴿فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزل: ٩]. في الآية السابقة لها، إلا أن الرازي يجعل داعية الأمر بالصبر هو الشفقة على خلق الله؛ لأن «المعنى أنك لما اتخذتني وكيلًا فاصبر على ما يقولون وفوض أمرهم إلي فإنني لما كنت وكيلًا لك أقوم بإصلاح أمرك أحسن من قيامك بإصلاح أمور نفسك، واعلم أن مهمات العباد محصورة في أمرين كيفية معاملتهم مع الله، وكيفية معاملتهم مع الخلق، والأول أهم من الثاني، فلما ذكر تعالى في أول هذه السورة ما يتعلق بالقسم الأول أتبعه بما يتعلق بالقسم الثاني، وهو سبحانه جمع كل ما يحتاج إليه من هذا الباب في هاتين الكلمتين، وذلك لأن الإنسان إما أن يكون مخالطاً للناس أو مجانباً عنهم فإن خالطهم فلا بد له من المصابرة على إيذائهم وإيجاشهم»^(٢).

والنص يصور لك إصرار الرازي على إعمال المعاني المتقاربة والمتلازمة واستحضار الآخر وإن تداخلت العبارة وتمازجت مع نظم ما قبلها واتصلت بمعناها فقوله: ﴿وَأَصْبِرْ﴾ مجرى مجرى التكميل لمعنى الوكالة وبيان لما يلاقيه فيها من الخطوب والمكاره^(٣). فالوكالة تعني التفويض التام لله والانعتاق من سلطان النفس وزمها بأمر الله، لكن تناسله من رحم تلك الفاصلة لا يلغى كونه قسيماً لذلك المعنى.

أو يجعل هذين المعنيين هما مركز السورة ونقطة التقاء ما تشعت من معانيها وانتشر كما في سورة «الأحزاب» فجميع آياتها ترتد إليهما وتعمل على تفصيلها، فقسم السورة إلى قسمين: الأول: إشباع لدلالة تعظيم الله، والثاني: الإحسان إلى الخلق بصنفيهم الخاص وهم

(١) "نظم الدرر" ٥٥٣/٦.

(٢) "التفسير" ٦٨٩/١٠.

(٣) ينظر: "نظم الدرر" ٢١٠/٨.

الزوجات ثم عامة المسلمين، يقول في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنْتُنَّ تُحِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٨]. «وجه التعلق هو أن مكارم الأخلاق منحصرة في شيئين التعظيم لأمر الله، والشفقة على خلق الله، وإلى هذا أشار عليه الصلاة والسلام: «الصلاة وما ملكت أيمانكم» ثم إن الله تعالى لما أرشد نبيه إلى ما يتعلق بجانب التعظيم لله بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ﴾ [الأحزاب: ١]. ذكر ما يتعلق بجانب الشفقة وبدأ بالزوجات فإنهن أولى الناس بالشفقة»^(١).

وأشار في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ * وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً [الأحزاب: ٤٥، ٤٦] إلى القسم الثاني من الخلق وهم عامة الناس^(٢).

وبذلك تجاوز المعاني الجزئية الظاهرة من اللغة إلى الدلالة على جوامع تلقي عندها هذه المقترنات فتوحد بناءها وتلم انتشارها في مشكاة واحدة هي مقاصد كلية تجاذب تلك الجزئيات المتفرقة إلى مركزها وتؤلف بينها وتجعل منها سياقاً متفقاً يكمل بعضه بعضاً وإذا ذكر أحدهما نبه على موقع نظيره فتعانق بذلك أطراف الكلام وتماسك حلقاته.

وهذا أصل جيد في فهم البيان بالنظر في الألفة بين المعاني وتأخي بعضها مع بعض، واقتراثها من خلال المبين نفسه، فكل متكلم له سياق خاص تجتمع فيه معاني وتتعانق وتفرق أخرى وتتنافر، وذلك يستلزم إحصاء دقيقاً وتتبعاً لما يأتي منها مقترناً وما يفترق ويختلف وهو نظير عمل البلاغيين في تحليل الكلام ومكمل لجهودهم، فقد تداول دارسو البيان إحصاء لعناصر البلاغة وأبوابها عند الشعراء ومنازعهم في تصريف الكلام فيكثر عند بعضهم التقديم وعند الآخر الاستعارة والتشبيه، أو تجتمع عند أحدهم ألوان بديعية مخصوصة دون أخرى، وكل ذلك يعطي للكلام سمّاً خاصاً وطابعاً مميزاً ينبه على أسرار وخصوصيات تتصل بناظمها، وكذلك القول في المعاني تتبع ما شاع منها وضروب تصريفها وما يأتي منها مجتمعة متلازماً وما يفترق ويتباعد وما وراء ذلك من أسرار ولطائف تتعلق بأحوال المتكلم

(١) "التفسير" ٩/ ١٦٥.

(٢) "التفسير" ٩/ ١٧١.

وتنبه على خصوصيات أسلوبية تكون بمثابة شارات تنسب الكلام إليه.

وبذلك تنتهي البلاغة إلى الإحاطة بكل ما صدر عن المبين ومصاحبة تصاريفه للغة وللمعاني فلا تحلل الكلمة إلا وقد تقصي موقعها في أقاصي بيانه، ولا يقرن المعنى بالمعنى ويرتب عليه إلا بعد استدعاء سياقات الجمع وبيان ما تألف منها واجتمع وما تنافر وافترق، فيثول بعضه بعضاً وينبه ما ظهر في موضع على ما خفي في آخر.

نحو موقع قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلُّ شَيْءٍ خَلَقْتَهُ بِقَدَرٍ﴾ [الفجر: ٤٩]. ذكر أن المشهور أن قوله: ﴿إِنَّا كُلُّ شَيْءٍ﴾ متعلق بما قبله كأنه قال: ذوقوا فإننا كل شيء خلقناه بقدر، أي هو جزاء لمن أنكر ذلك، وهو كقوله تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩]. والظاهر أنه ابتداء كلام وتم الكلام عند قوله: ﴿ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾ [الفجر: ٤٨]. ثم ذكر بيان العذاب لأن عطف ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَجِدَةٌ﴾ [الفجر: ٥٠]. يدل على أن قوله: ﴿إِنَّا كُلُّ شَيْءٍ خَلَقْتَهُ بِقَدَرٍ﴾ ليس آخر الكلام، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الاعراف: ٥٤]. وقد ذكر في الآية الأولى الخلق بقوله: ﴿إِنَّا كُلُّ شَيْءٍ خَلَقْتَهُ﴾ [الفجر: ٤٩]. فيكون من اللائق أن يذكر الأمر، فقال: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَجِدَةٌ﴾^(١).

وتأمل كيف صرف الكلام عن المشهور في تعليقها بما قبلها وجعلها ابتداء كلام؛ ليخرج بها عن معنى التهديد، ويهيئ لالتقاء بقوله: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَجِدَةٌ﴾، واستدل على كونها ابتداء بالجملة بعدها، فزحزحتها عن الاتصال بما قبلها لتدخلها في حيزها وتجربها في نظمها، فكان حضور ذكر الأمر يفتقر إلى الخلق لتلازمها وتصحبا في السياق القرآني فكل منهما ينبه على الآخر ويبعثه من التراكيب السابقة.

وكذلك الإرداف المستمر لدلائل الأنفس بدلائل الآفاق في سياق إثبات التوحيد والابتداء بما تكثر ملابس الإنسان له منها مثل قوله تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾

[عبس: ٢٤].

ذكر فيها «واعلم أن عادة الله تعالى جارية في القرآن بأن كلما ذكر الدلائل الموجودة في الأنفس فإنه يذكر عقبيها الدلائل الموجودة في الآفاق فجري ههنا على تلك العادة وذكر دلائل الآفاق وبدأ بها يحتاج الإنسان إليه»^(١).

وهذا الترتيب شائع في قالة الأنبياء مع أقوامهم واستدلّاهم على وجود الله بالأنفس ثم لفّتهم إلى ما حولهم: «واعلم أن الاستدلال بالخلق والهداية هي الطريقة المعتمدة عند أكابر الأنبياء - عليهم السلام - والدليل عليه ما حكى الله تعالى عن إبراهيم عليه السلام أنه قال: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٧٨]. وحكى عن فرعون أنه لما قال لموسى وهارون عليهما السلام: ﴿فَمَنْ رَبُّكُمَا يُنْمِسُنِي﴾ [طه: ٤٩]. قال موسى: ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ، ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: ٥٠]. وأما محمد ﷺ فإنه تعالى أول ما أنزل عليه هو قوله: ﴿اقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ [العلق: ٢، ١]. هذا إشارة إلى الخلق، ثم قال: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ [العلق: ٤، ٣]. وهذا إشارة إلى الهداية ثم إنه تعالى أعاد ذكر تلك الحجة في هذه السورة فقال: ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسُوَّى * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾ [الأعلى: ٣، ٢]. وإنما وقع الاستدلال بهذه الطريقة كثيرًا لما ذكرنا أن العجائب والغرائب في هذه الطريقة أكثر، ومشاهدة الإنسان لها أتم، فلا جرم كانت أقوى في الدلالة»^(٢).

وهذا النص يكشف عن سر تقديم الاستدلال بالخلق على الآفاق رغم أن الثانية أعظم وأظهر في الدلالة حيث قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧] ولكن مشاهدة الإنسان لعجائب خلق نفسه أتم وأكمل؛ لذلك وقع الاستدلال بها مقدمًا ثم اصطفى من دلائل الآفاق ما يلبسه الإنسان ويحتاج إليه أكثر من غيره فذكر حاجته إلى الماء في سورة عبس وحاجته إلى الضياء في قوله: ﴿الْمُرُورَ كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا * وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا﴾ [نوح: ١٥، ١٦]. وهذا

(١) "التفسير" ٥٩/١١، وينظر أيضًا: ٦٥٣/١٠.

(٢) "التفسير" ١٢٨/١١، وينظر: ٢٤٩/٦.

المنهج في الاستدلال يصور بلاغة الأسلوب القرآني وكيف يداخل نفس المنكر ويقارب له معاني من المهمات الكبرى، فيسلك الأقرب فالأقرب حتى يجعله يكاد يلامس تلك الحقائق.

ومن المعاني المقترنة ذكر الإيمان والعمل الصالح وتعقيبهما بالمغفرة والأجر، كما في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ [محمد: ٢]. قال فيها: «قد ذكرنا مراراً أن الله تعالى كلما ذكر الإيمان والعمل الصالح، رتب عليها المغفرة والأجر، كما قال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الحج: ٥٠]. وقال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت: ٧]. وقلنا بأن المغفرة ثواب الإيمان والأجر على العمل الصالح... فنقول ههنا جزاء ذلك قوله: ﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ إشارة إلى ما يثيب على الإيمان، وقوله: ﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ إشارة إلى ما يثيب على العمل الصالح»^(١).

ويشير في بعض النصوص إلى أثر السياق في الجمع بين بعض المعاني أو نشرها وتفريعها كما في أفراد جبريل عليه السلام بالذكر بعد الملائكة مع دخوله ضمناً فيها، وأحال ذلك التحول إلى السياق فغالباً ما يأتي في سياق العذاب والتهديد يقول في قوله تعالى: ﴿تَنَزَّجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤]: «اعلم أن عادة الله تعالى في القرآن أنه متى ذكر الملائكة في معرض التهويل والتخويف أفرد الروح بعدهم بالذكر، كما في هذه الآية، وكما في قوله: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا﴾ [النبا: ٣٨]»^(٢).

(١) "التفسير" ١٠/ ٣٤.

(٢) السابق ١٠/ ٦٣٨.

وهذا النص نتيجة لدراسات ممتدة ونظر فاحص لمواقع الملائكة في القرآن ومتى تجمع ومتى يفرد بعض أجزائها بالذكر وسياقات الجمع وسياقات الإفراد يضعها الإمام في سطر أو سطرين، وكأنه بذلك يستحث ذهن لارتياد تلك المواقع ومعاناة سياقاتها ومتابعتها حتى يلامس بيديه ما توصل إليه ويقنع بها هدي إليه. وتأمل المواقع وتصنيفها يزيد في بيان هذه الفكرة ويجلو حقيقتها ويثرها بالالتفات إلى الجانب الآخر وسبب ترك الإفراد، فنجد ذلك في سياق الإنعام مثلاً في قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولَى أَجْنَحٍ﴾ [فاطر: ١]. وفي سياق الشاء ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ﴾ [الزمر: ٧٥]. وكلما أنعمت النظر اتسعت القضية وانفسح المجال أمام دراسات بيانية تؤسس على النظر المتكامل للسياق القرآني.

وكذلك اقتران لفظ الحكمة وعطفه على العلم ينحو بمعنى الحكيم إلى الاختصاص بالأفعال يقول في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُوا لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً..... وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ٩٢]: «والمعنى أنه تعالى عليم بأنه لم يقصد ولم يتعمد، حكيم في أنه ما يؤاخذ به ذلك الفعل الخطأ، فإن الحكمة تقتضي ألا يؤاخذ الإنسان إلا بما يختار ويتعمد... في كل موضع من القرآن ورد فيه لفظ الحكيم معطوفاً على العليم كان المراد من الحكيم كونه محكماً في أفعاله، فالإحكام والإعلام عائدان إلى كيفية الفعل»^(١).

فخرج معنى الحكيم عما ذكر أهل السنة من أن معناه العليم بعواقب الأمور^(٢)، إلى مقتضى الحكمة وهي المؤاخذة أو عدم المؤاخذة على الفعل، ويرجع ذلك أطراد مجيئها موالية للعلم في سياق الأفعال خاصة مما يؤكد خصوصية ذلك الأسلوب بالفعل.



(١) "التفسير" ١٨٢ / ٤.

(٢) "التفسير" ١٨٢ / ٤.

الخاتمة

يعد علم التناسب من البحار الزاخرة التي لا تزال تنتظر جهودًا متواصلة ودأبًا لا يكل من أجل وضع قوانينه وضبط أصوله في قاعدة تقررهما؛ لأنه وصل إلينا مكتملاً بصورة عملية بخلاف غيره من العلوم، وقد حاولت جهدي في تتبع بعض أصوله في مرحلة النشأة عند الإمام الرازي وقد جاءت نتائج هذا البحث فيما يلي:

أن تراث التفسير قبل الإمام لم يخل من إشارات تغري بفتح هذا الباب واستقصائه.

أن المسالك والأدوات المستخدمة في تنظيم السورة هي ذاتها أدوات تحليل الجملة والكشف عن وجوه ترتيبيها، نحو رد العجز على الصدر، والمطالع والمقاطع، والتقديم والتأخير، وعلاقات الفصل والوصل، واللف والنشر وغيرها، ولو تتبعنا جميع تلك الأدوات وأجريناها في تحليل النصوص ونقلناها إلى الدائرة الأوسع لكانت اللبنة التي يكتمل بها بناء الدرس البلاغي.

الوقوف على وحدة الكلام ليس السبيل فيها الحس والعقل وإنما هناك أدوات وضوابط كلية.

معاني القرآن مجال من مجالات إعجازه نبه عليها أكثر العلماء، ولكن أصل الأصول في باب الإعجاز هو تأليفه لمعانيه وجمع معاقدها والملائمة بينها.

أن علم الأسلوب تقررت أصوله في الدرس البياني ووضعت ضوابطه بصورة عملية تتطلب من الباحثين تصنيفها من خلال علم المناسبات؛ لأنه البديل لعلم الأسلوب الوافد.

أول من خص الأسلوب بالترتيبات الحاصلة بين المعاني وما ينتج عنها من تنبيهات ولطائف هو الإمام الرازي، ثم ضبطه حازم تحت قانون كلي واضح المنهاج.

أن الوحدة في علم المناسبات ليست بالتابع والتدرج المنطقي وإنما بالارتدادات المستمرة والثني الدائم بين عناصر المعنى المتوزعة في مساحات السورة المختلفة ومجاذبتها

عند مركز واحد أو ما يسمى بمقصد المتكلم، فتؤلف للكلام هيئة متفقة هي الوحدة متى افتقدت هذه الهيئة صح معه وصف الكلام بفقدانه للوحدة.

إحكام بنية السورة بدراسة حركة المعنى بين الفواتيح والوسط والخواتيم والمزاوجة بينها، فترد المقاصد على الفواتيح والخواتيم ثم الخواتيم مع الفواتيح، فيحدث توزيع الدراسة بين هذه العناصر الثلاثة تجلية للمقاصد.

العناصر اللغوية ليست وحدها سبيل اكتمال الدلالة بل وراء ذلك وشائج معنوية دقيقة تقصدها تكتمل عنده الأغراض.

مداخل الكلام لها خصوصية في الإبانة ويكتنفها كثير من الغموض الناتج من اكتناز اللفظة لحمولات دلالية تكاد تحتوي جميع مقاصد السورة، وهذه الخصوصية يسرت لها أن تصحب الكلام في جميع تحولاته.

جملة الخاتمة تستقر عندها المقاصد ويعول عليها غالبًا في تنظيم ما تشعث في الكلام من أغراض وما تفرق وسطها من سياقات.

دراسة الترتيب بين الآيات عند الإمام أشبه بباب التقديم والتأخير، كلاهما دراسة لاعتبارات اختيار الموقع ومنازل الكلام إلا أنه في الآيات أصعب مراسًا منه في المفردات؛ لأنه ليس له حد يحصره بل هو باب متسع.

الترتيب بين الآيات ليس له علاقة محددة ولا يتخذ مسار واحدًا مما يؤكد أن هناك ضوابط تضبط مجال كل آية وحركتها داخل ما قبلها من آيات، فكل آية تستبطن إيهامات تومئ إلى معاني ضمنية لسياقات سابقة تتصل بها.

المناسبة امتدت بفكرة التنظيم من النسب بين الألفاظ إلى ملاحظة التجاوب وأسباب الوصل المعنوية بين الآيات في مساحات السورة بأكملها وبين تناسب الأغراض والهيئات التي تشكل من علاقات الانتظام والتحولات في البني المعنوية والأغراض داخل السورة بأكملها على اختلاف توزيعها قريبًا وبعيدًا واثلاًفاً واختلافًا.

أن تحليل مباني كل سورة في ضوء سابقتها يكشف عن المدى الذي حازه النظم القرآني حتى أصبح الكتاب على تعدد سورته واختلاف مقاصدها كالسورة الواحدة يراعى فيها انساق العناصر اللغوية فلا توضع فيه عبارة إلا باعتبارات تلتئم فيها مع نظائرها في الكتاب.

دراسة التناسب فيما بين مطلع السورة ومقطع ما قبلها كشف عن جانب وضيء في إعجاز الجملة القرآنية وما يراعى فيها من خصوصيات بيانية تمكن للسياق السابق وتداخله وتؤسس به لمقاصد أخرى. وهذا يتطلب خصوصية وبراعة في التأليف.

العناية بالتناسب بين السور المتشابهة المطلع تنبيه على أن المطالع أبرز المكونات التي تشكل مقاصد السورة وأغراضها، فتكرارها في أخرى مهيم لوصلها وترتيبها عليها.

مباحث التشابه مسلك من مسالك فتح الدلالة بوضعها في نطاقات بيانية مشتركة تكشف عن أحوال مستترة في النظم.

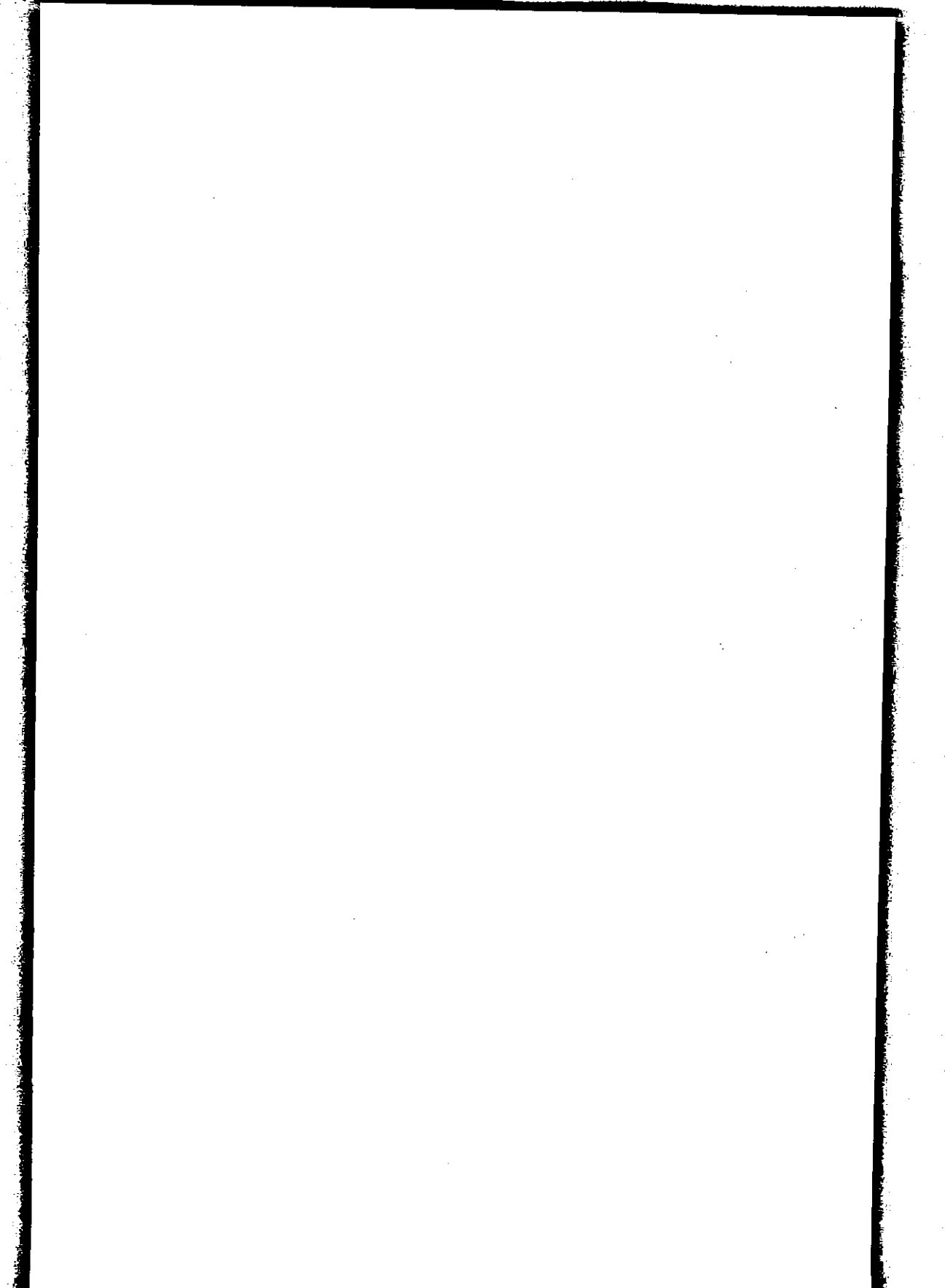
فتح الإمام الباب لدراسة العادات الكلامية من خلال تتبع الأساليب المطردة وما وراءها من إحالة إلى قائلها وما في ذلك من أسرار لا يحاط بها دفعة، وتكون بمثابة منارة تهدي إلى تلك المعاني المتكاثرة.

حصر الإبانة في حدود اللغة والتصرف فيها يحول دون استيعاب جميع مقاصد المتكلم وأغراضه، وأن الوصول إلى أقدار المتكلمين لا يكون إلا بتتبع سياقات كلامه وترتيب معانيه واستقراء كامل لمساكنه.

من وجوه تناسب السياق القرآني ما لفت إليه من تلاؤم المعاني واقتنائها في بيان المتكلم، وبذلك تنتهي البلاغة إلى الإحاطة بكل ما صدر عن المبين من وجوه تصريفه للألفاظ والمعاني.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين..





الفهارس

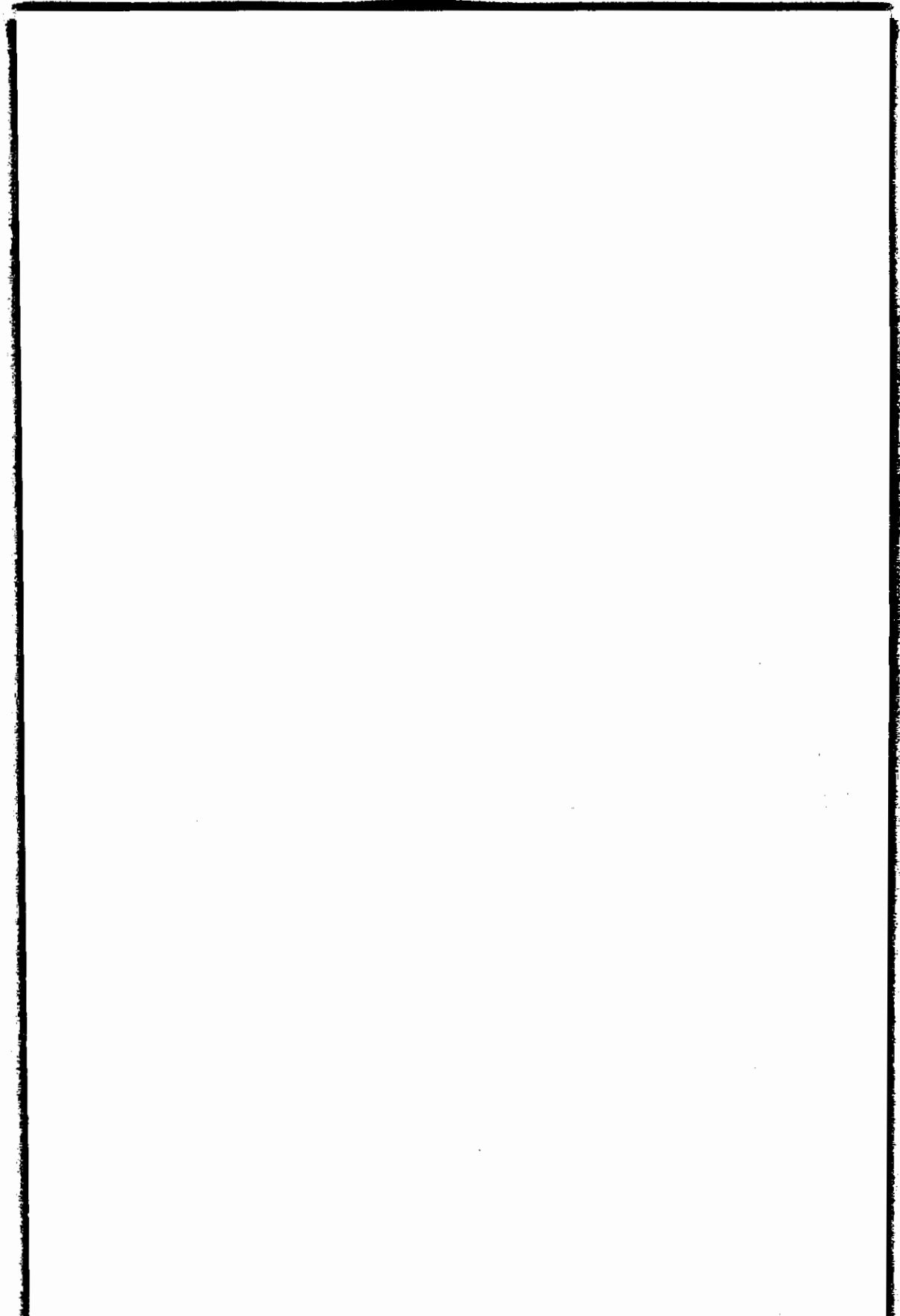
(أ) فهرس الآيات القرآنية .

(ب) فهرس الأحاديث النبوية .

(ج) فهرس الأشعار .

(د) فهرس المصادر والمراجع .

(هـ) فهرس الموضوعات .



(أ) فهرس الآيات القرآنية

سورة الفاتحة

٢٥١	﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ..... سُبْحَانَكَ يَا يَزِيدُ﴾ (١)
٣٥٤، ١٠٦	﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾
٢٥١، ١٠٦	﴿أَعْدِنَا﴾
٢٥١، ١٦٨	﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ وَبِإِذْنِكَ تُخَوِّفُ﴾ (٢)

سورة البقرة

١٣٩، ٤٦	﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾
٥٢	﴿تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾
٥٢	﴿وَأَنْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ..... إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (١٧٥)
٦٩	﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ..... وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (٢٥٩)
٩٦	﴿الَّذِينَ..... وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (٥)
١٠٠	﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا..... وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (١٢)
١٦١	﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ..... الْكَافِرِينَ﴾ (٥٩)
١٦٢	﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً..... إِنْ صَرَطْتُمْ مُسْتَقِيمِينَ﴾ (٢١٣)
١٦٢	﴿قُلْنَا أَهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا..... وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٢٨)
٢٥٦، ١٦٣	﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً..... رَجِيمَةً﴾ (١٥٢)
١٦٣	﴿بِذَلِكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ..... عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٥١)
١٦٤	﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا..... أَجْمَعِينَ﴾ (١٦١)
٢٢٠، ١٨٠	﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ عِبَادَهُ﴾
١٨٣	﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا..... وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (١٣)
١٨٣	﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا..... مُضِلِّحُونَ﴾ (١١)
١٨٣	﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَادًا﴾ (١٨٥)
١٨٣	﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ..... لَا يَسْتَوِي الْقَوْمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ (١٨٤)
١٩٢، ١٩١	﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ..... تَتَّقُونَ﴾ (١٧٨)
١٩٧	﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ..... وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (٧)

٢٥٩، ١٩٧	﴿رُبَّنَّ لِلَّذِينَ كَفَرُوا..... بِعِيرِ حِسَابٍ﴾ (١٢٢)
٢١٥، ٢٥٨، ١٩٧	﴿سَلِّبَنِي إِسْرَءِيلَ..... شَدِيدَ الْعِقَابِ﴾ (١٢١)
٢٠٠	﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا..... وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ (١٢٠)
٢٠١	﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ..... يَعْمَلُونَ﴾ (١١٩)
٢٦٠، ٢٠٥	﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ..... قَرِيبٌ﴾ (١١٨)
٢٠٥	﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً..... مُتَّفَعِينَ﴾ (١١٧)
٢٠٦	﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ..... فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ (١١٦)
٢٠٦	﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ..... وَيَبْرُءُ الصَّابِرِينَ﴾ (١١٥)
٢٠٦	﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ (١١٤)
٢٠٧	﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ..... لَا تَشْعُرُونَ﴾ (١١٣)
٢٥٩، ٢١٥	﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا..... وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ (١١٢)
٢٥٩، ٢١٥	﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْخُلُوا..... مُبِينٌ﴾ (١١١)
٢١٥، ٢٥٨، ٢١٥	﴿فَإِنْ رَكَّلْتُمْ..... عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (١١٠)
٢١٨	﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ فَإِنْ سَاكَ..... فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (١٠٩)
٢٢٠	﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ..... لَا تَشْعُرُونَ﴾ (١٠٨)
٢٢٥	﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى..... وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ (١٠٧)
٢٤٩	﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ..... لِمَنِ الظَّالِمِينَ﴾ (١٠٦)
٢٤٩	﴿فَإِذَا فَضَّيْتُمْ مَنَسِكَكُمْ..... مِنْ خَلْقِي﴾ (١٠٥)
٢٥٢، ٢٥١	﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ اعْبُدُوا..... خَالِدُونَ﴾ (١٠٤)
٢٥٣	﴿يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا..... وَإِنِّي فَازِهِبُونَ﴾ (١٠٣)
٢٥٤، ٢٥٣	﴿أَلَمْ نَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ..... وَلَا نَصِيرٌ﴾ (١٠٢)
٢٦٥، ٢٥٣	﴿وَأَنْقَرُوا يَوْمًا لَا..... وَلَا هُمْ يَنْصُرُونَ﴾ (١٠١)
٢٥٤	﴿وَلَهُ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ..... إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (١٠٠)
٢٥٦	﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى..... الْمَشْرِكِينَ﴾ (٩٩)
٢٥٦	﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ..... إِنَّ مِرْيَاطَ مُسْتَفِيمٍ﴾ (٩٨)
٢٥٦	﴿قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ..... مِرْيَاطَ مُسْتَفِيمٍ﴾ (٩٧)

- ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ قَالُونَ ﴾ (١٦١) ٢٥٦
- ﴿ وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ الصَّالِحِينَ ﴾ (١٦٢) ٢٥٦
- ﴿ قُولُوا مَا مَكَانُ اللَّهِ مُسْلِمُونَ ﴾ (١٦٣) ٢٥٦
- ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ رُجْعُونَ ﴾ (١٦٤) ٢٥٧
- ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ النَّارَ ﴾ (١٦٥) ٢٥٧
- ﴿ يَأْتِيهَا النَّاسُ كُلُّوا مُبِينٌ ﴾ (١٦٦) ٢٥٨، ٢٥٧
- ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا يَصْلَوْنَ ﴾ (١٦٧) ٢٥٧
- ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُّوا تَعْبُدُونَ ﴾ (١٦٨) ٢٥٨
- ﴿ يَسْتَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ عَلَيْهِ ﴾ (١٦٩) ٢٦٠
- ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يقرضُ اللَّهَ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (١٧٠) ٢٦٢، ٢٦١
- ﴿ أَبُودُ أَحَدَكُمْ لِمَلِكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ (١٧١) ٢٦٣
- ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ عَلَيْهِ ﴾ (١٧٢) ٢٦٢
- ﴿ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَخْرُجُونَ ﴾ (١٧٣) ٢٦٣
- ﴿ الشَّيْطَانُ يُدْكِمُ الْفَقْرَ عَلَيْهِ ﴾ (١٧٤) ٢٦٤
- ﴿ إِنْ تَبَدُّوا لَلصَّدَقَاتِ حَيْرٌ ﴾ (١٧٥) ٢٦٤
- ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَفَسَطَ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ (١٧٦) ٢٦٥
- ﴿ وَإِنْ طَلَقْتُمُوهُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُمْ بَصِيرٌ ﴾ (١٧٧) ٢٦٦
- ﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ قَنِيتَيْنِ ﴾ (١٧٨) ٢٦٦
- ﴿ وَلَمَّا طَلَقْتِ مَتْعَ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴾ (١٧٩) ٢٦٦
- ﴿ أَنْتُمْ تَرَى الَّذِينَ خَرَجُوا .. لَا يَتَذَكَّرُونَ ﴾ (١٨٠) ٢٦٧
- ﴿ وَاللَّهُ يُؤْتِي مَلَكَهُ، مَنْ يَشَاءُ عَلَيْهِ ﴾ (١٨١) ٣٣٤
- ﴿ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لِمَلِكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (١٨٢) ٣٤٤
- ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ (١٨٣) ٣٤٤
- ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّجْمِ وَالْجَبَلِ وَمَا زُنْجَرُهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ (١٨٤) ٣٦٠
- ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ (١٨٥) ٣٦٠
- ﴿ وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ هُوَذَا أَوْ نَصْرَى ﴾ (١٨٦) ٣٦٥

- ﴿رَبِّ الَّذِي بَعَثَ إِبْرَاهِيمَ﴾ (٢٨٨) ٣٨٥
 ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ.....إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (٢٨) ٣٨٥
 ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ...يَمَّا كَانُوا يَقْسُونَ﴾ (٢٩) ٣٨٨
 ﴿وَسَخِّلْ لَكُم مِّنَ الْخَيْبِ.....الْمُطَهَّرِينَ﴾ (٣٠) ٤٠٢
 ﴿يَسْأَلُكُمْ خِزْيُ لَكُمْ.....وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٣١) ٤٠١

آل عمران

- ﴿مَا كَانَ لِشَيْءٍ أَن يُوَفِّيَهُ اللَّهُ.....تَدْرُسُونَ﴾ (٣٢) ٦٧
 ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا.....تُقْلِحُونَ﴾ (٣٣) ٧٧
 ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيمُ﴾ (٣٤) ١١٧
 ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ.....سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (٣٥) ١١٧
 ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ.....ذُؤَانِقًا﴾ (٣٦) ١١٧
 ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ.....الْخَيْرِينَ﴾ (٣٧) ١١٨
 ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ.....سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (٣٨) ١١٩
 ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ.....رُجْعُونَ﴾ (٣٩) ١١٩
 ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً..تَقُولُونَ﴾ (٤٠) ١١٩
 ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا..فَتَسْقِلُوا خَيْرِينَ﴾ (٤١) ١١٩
 ﴿وَكَايْنِ مِّنْ شَيْءٍ قَتَلْتُمْ مَعَهُ.....الْقَتِيلِينَ﴾ (٤٢) ١٢٠
 ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَصِرُوا.....تُقْلِحُونَ﴾ (٤٣) ١٤٦
 ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ.....الْقَتِيلِينَ﴾ (٤٤) ٢٠٥
 ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ.....أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (٤٥) ٢٠٨
 ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا.....خَيْرِينَ﴾ (٤٦) ٢٠٩
 ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ.....فَبَسَّ مَا بَشَرُوكَ﴾ (٤٧) ٢٠٩
 ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ...إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (٤٨) ٢٢٥
 ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ.....صَلَّى مُبِينٍ﴾ (٤٩) ٢٤١
 ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ.....خَالِدُونَ﴾ (٥٠) ٣٠٦
 ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ مُؤَيَّدٌ.....نَشَاءُ﴾ (٥١) ٣٣٤

- ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ﴾ (٧) ٣٣٤
- ﴿زَيْنَ النَّاسِ حُبُّ الشَّهِيدِ..... الْحَيَوَةُ الدُّنْيَا﴾ (١١) ٣٣٤
- ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالرُّسُولِ..... أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (١٧) ٣٣٥
- ﴿وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ (٢) ﴿مِن قَبْلُ هَدَى النَّاسَ﴾ (٤) ٣٤١
- ﴿وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ﴾ (١١) ٣٤٤
- ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ (١٥٨) ٣٤٤
- ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ..... أَلْسِمَ﴾ (٦) ٤٠٠
- ﴿فَإِنْ حَاجَّكَ فَعَلْ أَتَيْتُ..... وَاللَّهُ بِعَمِيرٍ بِالْعِيَادِ﴾ (٢) ٤٠٠

النساء

- ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ..... رَقِيبًا﴾ (١) ٥٣
- ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ.... إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ (١) ٣٦٦، ١٦٣، ١٠٩
- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ..... حَذِيرًا﴾ (٣٦) ١١٠
- ﴿وَأَتُوا إِلَيْنَا أَمْوَالَكُمْ وَلَا تَقْدُلُوا..... حُوبًا كَبِيرًا﴾ (٢) ١١١
- ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا... فَخُورًا﴾ (٦) ١١١
- ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ..... حَدِيثًا﴾ (٨٧) ١١٣
- ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْفَالِكُ كُهُ..... وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ (١٧) ١١٣
- ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا..... شَهِيدًا﴾ (١١) ١١٣
- ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا..... ظُلُمًا ظَلِيلًا﴾ (٣٧) ١١٣
- ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ..... عَظِيمًا﴾ (١٨) ١١٣
- ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ (١٣) ١١٣
- ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا..... رَجِيمًا﴾ (١١٣) ١١٤
- ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ..... حَمِيدًا﴾ (١٣) ١١٤
- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ..... نَأْوِيًا﴾ (٨) ٢٠٨، ١١٤
- ﴿وَلَا تَقْدُلُوا الْخَيْفَ بِالْعَمِيَّةِ..... كَبِيرًا﴾ (٢) ١١٥
- ﴿وَلِيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا..... سَدِيدًا﴾ (١) ١١٥
- ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ..... كَبِيرًا﴾ (٦) ١٣١

١٣٢	﴿إِنَّ اللَّهَ بِأَمْرِكُمْ أَمْ تَوَدُّوْنَ.....بَصِيرًا (٥٨)﴾
١٦٣	﴿يَسْتَفْتُونَكَ.....وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٧٦)﴾
١٨٧	﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ.....مُحِيطًا (١٤٦)﴾
١٨٩	﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا.....شَهِيدًا (٤١)﴾
١٩٠	﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ.....عَظِيمًا (٤٠)﴾
١٩١	﴿لَا يَسْتَوِي الْقَتِيلُونَ.....عَظِيمًا (١٥)﴾
١٩١	﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتَ.....حَسِيرًا (١١)﴾
١٩٩	﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا (٥٤)﴾
٢٠٣	﴿وَإِنْ يَنفَرَا يَفْعِنَ اللَّهُ.....حَكِيمًا (١٣)﴾
٢٠٣	﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي.....قَدِيرًا (١٣٢)﴾
٢٠٨	﴿وَمَن يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ.....رَفِيقًا (١٦)﴾
٢٠٨	﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ.....رَّحِيمًا (٦١)﴾
٢٠٨	﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَنبِيْهًا.....مُتَّقِيْنَ (١٦)﴾
٢٠٨	﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَرْعُمُونَ.....بَعِيدًا (١٠)﴾
٢١٣	﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا.....فَضْلِهِ (١٧٢)﴾
٢١٣	﴿وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفَوْا.....وَلَا نَصِيرًا (١٧٢)﴾
٢١٧، ٢١٦	﴿فَكَيْفَ إِذَا أَصَابْتَهُمُ.....وَتَوَفِيقًا (١٢)﴾
٢١٧	﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ.....بَلِيغًا (١٢)﴾
٢٢٣	﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي الْإِسَاءِ.....عَلِيمًا (١٢٧)﴾
٢٢٣	﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا.....خَلِيلًا (١٢٥)﴾
٢٢٤، ٢٢٣	﴿لَيْسَ بِأَمَانِيْنِكُمْ.....وَلَا نَصِيرًا (١٢٢)﴾
٢٢٣	﴿وَلِيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا.....سَدِيدًا (٦)﴾
٢٢٥	﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَهُمُ الرُّسُولُ.....حَكِيمًا (٧)﴾
٢٧٨	﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا نَصِيبًا.....نَصِيرًا (٥٥)﴾
٣٣٤	﴿لَكِنِ الرَّاْسُخُونَ فِي الْعِلْمِ.....بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ (١١٢)﴾
٣٣٥	﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ.....لِلذِّكْرِ مِثْلَ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ (١١)﴾

- ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةً﴾ (٨٨) ٣٣٥
 ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ﴾ (١١) ٣٣٥
 ﴿وَمَا كَأَنَّ لِلْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَقْتُلُوا... حَكِيمًا﴾ (١٢) ٤١٧

المائدة

- ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا..... مَا يُرِيدُ﴾ (١) ١٧٢، ١٢٥
 ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا..... فَشْكُرُوا﴾ (٦) ١٢٥
 ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ..... قَدِيرٌ﴾ (١٠) ١٧٢
 ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ..... السَّبِيلَ﴾ (١٢) ٢١٣
 ﴿وَأَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ..... الصُّدُورِ﴾ (٧) ٢١٣
 ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا..... الْمُؤْمِنُونَ﴾ (١١) ٢١٤
 ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحْرَمُوا..... الْمُتَعِدِينَ﴾ (٨٧) ٣٤٤
 ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَیْمَةٍ..... لَا يَقُولُونَ﴾ (١٣) ٣٤٤

الأنعام

- ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ..... لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (١٥) ٤٣
 ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ..... الْمُحْسِنِينَ﴾ (٨١) ٦٦
 ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ..... رَحِيمٌ﴾ (١٥٨) ١٤٨، ٣٣٣
 ﴿قُلْ إِنِّي هُنَالِكَ مِنَ..... الْمُشْرِكِينَ﴾ (١٦١) ١٤٩
 ﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي..... السَّالِفِينَ﴾ (١٣٣) ١٤٩
 ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا..... عَلَيْهِمُ﴾ (١٢٨) ١٨٤
 ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ..... يَقُولُونَ﴾ (١٣٧) ١٨٤
 ﴿وَلَوْ أَنَّا زَلَّنا إِلَيْهِمُ الْمَلَكُكَةُ..... يَجْهَلُونَ﴾ (١١١) ١٩٤
 ﴿وَأَنصَبُوا بِاللهِ..... لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (١٩) ١٩٤
 ﴿وَمِمَّنْ دَاخِلُنَا الْأَرْضِ وَلَا ظَلَمِيرٌ..... يُحْشَرُونَ﴾ (٢٨) ٢٠٤
 ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ..... لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٣٧) ٢٠٤
 ﴿وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ (٦١) ٢١٢
 ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ اتَّخَذُوا وَلِيًّا..... الْمُشْرِكِينَ﴾ (١١) ٢٢١

- ﴿ وَهُوَ الَّذِي أُنزِلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءٌ..... يُؤْمِنُونَ ﴾ (١١) ٢٢١
- ﴿ فَكُلُوا مِنَّمَا ذَكَرَ اسْمُ اللَّهِ..... مُؤْمِنِينَ ﴾ (١٨) ٢٢١
- ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ مَا زَرَّ..... مُبِينٍ ﴾ (٧١) ٢٢٢
- ﴿ ذَالِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ..... وَكَبِيلٌ ﴾ (١٠٢) ٢٤٤
- ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ..... تَمْتَرُونَ ﴾ (٢) ٣٣٢
- ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ..... وَالْآخِرِينَ ﴾ (٦) ٣٣٢
- ﴿ الْحَسَنُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ... يَعْدِلُوكَ ﴾ (١) ٣٥٤

الأعراف

- ﴿ أَتَسْمَعُوا مَا أَنزَلَ إِلَيْنَا مِنْ رَبِّكُمْ..... تَذْكُرُونَ ﴾ (٢) ١٧٣
- ﴿ إِنَّ وَلِيِّ اللَّهِ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ..... الصَّالِحِينَ ﴾ (١٣٣) ١٧٣
- ﴿ خُذِ الْعَقْرَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ..... عَلَيْهِمْ ﴾ (٢٠٠) ١٧٣
- ﴿ إِنَّكَ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا..... تُرْمَعُونَ ﴾ (١٩) ١٧٣
- ﴿ وَادْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ..... بِسُجُودٍ ﴾ (٦٦) ١٧٤
- ﴿ يَبْنِي مَادَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ..... الْمُسْرِفِينَ ﴾ (٣٣) ٢٠٥
- ﴿ قُلْ أَسْرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ..... تَعُودُونَ ﴾ (١١) ٢٠٦
- ﴿ يَبْنِي مَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ لِيَاسًا..... يَذْكُرُونَ ﴾ (٦٦) ٢٠٦
- ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ..... تَذْكُرُونَ ﴾ (٣٧) ٢١٦
- ﴿ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ ﴾ (١١) ٣٣٣
- ﴿ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَاكِدٍ ﴾ (٧) ٣٣٣
- ﴿ وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ..... يَظْلِمُونَ ﴾ (١٣٣) ٣٨٨
- ﴿ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ..... يَجْحَدُونَ ﴾ (١١) ٤٠٥
- ﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْمَلَكِينَ ﴾ (١١) ٤١٤

الأنفال

- ﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا..... مُعْرِضُونَ ﴾ (٣) ٥٣
- ﴿ يَسْتَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ..... مُؤْمِنِينَ ﴾ (١) ١٠٧
- ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرُوا..... يَتَوَكَّلُونَ ﴾ (١) ١٠٧

- ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدِ وَهَابِرُوا عَلِيمٌ ﴾ (٧٥) ١٣٩
 ﴿ وَإِذْ يَعِدُّكُمْ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ﴾ (٧) ١٤٠
 ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ يَنْظُرُونَ ﴾ (٦) ١٤٠
 ﴿ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّفَاقُتُمْ الْأُمُورُ ﴾ (١١) ١٩٦
 ﴿ إِذْ أَنْتُمْ بِالْمَدِينَةِ عَلَيْهِ ﴾ (١٢) ١٩٦
 ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ ﴾ (٢٠) ٢٤٩

التوبة

- ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ الْعَظِيمِ ﴾ (١٨) ١٤٦
 ﴿ إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ قَدِيرٌ ﴾ (٣١) ١٨٨
 ﴿ إِلَّا تَنْصُرُوهُ حَكِيمٌ ﴾ (٤٠) ٣٣٩، ١٨٨
 ﴿ أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا تَعْلَمُونَ ﴾ (١١) ١٨٨
 ﴿ فَإِذَا أُنْزِلَ الْأَمْرُ لِلْحَرَمِ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (٥) ١٩١
 ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ يَعْلَمُوكَ ﴾ (٦) ١٩١
 ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ الرَّحِيمُ ﴾ (١٠٤) ١٩٢
 ﴿ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنْ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (١٠٢) ١٩٢
 ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ الْعَظِيمُ ﴾ (٧٢) ١٩٢
 ﴿ وَمَا كَانِ الْمُؤْمِنُونَ يَحْذَرُونَ ﴾ (١٢٢) ٢١٦
 ﴿ إِنْ اللَّهُ أَشَقَرَى مِنْ الْمُؤْمِنِينَ الْعَظِيمُ ﴾ (١١١) ٢٤١
 ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ قَلِيلٌ ﴾ (٢٨) ٢٤٧
 ﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ كُفْرُونَ ﴾ (٥٥) ٢٤٨
 ﴿ بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (١) ٢٩٤
 ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَحِيمٌ ﴾ (١٢٨) ٣١٥، ٣٣٩
 ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ الْكَذِبِ ﴾ (٤٣) ٣٣٩
 ﴿ وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ أَلِيمٌ ﴾ (٦١) ٣٣٩

يونس

- ﴿ الرَّبُّ يَكُ مَابِتٌ الْكِتَابِ الْكَبِيرِ ﴾ (١) ٩٤
 ﴿ وَهَاجِرٌ دَعْوَاهُمْ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (١٠) ١٤٤

- ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ..... الْمُفْسِدِينَ ﴾ (١٨) ١٤٩
- ﴿ وَمَنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ..... لَا يَحْكُمُونَ ﴾ (١٩) ١٨٧
- ﴿ وَمَنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ..... بِالْمُفْسِدِينَ ﴾ (٢٠) ١٨٧
- ﴿ هُوَ الَّذِي يُسَوِّرُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ..... تَعْمَلُونَ ﴾ (٢١) ١٩٢
- ﴿ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً..... مَا تَمْكُرُونَ ﴾ (٢٢) ١٩٢
- ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ..... يَسْمَعُونَ ﴾ (٢٣) ١٩٦
- ﴿ الْآيَاتِ لِلَّهِ..... يَحْرُصُونَ ﴾ (٢٤) ١٩٦
- ﴿ إِنَّ الْمِرَّةَ لِلَّهِ جَمِيدٌ مَا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (٢٥) ١٩٧
- ﴿ وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ... رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٢٦) ٢١١
- ﴿ وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ... الْمُنْتَظَرِينَ ﴾ (٢٧) ٢١١
- ﴿ أَمْ يَقُولُونَ اقْرَأْهُ... صٰدِقِينَ ﴾ (٢٨) ٢١١
- ﴿ أَلَا إِنَّ أَوَّلِيَاءَ اللَّهِ... الْعَظِيمُ ﴾ (٢٩) ٢٣٨
- ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ... مُبِينِ ﴾ (٣٠) ٢٣٨
- ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ... مُؤْمِنِينَ ﴾ (٣١) ٢٤٤
- ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا... مُبِينٌ ﴾ (٣٢) ٢٣٩
- ﴿ إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ... أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ (٣٣) ٢٣٩

هود

- ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ... مُبِينِ ﴾ (١) ٥٢
- ﴿ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوَى إِلَيَّ رَبِّيَ لَأَكِيدَنَّكُمْ... ﴾ (٢) ٦٥
- ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَيْ مَاءَكَ... الظَّالِمِينَ ﴾ (٣) ٩٠، ٨٩
- ﴿ الرُّكْنُ أُنْكِبَتْ أَبْنَتْهُ ثُمَّ... عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴾ (٤) ١٢٨
- ﴿ وَالَّذِي عَادُوا أَخَاهُمْ هُودًا... مُجْرِمِينَ ﴾ (٥) ١٢٩
- ﴿ إِنَّ الْخَمْسَةَ يَذْهَبْنَ السَّيِّئَاتِ... لِلذَّكْرِ ﴾ (٦) ٢٣٦
- ﴿ وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٧) ٢٣٧، ٢٣٦
- ﴿ وَقَدْ لَدَيْنَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا... إِنَّا عَمِلُونَ ﴾ (٨) ٢٣٦
- ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ... مُخْتَلِفِينَ ﴾ (٩) ٢٣٧

يوسف

- ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ..... سِيزِينُ﴾ (١٢) ١٣
 ﴿وَرَدَدْتُهُ إِلَىٰ هُوَ فِي بَيْتِهَا..... الظَّالِمُونَ﴾ (٢٢) ٦٨
 ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ..... يُؤْمِنُونَ﴾ (١١١) ٢١٥، ١٧٢
 ﴿قَالَ لَا تَنْزِيبَ عَلَيْكُمُ..... الرَّاحِمِينَ﴾ (١٢) ٣٣٦
 ﴿أَفَنَنْتَ فَضْلَ الْحَقِّ..... الصَّادِقِينَ﴾ (٥١) ٣٣٧
 ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْقَسَ..... عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ (١١) ٣٣٧

الرعد

- ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا..... عِلْمَ الْكِتَابِ﴾ (١٢) ١٥٤

إبراهيم

- ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ..... الْحَكِيمِ﴾ (٤) ١٠
 ﴿الرَّكَتَبُ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ..... الْحَمِيدِ﴾ (١) ١٠
 ﴿وَلَا تَحْسَبِ أَنَّ اللَّهَ غَفْلًا..... الْحِسَابِ﴾ (٥١) ١٣٤
 ﴿هَذَا بَلَدٌ لِلنَّاسِ..... الْأَنْبِيَاءِ﴾ (٥٢) ١٣٤
 ﴿وَمَا آتَيْنَاكَ مِن كُلِّ مَآسَاءٍ نُفُوءٌ..... كَقَارِ﴾ (٢٦) ٣٩٣

الحجر

- ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْفَعْنَهُنَّ أَجْمَعِينَ﴾ (١٢) ٣٤١

النحل

- ﴿هُوَ الَّذِي أُنزِلَ..... تُبَيِّنُونَ﴾ (١٠) ٧٦
 ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا..... لِلصَّابِرِينَ﴾ (١٣٧) ١٧٨
 ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً..... بِصُسُوفٍ﴾ (١١٣) ٢٢٢
 ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ..... الْمُكَذِّبِينَ﴾ (٨) ٢٢٤
 ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ..... الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٢٥) ٢٢٤
 ﴿أَنَّا أُمِرْنَا بِالْحَقِّ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ..... يُشْرِكُونَ﴾ (١) ٣٤١
 ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ..... يُشْرِكُونَ﴾ (٢) ٣٤١
 ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن تُطَعْمَةٍ..... مُبِينٍ﴾ (١) ٣٤٢

- ﴿وَقُلِ اللَّهُ فَصْدُ السَّبِيلِ..... أَتَجْعَلُ﴾ ٣٤٣
 ﴿وَأَنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا..... رَحِيمٌ﴾ ٣٩٣
 ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً..... يَرْزُقُونَ﴾ ٣٩٦

الإسراء

- ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا..... مَفْعُولًا﴾ ٥٥
 ﴿نُسِخَ لَهُ السَّمُوتُ السَّبْعُ..... إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ ٦٨
 ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ..... أَلْبَصِيرُ﴾ ١٧١، ٢٩٤
 ﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَبُذْهُهُ الْمُهْتَدِ..... خَلْقًا جَدِيدًا﴾ ١٩٤
 ﴿قُلْ كَفَىٰ يَا اللَّهُ شَهِيدًا..... بَصِيرًا﴾ ١٩٤
 ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ لَمَعَاطٌ بِالنَّاسِ... كَبِيرًا﴾ ٢٨٦
 ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ..... قَلِيلًا﴾ ٢٨٦

الكهف

- ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا..... مِدَادًا﴾ ١٦٩، ١٤٥
 ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ..... لَمَدًا﴾ ١٦٩
 ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ..... بَدَلًا﴾ ٢١٢، ٢١١
 ﴿وَوَضِعَ الْكِتَابَ..... أَحَدًا﴾ ٢١٢
 ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ..... عِوَجًا﴾ ٣٥٤، ٢٩٥، ٢٩٤

مريم

- ﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا..... إِنْشَاءً﴾ ٥٢
 ﴿يَبْخَجِي خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ..... صَبِيًا﴾ ٦٧
 ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ..... لُذًا﴾ ١٠٢
 ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ..... وَكَثْرًا﴾ ٣٤٨، ١٤٢، ١٠٢
 ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ..... عَبْدًا﴾ ٤٠٦

طه

- ﴿قَالَ مَا مَنَّ اللَّهُ..... وَأَتَيْنَ﴾ ٤٤٢، ٥٤
 ﴿كُلُّوا وَارْعَوْا أَنْفُسَكُمْ..... أَلْهَى﴾ ٧٦

- ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ.....ذِكْرًا ١١﴾ ٢٨٦
 ﴿وَكَذَلِكَ أُنزِلَتْهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا.....ذِكْرًا ١٢﴾ ٨٦
 ﴿فَقُلْنَا يَتَادُمُ إِنَّ هَذَا عُدُوٌّ لَكَ.....فَنَشَقِّقُ ١٣﴾ ٢٨٦
 ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ١٤﴾ ٢٨٦
 ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْءَانِ.....وَحَيْثُ ١٥﴾ ٢٨٦
 ﴿قَالَ فَمَنْ رُبُّكُمْ يَا نُوسَى.....هَدَى ١٦﴾ ٤١٥، ٢٩٥
 ﴿مَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْءَانُ لِتَشَقِّقَ ١٧﴾ ٣٤٨

الأنبياء

- ﴿مَاءَ أَمْنَتُ قَبْلَهُمْ.....لَا تَعْلَمُونَ ٧﴾ ٣٤٨، ١٠٨
 ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَتْ.....الْأُولُونَ ٨﴾ ١٠٩
 ﴿هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ.....تُصِرُّونَ ٩﴾ ١٠٩
 ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا.....لَا تَعْلَمُونَ ١٠﴾ ١٠٩
 ﴿قُلْ رَبِّ أُنْكِرْ بِالْحَقِّ.....تَصِفُونَ ١١﴾ ١٣٣
 ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعَيْنٍ ١٢﴾ ٢١٤
 ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَبْلِكَ.....آخِرِينَ ١٣﴾ ٢١٥
 ﴿أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا.....يَسْبَحُونَ ١٤﴾ ٢٣٩
 ﴿أَرِ اتَّخَذُوا إِلَهًا مِنْ دُونِ.....فَاعْبُدُونِ ١٥﴾ ٢٤٠

الحج

- ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ.....قَرِيبًا ٢﴾ ٣٣٦، ٣٣٨، ١٠٨
 ﴿وَالَّذِ كَ وَمَنْ عَاقَبَ.....عَفْوًا ٣﴾ ١٣٠
 ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِاللهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ.....النَّصِيرُ ٤﴾ ١٥٥
 ﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ آمَنُوا.....مَا يُرِيدُ ٥﴾ ١٨٥
 ﴿إِنَّ اللَّهَ يَذِيعُ عَنِ الَّذِينَ كَافِرِينَ.....كُفُورًا ٦﴾ ١٨٦
 ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ.....الْبِرَّ ٧﴾ ١٨٦
 ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ.....يَسِيرًا ٨﴾ ١٩٦
 ﴿اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ.....تَحْتَلِفُونَ ٩﴾ ١٩٦

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا.....تُؤْلِحُوكَ﴾ (٧٧) ٣٤٠

﴿فَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا.....كَرِيمٌ﴾ (٨٠) ٤١٦، ٤٣٦

المؤمنون

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ (١٣) ١٠٩

﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ.....الْكَافِرُونَ﴾ (١٧) ١٦٠

﴿وَهُرَّ الَّذِينَ أَنشَأْنَا لَهُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ.....تَشْكُرُونَ﴾ (٧٨) ١٧٨

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ.....يَضْرَعُونَ﴾ (٧٩) ١٧٨

﴿قُلْ لِيِنَّ الْأَرْضَ وَمَنْ فِيهَا... وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (١٠) ٢٤٦

النور

﴿سُورَةُ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَّغْنَاهَا.....تَذْكُرُونَ﴾ (١) ١٢٤

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَصْلَابُهُمْ كَرِيمٌ.....الْحِسَابِ﴾ (٣١) ١٨٥

الفرقان

﴿الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ.....سَبِيلًا﴾ (٢٤) ٢٢٥

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ... فَذَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا﴾ (٣٦) ٢٨٧

﴿وَقَالُوا أَأَسْطِطِرُ الْآوَالِيكَ.....وَأُصِيلًا﴾ (٤) ٣٩٦

﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ الْغَيْبَ.....رَحِيمًا﴾ (٦) ٣٩٦

الشعراء

﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ... يَتَقَلَّبُونَ﴾ (٢٧) ١٤٠

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (٢٢) ٢٩٥

﴿وَالَّذِي يُسْتَشَىٰ ثُمَّ يُخْلَعُ﴾ (٨١) ٣٨٥

﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ (٧٨) ٤١٥

النمل

﴿إِنَّمَا أَمِِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبِّي.....تَعْمَلُونَ﴾ (١٣) ١٥١

﴿طَسَّٰنَٰ يَٰلَكَ ءَايَاتُ الْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ.....يُوقَتُونَ﴾ (٢) ٢٦٧

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ.....هُمْ الْأَخْسَرُونَ﴾ (٥) ٢٦٧

﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ (٧٩) ٢٦٨

القصص

﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ... يُبَشِّرُ كُونَ (٨)﴾ ٢٠٢

العنكبوت

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ..... فَعَلُونَ (٨)﴾ ١٨٩

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ..... الصَّالِحِينَ (١)﴾ ١٨٩

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ..... الْكَافِرِينَ (٢)﴾ ١٨٩

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَابَتِ إِلَهُ..... إِلَهُ (١٢)﴾ ٢٤٥

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ..... الْفٰلِغِينَ (١٠)﴾ ٣٧٣، ٢٥٠

﴿أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا..... لَا يُفْتَنُونَ (٢)﴾ ٣٧٢

﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ..... يَظْلِمُونَ (١٠)﴾ ٣٧٣

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا..... يَعْمَلُونَ (٧)﴾ ٤١٦

الروم

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ... مُبْطِلُونَ (٥٨)﴾ ٣٦١، ٣٠٧

لقمان

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ..... الْغُرُورُ (٣٢)﴾ ٩٥

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ..... خَيْرٌ (٦)﴾ ١٣٥

﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ..... وَلَا كُتِبَ مُنِيرٌ (٢٠)﴾ ١٩٥

﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ..... خَيْرٌ (٦)﴾ ١٩٥

﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ الْفُلْكَ..... مَكُورٌ (٦)﴾ ١٩٦

﴿وَإِذَا تَنَاسَلَ عَلَيْهِمُ آبْنَا..... إِلَهُ (٧)﴾ ٣٠٧

﴿آلَهُ (١) يَلِكْ ءَايَتِ الْكِتَابِ..... الْفٰلِغُونَ (٥)﴾ ٣٥٩، ٣٠٧

﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ... يَوْفُونَ (١)﴾ ٣٦٠

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا..... الْحَكِيمُ (١)﴾ ٣٦٣

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي..... مُهِينٌ (٦)﴾ ٣٦٣

﴿وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ..... الْأُمُورِ (١٢)﴾ ٣٦٣

السجدة

﴿ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَارِيبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) ﴾ ٣٦٢

﴿ وَلَقَدْ مَآبِنَا مُوسَى الْكِتَابَ إِنْ شَاءَ رَبُّكَ (١٣) ﴾ ٣٦٦

الأحزاب

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ مُبَشِّرًا (١٦) ﴾ ٤١٣، ٣٨١

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزِيدَنَّكُمْ جَمِيلًا (٨) ﴾ ٤١٣

﴿ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنْ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا (٧) ﴾ ٤٠١

سبا

﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرِ... وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَشِيدٌ (١٧) ﴾ ١٩٦

﴿ قُلْ إِنَّمَا أُعْطِيتُكُمْ بِوَاحِدَةٍ عَذَابٍ مُدِيرٍ (١٦) ﴾ ٢٣٥

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ الْخَيْرُ (١) ﴾ ٣٥٦، ٣٥٤

فاطر

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَذْكُرُوا بَعَثَ اللَّهُ تَوَفَّكُونَ (٢) ﴾ ١٩٤، ١٠٨

﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ خَلْقًا فِي الْأَرْضِ إِلَّا خَسَارًا (٣١) ﴾ ١٩٠

﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا تَعْمَلْ مَصَلِحًا نَصِيرٍ (٢٧) ﴾ ١٩٠

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ كُفُورٍ (٣١) ﴾ ٢١٠

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ تَكْبُورَ (١١) ﴾ ٢١٠

﴿ الَّذِي أَلْهَنَّا ذَا الْقَامَةِ لُغُوبَ (٣٥) ﴾ ٢١٠

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدِيرٍ (١) ﴾ ٤١٧، ٣٥٤

يس

﴿ فَسُبْحَنَ الَّذِي يَبْدِئُ مَلَكُوتَ كُلِّ تُرْجَعُونَ (٨٢) ﴾ ١٥٤

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْيُنِهِمْ أَغْلًا مُقْمَحُونَ (٨) ﴾ ١٧٩

﴿ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٧) ﴾ ١٨٠

﴿ وَآيَةٌ لَهُمْ الْأَرْضُ الْمَيِّتَةُ أَحْيَيْنَاهَا بِأَكْثَرُونَ (٣٧) ﴾ ١٨٠

﴿ وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ (١١) ﴾ ١٨٠

﴿ وَإِذْ أَيْدِيَهُمْ أَوْفَوْا مَا يَبِينُ أَيْدِيَكُمْ تُرْجَعُونَ (١٥) ﴾ ١٨٠

- ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ خَلَقَ.....وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ (٨١) ٢١٢، ١٨٠
 ﴿...أَتَجِدُ مِنْ دُونِهِ.....وَلَا يَنفَعُ دُونَ﴾ (٢٣) ١٨٧
 ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ.....تُوفُونَ﴾ (٨٠) ٢١٢
 ﴿وَصَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ.....وَهُيَ رَبِّمُ﴾ (٧٨) ٢١٢
 ﴿وَأَيُّهُمْ آلِيلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ...تُظْلِمُونَ﴾ (٧٧) ٢٣٧

الصفات

- ﴿سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ.....الْعَلِيمِ﴾ (١٤٣) ١٣٧
 ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٤٣) ١٤٣

ص

- ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ.....جَعِلَ﴾ (٨٨) ١٣٦
 ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجَلْ لَّنَا قِطْعًا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ (١١) ٢٤٢
 ﴿يَسْأَلُونَكَ خَلِيفَةً.....الْحِسَابِ﴾ (١١) ٢٤٢
 ﴿أَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ.....أَوَّابٌ﴾ (١٧) ٢٤٢
 ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ...إِنْ يُوْحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ (٦٠) ٢٤٣

الزمر

- ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ..الْمَكَّارُ﴾ (١) ١٢١، ١٢٠
 ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ.....يُشْرِكُونَ﴾ (١٧) ١٢١
 ﴿صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ...بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (١١) ١٢١
 ﴿قُلْ أَفَعَتَرِ اللَّهُ شَأْمُرُو؟ أَعْبُدُوا إِلَهًا مِّثْلَ مَا تُعْبُدُونَ﴾ (١١) ١٢١
 ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ.....فَإِذَا هُمْ بِنَجْمٍ يُنْظَرُونَ﴾ (١٨) ١٢٣
 ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ...لَدِكْرَىٰ لِأُولَى الْأَلْبَابِ﴾ (١١) ١٢٣
 ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ.....الْمُفْقُونَ﴾ (٣٣) ١٢٤
 ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقْنَا وَعَدَهُ﴾ (٦١) ١٤٤
 ﴿وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٧٥) ١٤٤
 ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ دُونِهِ.....كَفَّارٌ﴾ (٢) ٣٤٥
 ﴿وَالَّذِينَ ابْتَغَتْوُا الظُّلُمَاتِ.....فَنُفِرَ عَنَّا﴾ (٧) ٤٠٧

غافر

- ﴿ فَلَسَارَاوَا بِأَسَا الْكَافِرُونَ ﴾ (٨٥) ١٩
 ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ يَكْسِبُونَ ﴾ (٨٢) ١٤٢
 ﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ الْحَمِيم ﴾ (٧) ٤٠٩، ٢٣١
 ﴿ لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٨٦) ٤١٥
 ﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ يُنِيبُ ﴾ (١٣) ٢٣١
 ﴿ مَا يُجْدِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَيْهِ ﴾ (١) ٣٤٦

فصلت

- ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا الْأَسْفَلِينَ ﴾ (٢١) ٤٦
 ﴿ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَنَوَاتٍ الْعَلِيم ﴾ (١٢) ١٣٢
 ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ تَعْبُدُونَ ﴾ (٣٧) ٢٣٧، ١٩٩
 ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا الْمُسْلِمِينَ ﴾ (٣٣) ٢٠٠
 ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً قَدِيرٌ ﴾ (٣) ٢٣٧
 ﴿ قُلْ أَنتُمْ لَكُمْ كُفْرُونَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ (١) ٢٣٧
 ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ عَمِلُونَ ﴾ (٥) ٢٦٩
 ﴿ حَرَّ (١) تَزِيلُ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مَمْنُونِ ﴾ (٨) ٢٦٩
 ﴿ قُلْ أَنتُمْ لَكُمْ كُفْرُونَ بِالَّذِي الْعَلِيم ﴾ (١٢) ٢٦٩
 ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا وَكَانُوا يَنْفُتُونَ ﴾ (١٨) ٢٧٠
 ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ الْمُتَعَبِينَ ﴾ (٢١) ٢٧١، ٢٧٠
 ﴿ وَقَبَضْنَا هَذِهِ قُرْآنًا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ﴾ (١١) ٢٧١
 ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ رَحِيم ﴾ (٣٢) ٢٧١، ٢٧٢
 ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا الْعَلِيم ﴾ (٣٦) ٢٧٢
 ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ قَدِيرٌ ﴾ (٣) ٢٧٣
 ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُلْجِدُونَ فِي آيَاتِنَا حَمِيد ﴾ (١١) ٢٧٣
 ﴿ مَا يَقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ لِلْعَبِيد ﴾ (١٦) ٢٧٣
 ﴿ إِلَيْهِ يَرْدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُخْبِطٌ ﴾ (٥١) ٢٧٤

﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ (١) ٣٤٦

﴿الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ.....كُفِرُوا﴾ (٧) ٤١٠

الشوري

﴿فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ.....الْبَصِيرُ﴾ (١١) ٤٥

﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ.....الرَّحِيمُ﴾ (٥) ٥٠

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ.....يُوكِلُونَ﴾ (٦) ١٧٧، ٣٤٦

﴿وَلَوْ سَئَلْتَهُ أَتَزْنَىٰ.....بَصِيرُ﴾ (١٧) ٢٣٨

﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا.....سَدِيدٌ﴾ (٦٦) ٢٣٨

﴿وَالَّذِينَ يُخَذِّبُونَ كِتَابَهُ الْإِسْلَامَ.....يَغْفِرُونَ﴾ (٣٧) ٤٠٨

الزخرف

﴿بَلْ مَنَعْتُ هَؤُلَاءَ وَآبَاءَهُمْ.....كُفِرُوا﴾ (٢٠) ٧٢

﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ يَقُولُ اللَّهُ فَاَنْ يُؤْفَكُونَ﴾ (٨٧) ١٦٥

﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ.....الْعَلِيمُ﴾ (١) ١٦٥

﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ.....عَظِيمٌ﴾ (٣) ٢٨١

﴿وَقِيلُوا يَنْتَرِبُ إِنَّ هَؤُلَاءَ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٨٨) ٣٩٧

﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ.....وَهُوَ الْغَنِيُّ الْعَلِيمُ﴾ (٨١) ٤٠٦

الدخان

﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْغَوْرُ الْعَظِيمُ﴾ (٣) ١٦٩

﴿فَإِنَّمَا يَسْتَرْزِقُهُ بِلسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (٨٨) ١٦٩

﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ (١١) ٤٤٠، ٤١٤

﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ.....إِنَّا مُنْقِمُونَ﴾ (١١) ٣٤٦

الجنات

﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَاقِبُ الْأَرْضِ.....مَأْكُتٌ تَقَمَّلُونَ﴾ (٨) ١٤٤

﴿فَلِلَّهِ الْمُنَادُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٦) ١٤٤

﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَاقِبُ الْأَرْضِ.....السُّطُورُ﴾ (٧) ١٩٥

﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ.....أَلِيمٌ﴾ (١١) ٣٤٦

الأحقاف

- ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرْنَا الْأَوَّلَى.....الْفَاسِقُونَ﴾ (٣٥) ٣
 ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ.....قَدِيرٌ﴾ (٣٢) ١٢٧
 ﴿فَهَلْ يَهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (٣٥) ٣٠٣
 ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ.....مُعْرِضُونَ﴾ (٢) ٣٤٢
 ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ.....يَحْزَنُونَ﴾ (١٢) ٣٩٤

محمد

- ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْيُنُهُمْ﴾ (١) ٣٠٣

الفتح

- ﴿قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ.....أَلَيْسَ﴾ (١٦) ٣١٥
 ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ.....أَلَيْسَ﴾ (١٧) ٣١٥
 ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ.....عَظِيمًا﴾ (١٨) ٣١٥
 ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا.....وَأَمِينًا﴾ (٩) ٣٨١

الحجرات

- ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ.....تَعْمَلُونَ﴾ (٨) ١٦٩
 ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدِمُوا.....عَلَيْهِ﴾ (١) ١٧٠، ٣١٥
 ﴿قُلْ أَعْمَلُمُوكَ اللَّهُ بِدِينِكُمْ.....عَلَيْهِ﴾ (٦) ١٧٠
 ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ.....لَعَلَّكُمْ تَرْحَمُونَ﴾ (١٠) ٢٢٦

ق

- ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ.....فُرُوجٍ﴾ (١) ٥٩
 ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا.....وَعِيدٌ﴾ (١١) ١٦٧، ٢٩٧
 ﴿أَوَدَا مِنَّا وَكَأَنَّا رُبَاً ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ (٢) ١٧١

الذاريات

- ﴿وَالَّذِينَ ذَرَوْا.....إِنَّمَا تَعْدُونَ لِمَآدٍ﴾ (٥) ٢٥٧
 ﴿قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ (٦) ٣٠٢
 ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا.....فَلَا يَسْمَعُونَ﴾ (٨) ٣٠٢

الطور

- ﴿ أَمْ لَمْ سَأَلُوا يَسْعَى فِيهِ مُبِينٌ ۝٢٨ ﴾ ٥٤
 ﴿ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَيْكَ أَمْ هُمْ الْمَصْطَرُونَ ۝٣١ ﴾ ٥٥
 ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَيْكَ لَوَاقِعٌ ۝٧ ﴾ ١٧٧، ٣٠٢
 ﴿ قَوْلٌ يُؤْمَرُ لِلْمُكَذِّبِينَ ۝١١ ﴾ ١٧٧، ٣٠٢

النجم

- ﴿ وَأَنَّ عَلَيْهِ النُّشَاءَ الْآخَرَى ۝٧ ﴾ ٢٠٢
 ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَيْكَ الشُّنَنَ ۝١٢ ﴾ ٢٠٢
 ﴿ ثُمَّ يُعْزِنُهُ الْبَرْزَاءَ الْأَرْقَى ۝١١ ﴾ ٢٠٢
 ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَفْقَى ۝١٥ ﴾ ٢٠٣
 ﴿ ذَلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ أَهْدَى ۝٣٠ ﴾ ٣٨٧
 ﴿ الَّذِينَ يَحْتَبُونَ كِبِيرَ الْإِنَامِ أَفْقَى ۝٣٢ ﴾ ٤٠٧

القمر

- ﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝١ ﴾ ٢٤٩
 ﴿ إِنَّ الشَّجَرِينَ فِي ضَلَالٍ مُّشْمَرٍ ۝٧ ﴾ ٣٤٠
 ﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ الْتَدُرُ ۝٥ ﴾ ٣٤٦، ٣٤٧
 ﴿ أَكْفَرًا كُذِّبَتْ مِنْ أَوْلِيَّكَ أَمْ لَكَ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ۝١٣ ﴾ ٣٤٦
 ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ۝١٩ ﴾ ٤١٤
 ﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ۝١٨ ﴾ ٤١٤
 ﴿ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَجِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ۝٢٠ ﴾ ٤١٤

الرحمن

- ﴿ مُتَكَبِّرِينَ عَلَىٰ مُرْتَبٍ وَحَىٰ الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ۝١١ ﴾ ٥٦
 ﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ۝٧ ﴾ ٥٧
 ﴿ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝٢ ﴾ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ۝١ ﴾ ٥٧
 ﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ لِلْأَنَارِ ۝١٠ ﴾ ٤٤٧، ٥٧
 ﴿ فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدًا كَالذِّهَانِ ۝٣٣ ﴾ ٣٣٨

- ﴿ يَعْرِفُ الْخَيْرَ مِمَّنْ يَسْمَعُهُمْ فَيَرْجُوهُ بِالْقَوْلِ وَالْأَقْدَامِ ﴾ (١١) ٣٤٠
- ﴿ وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ ﴾ (١٢) ٣٤٠
- ﴿ تَبَرَّكَ أَنْتُمْ رَبُّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ (١٣) ٣٧٤
- ﴿ مُتَكِبِينَ عَلَى رُفُوفٍ خُضْرٍ وَعَبَقَرِي حِسَانٍ ﴾ (١٤) ٣٧٤
- ﴿ وَرَبِّقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ (١٥) ٣٧٤

الواقعة

- ﴿ كَأَمْثَلِ الذُّلُولِ الْكَافِرِينَ ﴾ (١٦) ٤٥
- ﴿ وَفَكَهَفَ حَتَّىٰ يَنْبَزُوكَ ﴾ (١٧) يَسْتَمُونَ (١٨) ٥٥
- ﴿ وَفَكَهَفَ كَثِيرًا ﴾ (١٩) لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْرُوعَةٍ (٢٠) ٥٦
- ﴿ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴾ (٢١) وَطَلْحٍ مَّنْضُودٍ (٢٢) ٥٩
- ﴿ مَا أَصْحَبَ الْعَيْمَةَ مَا أَصْحَبَ الْعَيْمَةَ ﴾ (٢٣) ١٦٦
- ﴿ وَأَصْحَبَ الْيَمِينِ مَا أَصْحَبَ الْيَمِينِ ﴾ (٢٤) ١٦٦
- ﴿ وَأَصْحَبَ الْمَشْأَةِ مَا أَصْحَبَ الْمَشْأَةِ ﴾ (٢٥) ١٦٦
- ﴿ وَأَصْحَبَ الْيَمِينِ مَا أَصْحَبَ الْيَمِينِ ﴾ (٢٦) ١٦٦
- ﴿ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمَكَذِبِينَ الْغَالِينَ ﴾ (٢٧) ١٦٧
- ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ ﴾ (٢٨) لَسْبَعُونَ (٢٩) ١٦٧، ٢٣٦
- ﴿ إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴾ (٣٠) ٣٣٨
- ﴿ فَرُوحٌ وَرِيحَانٌ وَجَنَّتْ نَعِيمٌ ﴾ (٣١) ٣٧٤
- ﴿ فَسَبِّحْ بِأَمْرِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ (٣٢) ٣٧٤

المجادلة

- ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (٣٣) ٣٠٩، ٣١٨، ٣٤٩

المتحنة

- ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا السَّبِيلِ ﴾ (٣٤) ٣٠٩

الصف

- ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَصْغَارَ اللَّهِ ظَاهِرِينَ ﴾ (٣٥) ٣١١

﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ..... يُنِينَ مَرْصُومٌ ①﴾ ٣١٨

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَلْ أَدُلُّكُمْ..... قُلُورُنَ ②﴾ ٣١٨

الجمعة

﴿مَثَلُ الَّذِينَ خَسِلُوا الثَّورَةَ..... الْفَالِينَ ③﴾ ٣١٩

﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا..... الزَّوِينَ ④﴾ ٣١٩

﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تُمْرُونَ..... تَمَلُونَ ⑤﴾ ٣٢٠

﴿وَأَخْرَيْنَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا..... الْحَكِيمَ ⑥﴾ ٣٢٠

التغابن

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ..... قَدِيرٌ ⑦﴾ ٣١٤

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ..... بَصِيرٌ ⑧﴾ ٣٢٠

﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ يَوْمَ الْمَجْعِ..... الْعَظِيمُ ⑨﴾ ٣٢٠

﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ يُعْتَدُونَ..... خَيْرٌ ⑩﴾ ٣٢٠

الطلاق

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ..... عَلَمًا ⑪﴾ ٣٤٨

الملك

﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا..... السَّعِيرِ ⑫﴾ ٣٤٨

﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ..... وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ⑬﴾ ٣٨٥

القلم

﴿وَأَن يَكْذِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ لَكُمْ بِأَصْنَامِهِمُ..... لَمُتَعُونَ ⑭﴾ ١٦٦

﴿وَمَا هُمْ إِلَّا ذُكُرٌ لِّلْعَالَمِينَ ⑮﴾ ١٦٦

الحاقة

﴿قُلُوبُهَا دَانِيَةٌ ⑯﴾ ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا ⑰﴾ ٥٦

﴿فَلَا أَقِيمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ⑱﴾ ﴿كَرِيمٌ ⑲﴾ ١٤٥

المعارج

﴿تَفْرُجُ الْمَلَكُوتَ وَالرُّوحَ..... سَنُو ⑳﴾ ٤١٦

نوح

﴿الزُّنُرُوا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ.....مِرَاجًا﴾ (١٦) ٤١٥

المزمل

﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَنُومٌ قَلِيلًا﴾ (١) ٥٥
 ﴿وَأَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَأَهْبِزْهُمْ هَزِيمًا جِيلًا﴾ (١٠) ٤١٢، ٢٧٩
 ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِيَ النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا﴾ (١١) ٢٧٩
 ﴿إِنَّ هَذِهِ تَذَكُّرٌ.....سَبِيلًا﴾ (١٢) ٢٧٩
 ﴿رَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ (١) ٤١٢

القيامة

﴿أَجْحَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ (١٣) ١٦٩
 ﴿أَجْحَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يَجْمَعَ عِظَامُهُ﴾ (٢) ١٦٩

الإنسان

﴿يُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حَيْثُ وَبِسَاتٍ مَكِينًا وَمِثْيَا وَأَسِيرًا﴾ (٨) ٤١٠
 ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ (٧) ٤١٠

النبا

﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ.....خُطَابًا﴾ (٣٧) ٥٠
 ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا.....صَوَابًا﴾ (٣٨) ٥٠، ٤١٦

عبس

﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ (١١) ٤١٤

الانفطار

﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ (١١) ٣٠٧
 ﴿وَلَا نَ عَلَيْكُمْ لَحْظَاتٍ﴾ (١٠) ٣٠٧
 ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ.....رُكْبَتِكَ﴾ (٨) ٣٨٦

المطففين

﴿وَبِلِّ الْمُطْفِفِينَ﴾ (١) ٣٠٧

الانشقاق

٣٨٤

﴿وَاللَّيْلَ وَمَا وَصَىٰ﴾ (٧)

٣٨٤

﴿وَالْقَمَرَ إِذَا أَتَقَىٰ﴾ (٨)

البروج

٦٨

﴿وَمَا تَقْصُرُونَ عَنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمَرُوا..... سُبْحًا﴾ (١)

٢٧٩

﴿وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ﴾ (٢)

٢٧٩

﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ﴾ (٣)

٢٧٩

﴿وَذَرَىٰ وَلَكُذِّبِينَ أُولَىٰ الْقَعَمَةِ وَهَلْكَ قَيْلًا﴾ (٤)

٢٧٩

﴿إِنَّ هَذِهِ تَذَكُّرٌ..... سَبِيلًا﴾ (٥)

٤١٢

﴿رَبِّ الشَّرِيفِ وَالْعَرَبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ (٦)

القيامة

١٦٩

﴿أَتَحْسَبُ الْإِنْسَانَ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ (١)

١٦٩

﴿أَتَحْسَبُ الْإِنْسَانَ أَنْ يَجْمَعَ عِظَامَهُ﴾ (٢)

الإنسان

٤١٠

﴿وَيَطُوعُونَ أَلْفَ طَعَامٍ عَلَىٰ حَبِيبٍ مُشْكٍ وَبَيْتًا وَأَسِيرًا﴾ (٨)

٤١٠

﴿يُؤْفُونَ بِالْأَنْذَرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ (٧)

النبا

٥٠

﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنِ..... خُطَابًا﴾ (٢٧)

٥٠، ٤١٦

﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا..... صَوَابًا﴾ (٢٨)

عبس

٤١٤

﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ﴾ (١١)

الانفطار

٣٠٧

﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ (١١)

٣٠٧

﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ﴾ (١٠)

٣٨٦

﴿يَكَايِبُهُمَا الْإِنْسَانُ مَا عَرَاكَ بِرَبِّكَ..... وَكَذَلِكَ﴾ (٨)

المطففين

٣٠٧

﴿وَبَلِّغْ لِلْمُطَفِّفِينَ﴾ (١)

الانشقاق

٣٨٤

﴿وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾ (٧)

٣٨٤

﴿وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ﴾ (٨)

البروج

٦٨

﴿وَمَا نَقْمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا.....نَجِيدٌ﴾ (١)

٢٧٩

﴿وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ﴾ (٢٠)

٢٧٩

﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ﴾ (١)

الغاشية

٢٨٠

﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْآيِلِ كَيْفَ خُلِقَ﴾ (٧)

الشمس

١٠٣

﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾ (١٥)

الشرح

٥٨

﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ (١)

التين

٣٨٦

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ (١).....﴿بِالَّذِينَ﴾ (٧)

العلق

٤١٥

﴿أَفَرَأَى بِإِنْسَانٍ رَيْبًا مِمَّنْ خَلَقَ﴾ (١).....﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ (١)

البينة

٣٠٦

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ.....الْبَرِيَّةِ﴾ (١)

الزلزلة

٣٠٣، ٣٠٦

﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (٧)

العاديات

٣٠٨

﴿إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ﴾ (١١)

القارعة

٣٠٨

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَ﴾ (١٠)

٣٠٨

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ﴾ (٢)

الماعون

٣١٦

﴿فَذَلِكِ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ الْمَاعُونَ﴾ (٧)

الكوثر

٣١٦

﴿إِنَّا أَنْعَمْنَا عَلَى الْكَوْثَرِ﴾ (١)

(ب) فهرس الأحاديث النبوية

الصفحة	الحديث
٧٦	• ابدأ بنفسك ثم بمن تعول
١٣٣	• اعبد الله كأنك تراه
٤٠٥	• حب الدنيا رأس كل خطيئة
٤٠٣	• خلقتهم ليربحوا على لا لأربح عليهم. «قدسي»
٤١٣	• الصلاة وما ملكت أيمانكم
١٣٢	• لله أقدر عليك منك عليه
٤٠٠	• لو وزن خوف المؤمن ورجاؤه لاعتدلا
١٧٨	• والله لأمثلن بسبعين منهم

ج) فهرس الأشعار

مع البيت	القافية	اسم الشاعر	الصفحة
ديا دعوتك مسمعا	فأثبي	أبو عينة المهلي	٨٨
وإن أحدثوا شغبًا	الشغبُ	-	٢٣٠
أرواحنا ليس ندري	الجثثُ	الفخر الرازي	٣٢
الدين معدود الرواق	مبدؤ	الفخر الرازي	١٦
فدعها وسلّ الهَمَّ	وهجرا	امرؤ القيس	٥٢
علم الأصول بفخر الدين	إعجازِ	الصفدي	١٢
يا بان وادي الأجرع	الأدمع	المغربي	٨٤
يا بان وادي الأجرع	معي	بهاء الدين زهير	٨٤
أيتها النفس أجلي	وقعا	أوس بن حجر	١٠٥
جاءت سليمان الزمان	خاطف	ابن عنين	١٨
تتمة أبواب السعادة	الحقِ	الفخر الرازي	٣١
ريح الشمال عساك	الأفضلي	ابن عنين	٨

	عروة بن أذينة	تجلى	وكل هوى وإن عني
٣٠	الفخر الرازي	ضلال	نهاية إقدام العقول
٥٢	الناطقة الذبياني	اللجما	خيل صيام وخيل
٤٠٨	المتنبي	والدم	وإني لمن قوم
٣٠	الفخر الرازي	الكرم	الحمد لله ذي الآلاء
٣١	الفخر الرازي	والجسم	فلو كانت الأقدار
٣٢	حكيم الشعراء	والبدن	الروح عند إله العرش
٣٢	الرازي	وأحزان	أرى معالم هذا العالم
٣٠	الرازي	وأمان	يا طالب التوحيد والإيمان
٢٥	أبو يعقوب السكاكي	رب العالمين	اعلمها علما يقيناً
٢٥	ابن عنين	أبو علي	غلط امرؤ بأبي علي

د- فهرس المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- «أثر القرآن في تطور النقد العربي»، محمد زغلول سلام- دار المعارف. الطبعة الثالثة د.ت.
- «أحكام القرآن»، لأبي بكر محمد بن عبد الله، ابن العربي. راجعه: محمد عبد القادر عطا- دار الكتب العلمية- بيروت. الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ.
- «أسرار البلاغة»، لأبي بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني. تحقيق: محمود محمد شاكر- مكتبة المدني- القاهرة- جدة. الطبعة الأولى ١٤١٢هـ.
- «الأسس النفسية للإبداع الفني»، مصطفى سويف، دار المعارف - مصر. الطبعة الرابعة ١٩٨١هـ.
- «الإسلام والحضارة العربية»، محمد كرد علي. مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر- القاهرة. الطبعة الثالثة ١٩٦٨م.
- «إشكاليات القراءة وآليات التأويل»، نصر أبو زيد، المركز الثقافي العربي - الدار البيضاء- بيروت. الطبعة السادسة ٢٠٠١م.
- «إعجاز القرآن»، لأبي بكر محمد بن الطيب. تحقيق: السيد أحمد صقر. دار المعارف- مصر. الطبعة الثالثة. د-ت.
- «إعجاز القرآن والبلاغة النبوية»، مصطفى صادق الرافعي - دار الفكر العربي- د.ت.
- «الإعجاز البلاغي»، د. محمد محمد أبو موسى- مكتبة وهبة - القاهرة. الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ.

- «الإعجاز البياني للقرآن»، د. عائشة بنت عبد الرحمن - دار المعارف - مصر. الطبعة الثانية.

- «إعلام الموقعين عن رب العالمين»، شمس الدين محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية. ضبطه: محمد عبد السلام إبراهيم - دار الكتب العلمية - بيروت، ١٤١٧هـ.

- «الإمام فخر الدين حياته وآثاره»، د. علي العماري - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٣٨٨هـ.

- «البحر المحيط»، لأبي حيان محمد بن يوسف الأندلسي. تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلي معوض وشارك فيه زكريا النوفي، وأحمد الجمل. دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ.

- «البحر المحيط في أصول الفقه»، بدر الدين محمد بن بهادر الزركشي. تحقيق: عبد القادر العاني. مراجعة: عمر الأشقر، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية. الكويت، دار الصفوة، الطبعة الثانية ١٤٣٠هـ.

- «البداية والنهاية»، لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الشافعي - مكتبة المعارف - بيروت، الطبعة الأولى ١٩٦٦م.

- «البرهان في أصول الفقه»، إمام الحرمين عبد الملك بن عبد الله الجويني، علق عليه: صلاح محمد عويضة. دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ.

- «البرهان في تناسب سور القرآن»، لأحمد بن إبراهيم بن الزبير الغرناطي. تحقيق: سعيد الفلاح. جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية. الرياض ١٤٠٨هـ. د. ط.

- «البرهان في توجيه متشابه القرآن»، محمود بن حمزة بن نصر. تحقيق: عبد القادر عطا. دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ.

- «البرهان في علوم القرآن»، بذر الدين محمد بن عبد الله الزركشي. قدم له: مصطفى عبد القادر عطا. دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ.
- «بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة»، جلال الدين السيوطي. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. المكتبة العصرية - بيروت. د. ت.
- «البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري وأثرها في الدراسات البلاغية»، د. محمد أبو موسى. مكتبة وهبة - القاهرة. الطبعة الثانية ١٤٠٨ هـ.
- «بلاغة القرآن»، محمد الخضر حسين. طبعة على رضا التونسي ١٣٩١ هـ - د. ط.
- «البلاغة عند السكاكي»، د. أحمد مطلوب. مكتبة النهضة - بغداد، الطبعة الأولى ١٣٨٤ هـ.
- «بيان إعجاز القرآن»، لأبي سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم. نشر - ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن. تحقيق: محمد خلف الله أحمد و د. محمد زغلول سلام. د - ت.
- «البيان والتبيين»، لأبي عثمان عمر بن بحر الجاحظ. تحقيق: عبد السلام محمد هارون. مكتبة الخانجي - القاهرة. الطبعة الخامسة ١٤٠٥ هـ.
- «التاريخ الإسلامي»، الشيخ: محمد شاكر. المكتب الإسلامي - بيروت، دمشق، الطبعة الثانية ١٤٠٥ هـ.
- «تاريخ الحكماء»، جمال الدين أبي الحسن علي يوسف القفطي. مطبعة الخانجي - مصر. د. ت.
- «تاريخ النقد عند العرب»، د. إحسان عباس. دار الثقافة - بيروت، الطبعة الخامسة ١٤٠٦ هـ.
- «تأويل مشكل القرآن»، أبو محمد عبد الله بن مسلم. تحقيق: السيد أحمد صقر. دار التراث - القاهرة، الطبعة الثانية ١٣٩٣ هـ.

- «التيان في علم المعاني والبديع والبيان»، شرف الدين حسين بن محمد الطيبي. تحقيق: د. هادي عطية الهلالي. عالم الكتب - بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ.
- «تراث أبي الحسن الخراساني»، أبي الحسن علي بن أحمد بن الحسين التجيبي. تحقيق: محمادي عبد السلام الخياطي. مطبعة النجاح - الدار البيضاء. الطبعة الأولى، ١٩٩٧ هـ.
- «تشفيف المسامع بجمع الجوامع»، بدر الدين محمد بن بهادر الزركشي. تحقيق: أبي عمرو الحسين بن عمر بن عبد الرحمن. دار الكتب العلمية - بيروت، ١٤٢٠ هـ.
- «درء تعارض العقل والنقل»، لأبي العباس تقي الدين أحمد بن عبد الحلیم. تحقيق: محمد رشاد سالم. جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الطبعة الأولى، ١٣٩٩ هـ.
- «التفسير الكبير»، للإمام فخر الدين محمد بن عمر الرازي. دار إحياء التراث العربي - بيروت. الطبعة الرابعة ١٤٢٢ هـ.
- «التفسير ورجاله»، الفاضل بن عاشور. تونس. الطبعة الأولى، ١٩٦٦ م.
- «التقرير والتحبير»، ابن أمير الحاج الحلبي، ضبطه: عبد الله محمود عمر. دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٩ هـ.
- «التناسب البياني»، أحمد أبو زيد.
- «تناسق الدرر في تناسب السور»، جلال الدين السيوطي تحقيق: عبد الله الدرويش. عالم الكتب - بيروت، الطبعة الثانية ١٤٠٨ هـ.
- «حلية المحاضرة في صناعة الشعر»، لأبي علي محمد بن الحسن الحائمي. تحقيق: جعفر الكتاني. وزارة الثقافة والأعلام - العراق. دار الرشيد - بغداد، ١٩٧٩ م.
- «جامع البيان عن تأويل أي القرآن»، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري. مكتبة البابي الحلبي وأولاده - مصر، الطبعة الثالثة ١٩٦٨ م.

- «الدرر الكامنة في أخبار المائة الثامنة»، ابن حجر العسقلاني شهاب الدين أحمد ابن علي. مجلس دائرة المعارف العثمانية - الهند، الطبعة الأولى ١٣٤٨ هـ.
- «دلائل الإعجاز»، أبو بكر عبد القاهر الجرجاني. تحقيق: محمود شاكر - مكتبة المدني - القاهرة، جدة، الطبعة الثالثة ١٤١٣ هـ.
- «دلالات التراكيب»، د. محمد أبو موسى - مكتبة وهبة - القاهرة، الطبعة السادسة ١٤٢٥ هـ.
- «الرازي مفسراً»، محسن عبد الحميد. دار الحرية - بغداد، ١٣٩٤ هـ.
- «الرسالة»، محمد بن أدريس الشافعي. تحقيق: أحمد شاكر - دار التراث القاهرة، الطبعة الثانية. ١٣٩٩ هـ.
- «روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني»، لأبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الآلوسي. إحياء التراث العربي - بيروت. د. ت.
- «الروض المريع في صناعة البديع»، ابن البناء المراكشي. تحقيق رضوان بشقرون - دار النشر المغربية - الدار البيضاء - ١٩٨٥ م.
- «سر الفصاحة»، لأبي محمد عبد الله بن محمد بن سعيد الخفاجي. تحقيق: عبد المتعال الصعيدي. مكتبة محمد علي صبيح وأولاده، ١٣٨٩ هـ. د. ط.
- «سير أعلام النبلاء»، شمس الدين بن محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي - مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٣ هـ.
- «شذرات الذهب في أخبار من ذهب»، ابن العماد الحنبلي - دار الآفاق الجديدة - بيروت. د. ت.
- «شرح حديث النزول»، ابن تيمية - طبع المكتب الإسلامي - بيروت، ١٣٩١ هـ.

- «طبقات الشافعية»، عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير. تحقيق: عبد الحفيظ منصور. دار المدار الإسلامي - بيروت، الطبعة الأولى ٢٠٠٤م.
- «طبقات الشافعية الكبرى»، تاج الدين أبي نصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي السبكي. تحقيق: محمود محمد الطناحي وعبد الفتاح محمد الحلوة، الطبعة الأولى ١٣٨٣هـ.
- «طبقات الشافعية»، لأبي بكر أحمد بن محمد تقي الدين، ابن قاضي شهبة الدمشقي. صححه: د. الحافظ عبد العليم خان. عالم الكتب - بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ.
- «طبقات المفسرين»، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي. تحقيق: علي محمد عمر مكتبة وهبة - القاهرة. الطبعة الأولى ١٣٩٦هـ.
- "عجائب القرآن"، محمد بن عمر الرازي. دار الكتب العلمية - بيروت، ١٤٠٤هـ.
- «العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده»، لأبي علي الحسن بن رشيق القيرواني. تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد. دار الجيل بيروت. د. ت.
- «عيار الشعر»، لأبي الحسن محمد بن أحمد، ابن طباطبا. تحقيق: عبد العزيز المانع. مكتبة الخانجي - القاهرة. د. ت.
- «عيون الأنباء في طبقات الأطباء»، موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم، ابن أبي أصيبعة. الطبعة الوهبة ١٢٩٩هـ.
- «فخر الدين الرازي بلاغيًا»، ماهر مهدي هلال.
- «الفكر الإسلامي قراءة علمية»، محمد أركون. مركز الإنماء القومي - بيروت، الطبعة الثالثة ١٩٩٦م ترجمة: هاشم صالح.
- «قواطع الأدلة في الأصول»، للإمام أبي المظفر منصور بن محمد السمعاني. تحقيق: محمد حسن الشافعي. دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ.

- «الكامل في التاريخ»، لأبي الحسن علي بن أبي الكرم، المعروف بابن الأثير. راجعه: نخبة من العلماء. دار الكتاب العربي - بيروت، الطبعة الثانية ١٣٨٧هـ.
- «الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل». صححه: مصطفى حسين أحمد. دار الكتاب العربي، ١٤٠٦هـ.
- «كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون»، مصطفى بن عبد الله القسطنطي الرومي، المعروف بحاجي خليفة. دار الفكر، ١٤٠٢هـ.
- «المحرر الوجيز»، للقاضي أبي محمد عبد الحق بن غالب الأندلسي، المعروف بابن عطية تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ.
- «المحصول في علم الأصول»، محمد بن عمر الرازي. علق عليه: محمد عطا. دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ.
- «مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان»، لأبي محمد عبد الله بن سعد بن علي اليافعي اليميني المكي. مؤسسة الأعلمي - بيروت، الطبعة الثانية ١٣٩٠هـ.
- «مراجعات في أصول الدرس البلاغي»، د. محمد أبو موسى. مكتبة وهبة - القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ.
- «معترك الأقران في إعجاز القرآن»، جلال الدين السيوطي. تعليق: أحمد شمس الدين. دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ.
- «المقدمة»، عبد الرحمن بن خلدون. دار الفكر. د. ت.

- «ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيهه متشابه اللفظ من أي التنزيل»، لأبي جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير الغرناطي تحقيق: محمود كامل أحمد. دار النهضة العربية - بيروت ١٤٠٥ هـ.

- «مفتاح الوصول إلى بناء الفروع على الأصول»، لأبي عبد الله محمد بن أحمد التلمساني. تحقيق: عبد الوهاب عبد اللطيف وأبو سعيد النجدي، مكتبة الشروق، ومكتبة العروضي - طنجة، الطبعة الأولى ١٩٩٧ م.

- «المنار»، محمد رشيد رضا - دار المعرفة - بيروت. الطبعة الثانية. د. ت.

- «الموافقات»، أبو اسحاق إبراهيم بن موسى اللخمي الشاطبي. ضبطه: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سليمان. دار ابن عفان - الخبر. الطبعة الأولى ١٤١٧ هـ.

- «منهاج البلغاء وسراج الأدباء»، حازم القرطاجني. تحقيق: محمد الحبيب ابن الخوجة، دار الغرب الإسلامي - بيروت. الطبعة الثالثة، ١٩٨٦ م.

- «مناظرات فخر الدين الرازي»، تحقيق: د. فتح الله خلي. دار الشرق - بيروت.

١٩٦٦ م

- «نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم»، محمد الغزالي - دار الشروق - القاهرة، الطبعة السادسة ١٤٢٤ هـ.

- «نظم الدرر في تناسب الآيات والسور»، لبرهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي. دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الثانية ١٤٢٤ هـ.

- «نقد النص»، علي حرب - المركز الثقافي العربي - الدار البيضاء - بيروت، الطبعة

الثانية ١٩٩٥ م

- «نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز»، فخر الدين محمد بن عمر الرازي. تحقيق: بكري شيخ أمين. دار العلم للملايين - بيروت. الطبعة الأولى ١٩٨٥ م.

- «الوافي بالوفيات»، صلاح الدين خليل بن أبيك الصفدي. أخرجه: هملوت ريتز، الطبعة الثانية. دار النشر فرانز شتايز بقيسباون، ١٣٨١هـ.
- «الوسيط في تفسير القرآن المجيد»، لأبي الحسن علي بن أحمد. تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد معوض وآخرين. دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ.
- «الوسيلة الأدبية إلى العلوم العربية»، حسين المرصفي. تحقيق: د. عبد العزيز الدسوقي. الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩١م.
- «وفيات الأعيان، وأنباء أبناء الزمان»، لأبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان. تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد. مكتبة النهضة المصرية - القاهرة، الطبعة الأولى ١٩٤٨م.

هـ- فهرس الموضوعات

المقدمة..... ٥

التمهيد

(٧٧-١١)

١- المبحث الأول : الرازي حياته وتفسيره..... ١٢

اسمه ونشأته..... ١٢

تصانيف الرازي..... ٣٣

قضية صحة نسبة التفسير..... ٤٠

تفسير مفاتيح الغيب..... ٤٨

٢- المبحث الثاني: النظم والتناسب بين الجملة والنص..... ٦٣

الباب الأول : التناسب في بناء السورة

(٢٨٧-٧٩)

الفصل الأول : التناسب في الفواتيح والخواتيم

(١٧٤-٨١)

صورة عناية الدرس البياني بالمطالع والمقاطع..... ٨٣

شروع مصطلح الفواتيح والخواتيم في الدراسات القرآنية..... ٨٩

وصف بنية السورة بتقسيمها إلى وحدات..... ٩٠

عناية الإمام بتحديد موقع جملتي الفاتحة والخاتمة..... ٩٢

التنبية على علل وضع الأشياء مقدم على دراسة الاعتبارات..... ٩٣

مساحة جملة الافتتاح تخضع لمنهج حسن في الضبط..... ٩٦

التدقيق في تحديد الخاتمة..... ١٠٢

محاور العلاقة بين وحدات السورة..... ١٠٤

- المبحث الأول : التناسب بين الفواتيح والمقاصد..... ١٠٥
- دراسة مكونات الافتتاح وخصوصياتها..... ١٠٦
- حسن الترتيب في الافتتاح منظم لبناء المعاني داخل السورة..... ١١٦
- علاقة الأغراض الفرعية بالافتتاح..... ١٢٣
- تنوع دراسته للفواتيح بتنوع الجملة القرآنية..... ١٢٤
- التشابه في توزيع معاني المطلع مع توزيعها في بناء القصص داخل السورة..... ١٢٧
- المبحث الثاني : التناسب بين الخواتيم والمقاصد..... ١٣٠
- جذر هذا الباب دراسة البلاغيين لموقع الفاصلة القرآنية من معاني الجملة..... ١٣٠
- تنبيهه على أسرار لم يبعثها المفسرون قبله..... ١٣٣
- لم يتجاوز البعض إطار موضوع الخواتيم دون بحث أسرار تعلقها..... ١٣٤
- جملة الختام تذييل لا تستقل بتمام الفائدة إلا بوضعها في محيط معاني السورة..... ١٣٥
- تفقدده للجمل التي ينقطع عندها الكلام..... ١٣٩
- أسرار اختيار نوع الخاتمة باستنفار موقعها في فصول السورة..... ١٤١
- أضرب رد الخواتيم على المقاصد..... ١٤٦
- الضرب الأول : تعليق الخاتمة بجميع عناصر السورة وأغراضها..... ١٤٦
- الضرب الثاني : تنتخب فيه الخاتمة معنى من وسط السورة..... ١٥٤
- الضرب الثالث : تضيف فيه الخاتمة بعداً آخر للمقاصد والأغراض..... ١٥٦
- المبحث الثالث : التناسب بين الفواتيح والخواتيم..... ١٥٨
- التناسب بين الأول والآخر من علم حق المعنى في الدرس البلاغي..... ١٥٨

- ١٥٩..... غموض هذا الباب لتجاوزه الجملة وامتداده في منازل أبعد.....
- ١٦١..... جملة الختام مخاض الابتداء والوسط.....
- ١٦٤..... رد الخواتيم على الفواتيح يحكم تماسك الكلام ويوحد مختلفه.....
- ١٦٥..... وضوح علاقة المصاحبة بين الخواتيم والفواتيح في بعض السور.....
- ١٦٦..... غموض العلاقة بتغير مكونات الخاتمة عن صورتها في الافتتاح.....
- ١٦٧..... غموض العلاقة بالتعويل في الربط على البناء والترتيب دون عناصر اللغة.....
- ١٦٨..... نسب التعالقي بين الخاتمة والفاتحة.....
- ١٦٨..... أولاً : المقابلة.....
- ١٦٩..... ثانياً : التأكيد.....
- ١٧٠..... ثالثاً : التفصيل.....
- ١٧٢..... رابعاً : تكميل المعاني.....

الفصل الثاني : التناسب بين الآيات

(١٧٥-٢٢٦)

- ١٧٧..... استجلاء الإمام لعلاقات الاقتران بين كل الآيات سبب سعة هذا اللون عنده.....
- ١٧٧..... الضبط المحكم لمجال التناسب بدراسة ما وراء الاقتران في غياب الروابط اللفظية.....
- ١٧٧..... البحث في التناسب مع وجود الروابط لا يكون إلا فيما لا تظهر معه مجانسة.....
- ١٧٨..... الترتيب أقوى القرائن في ترجيح المراد.....
- ١٧٩..... ضوابط رد الآيات بعضها على بعض.....
- ١٨١..... ملاحظة تجاوز الآيات تنظيم لعناصر السورة.....
- ١٨٢..... أشكال علاقات الاقتران بين الآيات.....

- أولاً: المقابلة..... ١٨٣
- ثانياً: تكميل المعاني..... ١٨٦
- ثالثاً: زيادة بيان..... ١٩٠
- رابعاً: التفصيل..... ١٩٣
- خامساً: العموم والخصوص..... ١٩٥
- سادساً: التأكيد..... ١٩٦
- سابعاً: السببية..... ١٩٧
- الترتيب بين الآيات ليس لما أشكل فيه وجه التعلق بل هو منهج تحليل..... ١٩٩
- نمو السورة واكتناها بملاحظة اعتبارات اقتران آياتها..... ٢٠٠
- تحديد منطوق الآية لا يكون في غيبة جاراتها..... ٢٠٢
- تنوع مسارات ترتيب الآيات وما وراءه من غزارة..... ٢٠٤
- ترتيب الآية على ما قبلها..... ٢٠٤
- ترتيب الآية وتعليقها بجملتين..... ٢٠٥
- تعليق الآية بآية جذر لما بعدها من آيات..... ٢٠٨
- آيات يجعلها نهاية للمقطع كله..... ٢١٠
- آيات لا تجدد شيئاً ظاهراً ترد إليه فتعلق بالسياق..... ٢١١
- آيات تعلق مرة بما قبلها وأخرى بالغرض الكلي..... ٢١٣
- آيات مرة يجعلها متصلة وأخرى غرضاً مستقلاً..... ٢١٦
- آيات تقع في البين ولها غرض..... ٢١٦

ما ذكره حازم في وجوه التصرف في مقاصد الكلام وجهاته تنظيرًا محكمًا لتحليل الرازي	
لأنواع التعالق بين الآيات.....	٢١٩
التماسك بين الآيات أصبح موضع عناية المتأخرين.....	٢٢٠
تنوع الجهات ولید إعجاز الجملة القرآنية.....	٢٢٠
المعاني الإنتاجية عند البقاعي ربط محكم لمنازل الآيات.....	٢٢٤
لفت الرازي لهذا النوع دون التصريح به.....	٢٢٦

الفصل الثالث: التناسب بين الأغراض داخل السور

(٢٢٧-٢٨٧)

التناسب بين الأغراض كشف عن الهيئات المتصورة من علاقات التحول والاستمرار في	
البنى المعنوية.....	٢٢٩
أصل الأصول في البلاغة الخاصة بالقرآن جمعه وتأليفه للأغراض المختلفة.....	٢٢٩
لم يغفل البلاغيون الإشارة إلى هذا الأصل.....	٢٣٠
استقرار هذا الأصل عند حازم تحت مسمى الأسلوب.....	٢٣٢
إفادة حازم من الرازي تحديد موضوع الأسلوب.....	٢٣٤
التفسير جهد ضخّم في دراسة المعنى.....	٢٣٥
هذا الباب ليس له قانون يحيط به ويحصر أنواع تصاريفه.....	٢٣٥
اتفاق معاني القرآن لا يعني ثبات الدلالة.....	٢٣٦
تحديد مقاطع الكلام للوقوف على النقلة والاستمرار في المعاني.....	٢٣٨
بواعث الاستمرار في الأغراض.....	٢٣٩
النقلة بين الأغراض.....	٢٣٩

- ٢٤١..... النقلة أحياناً تكون بالرجوع إلى الغرض الأصلي.
- ٢٤٢..... نوع تكون فيه النقلة لتناسي المعنى لغرض.
- ٢٤٣..... مقاطع يعيد عندها تنظيم وترتيب الفصول.
- ٢٤٥..... آيات وظيفتها جمع ما تفرق واختلف.
- ٢٤٧..... العناية بوجوه الترتيب داخل فروع الأصل الواحد.
- ٢٥٠..... منهج الرازي في دراسته للتناسب بين الأغراض.
- ٢٥٠..... سورة الفاتحة تمثل النمط الذي يحدد فيه الغرض الكلي ثم تدار عليه الآيات.
- ٢٥١..... سورة البقرة الوصول إلى الغرض من قلب السورة وتحولات بيانها.
- ٢٦٩..... سورة فصلت أنموذج مكتمل لدراسة بناء الكلام بعرضه على بعض.
- ٢٧٥..... نمط التحليل أصل وحدة الكلام.
- ٢٧٦..... مذهب البقاعي في ترتيب فصول سورة فصلت.
- ٢٧٧..... سورة النساء من الكلام الذي يقصد فيه إلى الاختلاف.
- ٢٧٩..... السور القصار تنجرد لغرض محدد.
- ٢٨٠..... تنوع فوائد القصص باعتبار تداخلها مع الأغراض.

الباب الثاني : التناسب بين السور

(٢٨٩-٤١٧)

الفصل الأول : التناسب في ترتيب السور

(٢٩٢-٣٥٠)

- ٢٩٣..... حال التراث في الإبانة عن هذا اللون من الإعجاز.
- ٢٩٣..... غموض هذا اللون سبب في عدم ظهوره مكتملاً ابتداءً.
- ٢٩٧..... سورة محمد بدء الضبط المحكم للتناسب في ترتيب السور.

- الذي فتح للرازي هذا الباب ولعه بالتفتيش في علائق الالتلاف..... ٣٠٠
- مستويات العلاقات في هذا اللون..... ٣٠١
- أولاً : التناسب بين أول السورة وآخر ما قبلها..... ٣٠٢
- تدبر أحوال الإبانة في جملة المطلع والبحث عن تميعة تشي بمعاني السورة السابقة..... ٣٠٣
- تضمن الخاتمة قضايا كلية فيأتي افتتاح ما بعدها جزءاً منها..... ٣٠٤
- نوع تكون فيه الفاتحة إشباع لمعنى الخاتمة في السورة السابقة..... ٣٠٤
- اللف والنشر ضرب من ضروب تنظيم المعاني بين السور أيضاً..... ٣٠٦
- تصريح السورة التالية بتلميح خاتمة ما قبلها..... ٣٠٧
- صور متنوعة للتناسب بين السور..... ٣٠٨
- ما يراعي في مقطع السور السابقة من خصوصيات تمكن لانسلال ما بعدها من تحتها..... ٣١٠
- ثانياً : التناسب بين مقاصد السورة والسورة السابقة..... ٣١٣
- تحقق التناسب والمصاهرة بين السور بإيذان من المقاصد..... ٣١٣
- التفتيش في بنية السورة السابقة عن جهات تتعلق بها لاحقاً..... ٣١٤
- نوع آخر تكون فيه سورة أم تتوالى بعدها عدة سورة متفرعة عنها..... ٣١٩
- مواضع يكتفي فيها بالإشارة إلى علاقات ظاهرة..... ٣٢٠
- ثالثاً : تناسب السورة مع أكثر من سورة..... ٣٢٢
- إعجاز سورة «الكوثر» يبعث السور المحيطة بها..... ٣٢٢
- لام العهد في كلمة «الكوثر» خصوصية هيأت لإجرائها في السور السابقة..... ٣٢٦
- سورة «الكوثر» كالشريان الذي تلتقي عنده جزئيات المعاني..... ٣٢٨

- هذه الصفحات المعدودة كانت موضع عناية العلماء بعده..... ٣٣٠
- فكرة الإمام أصبحت منهجاً في دراسة القرآن عند البقاعي..... ٣٣٠
- تفصيل المتأخرين لهذا الباب فدلوا على مداخل متنوعة للسورة في السورة..... ٣٣١
- البحث في العناصر المؤثرة عندهم فتح الباب لرصد نقاط الالتقاء المتكاثرة بين
السورتين..... ٣٤٣
- اعتبار التناسب بين السور لفت إلى علل تقديم بعض السور ومراتب كل سورة..... ٣٤٤
- قد تقع السورة موقع الجملة المعترضة بين متصلين..... ٣٤٩

الفصل الثاني : التناسب بين السور المتشابهة المطالع

(٣٧٤-٣٥١)

- اختيار المطالع المتشابهة لتحقيق التماسك لأنها الوحدة المشكلة للمقاصد..... ٣٥٣
- قصد المتكلم إلى التشابه للتعليق بين ما تباعد..... ٣٥٤
- الفواتح المبدوءة بالحروف المقطعة..... ٣٦٧
- الإبانة عن حقائقها من خلال رد بعضها على بعض..... ٣٦٩
- تتبع السياقات التي تعقب هذا النوع من التنبيه..... ٣٧١
- رعاية التشابه يمكن تعديته إلى الخواتيم..... ٣٧٤

الفصل الثالث : التناسب على مستوى السياق العام للقرآن

(٤١٧-٣٧٥)

- عمل بعض العناصر والمكونات في الإحالة على مواقع متشابهة..... ٣٧٧
- اتفاق مقاصد القرآن وأغراضه أنتج التشابه..... ٣٧٧
- تعدد أقوال العلماء في تحديد المراد بالتشابه..... ٣٧٨
- تداخل التشابه مع المجل من وجهين..... ٣٧٩

مباحث المتشابه فرع من علم المناسبات.....	٣٨٠
توجيهات الإمام للمتشابه متداخلة مع فن المناسبات مراعية لضوابطه وقوانينه.....	٣٨١
البناء على المعنى بين سور متباعدة خصوصية مستمدة من علم المناسبات.....	٣٩١
الجمع بين معنيين لا يقتضي زيادة في كل سياق.....	٣٩٤
حرص الإمام على اطراد أساليب القرآن واتفاق لغته.....	٣٩٧
العادات الكلامية المطردة مدخل للإعجاز.....	٤٠٠
الإمام يستند في استنباط المعاني التي وراء عادات الترتيب على مواقعها في الأحاديث النبوية.....	٤٠٣
نقل دراسة العادات الكلامية إلى حقل الشعر ليس غريباً عن أصول دراسة الشعر وتحليله.....	٤٠٨
من وجوه تناسب السياق القرآني تلازم المعاني واقتنائها المستمر.....	٤٠٩
إعمال هذا اللون ينتهي بالبلاغة إلى الإحاطة بكل ما صدر عن المبين.....	٤١٤
الخاتمة.....	٤١٩
الفهارس.....	٤٢٣

